

ملحمة السيد
ترجمة: الطاهر أحمد مكي

المشروع القومى للترجمة

ملحمة السِّيد

ترجمة : الطاهر أحمد مكى



٢٠٠٥



المشروع القومى للترجمة

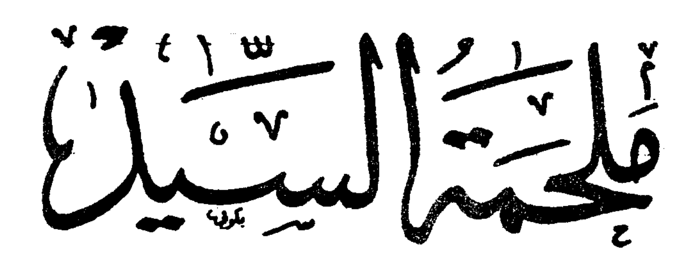
إشراف : **جابر عصفور**

- العدد : ٤٤٧
- ملحمة السيِّد
- الطاهر أحمد مكى
- ٢٠٠٥

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo

Tel. : 7352396 **Fax :** 7358084.



قدّم لها، ودرسها، وترجمها

دكتور الطاهر أحمد مكى

أستاذ الأدب فى كلية دار العلوم - جامعة القاهرة

الطبعة الرابعة

١٩٩٥



● الطبعة الأولى :

أكتوبر ١٩٧٠

● الطبعة الثانية :

يناير ١٩٧٩

● الطبعة الثالثة :

مايو ١٩٨٣

● الطبعة الرابعة :

أكتوبر ١٩٩٥

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

محتويات الكتاب

مقدمة

نهدف من وراء ترجمة هذا النص ودرسه، وهو أقدم نص آدبى كُتِبَ فى اللغة القشتالية، وبالتالى فى الأدب الإسبانى، إلى أكثر من غرض. الإسهام بطريقة إيجابية فى إلقاء بعض الضوء على ما بين الأدب العربى والآداب الأوربية من صلات. ودعوةٌ إلى دراسة الأدب الأندلسى فى ضوء منهجية جديدة متطورة، تدرسه داخل نطاق الآداب التى عايشها على أرض شبه الجزيرة الإيبيرية، فتأثَّر بها، وأثرَّ فيها. ومحاولة لإبداء رأى فيما أتصورُّه خطأ وقعنا فيه، وتسير عليه مدرسة الاستشراق الإسبانية، امتدادا لتقاليد وليدة أيام متخلفة، أعشاها التعصب، وأفسدت أبحاثها الفكرة المسبقة، ولم يعتصم بالحق من علمائها غير القليل.

خطأ الجانب العربى مصدره فكرة تفرض نفسها سلفا على الدارسين بعامة، وفى حقل الأندلسيات على نحو خاص، وَهْمُ أن المسلمين قدموا شبه الجزيرة الإيبيرية بشرا ولغة، فنوناً وعادات، فلم يجدوا أى شىء فوقها، ثم استقروا بمعزل عن غيرهم، وأبدعوا حضارة أزهرت لزمن طويل، لم تأخذ من الأرض التى ترعرعت عليها شيئاً، وأن هؤلاء المسلمين كانوا كل عناصر الحياة، عبر الأندلس كله، وعلى امتداد قرون تسعة، ثم خرجوا بعدها، أو أخرجوا، دون أن يتركوا وراءهم أثراً. وكان الحق شيئاً آخر، فمنذ بداية القرن العاشر أخذت دولة مسيحية، أو دول عديدة، تتكون فى شمال شبه الجزيرة على مهل، وتأخذ أشكالا إدارية وسياسية وحضارية مغايرة للدولة الإسلامية القوية فى الجنوب. وبدأت هذه الدويلات تنمو وتتسع، ويصبح لها أدبها وفنها وحضارتها. وما من شك فى أن المسلمين فى الجنوب كانوا أكثر تقدماً، وأرقى

تحضراً، وأبدع فى مجال الفن، لكن ما من شك أيضاً فى أن التبادل الحضارى بين الجانبين لم يتوقف لحظة واحدة. وأن الأخذ والعطاء كان مستمراً حتى فى أشد ظروف الحرب ضراوة، يعطى المسلمون كثيراً، ويأخذون قليلا، ولكنهم كانو يأخذون على أى حال. وكانت الدولة المسيحية فى الشمال نافذة يطل منها المسلمون فى الجنوب على ألوان أخرى من الحضارة، ربما كانت أدنى مما عندهم، ولكنها تمثّل حضارة متمايزة، وعادات مغايرة، وثقافة تنتمى إلى عالم آخر.

إهمال دراسة الجانب المسيحى، وبخاصة فى الجوانب الأدبية والثقافية والدينية، جعل الدراسات الأندلسية تقليدية. وإذا كنا ندرس الحضارة الأندلسية لذاتها، فنحن ندرسها أيضاً لأنها الرافد الذى عاشت عليه أوربا قبيل نهضتها الأخيرة، وتتبع مساره وما حمل لا يتأتى لنا دقيقاً واضحاً إلا إذا عرفنا **ما الذى كان يحدث فى الجانب المسيحى من الأندلس، ماذا أخذوا عن** مواطنيهم المسلمين وما الذى أعرضوا عنه، ماذا كان عندهم من أشكال أدبية رومانية أو يونانية أو جرمانية، لم يحاول المسلمون أن يفيدوا منها، أو حاولوا وأخفقوا، وما الذى اقتبسوه منهم، أو قلدوهم ونجحوا فى التقليد. والنص الذى بين أيدينا ليس هو النص الأدبى الوحيد الذى يعرض لقضية إسلامية مسيحية مشتركة، وأبطاله ومسرح أحداثه من الجانبين.

وأكثر من ذلك، ثمة نصوص عربية كثيرة ضاعت، أو تعتبر ضائعة حتى الآن، ثم وصلتنا أصولها مترجمة إلى إحدى اللغات الرومانثية التى كانت تشارك اللغة العربية حياتها على امتداد شبه جزيرة إيبيريا، ولعل أشد النصوص إيحاء وطرافة، قصيدة شعرية تبكى سقوط بلنسية فى يد السِّيد، ضاع أصلها العربى، ووصلتنا فى اللغة القشتالية فى صور ثلاث : منثورة فى عامية أهل الأندلس

العربية، ورُسِمت فى حروف لاتينية، وهى ظاهرة فـريدة قلما نجـد لهـا مثيـلا فى العصر الوسيط، ثم ترجمة إسبانية لها كُتبت فى نثر قشتالى جميل، وأخيراً تُـرجمت شعراً، فى قصيدة شعبية جميلة، وأرجح أنها كانت تُغَـنَّى، وشـاعت على أفـواه الناس، واحتفظت بها الذواكر لأمد طويل، وظلَّـت تنتقـل روايـة على امتـداد خمسة قرون أو تزيد، حتى جاءت المطبعة إلى الأندلس فى النصـف الثـانى مـن القرن الخامس عشرَ، مع أيام الإسلام الأخيرة، فـطبعت مـع مجمـوعة مــن القصائد الشعبية، وكلها تدور حول السِّيد[1]. إن الأخذ والعطاء بين الجـانبين كان على أى حال أوسع وأعظم مما نتصور بكثير.

كان الإسبان ومازالوا، أكثر منا معـرفة بحقـائق الأشـياء فى الجـــانبين الإسلامى والمسيحى، وإجادة اللغة العربية ضرورة تقتضيها طبيعـة المنهـج، لمن يريد أن يتصدى للدراسات الأندلسية عندهم فى أى جانب منها، وإلى حدٍّ مـا لمن يريد أن يتخصص فى دراسة تـاريخ إسـبانيا الحـديث، أو بعض قـطاعات الأدب المعاصر أيضاً. ولتحقيق هذا الغـرض، أصـبحت اللغـة العـربية، إلى جانب اللغة اليونانية القديمة، واحدة من اللغتين اللتين يجب على كل طالب فى الدراسة العامة لكليات الآداب، ومـدتها عـامان، أن يُـلم بــواحدة منهما على الخيار. ثم تُدرس بعد ذلك تخصصاً، فى أقسام مسـتقلة، تنهض عليهـا وتعـنى بها، أدبا وتاريخا ولغة وفلسفة وتشريعاً، وتخـدم بقيـــة الـــدراسات الأخـــرى، المرتبطة بفهم الإسلام وحضارته. وتوجد هذه الأقسام فى عـدد مـن الجـامعات الكبرى، أوضحها أقسام اللغة العـربية فى كليـات الآداب بجـامعات مــدريد وغرناطة وبرشلونة وأليكانتى. وإلى جانب هـذه الـدراسات الجـامعية أنشـأت

---

(١) انظر: د. الطاهر احمد مكى، دراسات أندلسية فى الأدب والتاريخ والفلسفة، الطبعة الثانية، دار المعارف ١٩٨٣، الفصل: «مرثية بلنسية ضائعة».

الحكومة الإسبانية عام **١٩٣١** مدرسة الدرسات العربية Escuela de Estudios Arabs فى كل من مدريد وغرناطة، للأبحاث المتخصصة العالية، وعنها كانت تصدر **مجلة الأندلس Al-Andalus**، وتتمتع بشهرة عالية مرموقة، ومكانة دولية ممتازة، وظلت تواصل صدورها بانتظام مرتين فى العالم، إلى أن توقفت عام ١٩٨٠، وحلت مكانها أخرى تحمل اسم **القنطرة.**

ومثل هذا الفهم الذكى لم يغب عن **مصر** العظيمة أيضاً، فأنشأت المعهد المصرى فى مدريد عام ١٩٥٠، تحاول معه وبه أن تجعل من الدراسات الأندلسية عملا علمياً له منهج، ويجرى وفق قواعد وأصول، غير أن المعهد المصرى لم يستطع أن يؤدى شيئاً من الرسالة المرجوة منه، لأسباب لا سبيل إلى بسطها فى هذا المكان.

لكى نؤرخ للأندلس، أو ندرس أدبه، أو نتتبع روافد حضارته فيما وراء جبال البرانس، لابد من معرفة اللغات التى عايشت العربية هناك زمناً، والبشر الذين ناكبوا المسلمين، وأن نضع تحت تصرف الباحث المتخصص الكتب والمجلات، مما ينشر فى العالم الذى يتحدث الإسبانية، وهو أوسع من إسبانيا وأضخم، لأنه يشمل قارة كاملة، ومصر الرائدة لها دور كبير ينتظرها فى هذا المجال.

والخطأ الثانى، ويشترك فيه الإسبان والعرب على السواء، هو القول بأن الصراع الذى دار على بطحاء الأندلس كان بين العرب والإسبان. وهو زعم بعيد عن الحقيقة، فلم تكن ثمة قومية عربية، ولم يكن المرء ينتمى إلى العرب كجنس، ولعل هناك من كان ينتمى إلى قبيلة، وليس إلى قوم لهم خصائص وصفات. ولم تكن القومية الإسبانية قد وجدت، وكلمة إسبانيا بمعنى دولة لم تعرف إلا فى زمن متأخر جداً ربما فى أواخر القرن الخامس عشر، أما قبله

فكانت تعنى امتدادا جغرافيا، مكانا محدداً من الأرض، وملحمة السِّيد على امتدادها، وما فيها من حروب وصراع بين المسلمين والمسيحين، لاتأتى على كلمة إسبانيا إلا ثلاث مرات، وأكاد أشك أنها من إضافات النساخ.

ولم يكن سكان الأندلس عربا بالدم، وإنما كانوا خليطاً عجيباً لا يمثل العرب فى داخله إلا اليسير، أما الكثرة الغالبة فكانت تنتمى إلى أقوام آخرين، من قوط ولاتين وفينيقيين، أو من بربر وأفارقة وصقالبة، ولم يكن الأندلس مستعمرة تابعة للخليفة فى دمشق إلا على امتداد خمسة وأربعين عاما فحسب، وفيما بعدها كان دولة مستقلة، وتحكم جانباً من شمال أفريقية أحيانا، وليس يهم كثيراً أن تكون الأسرة الحاكمة أجنبية جاءت من خارج شبه الجزيرة، فمثل هذا العمل كان مقبولا وشائعاً فى العصور الوسطى وما بعدها، وأغلب الأسرات الملكية التى كانت تحكم أوربا قبيل الحرب العالمية الأولى كانت تنتمى، فى الأصل، إلى شعوب غير التى يقومون عليها ملوكا. ولم يكن **لذريق** ملك إسبانيا قبل الفتح الإسلامى بأكثر إسبانية من **عبد الرحمن الداخل**، أو **عبد الرحمن الناصر**، أو **المنصور بن أبى عامر**، نعم كانت اللغة العربية تزاحم الرومانثية فى ألسن الناس، واللاتينية فى الكتابة والتسجيل، وتتقدم دونهما فى مجالات الثقافة والأدب والتعبير الجميل، وكان الإسلام دين الدولة والغالبية، لكننا سنرى بعد قليل أن المسيحية أيضاً بدأت تتبلور فى شكل دولة أو دويلات، وأن الصراع على امتداد القرون التسعة، وحتى أزيد قليلا، لم يكن بين العرب والإسبان، وإنما كان بين الأندلسيين المسلمين والأندلسيين المسيحيين، ولقد كان الأندلسيون المسيحيون يعرفون أنهم يقاتلون شركاء لهم فى الوطن يختلفون معهم فى الدين، وعندما ما تعرض الأندلس لهجوم المرابطين ثم الموحدين من بعد، رسم المسيحيون سياستهم لإجلاء هؤلاء القادمين، لينفردوا وحدهم بالمسلمين الأندلسيين ما فى ذلك

شك، فإذا لم يكن إلى ما يريدون سبيل فلا بأس من دعم المسلمين الأندلسيين، ليثبتوا فى وجه المسلمين القادمين من وراء المضيق. وعندما كانت تخف قبضة رجال الدين المسيحيين، أو يظهر على المسرح السياسى ملك مسيحى مهاب، تبدو هذه الفكرة أشد ما تكون وضوحاً، لقد كان **ألفونسو السادس** يردد فى رسائله ومكاتباته أنه : « ملك الملتين، وسيد الديانتين »، ويطمح أن يكون كذلك.

كان المسلمون والمسيحيون فى الأندلس يختلفون ظاهراً، أما فى العمق فبينهما الكثير المشترك. كلاهما كان فاسداً وغادراً وقاسياً، وإذا كان المسلمون لا يكادون يهتمون بتطبيق نصوص الشريعة فى الحياة العملية، ويفضلون استشارة المنجم على الفقيه، فقد كان بين المسيحيين من لا تعنيه الكنيسة، ويدير ظهره للقسيس، وإذا كان بين المسلمين من لا يجد غضاضة فى أن يقاتل تحت راية قائد مسيحى، مأجوراً أو هاويا، فقد كان هناك من المسيحين أيضاً من لا يجد حرجا فى أن يقاتل تحت راية مسلم، وضد شريكه فى الدين.

أما تصوير العرب بأنهم غزاة، وأنهم احتلوا إسبانيا، وأقاموا فيها محتلين، حتى جمع الإسبان شملهم وألقوا بهم فى البحر، فشىء صنعه رجال الدين الكاثوليك فيما بعد انتصار المسيحيين على المسلمين، عندما نشأت القوميات فى أوربا، ولم يعد الدين يلعب الدور الأول، وغير كاف وحده لإثارة العامة، فاقتضى سد المنافذ أمام الإسلام بوصفه ديناً، أن يصور للجماهير على أنه دين العرب المستعمرين. وأرضت الفكرة، وصيغت فى مهارة فائقة، الغرور العربى فاطمأن إليها، وانساقت البقية وراء المغرورين جهلا. والحق أن من يتتبع تاريخ الأندلس أيام المسلمين، فسيجد الصراع بين الطوائف، عنصرية أو طبقية أو دينية، لم يتوقف لحظة واحدة، لا عند المسلمين ولا عند المسيحيين.

وفى إسبانيا المسيحية ازداد الصراع حدة وعنفاً، فلم يكد يتوفى **فيليب الثانى**، أكبر ملوك إسبانيا بعد إجلاء المسلمين، حتى سقطت فى حروب أهلية متصلة، وكانت بين الإسبان أنفسهم، وكلهم من الكاثوليك. والحرب الأهلية آخر ما نعرفه من ألوان هذا الصراع، وامتدت طيلة أعوام أربعة، من **١٩٣٦** إلى **١٩٣٩**، وخسر فيها الإسبان قرابة مليون من البشر، إلى جانب ما أصاب كل مرافق الحياة من تخريب وتدمير، كانت لونا من صراع العصور الوسطى بين المسلمين والمسيحيين فى الأندلس، غير أنها جرت هذه المرة تحت شعار الجمهوريين والملكيين، بين دعاة سلطان الكنيسة والمناهضين له.

لقد كان الصراع فى الأندلس بين المسلمين والمسيحيين، وكلا الجانبين ينتميان إلى وطن واحد، وإن فرقت بينهما العقيدة، وانتهى الصراع لصالح الطرف الأخير، وكان سقوط الإسلام الأندلسى، إلى جانب صقلية، الاستثناء الوحيد من القاعدة التى تقرر «حيثما انتشر الإسلام استقر إلى الأبد».

لم يكن القصد من الترجمة التى قمت بها للملحمة، أن أقدم نصاً أدبياً رقيقاً وجميلا ومثيراً، وإنما كانت الغاية أن أضع بين يدى القارىء العربى الذى لا يعرف الإسبانية، أو يعرفها معرفة متواضعة، أو يجيدها والنص لا يتوافر له، وثيقة ذات أهمية قصوى، تعين الباحث على تفسير ظواهر كثيرة، وتثير فى أعماق الدارس لتاريخ الأندلس وأدبه أكثر من سؤال. ومن ثم عمدت إلى الترجمة المباشرة من اللغة القشتالية، وفيها كتبت الملحمة أصلا، فلم تكن اللغة الإسبانية قد وجدت بعد، ولم أستخدم النصوص الإسبانية الحديثة التى عمدت إلى النص القشتالى القديم، فكتبته فى اللغة السائدة الآن شعراً أو نثراً، لأن الأدباء المحدثين كانوا يتجاوزون النص القديم، فى مواضع كثيرة، زيادة أو نقصاً، جريا وراء الجملة الجميلة، أو استجابة لدواعى العروض والقافية، والشعر الإسبانى يعرفهما ويقدرهما ويحرص عليهما، أو لاعتبارات سياسية. مثلا

الطبعة التى أصدرتها دار الشباب Editorial Juventud فى برشلونة، وهى من كبرى دور النشر فى إسبانيا، وتتبع الكنيسة الكاثوليكية، فى سلسلة كتاب الجيب، وصدرت الطبعة الأولى منها عام ١٩٦٨، فى طبعة أنيقة ورخيصة، وتضم النص القديم وهو فى اللغة القشتالية، إلى جانب النص الحديث وصاغه **ألبرتو منَينت** Alberto Manent فى شعر إسبانى حديث رقيق وعذب، ومهدَّ لها بدراسة مركزة ومفيدة **دمسو ألونسو** Damaso Alonso، رئيس المجمع اللغوى الإسبانى، وقدم لها أستاذ آخر للأدب بترجمة مختصرة عن حياة السيد، وتولى فنّان توشيتها بالرسوم. حشد من الأساتذة يجعلها أكثر من غيرها انتشاراً وقبولا، غير أن الكنيسة الكاثوليكية وتجمعها مع الصهيونية العالمية الآن مصالح مادية كثيرة ومعقدة، جعلت الشاعر الحديث، أو عمد هو فهما منه دون طلب مقصود، يحذف من بيت الشعر الذى يتحدث عن صلب المسيح كلمة اليهود، فى أرق قصيدة تتضمنها الملحمة، لأنها صلاة مسيحية خاشعة، كان النص الأصلى يقول :

بعثت أليعازر من قبره	لأنّ هذه كانت إرادتك
وتركت اليهود يأخذونك	.إلى ما يسمى بجبل جلجلة
وفى جلجلة وضعوك	على الصليب وتركوك تموت

فحذف كلمة اليهود من البيت الثانى، واستعاض عن الاسم الظاهر بضمير الغائب، وهو ما يجعل الفعل فى معنى المبنى للمجهول، فلا يعرف القارىء على من يعود، لقد أصبحت الأبيات :

وتركتهم يأخذونك إلى جلجلة، وهناك اقتربوا منك.

وحملوك إلى جبل جلجلة، وهناك مت على الصليب[1].

---

(١) القصيدة رقم ١٨.

غير أن النص القشتالى رغم كل الحواشى المفسرة التى ألحقها به العالم الإسبانى **رامون منندث بيدال Ramon Menéndiz Pidal** ، كان يبدو فى بعض اللحظات غامضاً غير مفهوم، حتى على العالم اللغوى الكبير نفسه، ومن ثم كان بين يدى وأنا أترجم، غير النص الشعرى الذى أشرت إليه سابقاً، الترجمة النثرية التى قام بها الأديب المكسيكى الشهير **ألفونسوريس Alfonso Reyes**، وترجمة نثرية جاءت فى شكل قصة قام بها **أنخل بيارتا Angel Villarrta**. ورأيت أن أفيد من التراجم الأجنبية التى التقت لغاتها مع اللغة القشتالية فى العصر الوسيط، فكان لدى منها آخر ترجمة فرنسية للملحمة، من عمل **أوجين كولر Eugéne Kohler** وصدرت فى باريس عام ١٩٥٥، ثم الترجمة البرتغالية وقام بها **ألفونسو لوبث فيرا Alfonso lopez Vieira**، وصدرت فى لشبونة عام ١٩٢٩، وكلها أعانتنى على الفهم، ولكنها لم تصبح بديلا عن النص الأصلى أبدا.

فيما يتصل بالأسماء الأندلسية المسيحية الواردة فى الملحمة، ولمعظمها صور عربية قديمة، آثرت أن أكتبها فى صورتها القديمة، أما الأسماء التى لم ترد فى المراجع العربية، ولها أكثر من صورة نطق فى الإسبانية، فقد تخيرت أسهلها وأقربها إلى الأذن العربية، وأيًّا ما كان الأمر فعند دراستى لأبطال الملحمة، أو فى المعجم الجغرافى للأمكنة وسألحقه بآخر الكتاب، سآتى على الصور المتعددة، فى أشكالها المختلفة. كذلك أبقيت على الألفاظ العربية التى استخدمها الشاعر فى الملحمة، فى صورتها الأصلية، كلما كان ذلك ممكنا، رغم أنها غير معهودة فى العربية المعاصرة، أو عربية المشرق، لكى يبقى طابع التأثير العربى فى ألفاظ الملحمة ملموساً واضحاً.

وشخصية السيد فى التاريخ تختلف عنها فى الملحمة، على نحو ما سنرى فى الدراسة والنص، ومن الواضح أن الشاعر الجوال - أو الشعراء - الذى قال

الملحمة كان مسيحيا، ولو أنه دون ما شك كان يعرف اللغة العربية، ويعيش بين المسلمين، ومن ثم فهو يلتزم وجهة النظر المسيحية، وحاول أن يصنع من السيد بطلا مسيحيا كاملا، ولم يكن السيد كذلك لا واقعاً ولا تاريخاً، ولكنك لا تجد فى الملحمة كلمة واحدة تنضح حقداً على المسلمين، وهى بهذا أكثر وفاء للواقع، **حين تصور ما كان من علاقات بين المسلمين والمسيحيين.**
ولوضع السيِّد فى مكانه الحق من التاريخ كانت الدراسة التى سبقت النص بجوانبه المختلفة، وإذا كانت مصادرى فى جلها أجنبية، وإمكانيات الطباعة لا تتيح لى أن أرد كل خبر إلى مصدره، فقد ألحقت بآخر الكتاب قائمة بالمصادر التى رجعت إليها. ولكنى أود أن أشير هنا، وعلى نحو خاص، إلى عالمين جليلين : أما أولهما فالعالم الإسبانى **رامون منينديث بيدال (١٨٦٩ - ١٩٦٩)**، ومؤلفاته ودراساته عن السيد، وعن الأندلس فى العصر الوسيط، وعن اللغات الرومانثية وما يتعلق بها، لا تقع تحت حصر، وتتدرج بين الموضوعية الجادة، والانعطاف القومى المعتدل، غير أن الحياد العلمى فى دراساته أوضح من أى اتجاه آخر.

وأما الثانى فهو المستشرق الهولندى **رينهارت دوزى** **Reinhart Dozy** (١٨٢٠-١٨٨٣)، ووقف حياته وعلمه وقلمه على الأندلس، ودرس أحداثه ورجاله بروح متعاطفة، ولكنها معتدلة وموضوعية، وأفدت كثيراً من دراساته، ويهمنى أن أشير بنوع خاص إلى كتابه : «أبحاث عن تاريخ إسبانيا وأدبها خلال العصر الوسيط Recherches sur L´Histoir et la Littérature de l´Espagne, Pendan le moyen age.

ويقع فى مجلدين، والطبعة التى أفدت منها هى الثالثة، وصدرت فى ليدن - هولندا، عام ١٨٨١.

لقد تُرجمت هذه الملحمة إلى كل لغات العالم الحية، وترجمتها إلى اللغة العربية تفرضها ضرورات أدبية وتاريخية، وتجعل منها واجبا ملحا. ورغم هذا فقدت ترددتُ طويلا أمام ترجمة هذا النص، وأمام الدراسة التى سبقته، لأن القاهرة فقيرة للغاية فى المصادر والمراجع التى باللغة الإسبانية، لكن التراجع أمام الصعاب يعود بنا القهقرى، أو يجمد حركتنا، فلا نمضى خطوة إلى الأمام، ومن ثم آثرت أن تخرج على النحو الذى يجدها القارىء عليه، ومع الزمن أمضى بها أنا، أو غيرى، إلى ما هو أكمل وأوفى. وحسبى أننى ما أبقيت من جهدى شيئاً.

والله الموفق للصواب.

٣ شارع مصدق - الدقى
الجيزة - مصر
١٤ من رجب ١٣٩٠ هـ
١٥ من سبتمبر ١٩٧٠ م

الطاهر أحمد مكى
ت ٣٦١٣٣٠٦
٣٤٧٩٣٩٢

تمهيد

حققت حملة المسلمين فى شبه الجزيرة الإيبيرية فى مطلع القرن الثامن الميلادى انتصارات حربية ذات طبيعة فذة، وفتح انهيار المملكة القوطية بعد ضربات سريعة، حاسمة ومتلاحقة، ورغم جيوشها الكثيرة العدد، أمام القلة **المهاجمة من المسلمين، الطريق لمزيد من الأقاصيص والأساطير، تتخذ من الحقائق** مادتها، ولكنها تضيف إليها من خيالها الشعبى الشىء الكثير، ومع امتداد الزمن، والاعتماد على الذاكرة، تنوسيت حقائق التاريخ أو جلها، ومع تناسيها كان الخلق الشعبى يتولى نسج الوقائع، ورسم الشخصيات، وبناء الحوار، وهو فى ذلك يستجيب لرغائب الناس أكثر مما يحرص على صحة الأحداث، فقد كانت القصة تنشد تسلية، أو استثارة، ومن ثم كان القاص أو المنشد أو الشاعر، يرعى هذا الجانب فى مستمعيه، شيوخا أو شبابا، مسلمين أو مسيحين، محافظين أو متحررين، رجالا أو نساء عربا أو بربرا أو لاتين ، وما يثير ويحظى بإعجاب أى واحد من هؤلاء غير ما يعجب الآخرين.

كانت أقاصيص الفتح الأولى تدور حول ما لقى المسلمون من غنائم، وما حازوا من تحف وثروات، **فطارق بن زياد عندما فتح مدينة طليطلة** وجد فيها جواهر ثمينة، منها مائة وسبعون تاجا من الدر والياقوت والأحجار النفيسة، وإيوانا ممتلئاً بأوانى الذهب والفضة، وبلغ من سعة الإيوان وعرضه أن الخيل تستطيع أن تجرى فيه بفرسانها، وغير ذلك كثير، أصابه ملوك الأندلس القدامى غنيمة من بيت المقدس، حين حضروا فتحها مع **بختنصر** ومثله مما كانت الجن تأتى به لنبى الله **سليمان**. وحاولت كذلك أن تملأ عن طريق الخيال الفجوات التاريخية التى صاحبت عملية الفتح وانتهت بانتصار

المسلمين. كان جيش المسلمين فى البدء بقيادة **طارق** لا يتجاوز اثنى عشر ألف جندى، وكان جيش **لذريق** Rodrigo فى مائة ألف أو يزيد، وليس مهما أن يكونوا كذلك حقا، وإنما المهم أن المحاربين تصوروهم فى هذا العدد، وكان جيش المسلمين مهاجماً، وجيش القوط مدافعا، والمسلمون يقاتلون على أرض يجهلونها، والقوط فى بلدهم يعرفون دقائقها وخفاياها، ومع ذلك انتصر المسلمون وهزم القوط، فعجزت العامة عن تفسير أسباب النصر والهزيمة علمياً، وردها إلى أسبابها السياسية والاجتماعية، فاستعاضوا عن ذلك بالخيال والأساطير.

قالوا فى تفسير مساعدة **يوليان** Julian حاكم **سبتة** الإسبانى للمهاجمين المسلمين وحقده على رئيسه الملك القوطى **لذريق**، إن الأمراء الإسبان قبل الفتح الإسلامى درجوا، طبقاً لعادة متبعة، على إرسال أطفالهم إلى قصر الملك فى **طليطة**، لينشأوا على طاعته، ويتأدبوا بأدبه، ويكونوا فى خدمته، فإذا كبروا أنكح بعضهم بعضا، وحمل مهورهم، وتولى تجهيز إناثهم، استئلافا لآبائهم، وضمانا لولائهم، فاتفق أن **يوليان** أرسل بابنته، وكانت كريمة عنده، أثيرة لديه، فلما كبرت تكشفت عن جمال بارع، وفتنة آسرة، فلما وقعت عليها عين لذريق أعجبته، وهام بها حبا، ولم يملك نفسه حتى استكرهها وافتضها، فاحتالت حتى أعلمت أباها بذلك سرا، بمكاتبة خفية، فأحفظه شأنها، واشتدت حميته، وأقسم ليزيلن ملك لذريق وسلطانه، ثم عبر المضيق فى ديسمبر أصعب أوقات الشتاء، فصار بالأندلس، وبلغ **طليطلة**، ولقى الملك، فأنكر عليه مجيئه فى مثل ذلك الوقت، وسأله عما لديه، وما جاء فيه، ولم جاء فى مثل وقته؟ فذكر خيراً، واعتل بذكر زوجته، وشدة شوقها إلى رؤية بنتها التى عنده، وتمنيها لقاءها قبل الموت، وإلحاحها عليه فى إحضارها، وأنه أحب إسعافها، ورجا بلوغها أمنيتها، وسأل الملك إخراجها إليه، وتعجيل إطلاقه

للمبادرة بها، ففعل ،وقد توثق من الفتاة بالكتمان، وأفضل على أبيها، فانقلب عنه عائدا إلى سبتة. وذكروا أن **لذريق** حين ودع يوليان قال له : إذا قدمت علينا فى المرة التالية فتخير لنا من الصقور التى لم تزل تطرفنا بها، فإنها آثر جوارحنا إلينا، فقال له : أيها الملك، وحق المسيح لئن بقيت لأدخلن عليك صقوراً ما دخل عليك مثلها قط، يعرّض بالذى أضمره من السعى فى إدخال رجال العرب عليه، وهو لايفطن. ولم يكد **يوليان** يعود إلى **سبتة** حتى لقى **موسى بن نصير** حاكم شمال إفريقية من قبل الخليفة الأموى، وكلمه فى غزو الأندلس ووصف له حسنها وفضلها، وما جمعت من أشتات المنافع، وأنواع المرافق، وطيب المزارع، وكثرة الثمار، وثرارة المياه، وهوّن عليه مع ذلك حال رجالها. .

ذلك هو مجمل القصة كما أوردته كتب التاريخ العربية، وبديهى أنها تجنبت الدخول فى التفاصيل العاطفية التى يسرف الخيال الشعبى فى تصويرها، ووجودها فى أكثر من مصدر يوحى بأن شيئا ما من القصة حدث فعلا، لكن الذى لا شك فيه أنها لم تكن السبب وراء غضب **يوليان**، فمثل هذا العمل لم يكن مستكرها إذ ذاك فى أوساط الطبقة العليا، ولم يكن ينظر إليه باشمئزاز على النحو الذى تراه عليه الطبقة الوسطى أو الجانب المحافظ منها، فى عصرنا الحاضر، ولا أظن الطبقة العليا فى أيامنا هذه، أو ما قبلها، ترى فيه إثما كبيراً، أو جرما خطيراً، يستأهل أن تقوض من أجله مملكة، وأن يخون فى سبيله حاكم وطنه. وأيا ما كان الأمر فقد أصبحت القصة، وخاصة فى اللغة الإسبانية فى العصر الوسيط ومطلع الحديث. نبعا فيّاضا يغترف منها القصاص، فصيغت منها وحولها روايات كثيرة شعبية مجهولة المؤلف، أو كتبها أدباء معروفون، ومنذ ذلك التاريخ شهرت **بنت يوليان** باسم **La Cava** تحريفا للكلمة العربية « القحبة al Cahba ».

وأرجعوا أسباب الانتصار إلى قوى خفية، وعادوا بها إلى زمن سحيق جداً، زعموا : «أن **اليونان** كانوا يسكنون بلاد الشرق قبل عهد الإسكندر فلما ظهرت **الفرس**، واستولت على البلاد، وزاحمت **اليونان** على ما كان بأيديهم من الممالك، انتقل **اليونان** إلى جزيرة الأندلس لكونها طرفا فى آخر العمارة، ولم يكن لها ذكر إذ ذاك، ولا ملكها أحد من الملوك، ولم تك عامرة، وكان أول من عمر فيها واختطها أندلس بن يافث بن نوح، فسُميِّت باسمه، ولما عمرت الأرض بعد الطوفان كانت الصورة المعمورة عندهم على شكل طائر، رأسه المشرق، ورجلاه الجنوب والشمال، وما بينهما بطنه، والمغرب ذنبه، وكانوا يزدرون المغرب لنسبته ألى أخس أجزاء الطير. وكانت اليونان لاترى فناء الأمم إلا بالحروب، لما فيها من الإضرار والاشتغال عن العلوم، وكانت عندهم من أهم الأمور، فلذلك انحازوا من بين يدى الفرس إلى الأندلس، فلما صاروا إليها أقبلوا على عمارتها، فشقوا الأنهار، وبنوا المعاقل، وغرسوا الجنان والكروم، وشيدوا الأمصار، وملأوها حرثا ونسلا وبنيانا، فعظمت وطابت، حتى قال قائلهم لما رأى بهجتها : إن الطائر الذى صُوِّرت هذه العمارة على شكله، وكان المغرب ذنبه، لابد أن يكون طاووسا، لأن معظم جمال الطاووس فى ذنبه».

«اغتبط **اليونان** بالأندلس، واتخذوا من **طليطلة** دار الحكمة وعاصمة الملك، لأنها أواسط البلاد، وكان أول ما يشغلهم تحصينها عمن يتصل به خبرها من الأمم، فنظروا فإذا هو لا يحسدهم على رغد العيش إلا أرباب الشقاء والشظف والتعب، وهم يومئذ طائفتان : العرب والبربر، فخافوهم على جزيرتهم العامرة، فعزموا على أن يتخذوا لهذين الجنسين من الناس طلسما، فرصدوا لذلك أرصادا. ولما كان البربر بالقرب منهم، وليس لهم سوى تعدية **البحر، ويرد عليهم منهم طوائف منحرفة الطباع، ازدادو منهم نفوراً، وكانوا** أكثر تحذراً من الاتصال بهم نسبا أو مجاورة، حتى ثبت ذلك فى طبائعهم،

وصار بعضه مركبا فى غرائزهم، فلما علم البربر عداوة أهل الأندلس، وبغضهم لهم، أبغضوهم وحسدوهم، فلم تجد أندلسيا إلا مبغضا بربريا، وبالعكس. إلا أن البربر أحوج إلى أهل الأندلس لوجود بعض الأشياء عندهم، وفقدها ببلاد البربر».

«وكان بنواحى غرب الأندلس ملك يونانى، بجزيرة يقال لها **قادس Cadiz**، **وكانت له ابنة غاية فى الجمال، فتسامع بها ملوك الأندلس**، وكانت الأندلس كثيرة الملوك، لكل بلدة أو بلدتين ملك، فخطبوها، وخشى أبوها إن زوجها من واحد أسخط الآخرين، فتحير، وأحضر ابنته، وكانت الحكمة مركبة فى طباع القوم ذكورهم وإناثهم، ولذا قيل: الحكمة نزلت من السماء على ثلاثة أقوام من أهل الأرض: فى أدمغة اليونان، وأيدى أهل الصين، وألسنة العرب. فقال لها: يابنية!، إنى أصبحت على حيرة فى أمرك ممن يخطبك من الملوك، وما أرضيت واحدا إلاأسخطت الآخرين فقالت له: اجعل الأمر إلى تخلص، فقال: وما تقترحين؟ فقالت: أن يكون ملكا حكيما، فقال نِعْمَ ما اخترته لنفسك، فكتب فى أجوبة الملوك الخطّاب، أنها اختارت من الأزواج الملك الحكيم، فلما وقفوا على الجواب سكت من لم يكن حكيما. وكان فى الملوك الخاطبين حكيمان، فكتب كل واحد منهما: أنا الملك الحكيم، فلما وقف على كتابيهما بقى الأمر على إشكال، وهذان ملكان حكيمان، أيهما أرضيت أسخطت الآخر. فقالت سأقترح على كل واحد منهما أمراً يأتى به، فأيهما سبق إلى الفراغ مما التمست كنت زوجته، قال: وما الذى تقترحين عليهما؟ قالت إنّا ساكنون بهذه الجزيرة ومحتاجون إلى رحى تدور بها، وإنى مقترحة على أحدهما إدارتها بالماء العذب الجارى إليها من ذلك البر، ومقترحة على الآخر أن يتخذ لى طلسما نحصّن به جزيرة الأندلس من البربر، فاستظرف أبوها ذلك. وكتب إلى الملكين بما قالت ابنته، فأجاباه إلى ذلك، وتقاسماه على ما اختارا، وشرع كل

واحد منهما فى عمل ما أُسْند إليه ».

« فأما صاحب الرحى فإنه عمد إلى أشكال اتخذها من الحجارة، نضّد بعضها إلى بعض فى البحر المالح الذى بين جزيرة الأندلس والبر الكبير، فى الموضع المعروف بزقاق سبتة، وسدد الفرج التى بين الحجارة بما اقتضته حكمته، وأوصل تلك الحجارة من البر إلى الجزيرة، وآثاره باقية إلى اليوم فى الزقاق الذى بين سبتة والجزيرة الخضراء، وأكثر أهل الأندلس يزعمون أن هذا أثر قنطرة كان الإسكندر قد عملها ليعبر عليها من سبتة إلى الجزيرة الخضراء، والله أعلم أى القولين أصح، غير أن الشائع إلى الآن عند الناس هو الثانى. فلما تم تنضيد الحجارة للملك الحكيم، جلب الماء العذب من جبل عالٍ فى البر الكبير، وسلطّه من ساقية محكمة، وبنى بجزيرة الأندلس رحى على هذه الساقية ».

« وأما صاحب الطلسم فإنه أبطأ عمله بسبب انتظار الرصيد الموافق لعمله، غير أنه عمل أمره، وأحكمه، وابتنى بنيانا مربعا من حجر أبيض على ساحل البحر، فى رمل متراكم، حفر أساسه إلى أن جعله تحت الأرض بمقدار ارتفاعه فوق الأرض ليثبت، فلما انتهى البناء المربع إلى حيث اختار صّور من النحاس الأحمر والحديد المصفى، المخلوطين بأحكم الخلط، صورة رجل بربرى وله لحية، وفى رأسه ذؤابة من شعر جَعْد قائمة فى رأسه لجعودتها، وهو متأبط بصورة كساء قد جمع طرفيه على يده اليسرى بألطف تصوير وأحكمه، فى رجله نعل، وهو قائم من رأس البناء على مستهدف بمقدار رجليه فقط، وهو شاهق فى الهواء، طوله نيَّف عن ستين أو سبعين ذراعا، وهو محدودب الأعلى، إلى أن ينتهى ما سعته قدر ذراع، وقد مدّ يده اليمنى بمفتاح قفل قابض مشيراً إلى البحر كأنه يقول : لا عبور ! وكان من تأثير هذا الطلسم فى البحر الذى تجاهه، أنه

لم يُر قط ساكنا، ولا كانت تجرى فيه قط سفينة ببربر إلا سقط المفتاح من يده ».

« وكان الملكان اللذان عملا الرحى والطلسم يتسابقان إلى فراغ العمل إذ بالسبق يُستحق زواج المرأة، وكان صاحب الرحى فرغ أولا : لكنه أخفى أمره عن صاحب الطلسم لئلا يترك عمله فيبطل الطلسم، وبذلك تحظى المرأة بالأمرين : الرحى والطلسم. فلما علم باليوم الذى يفرغ صاحب الطلسم فى آخره، أجرى الماء فى الجزيرة من أوله، وأدار الرحى، واشتهر ذَلك، فاتصل الخبر بصاحب الطلسم وهو فى أعلى القبة يصقل وجهه، وكان الطلسم مذهبا، فلما تحقق أنه مسبوق ضعفت نفسه فسقط من أعلى البناء ميتا، وحصل صاحب الرحى على المرأة والرحى والطلسم ».

« وكان مَن تقدم مِن ملوك اليونان يخشى على الأندلس من البربر، فاتفق وجعلوا الطلسمات فى أوقات اختاروا أرصادها، وأودعوا تلك الطلسمات تابوتا من الرخام، وتركوه فى بيت بطليطة، وركَّبوا على ذلك الباب قفلا، تأكيداً لحفظ ذلك البيت، فاستمر أمرهم على ذلك ».

« ولما حان وقت انقراض دولة من كان بالأندلس ودخول العرب والبربر إليها، وذلك بعد مضى ستة وعشرين ملكا من ملوكهم من تاريخ عمل الطلسمات بطليطة، وكان لذريق هو تمام السابع والعشرين من ملوكهم، فلما اقتعد أريكة الملك، قال لوزرائه وخواص دولته وأهل الرأى منهم : قد وقع فى نفسى من أمر هذا البيت الذى عليه ستة وعشرين قفلا شىء، وأريد أن أفتحه لأنظر ما فيه، لأنه لم يعمل عبثا، فقالوا : أيها الملك؛ صدقت، إنه لم يصنع عبثا؛ ولم يقفل سدى؛ والرأى والمصلحة أن تلقى أنت أيضا عليه قفلا؛ أسوة بمن تقدمك من الملوك، وآباؤك وأجدادك لم يهملوا هذا فلا تهمله؛ وسر

سيرهم؛ فقال لهم : إن نفسى تنازعنى إلى فتحه؛ ولا بد لى منه. فقالوا له : إن كنت تظن أن فيه مالا فقدره ونحن نجمع لك من أموالنا نظيره، ولاتحدث علينا بفتحه حادثا لا نعرف عاقبته؛ فأصر على ذلك؛ وكان رجلا مهيبا فلم يقدروا على مراجعته وأمر بفتح الأقفال، وكان على كل قفل مفتاحه معلقا؛ فلما فتح الباب لم ير فى البيت شيئا إلا مائدة عظيمة من ذهب وفضة مكللة بالجواهر؛ وعليها مكتوب : هذه مائدة سليمان بن داود. ورأى فى البيت ذلك التابوت وعليه قفل، ومفتاحه معلق، فلم يجد فيه سوى رق؛ وفى جوانب التابوت صور فرسان مصورة بأصباغ محكمة التصوير؛ على أشكال العرب : معممون على ذوائب جعد، وعليهم الفراء، ومن تحتهم الخيل العربية، وهم متقلدون السيوف المحلاة، معتقلون الرماح، فأمر بنشر ذلك الرق، فإذا فيه متى فتح هذا البيت وهذا التابوت المقفلان بالحكمة دخل القوم الذين صورهم فى التابوت إلى جزيرة الأندلس، وذهب ملك من فيها من أيديهم، وبطلت حكمتهم. فلما سمع لذريق ما فى الرق ندم على ما فعل، وتحقق انقراض دولتهم، ولم يلبث إلا قليلا حتى سمع أن جيشاً وصل من المشرق جهزه ملك العرب ليفتح بلاد الأندلس».

نحن، إذن، بإزاء أساطير فيها شيء من تاريخ، وتحاول أن تفسر التاريخ، وتلتقى فيها عناصر هندية وإسلامية ويونانية ومسيحية، وفيما يبدو كانت روايتها شفوية، وعناصرها وأحداثها أطول مما بين أيدينا بكثير، وأن المؤرخين وكانوا يحتقرون القصص الشعبى ولا يرتقون به إلى مرتبة التاريخ الصحيح أغفلوا جانباً كبيراً منها، فليس ثمة ترابط بين أجزائها المختلفة، ويشعر القارئ لها أن كاتبها نافذ الصبر، يتعجل إنهاءها، ويقفز بين الأحداث قفزا ليصل إلى النهاية.

ولم تكن أحداث الفتح الإسلامى لشبه الجزيرة الإيبرية وحدها مناط

القصص نثرا كان أو شعرا، وإنما الأمجاد التى صنعوها وهم فى طريقهم من المشرق مارين بمصر وشمال أفريقية، أو ما حققوه من بطولات فى العراق وإيران، أو ما توارثوه من بطولات هى جزء من تاريخ قبائلهم فى عصر ما قبل الإسلام.

خمسة وأربعون عاما مضت على الفتح الإسلامى، فلما جاء **عبد الرحمن الداخل** (٧٥٦-٧٨٨م) مؤسس الدولة الأموية، أدى استقرار الحياة فى عهده، وعلى أيام خلفائه من بعده، إلى ارتفاع مستوى الحياة المادية عند كثيرين، وجرى المال وفيرا بين أيدى الناس، فأخذوا بأسباب الرقى ومالوا إلى بناء القصور، وغرس الحدائق، والترفّه فى الرياش، وتجميل المساكن، والإقبال على الزهور، وإقامة التماثيل، واتخاذ النوافير، والميل إلى الطرب والشراب، ومع النغم والنشوة تكون الموسيقا، ومع الموسيقا يكون الغناء والرقص، وهكذا تحولت القصور إلى لون من المسارح تتنفس فيها كل الفنون.

ولم تقتصر هذه المباهج على الطبقة الأرستقراطية أو الوسطى، فكان لعامة الناس مباهجهم ومباذلهم ولهم شعرهم أيضا، يقال فى عامية ترضى رغائب كل القاطنين فى الأندلس، عامية خاصة بالأندلس وإليه تنسب فهى خليط من العربية ومن الرومانثية romance على السواء. ولقد ضاع أغلب ذلك، ولكن ديوان **ابن قزمان**، المتوفى ١١٦٠م، وكتب فى العامية كله، وصلنا كاملا. ومن الواضح أن احتفاء الناس بتقييد الشعر الوجدانى كان أشد من حرصهم على تقييد الشعر الملحمى الشعبى، أو ما هو بسبيله، ربما لأنّ الثانى، كما هو عليه الحال فى أيامنا هذه، يرتبط على نحو وثيق بمستوى السامع وذوقه، واتجاهه العنصرى وعمره، وكان على الشاعر الجوال أن يرعى ذلك، ومن ثم فهو يدخل دائما على روايته من التحوير والتبديل، دون أن يتجاوز الخطوط الرئيسية للموضوع، ما يجعلها قادرة على تلبية رغائب أى طائفة من المستمعين، وهو

أمر لا يتأتى مع التدوين، والتزام النص المسجل.

كان المجتمع الإسلامى الأندلسى فى القرن الأول من نشأته، يتكون أساسا من الوافدين على شبه الجزيرة من العرب، عدنانيين وقحطانيين، أو بالتعبير الحديث من عرب الشمال وعرب الجنوب، ومن بربر وأفارقة، ومن الذين أسلموا من سكان الجزيرة الأصليين، ومن قلة منهم أطلق عليها اسم المستعربين los Mozarabes، حافظوا على كاثوليكيتهم، وتمتعوا بحرية دينية واسعة، فكانت لهم كنائسهم وطقوسهم، وحافظوا على لغتهم الرومانثية، ولكنهم إلى جانبها اتخذوا العربية لغة وبرعوا فيها، وكان منهم من يقول فيها الشعر، أو ينثر بها أدبا على نحو رفيع. ومن ثم كان الأندلس يضطرب بألوان **من العنف القبلى، ظاهرة أو خفية، كل جماعة تتعصب لتاريخها وقبيلها، وأكاد** أتصور أن مادة السمر لعرب الجنوب كانت تدور حول **سيف بن ذى يزن** ونضاله ضد الأحباش من أجل حرية قومه، على حين كان عرب الشمال بدورهم يتحدثون عن بطولاتهم فى صراعهم ضد الفرس آونة، ثم مابعد **الإسلام ضد المشركين آونة أخرى، وعن أمجادهم الإسلامية أخيرا، ففيهم** ظهر **الرسول**، وهم الذين حملوا دينه إلى شتى بقاع العالم. وأكيدا كان للبربر الكثير من أمجادهم التاريخية، وحروبهم ضد الإسلام أو معه أو قبله، يرددونها ليواجهوا بها موجة التفاخر عند الآخرين. ولعل عدداً غير قليل من الأفارقة السودانيين كانوا أقرب إلى قصة **عنترة**، الشاعر العربى الأفريقى الأسود، وقد حررته بطولته وشجاعته فى قصة طويلة تحفظ كتب الأدب العربى الجانب التاريخى منها، وتحتفظ بها ذواكر الناس أسطورة جميلة، يختلط فيها الحب بالحرب، والغرام بالإقدام، وكان المسلمون الجدد من الإسبان يبحثون عن تاريخهم القديم يحاولون أن يلتقطوا من أعماقه أثرا يستندون إليه، فإذا عز عليهم الأمر، استعاضوا عنه بثوراتهم الحادة فى البدء، ثم كان لهم من بعد

عمرو بن حفصون (٨٨٠-٩١٧م)، أو حتى **السِّيد** نفسه أحيانا، فلم يكن السيد بطلا مسيحيا خالصا كما سنرى بعد حين. أما المسلمون الصالحون، فقد وجدوا فى تاريخ الصحابة وبطولاتهم وقصص الزاهدين وكراماتهم، زادا يغنيهم عن كل ما سبق من قصص جاهلى، أو وثنى، أو قبلى، أو لا يتفق ومناهج الإسلام فى الحياة.

كانت أيام العرب فى جاهليتهم مصدرا ثراً لسمر حى، بما تضم من بطولات فى الحرب، ولسن فى القول، وإفحام فى الخصومة، فراجت بين الأندلسيين وشاع خبرها، وليس من باب الصدفة وحدها أن كتاب **الأغانى** لمؤلفه **أبى الفرج الأصفهانى**، المتوفى عام ٩٦٧ ميلادية، وهو أوفى مصدر فى هذه المادة، قصصا وتاريخا وشعرا، عرف فى **الأندلس** قبل أن يعرف فى **العراق**، رغم أن مؤلفه من المشرق، فقد حرص **الحكم الثانى** ٩٦١-٩٧٦م، على أن يحصل على أول نسخة منه، مقابل إعطاء المؤلف ألف دينار من الذهب الخالص. وأن المصدر التالى له فى سعة المادة، وإن فاقه فى التنظيم والتبويب وسبقه فى التأليف، هو لأندلسى أصيل لم يبرح الأندلس طوال حياته، وأعنى به كتاب **العقد الفريد لابن عبد** ربه، المتوفى عام ٩٤٠م، ففيه فصول طوال عن أيام العرب وحروبهم وبطولاتهم، هى جماع ما قرأ المؤلف أو درس أو سمع فى وطنه. ويقص علينا **ابن بسام** المتوفى عام ١١٤٧م وكان معاصراً للسيد، فى كتابه الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة أن **روى ديات دى بيبار الملقب بالسيد** : «كانت تدرس بين يديه الكتب، وتقرأ عليه سير العرب، فإذا انتهى إلى أخبار **المهلب بن أبى صفرة** استخفه الطرب، وطفق يعجب منها ويعجب».

فإذا تجاوزنا قصص أيام العرب، يغلب على ظننا أن **قصة الهلالية** كانت أكثر الحكايات الشعبية رواجا بين الأندلسيين فى القرنين الحادى عشر

والثانى عشر الميلاديين، لأنها تمثل التمرد على السلطة أولا، وتعكس الصراع بين العرب والبربر قويا ثانيًا، وفيها من الأحداث والشخصيات ما يجعلها قريبة من أذواق الناس جميعا، وكان مسرح أحداثها المنطقة الشاسعة التى تبدأ من جزيرة العرب وتنتهى بمراكش. وكان الأندلس فى هذين القرنين، الحادى عشر والثانى عشر، وما قبلهما، مهيأ تماما لأن يعطى للقصة سمعه وقلبه، وأن يهبها مشاعره واهتمامه، فقد بلغ التنافس بين العرب والبربر والصقالبة والمسلمين الجدد وطوائف أخرى أشده، وكان الناس ضائقين كأعنف ما يكون الضيق باستبداد **المنصور بن أبى عامر** المتوفى ١٠٠١م، وضائقون من بعده على نحو أشد بملوك الطوائف، لتخاذلهم واضطراب الأمر على أيديهم، وعجزهم عن مواجهة الخطر المسيحى المتزايد فى شمال الجزيرة، وخلال هذا الضيق تطلعوا لنصرة المغرب لهم، واهتموا بما يجرى من أحداث فى هذا الجانب من بلاد المسلمين. وقبل ذلك كان لهم مع الدولة الفاطمية صراع، وكانت هذه إبان نشأتها فى المغرب ترنو ببصرها إلى الأندلس، وكان حكام الأندلس أنفسهم يتخوفون من الفاطميين، وكان الخليفة الشيعى الذى بدأ دعوته فى إفريقية، وأقام واحدة من أزهى الدول الإسلامية فى العصر الوسيط فى **القاهرة**، مثار إعجاب العامة ومحط أنظارهم، سواء كانوا أصدقاء له راضين عنه أو أعداء له ساخطين عليه. وكانت الدولة الفاطمية تمثل كلا العنصرين الإسلاميين اللذين وفدا على الأندلس من خارجه، فقد كان منشئها عربيا قرشيا، أو هكذا زعم لنفسه، ولكنها نهضت أول ما قامت على أكتاف قبيلتين بربريتين، هما **كتامة وصنهاجة**. بل إن الرواية الشعبية حين انتصرت بالهلالية على أمراء شمال إفريقية، فتقاسموا البلاد فيما بينهم، جعلت الأندلس من نصيب البطل **أبى زيد الهلالى** وأنها آلت لأولاده من بعده وعاشوا فيها.

وعندما أقول: إن شبه الجزيرة الإيبيرية كان يموج بألوان من حكايات

البطولة، تغذى حماسة كل قبيل، لا أعنى لونا قصصيا محدداً، تتوافر فيه أنماط فنية معينة، فمثل هذا الأدب لا تبدعه الشعوب على نحو جماعى، وإنما أعنى حديثا يمجد البطولة، ويدور عن الحرب، يعتمد أساسا على التاريخ، ولكن لحمته وسداه من الخيال والتلفيق. ويمكن القول أن شطراً لا يمكن تحديده من سيرة بنى هلال لم يكن معروفا فى الأندلس فحسب، وإنما كان ذا تأثير مباشر أو غير مباشر، فى نشأة الشعر الملحمى الإسبانى. ولقد كانت **سيرة بنى هلال** فى البدء، مقطوعات طويلة من الأشعار الشعبية التى تغنى، تعرض لأحداث متعددة، ولم تكن قد دونت بعد، ولم يكن فى وسع أى شاعر جوال أن يحفظها كلها، فيقتصر منها على مقطوعات تتصل بالأحداث القريبة إلى وجدانه وذوقه، أو إذا شئنا الدقة وجدان وذوق الذين يغنِّى لهم ولكى تنتشر على نحو واسع بين المسلمين والمسيحين لم تكن فى حاجة إلى ترجمة، شأنها شأن الأزجال العربية، فقد كانت تقال، وحتى تكتب، فى لغة مفهومة عند عامة الأندلسيين، يتحدثون العربية أو يتخذون الرومانثية لسانا.

كيف تمت عملية الانتقال الثقافى ؟.

من الثابت أن **قرطبة** فى القرن العاشر الميلادى بلغت مستوى عالياً من الحضارة، وتحولت إلى مركز ثقافى هام ينافس **بغداد والقاهرة،** ولكنها لم تكن وحدها فى هذا المجال، وإنما شاركتها على امتداد الأندلس مدن أخرى كثيرة، كبيرة مثل طليطلة وإشبيلية وغرناطة وسرقسطة وبلنسية، أو صغيرة مثل شلب وبطليوس وجيان ومرسية. وبقيت هذه المدن تضىء بنور مستعار من الثقافة الإسلامية لمدة طويلة بعد سقوطها فى أيدى المسيحيين. ولم يكن النشاط الفكرى والروحى فى هذا الجانب من أوروبا يعرف فى تلك الحقبة الخصيبة التى امتدت حتى القرن الثالث عشر أية حدود دينية، وإنما تغشى ضياؤه الناس جميعا، وامتد عبر الجزيرة كلها. فلم تكن فى الأندلس حدود بين الجانب الذى

يعيش فيه المسلمون، والآخر الذى يعيش فيه المسيحيون، بالمعنى الذى نفهمه اليوم، وإنما قامت بينهما سهول شاسعة، واعتاد المسلمون والمسيحيون أن يتلاقوا فيها، ويخالط بعضهم بعضا. ولم تكن هناك حواجز من الكراهية والبغضاء بين الأجناس والأديان المختلفة على نحو ما نتصوره فى وقتنا الحاضر، والأفكار التى تصور أن العداء فى الأندلس كان مستحكما بين كل المسلمين وبين كل المسيحيين، فى كل الأوقات، هى أفكار خاطئة، تعود إلى روايات ملفقة، صنعها المتعصبون فيما بعد زوال دولة الإسلام.

وإلى جانب تلاقى العامة، وهجراتهم وتحركاتهم، كان التزاور بين أمراء المسيحيين فى الشمال، وعلية المسلمين فى الجنوب شائعاً، وعادة كان يصحب كل منهم شعراءه ومنشديه عند القيام بزياراته، وأحيانا كان يجمع بينهم التحالف أو الصداقة، ومنذ بداية القرن الحادى عشر نلمس ظاهرة فريدة، هى تحالف أمير مسلم مع أمير مسيحى، لمحاربة آخر مسلم أو مسيحى، ووجود جنود مختلطين من مسلمين ومسيحيين، فى جيوش الشمال المسيحيين أو أمراء الجنوب المسلمين، وظهور قواد لا يدينون بالولاء لأحد، وإنما يقاتلون بجيش مكون من عناصر مختلطة، مع من يدفع لهم أجراً أكبر، أو ضد من يلتمسون فيه ضعفا، أو طلبا للغنائم، أو حبًّا فى المغامرة.

لعب المغنون والشعراء الجوالون، محترفين أو هواة، الدور الأول فى إشاعة الغناء العربى والموسيقا العربية والقصص العربى منظوما. فعندما أخذ سلطان المسلمين فى الانحسار، وبدأت كبريات الحواضر الإسلامية تسقط فى يد المسيحيين واحدة وراء أخرى، كانوا يستولون على القصور بمن فيها من شعراء عرب يقعون أسرى، ثم يعيشون فى كنف الأمراء الجدد، ولم يكن المغنون فى الجانب المسيحى يحجمون عن الذهاب إلى كبريات المدن الإسلامية فى الجنوب بحثاً عن آلات العزف العربية التى ينشدون شعرهم على وقع أنغامها. كما كان

سادتهم الأمراء يذهبون إليها بحثا عن مظاهر الأناقة والأبهة أو العلاج. ولم تخل قصور الأمراء المسيحيين من الشعراء العرب، وأى رجل ميسور الحال كان إذا أقام حفلا دعا إليه أولئك الشعراء، وكان بلاط الملك **شانجه الخامس**، كنت **قشتالة** فى عام ١٢٩٣م، يضم ستة وعشرين شاعراً مسلماً بينهم إمرأتان، واثنى عشر شاعراً مسيحيًا، وشاعراً يهوديًا واحداً. وفى القرن الخامس عشر وُجد فى محاضر مجلس بلدية **الترويل** بتاريخ ٣٠ أغسطس ١٤٤٣م، طلب من الأعضاء بدفع عشر قطع نقدية للمدعو **محمد جاجو Mahoma Chacho** من أهل مدينة **البونت**، وهو مسلم كما يبدو من اسمه، لأنه قام بالعزف على الآلة الموسيقية Cazamora فى احتفالات البلدية. وشكا مجمع القساوسة الذى اجتمع فى **بلد الوليد** فى هذا الوقت، من أن المسيحيين يجلبون المسلمين واليهود إلى الكنائس ليغنّوا فيها ويعزفون. وقد شُهرت مدينة **شاطبة** بنوع خاص، بأنها موطن هؤلاء المسلمين الذين يجدون الغناء والإنشاد والعزف، ويدعون إليه، أو يذهبون طلباً للرزق، عبر مقاطعتى **قشتالة Castilla ونبرة Navarra**. ولدينا رواية ترجع إلى نفس الفترة عن شاب مغن فقير اسمه **Diego Arias de Avila** كان يبيع التوابل فى مدينة **شقوبية** ثم «يجمع حوله المغنين العرب، وجماعات القرويين، وأنه كان شغوفا بهذا العمل».

ولم يكن دور المرأة الأسيرة بأقل أهمية فى نشر هذا اللون من الثقافة، فقد كن ذوات ثقافة عالية، ومعرفة واسعة بالموسيقا والغناء والأدب والتاريخ، ولم يكن مجرد مصادفة بحتة أن المرأة البروفانسية كانت أول امرأة أوربية اشتغلت بالأدب، فقد كانت مقاطعة بروفانس تعرف ابتداء من القرن الثانى عشر أفواجا من هؤلاء الأسيرات المسلمات المتأدبات المثقفات، أما الجانب المسيحى من الأندلس فقد عرفهن قبل ذلك بكثير. يقص علينا الطبيب القرطبى **ابن الكتانى** أنه حضر حفلا فى مدينة برغش Burgos أقيم فى قصر **شانجه غرسية**

كنت **قشتالة** (٩٩٥-١٠١٧م)، وقد تميز الحفل بعدد من المغنيات والراقصات، أهداهن إليه **خليفة قرطبة**، فأمرت زوج شانجه واحدة منهن بالغناء، فغنت بالعربية، وكان صوتها جميلا، وفجأة انفجرت إحدى الجوارى باكية، فاقترب منها **ابن الكتانى** وسألها عن السبب، فقالت له : هذه الأشعار التى تغنى بها هى لأبى **سليمان بن مهران السرقسطى**، إننى أسيرة هنا، ولا أعرف من أخبار أسرتى شيئاً، ولم تذكر الرواية هذه الأشعار، ولكننى تأملت الأشعار القليلة التى أوردها **ابن بسام** فى كتابه « الذخيرة »، عند ترجمته لسليمان هذا ، فوجدت أن الأبيات التاليةِ أشدها رقة وإثارة وحنينا وأرجح أنها هى التى كانت تغنى :

خليلىَّ ما للريح تأتى كأنما ... يخالطها عند الهبوبِ خلوقُ
أم الريحُ جاءتْ من بلاد أحبتى ... فأحسبها عَرْفَ الحبيبِ تسوقُ
سقى الله أرضاً حلهَّا الأغيد الذى ... له بين أحناءِ الضلوع حريقُ
أصارَ فؤادى فرقتين فعنده ... فريقُ، وعندى للسياقِ فريقُ

كان عدد هؤلاء الأسيرات كثيراً، ودورهن كسفيرات لنقل الثقافة كبيراً، أكبر مما نتصور، على امتداد الأندلس كله، أو حتى فيما وراء حدوده فى مقاطعة بروفانس وغيرها، ولنتصور هذا الدور يمكن أن نقف عند أسرى معركة واحدة، هى **معركة بربشتر التى وقعت عام ١٠٦٤م، وكانت الغلبة فيها** للمسيحيين، فقد أسروا بعد النصر من بنات الطبقة العالية والمتوسطة ما يقدره المؤرخون العرب بمائة ألف من النساء والأطفال، لأن الرجال قتلوا فى المعركة، وهو رقم يحمل طابع المبالغة، ولكنه يشير على أى حال إلى أن العدد كان كثيراً، وقد نقل علية القوم هؤلاء الأسيرات إلى دورهم وقصوهم، وكان احتفاؤهم بهن كبيراً، يروى المؤرخ ابن حيان :

« أن بعض تجار اليهود جاء **بريشتر** بعد الحادثة ملتمساً فدية بنات بعض الوجوه ممن نجا من أهلها، حصلن فى سهم قومس كان يعرفه، قال: فُهديتُ إلى منزله فيها، واستأذنت عليه، فوجدته جالساً مكان رب الدار، مستوياً على فراشه، رافلا فى نفيس ثيابه، والمجلس والسرير كما خلّفهما ربهما يوم محنته، لم يغير من رياشهما وزينتهما، ووصائفه مضمومات الشعور، قائمات على رأسه، ساعيات فى خدمته، فرحب بى، وسألنى عن قصدى فعرفّتهُ وجهه، وأشرت إلى وفور ما أبذله فى بعض اللواتى على رأسه، وفيهن كانت حاجتى، فتبسم وقال بلسانه، ما أسرع ما طمعت فيمن عرضناه لك؟، أعْرِضْ عمن هنا وتعرّض لمن شئت ممن صيرته لحصتّى من سبيى وأسراى، أقُارِبْكَ فيمن شئت منهن. فقلت له: أما الدخول إلى الحصن فلا رأى لى فيه، وبقربك أنست، وفى كنفك اطمأننت، فسُمْنى ببعض من هنا فإنى أصير إلى رغبتك، فقال: وما عندك؟ قلت: العين الكثير الطيِّب، والبز الرفيع الغريب. فقال: كأنك تُشهيِّنى ما ليس عندى، يا « باجة »، ينادى بعض أولئك الوصائف، يريد « يا بهجة » فغيّره بعجمته: قومى فاعرضى عليه ما فى ذلك الصندوق، فقامت إليه وأقبلت ببدر الدنانير، وأكياس الدراهم، وأسفاط الحلى، فكُشف وجُعل بين يدى العلج حتى كادت توارى شخصه، ثم قال لها: أدنى إلينا من تلك التخوت، فأدنت منه عدة من قطع الوشى والخز والديباج الفاخر، مما حار له ناظرى وبُهِتَ، واسترذلت ما عندى، ثم قال: لقد كثر هذا عندى حتى ما ألذ به، ثم حلف بالإهه أنه لو لم يكن عنده شىء من هذا، ثم بُذل بأجمعه فى ثمن تلك ما سَخَتْ بها يدى، فهى ابنة صاحب المنزل، وله حسب فى قومه، اصطفيتها لولادتى لمزيد جمالها، حسبما كان قومها يصنعون بنسائنا نحن أيام دولتهم، وقد رد لنا الكرة عليهم، فصرنا فيما تراه وأزيدك بأن تلك الخودة الناعمة، وأشار إلى جارية أخرى قائمة إلى ناحية أخرى، مغنيةُ والدها التى

كانت تشدو له على نشواته، إلى أن أيقظناه من نوماته، يا فلانة - يناديها بلكنته - خذى عودك فغنِّى زائرنا بشجوك. قال : فأخذت العود، وقعدت تسويّه، وإنى لأتأمل دمعها يقطر على خدها، فتسارق العلج مسحه، واندفعت تغنى بشعر ما فهمته أنا ، فضلا عن العلج، فكان من الغريب أن حث شربه هو عليه ، وأظهر الطرب منه، فلما يئست مما عنده قمت منطلقاً عنه، وارتدت لتجارتى سواه، واطلعت لكثرة ما لدى القوم من السبى والمغنم على ما طال عجبى به »

فالمرأة أسيرة فى البدء، ثم زوجة أو وصيفة أو عشيقة فى النهاية، تلعب دوراً قوى التأثير على الرجل الذى اصطفاها، ولما كانت المرأة الأندلسية المسلمة عادة أرقى من الرجل المسيحى الذى آل إليه أمرها، فهى تطبعه بطابعها، يحب ما تحب، ويكره ما تكره ،وأخيراً يتعلم منها لغتها العربية، فصيحة أو عامية، وما يتصل منها بالجانب العاطفى والعائلى على نحو أخص، وتأخذه بتقاليد مجتمعها وبيئتها، ومع هؤلاء أو بعدهن، كان يجيء الشعراء الجوالون، ينشدون القصص العربى، واقتداء بهم، وتقليداً لهم، بدأ الجانب المسيحى، بالدقة فى مكان ما على الحدود بين المسلمين والمسيحيين، يتهيأ لتكون له قصة على نمط قصة الهلالية وسيرتهم، تنشد وتروى، ويستمع لها الناس معجبين مبهورين.

كان الشاعر الجوَّال، فى المدلول الواسع للكلمة، على نحو ما سنرى صاحب دور كبير فى إشاعة الثقافة على امتداد الأندلس كله، بجانبيه الإسلامى والمسيحى، ورغم ذلك فإننا نجهل طبيعته وفنه، ومن ثم آثرت أن أخصه بحديث خاص.

الشاعر الجوّال

من العسير أن نحدد مايراد بكلمة شاعر جوال Juglar فى الآداب اللاتينية بصفة عامة، وفى الأدب الإسبانى على نحو خاص. كان معنى الكلمة خلال العصور الوسطى واسعاً عريضاً، يتلوّن تبعاً للزمن والمكان الذى يتحرك فيه الشاعر. وكلمة Juglar وهى مأخوذة من الكلمة اللاتينية Iocularis معناها المسلِّى، وتطلق على الرجل الذى كان يسلِّى الملك أو عامة الشعب، وكان هؤلاء الشعراء الجوَّالون، وهم من أصل جرمانى، يذهبون من بلاط إلى بلاط، ومن سيد إلى سيد، ينشدونهم الملاحم التى تدور حول مغامرات الأبطال. شىء عرفه الأندلس أيضاً، عندما تعددت مراكز الثقافة والإمارة، فكان الشعراء يتنقلون بين العواصم والملوك، وكان عددهم كبيراً، وفيما بعد القرن الحادى عشر الميلادى كان يلتق فى بلاط الأمير الواحد، مسلما كان الأمير أو مسيحيًّا، شعراء ينشدون الشعر بالعربية الفصحى، أو بالرومانثية الخالصة، أو بعامية هى مزيج من اللغتين.

كان الأمراء والسادة يطلقون كلمة شاعر جوّال فى القرن الثالث عشر على طبقة معينة من الناس، وكان عامة الناس يقصدون بها طبقة أخرى، ويستطيع رجل الأخلاق أن يجد بينهم الشرير المستهتر، ومن ينتزع منك التقدير والاحترام، بينما يعتبرهم المشرع دائماً أناساً رديئين سيئى الأخلاق. كان معنى الكلمة يسع جميع أولئك الذين يربحون لقمة العيش من إضحاك الآخرين والترفيه عنهم ،يريحون أعصابهم بالموسيقا أو الأدب أو الظرف أو الألعاب اليدوية أو الحركات البهلوانية.

من بين العلماء المحدثين الإسبان، كان **مينينديث إى بلايو** (١٨٥٦-

١٩١٢)، أكثر الباحثين معرفة بالعصر الوسيط، ويعرِّف فن الشاعر الجوال بأنه : «لون من التسول الأكثر مرحا ودخْلاً، يلجأ إليه التعساء المحرومون، والصعاليك الظرفاء، والطلاب الفقراء، ورجال الدين الصيّاع، والسكارى المعربدون، وكل الذين جاءوا إلى الحياة مجردين من الثروة والجاه، ويملكون نهما فنيا، وينفقون حياتهم أحرارا، يكيفونها وفق الضرورات القاسية التى يواجهونها».

غير أن **مييننديث بيدال**، وجاء بعد بلايو (١٨٦٩-١٩٦٩)، وشاركه وربما زاد عليه، فى التمكن من معرفة مشاكل العصر الوسيط التاريخية والأدبية، يرى أن الشاعر الجوال لم يكن دائما متسولا، ولا حتى رجلا فقيرا فى كثير من الحالات. بل ونجده أحيانا فى وضع اجتماعى مرموق. وقد تتبع طائفة الشعراء الجوالين، فوجد أنها كانت تضم الصعلوك الظريف، ومن يغنى فى الشارع، أو يمثل على المسارح، أو ينشد الشعر فى الكنائس، أو قلاع الملوك أو قصور السادة، والراقصين، ومؤلفى الرقصات، وكل ألوان الألعاب والتسليات المرحة، من تقليد أصوات وأفعال الحيوان، أو لوازم أصحاب العاهات، والثرثار الذكى، وصاحب النكتة اللطيفة، والمهرج الخفيف، والعازفين على الآلات الموسيقية، ومن يقرع الطبل أو يضرب على الدف. إنهم باختصار كل أولئك الذين ينثرون المرح والبهجة بين الناس. وكل ذلك يجب أن يتم فى حفل عام، والأديب الذى يكتب عملا أدبيا ليضحك أو يسلى القراء، لا يعد شاعرا جوالا إذا لم ينشد ذلك علانية، أمام جمع من السامعين.

وجرت العادة أن يلبس الشاعر الجوال ملابس لامعة، ذات ألوان زاهية متعددة تشد الانتباه. وبالطبع فإن ملابس الذين كانوا يترددون على قصور السادة من ملوك وأمراء ونبلاء كانت أرق تفصيلا، وأفخم نسيجا. كان **شعراء الملك شانجه الرابع** (١٢٨٤-١٢٩٥م) يرتدون نوعا واحداً من

الملابس، أحمر أو أبيض أو نبيذيا صنع فى بلنسية، وكان الموسيقيون فى بلاط **خوان الأول** ملك أرجون (١٣٨٧-١٣٩٥م) يرتدون ملابس بيضاء، مزينة بالفضة، أما الشعراء الخمسة الذين فى بلاط **كارلوس** ملك نبرة (١٣٨٧-١٤٢٥م) فكانوا يرتدون ملابس خضراء، ويحملون شارة فضية مزخرفة، أغلى ثمنا للرئيس منهم، وتميّزه عن الآخرين.

وخلال العصر الوسيط كانت شعوب أوربا تعيش تحت نظام مزدوج اللغة، فالقليل من رجال الدين وحدهم يتخذون اللاتينية لغة الكتابة والأدب بينما الكثيرة الغالبة من الجماهير تجهلها، فجاء هؤلاء الشعراء الجوالون ورفعوا العامة إلى مستوى اللغة التى يقال فيها الشعر، حتى أن كلمة Juglar أصبحت تعنى : «شاعر فى اللغة الرومانية»، والرومانثية Romance هو الاسم الذى كان يطلق على اللغة العامية التى تفرعت عن اللاتينية فى إسبانيا. ومن ثم يمكن القول، دون مبالغة، أن الشاعر الجوال هو الأب الحقيق لكل الآداب الاوربية الحديثة.

● ● ●

فى القرن الحادى عشر الميلادى دعت الحاجة إلى اسم جديد، يطلق على شاعر متميز، أشد أصالة وأكثر ثقافة، وظهر أول ما ظهر فى مقاطعة بروفانس، جنوبى فرنسا، يقول الشعر لأول مرة فى اللغة العامية، ويعبر فى شعره عن ذات نفسه، وينشد ما يؤلف أمام الطبقة العليا فى المجتمع، وأطلق عليه اسم **الشاعر المنشد** **Troubadour**، تمييزا له عن الشاعر الجوال Juglar ، والتقدير الذى حظيت به القصيدة الجديدة المثقفة، إن صح التعبير، بلغ حدا كبيرا من الذيوع السريع، حتى أن كلمة «**تروبادور**» هذه دخلت كل اللغات الأوربية، لأنها أكثر تحديدا لوظيفة الشاعر من الكلمة الأولى،

وعرفت فى الأندلس المسيحى، فى قشتالة بالذات، فى أول وثائق رسمية، بعد ثمانين عاما من توثيق كلمة خوجلار Juglar ، لقد ظهرت هذه لأول مرة فى وثيقة رسمية تعود إلى عام ١١١٦، وتتصل بمدينة ساهاجون، وأخرى تعود إلى عام ١١٣٦، وتتصل بمدينة ليون، بينما نجد كلمة «تروبادور» تظهر لأول مرة فى عام ١١٩٧م، على شهادة بإحدى الأديرة، شمالى الأندلس، تحمل توقيع : «غومث التروبادور».

كان ثمة اختلاف بين الكلمتين منذ البدء فالشاعر الجوال Juglar ينتزع لقمة العيش بالغناء فى قصائد ليست له، أو له ولكنها غير ذات مستوى، ومن ثم كان على الدوام أقل نبلا من الشاعر المنشد Troubadour ،ومن جانب آخر، ولو أن الشاعر المنشد كان يغنى فى جمع أحيانا، لم يكن يصنع ذلك حرفة، حتى ولو كان فقيراً، وكان دائماً شاعر الطبقة الأكثر ثقافة، وكثيرون من الفرسان، من الطبقة الاجتماعية العالية، كانوا يحاولون أن يصنعوا مثله، يقرضون الشعر ليبرعوا فيه، ويدربون على الموسيقا ليتمكنوا منها، حتى يكونوا فرساناً كاملين، ولم يبعد **ثرفانتس** (١٥٧٤-١٦١٦م) مؤلف رواية دون كيخوته الشهيرة عن الحقيقة حين يقرر : «كل الفرسان المغامرين فى القرن الماضى كانوا من الشعراء المنشدين».

تاريخيا - إذن - **الشاعر المنشد**، جاء فى مرحلة تالية للشاعر الجوال، أو هو تطوُّر له، وقد يكون فارساً كما ألمحنا، وقد يكون مجرَّد شخص يقرض الشعر، وأول شاعر منشد نعرفه أكيداً، ووصلتنا عنه أخبار لا بأس بها، **جيوم التاسع**، دون أقيطانية (١٠٧١-١١٢٧م)، فى جنوب فرنسا، وينحدر من سلالة رفيعة، وكان يحكم دولة شاسعة يعمها الثراء والرخاء، واسع الثقافة، يعرف عدداً من اللغات من بينها اللغة العربية، وتميز بشخصية ظريفة لبقة، أشد ما تكون شبها بشخصية الشاعر الجوال. ورغم أن الشاعر المنشد

تال فى التاريخ للشاعر الجوال ومقلد لـه، كان الأول - بصفة عـامة - أرقى اجتماعيا من الثانى، وأوسع منه ثقافة وأعلى تربية، ولو أن الحدود بين الاثنين لم تكن أبداً دقيقة وفاصلة، فقد نجد شاعراً جوالا مثل **ماركبرو Maracabru** ، من مقاطعة جسكون فى جنوب فرنسا، والمتوفى عام ١١٥٧م، قد ارتفع بمواهبه إلى مستوى كبار الشعراء المنشدين، بينما نجد شعراء منشدين، وينحـدرون مـن نبلاء، لم يستطيعوا أن يستمروا فرسانا، فتحـولوا إلى شـعراء جـوالين، لـكى يربحوا لقمة العيش.

وكان هناك من يأسى لأن كلمة **شاعر جـوال** تـطلق على مـن يـرقّصون القرود أو يضحكون الجماهير، أو يعـزفون دون معـرفة على إحـدى الآلات الموسيقية، أو يغنون فى الشوارع والميادين لغمار الناس، ثم يهرولون إلى الحانات ينفقون ما تلقوه تفضلا، دون أن يرقوا إلى مرتبة العمل فى بـلاط ملك أو قصر نبيل، إن ما يقوم به هؤلاء ليس من فن الشاعر الجوال فى شيء، لأن الشـاعر الجوال إنسان مثقف ذكى مقتدر، يستطيع أن يدفع بـالصالحين مـن النـاس فى طريق البهجة والمتعة والشرف. وبعد هؤلاء جاء **الشاعر المنشد Trouba-dour** ومهمته أن يمدح الشجعان، ويمـدهم بـالتأييد المعنـوى، ويشـجعهم على الأعمال النبيلة. ولقد شكا Giraldo Riquier، وهو أديب قشـتالى كبـير إلى ملك قشتالة عام ١٢٧٥م هبوط هذا الفن، وانتسـاب كثرة مـن المشـعوذين إليـه، وطلب منه أن يحدد أسماء الشعراء، وأن يعيِّن على نحو خـاص مـن هـو الـذى يطلق عليه اسم شاعر جوال Juglar ، ويحق له أن ينتحل هذا اللقب.

ولم يسلِّم الملك للأديب القشتالى بوجهة نظره، لأن شمـول المعـنى فى كلمـة شاعر جوال لا يتعدى مقاطعة بروفانس فى جنوب فـرنسا، فهنـاك يشـمل كل الطوائف التى أشرنا إليها من قبل، أما فى الاندلس فلكل طائفة اسمها الخـاص

بها. وتطلق الكلمة على من يغنون بمصاحبة الآلات، أما الذين يقلدونهم، أو ينشدون كلاما بلا معنى، أو له معنى سخيف، أو يعرضون فناً رديئاً فى الشوارع والميادين، أو يبتزون الناس أموالهم بلا شرف، فكل طائفة منهم لها اسمها الخاص بها، ولا يمكن بأى حال أن يندرج فى معناه، من يُرقِّصون القرود أو الماعز أو الكلاب، أو يضحكون الناس بتقليد أصوات الطير والحيوان، أو الحمق والمغفلين والبلهاء، ومن يغنون للعامة بأى أجر مهما كان ضئيلا. إنما **الشاعر الجوال** - فيما يرى الملك - من يعزف بفن، ويتغنى بأدب، وينشد أشعاراً نظمها آخرون، يطرب بها الأغنياء من القوم، ومثل هؤلاء يجب أن يلقوا الترحيب فى أى بلاط، لأنهم يحملون إلى قصره الراحة والمتعة والسرور. أما **الشاعر المنشد Troubadour**، فهو الذى يبدع الشعر، ويجيد الرقص، ويلحن الأغنية، ويصوغ المدائح، وينظم الموشحات، وأخيراً يطلق اسم «المعلم» على من اتصف بين هؤلاء بالشعر الرقيق، وعرف بالثقافة الواسعة، والتزم جادة الشرف، وأعلن الحرب على كل ما هو مشبوه ومنحرف.

● ● ●

كان **الشاعر الجوال** أدنى اجتماعياً من **الشاعر المنشد**، لأنه تابع له فى عمله فهو يغنى أشعاره، أو يصاحبه بآلته الموسيقية فى الغناء، وكبار الشعراء المنشدين كانوا يتجولون عبر شبه الجزيرة، وفى صحبة كل واحد، بحسب أهميته، عدد من الشعراء الجوالين، وهو بعامة غير قادر على قرض الشعر، يعيش فى أغانيه على قصائد يطلبها من الشاعر المنشد، وكان هذا فى مقاطعة بروفانس هو الذى يختار بنفسه الشاعر الجوال، ويشير إليه فى قصيدته، ليقوم بمهمة نشرها - أو روايتها - أو يغنيها لأصدقائه الذين يود أن يحييهم أو يطلب عونهم، أو لأعدائه الذين يسبهم ويتحداهم، وفى أحايين كثيرة كان الشاعر

المنشد يسخر من الشاعر الجوال التابع له، وفى الوقت نفسه لايجد هذا الأخير حرجاً فى أن يغنى شعراً يدور حول سبه وهجائه، وأن يهزأ من ناظمه، ويغالى فى تحقيره والتشنيع عليها. ورغم هذا كان عليهما أن يتعاونا، لأن كلا منهما محتاج إلى الآخر، الشاعر المنشد يقول الشعر ويقرضه، والشاعر الجوال ينشره ويغنيه، وبقى هذا الفرق واضحاً حتى بعد أن فقد الشاعر المنشد صفة الفروسية والاستقلال، وأصبح الشعر مهنة له يتعيش منها، وتحول إلى مدَّاح لحوح، لأنه بقى دائماً شاعر البلاط والقصر والقلعة، يقف بفنه عند تسلية الملك والأمير والنبيل، وبقى الشاعر الجوال، حتى ولو جرؤ على تأليف الشعر الذى يتغنى به، شاعر الجماهير دائماً.

لاأحد كالشاعر المنشد يعرف مباذل الشاعر الجوال ونقائصه، ومن شعر الأول نعرف ما كان عليه الثانى من شغب وسكر وعربدة ولصوصية واحتقار كل ما هو محترم، ومع ذلك كان يتمتع بالفكاهة الظريفة، والصوت الرهيف، والذاكرة القوية، وقدرة فائقة على أن يترجم بنبره معانى القصيدة مجسمة، وأن يلتقط مايريده المؤلف من هدف بعيد وخفى ويقدمه للسامع قريباً واضحاً. لكن مواهبه مهما بلغت تقهقرت أمام رذائله، فكان يزداد كل يوم انحطاطاً، ولم يأت النصف الثانى من القرن الرابع عشر، حتى ترك الغناء، وعزف عن إنشاد الشعر، وقصر نفسه على الموسيقا، وارتبطت كلمة شاعر جوال Juglar بالحطة والضعة ارتباطا وثيقاً، فألغيت من معظم القصور، واستعاض عنها الملوك بكلمة Menestrel الفرنسية، ولها نفس مدلول الكلمة القشتالية قبل أن ينحدر معناها. وأصبحت كلمة شاعر جوال مرادفة لمعنى : « إنسان ثرثار لطيف، ساخر الحديث، صاحب نكتة، صايع غير مستقر، يعيش حياة قلقة على الدوام ».

● ● ●

باتساع الهوة بين ما كان عليه **الشاعر المنشد** وما عليه **الشاعر الجوال**، ظهرت طبقة ثالثة تملأ ما بينهما من فراغ، أحط من الأول وأرفع من الثانى، وتكون بينهما حلقة اتصال، واختص بها الأندلس وحده، ويطلقون عليها بلهجة جيليقية، اسم Segreier أو Segral [(١)]، ولست أعرف كلمة واحدة فى العربية يمكن أن تؤدى هذا المعنى، ولكنى أعتقد أن إطلاق اسم « **الشاعر المنشد الجوال** » عليه، لأنه أخذ من صفات كل واحد شيئا، يمكن أن ينتهى بنا إلى المعنى المقصود. ينتمى هذا الشاعر - عادة - إلى جماعة تتحرك فى إطار طبقة الفرسان، يقومون لهم على الخيل إعداداً وإطعاماً وعلاجاً، وقد يكون فارساً من الطبقة الدنيا، أو نبيلا مفلساً، ورث اللقب دون أن يرث معه مقوماته، ولايملك من الوسائل ما يرفعه إلى مرتبة الفروسية، أو يفى بمطالب النبل، فيجد فى قرض الشعر وسيلة للعيش، يرحل من بلاط **إلى بلاط، ويصحب الجيوش، ينشدها قصائده أحياناً، ويغنى لها قصائد غيره** أحياناً أخرى، ويشترك معها فى القتال إذا دعت الضرورة، ويؤمن بكرامة مهنته. غير أنه تأثر فى أخلاقه الشخصية بأخلاق الشاعر الجوال، فهو سكير ثرثار، لحوح سؤول، دائماً مع سيدات لسن فوق مستوى الشبهات.

لقد كان يفترق عن الشاعر عن الجوال بأنه ينتمى إلى طبقة الأشراف، ويقرض الشعر بهدف أن يغنيه، وليس عرضاً أو هواية، ويفترق عن الشاعر المنشد بأنه كان يتقاضى لأغانيه أجراً.

ومنذ القرن الثالث عشر نلتق **بالعميان** داخل نطاق الشعراء الجوالين، يكونون طبقة متميزة، ويشير لهم كثيراً **رئيس كهنة مدينة هيتا**، من أدباء القرن الرابع عشر الميلادى، فى كتابه : « **الحب المحمود** »، وينعتهم أحياناً

(١) يرى خوليان ريبيرا أن هذه الكلمة تطور لكلمة زجال العربية، وقد ترجمنا دراسته عنها، ونشرناها فى مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

بالعميان المتسولين، لأنهم يمضون بقيادة صعلوك، ينشدون ويغنون ويطلبون الصدقات، خبزاً أو مالا أو شراباً أو ملابس، وليس هذا مما يطلبه المتسولون عادة، إنما يرتفع بمن يطلبه إلى مرتبة الشاعر الجوال. وكان رئيس الكهنة شديد القسوة عليهم، فاعتبرهم أحط درجات الشعراء الجوالين، رغم أن بعضهم كان يمتلك مواهب نادرة، تؤهله ليلمع فى أى بلاط ملكى، وبعضهم لمع فعلا، وبقى الأعمى حتى نهاية القرن الرابع عشر، فى الأندلس وفى جنوب فرنسا أيضاً، مشهوراً بأنه خير من يقص حكايات البطولة القديمة ويغنيها.

وكان بين الشعراء الجوالين من ينتمون إلى طبقة رجال الدين، يتخذون من أبواب الكنائس مسرحاً، يضحكون الناس بحركات بهلوانية، أو يغنونهم أشعاراً دينية، إلى أن صدر قرار المجمع الدينى المنعقد فى **طركونة** عام ١٣١٧م، بمنع رجال الدين من احتراف مهنة شاعر جوال، وكان من السهل دائماً على الشاعر الجوال أن يصبح رجل دين، والعكس صحيح أيضاً. ونجد **فى وثائق عام ١١٦٠م أن رجل دين يدعى كليرمنت، كان يقرض الشعر، ويجيد الغناء، ثم ترك الرهبنة ليصبح شاعراً جوالا، ومضى يعرض فنه بين القصور المختلفة، غير أنه عاد إلى حرفته الأولى، رجل دين من جديد، فقد وجد هذه تدر عليه الربح أكثر مما تعطيه المهنة الأخرى.**

وإلى جانب الرجال نجد النساء أيضاً، وعلى نحو خاص فى القرن الثالث عشر، وحدهن أو مع الرجال، فى قصور الملوك، وقلاع السادة، وأفراح الجماهير، يعرضن فنونهن المختلفة، وكانت المرأة الجوالة مثلا للمرأة الصايعة، تربح حياتها بما يدفعه لها الجمهور. وكان بينهن، على نحو ما كان شائعاً فى العصور الوسطى وعلى أيامنا هذه، من يقدمن للجمهور الغناء والرقص وأجسامهن أيضاً. ويأتى ذكرهن فى أخبار القرن الثالث عشر على أنهن شاعرات جوالات، ويشير إليهن الشعراء على أنهن سيدات مرحات، دون أن يعرضوا لما

يقدمنه من فنون تفصيلا، ربما لأن فنهن كان ثانوياً فى حفلات القصور بالنسبة لما يعرضه الرجال، وأحياناً كان يطلق على المرأة الشاعرة الجوالة اسم Soldada أى التى يؤجرها تابعها، زوجاً أو رفيقاً أو صديقاً، ليربح من ورائها شيئاً.

● ● ●

كان الشاعر الجوال إذن يزاول أشياء كثيرة، يعزف الموسيقا، ويغنى الملاحم، وينشد قصائد الغزل، وينظم الشعر، ولكنه فى الوقت نفسه مهرج مشعوذ يضحك الجماهير، وامرأته بهلوانة. غير أن هناك شعراء جوالين كانوا أكثر احتراماً من غيرهم، وجُدوا فى قشتالة حيث ازدهر أدب الملاحم وفى أمكنة أخرى كأرجون، ووقفوا حياتهم على رواية شعر البطولة ومغامرات الفرسان، ومعجزات القديسين، فكانوا موضع الرضا من رجال الدين والأخلاق، ومن ثم يمكن أن نميز بين فريقين من الشعراء الجوالين : من تخصصوا فى **الأشعار القصصية**، ومن أعجبوا **بالشعر الغنائى**. والذين يعزفون الموسيقا يعرفون من أدواتها : الناى والبوق والمزمار والقيثارة والقانون والرباب، ثم الدف والطبل، ويعتبر من يستخدمها أدنى طبقة من الآخرين. وكل قصيدة تستدعى موسيقا معينة، على آلة محددة، تصاحبها فى الغناء أو الإنشاد.

مهمة الشاعر الجوال أن يرفه عن كل الناس، من أعلى درجة فى المجتمع إلى أدنى طبقة فيه، ويسعد بمهاراته الملوك كما يسعد عامة الشعب، وترتبط نوعية الشاعر بالمستوى الاقتصادى لمن يغنيه، فلا يمكن التسوية بين شاعر ضمنت له لقمة العيش، وتوفرت له سبل الإجادة، ويسرت له آلات الموسيقا، وبين آخر ينتزع رزقه من جيوب جماهير مطحونة، بصعوبة بالغة.

كان من الشعراء من يتردد على القصور، ومن يرحل من بلاط إلى آخر، ومنهم الموظف المقيم، الملتحق بحاشية الملك أو السيد أو الأمير، يتقاضى راتباً

ثابتاً، ومهمته أن يسليهم بأرقى مهاراته وأدناها، وما تدرج منها بين السمو والانحطاط. وكان غرام الملك وكبار رجال الدولة بهذا الفن مثار الشكوى الدائمة، لأنه أخطر ما يغرم به إنسان مسئول، فقد جعلهم ينسون واجباتهم العامة تماما.ويتمتع الشاعر، موظفاً أو عابراً، بتقدير كبير من الملك ومن حوله، ويسفر لهم أحياناً، فقد كان الشاعر الجوال من أشد وسائل النشر فاعلية* وتأثيرا فى الرأى العام. وزاحم كبار رجال الدين، ورؤساء الكنائس والمطارنة، الملوك والساسة فى هذا الاتجاه، فكان لهم شعراؤهم الجوالون أيضاً، وتعكس وثائق هذا العصر سخطاً مريراً من شعراء مثقفين، يقرضون الشعر باللاتينية، ولكن الكنيسة، واللاتينية لغتها وبين رجالها تعيش، أوصدت أبوابها فى وجوههم، بينما ترحب بالشعراء الجوالين وتسخو عليهم فى العطاء. ولم يتردد صغار رجال الدين فى تقليد كبرائهم، ثم أسرفوا فى اتخاذ هؤلاء الشعراء، فأصبح الأمر موضع النقد الشديد، واضطرت المجامع الدينية أن تحرم هذا العمل، وأن تشدد عليهم فى النكير. واتسعت دائرة توظيف الشاعر الجوال، فكان للبلديات شعراؤها، بل ولكبار الشعراء المنشدين أيضاً. وكثر عددهم، وزادت مرتباتهم، فكان الملوك يهدونهم القصور والضياع، ويعفونهم من الضرائب والالتزامات. وأحيانا يتلقون رواتبهم من البلديات قمحاً أو شعيراً أو ملابس أو نبيذاً، أو قدراً محدداً من المال ،ومع زيادة العدد، وكثرة الدخل، أصبحوا يكونون طبقة برجوازية متماسكة فى عدد من المدن، وأشهرها **ساهاجون** فى القرن الثالث عشر، **وأشبيلية** بعد ذلك بقرنين من الزمان.

وقد يقنع شاعر الجمهور بعد أن ينتهى من إنشاد الملحمة أو القصيدة بسؤال سامعيه شيئاً متواضعاً : أن يأمروا ساقى الحان يقدم له شيئاً من النبيذ، أو يهبونه كسوة، إذا لم يكن فى جيوبهم شيء من المال. وعند ما يبلغ الطرب والإعجاب بالفارس حده، كان يتنازل للشاعر عن جواده، أو بغله، وكان

امتطاء هذا الجواد خلال رحلاته أعظم شيء يطمح إليه، لأنه يزيد من قدره، ويرفع من قيمة الهدايا التى تقدم إليه.

وعند مازوّج **السِّيد** بنتيه، تبعاً للواقع وكما فى الملحمة، وزع الملابس على الشعراء، وكان تقديم الملابس أكثرها شيوعا ،والأسلحة أقلها تقديما، وقد تطرح الملابس تحت قدمى الشاعر زيادة فى الإعجاب به، وأحياناً تبلغ من الكثرة حداً يجعل حملها مصدر ضيق له. وعندما تزوج ألفونسو الرابع ملك أرجون، وأقيمت الحفلات فى سرقسطة عام ١٣٢٨م دفع ممثلو مدينة بلنسية للشاعر الجوال ملابس محلاة بالذهب، وتنازل جميع المائتين وستة وخمسين فارساً الذين شاركوا فى الاحتفالات عن ملابسهم الزاهية الفخيمة للشعراء الجوالين. وأمر الأمير **دون بدرو**، بعد حفل الغداء، بإعطاء ملابس غالية لكل شاعر جوال. وهو بذخ كان يثير دائماً رجال الأخلاق فى العصور الوسطى، لأنه يدفع هذه الطائفة إلى التغالى فى رذائلها، والإسراف فى المعاصى التى ترتكبها علانية. وفى الوقت نفسه كان الشعراء المنشدون من أشد الناس عداوة لأرباح الشاعر الجوال، ولم يكونوا مدفوعين بعامل أخلاقى وإنما كانوا لهم حاسدين. وكان هناك من يعتذر لنفسه، أو أمام ناقديه، بأنه يقدم للشعراء الجوالين لأنهم فقراء، وليس لأنهم شعراء. والحق أن كل طبقات المجتمع كانت أسيرة هؤلاء الشعراء تدفع لهم راضية، مهما كان مستوى الدخل الذى تعيش فيه.

ومن الشائع فى التراجم البروفنسالية أن نجد سيداً يعطى كل أثاث بيته لشاعر جوال استلطفه، والشاعر البرتغالى الجوال **مرتين جالو** Martin Galo ، وشهر بسلاطة لسانه، كان الناس يخافونه ويشترون صمته، وكان مع ذلك يجد على الدوام من يقدر شعره، فيعطيه جواداً أصيلا، أو ملابس غالية، أو عباءة مزينة. وكان الشعراء الجوالون عادة يبيعون الملابس التى يتلقونها، حتى ولو خرقة بالية لا تجد شاريا، وبلغت ثروات بعضهم حدا يكفى لإثارة الغيرة فى

صدر ملك من نبرة، أو فارس من قطلونية، فيبعث بمن يترصد الشاعر فى الطريق ليسلبه ثروته وما يمتلك. والحق أن الشعراء سريعاً ما كانوا يفقدون ثرواتهم وضياعهم، دون حاجة للوقوع فى قبضة قاطع طريق، فهناك الحانة حيث يشرب، وبيوت الخنا حيث يتردد، وحلقات اللعب حيث يقامر، وهى رذائل كانت منتشرة وكافية لتجعل من أى شاعر جوال مفلسا مهما ربح. ولو جرؤ اللصوص وهاجموه فسوف يتصدقون عليه رأفة بما هو فيه.

وبدهى أننا نتحدث عن الكثرة الغالبة. فهناك دائما من يعرفون كيف ينمون أرباحهم، فيشترون البيوت، ويملكون الضياع، ويختمون حياتهم بإقامة مؤسسات خيرية، تكفيراً عما ارتكبوا من آثام وموبقات.

وكان الشاعر الجوال يزاول مهنته فى أى وقت، فى الساعات العادية أو اللحظات الممتازة، تبعا للبرنامج المعد، وخيال الشاعر، ومكانة المحتفل، ولون المناسبة. مثلا فى حفل من يدعى **ألبرتودى أرتيوس**، عام ١٢٢٧م، نجد بعض الموسيقيين يركبون على ثورين، مغطيين بكسوة قرمزية، يدقون الطبول عند كل طبق يقدم للملك، وكان الشاعر الجوال، إلى جانب الخورى، الشخصية الرئيسية فى أى حفل يقام للزواج، وكلما كان عدد الشعراء كبيراً كان ذلك شاهداً على عظمة الحفل، ورفعة شأن أصحابه. وقد يغنّى الشاعر فى غير حفل، عند تناول الأمير طعامه، أو استرخائه على فراشه، إذ العادة أن يلبى الشاعر أيه دعوة توجه إليه من الملوك أو العامة، حتى لو لم يكن ثمة مناسبة عامة، ويغنى فى بدء المأدبة، وعند نهايتها، ومن المهين لأى أمير أن يغلق قصره فى وجه أى شاعر جوال يصل ساعة تناول الطعام. وفى مثل هذه المناسبة فإنه يغنّى عادة ملاحم تاريخية، أو بطولات حربية أو عن التلاقى بالسلاح بين الفرسان. ولقد تكون مائدة السيد أو الإقطاعى، أو من يتشبث بمستواهما الاجتماعى، بسيطة متواضعة، لكنها لابد أن تضم بعض الشعراء

الجوالين. مغنين أو عازفين، لأن افتقادهم عمل شائن يمس كرامة صاحب الطعام.

ونجد الشاعر الجوال فى الحفلات الدينية أيضاً، يلعب دوراً كبيراً، منشداً وعازفاً ومغنيا، ومنهم من ينتهى به الأمر إلى أن يصبح شاعراً جوالا دينياً، إن صح التعبير، فيقتصر نشاطه على الكنائس، أو على الجماهير الفقيرة دون أن ينتظر منها شيئاً، وأناشيد مثل هذا الشاعر تكون دينية عادة، ويشاركه فيها القسس والرهبان، مرددين وعازفين ومنشدين. لكن ينبغى ألا نفهم من تدينهم هذا أنهم كانوا أتقياء دائماً، فقد شكا بعض المؤرخين ورجال الدين من أن حفلات بعض القديسين التى يحضرها هؤلاء الشعراء، لا يقضى الناس ليلها مصلِّين خاشعين، وإنما فى الغناء وترديده، والموسيقا وسماعها، ومع هذا الجو تصبح المواعظ الدينية ثقيلة على قلوب الناس. وأيًّا ما كان الأمر، لقد كانت الكنائس، متعللة بأية مناسبة دينية، تبحث عن هؤلاء الشعراء، وفى مرات غير قليلة تغدق عليهم العطاء.

وكانوا، مع مدربى الكلاب والصقور، يصحبون السادة وسيداتهم فى الرحلات، يغنون لهم عبر الطريق وعند التوقف، ويذهبون عنهم رتابة السفر، ويمضون مع الجيوش إلى الحرب، يدقون الطبول. وفى مقاطعة بروفانس، وعلى نحو خاص فى المرحلة الأولى، كانت مهمة الشاعر تختلط تماماً مع مهمة الجندى. وهم مع الجيش ينشدون القصائد الغنائية، ويعزفون الموسيقا المبهجة، ليبثوا روح العناد بين الجنود، وكان يقال فى الأمثال: «إن هذا الجيش عائد بهمهم بلا أغان، كما لو كان مهزوماً فى ساحة القتال». وأحياناً يؤتى بهم إلى جوار أسرة المرضى لمواساتهم، أو الجرحى للتخفيف عن آلامهم. وفى وسع الشاعر الجوال بفنه المقتدر، أن يجعل الأدب والموسيقا يبلغان قمة المتعة، بهما

ينزع الحزن من القلوب الكليمة، ويبعث الأمل فى العزائم المنهارة، ويمد الأرواح القانطة بالهدوء والاطمئنان. غير أننا يجب ألا ننسى أبداً أن هؤلاء الشعراء يحملون حياة شخصية متناقضة، فهم أنصاف ملائكة وأنصاف شياطين.

● ● ●

تقدم لنا الوثائق، كما ارتأينا عبر الصفحات الماضية، الشاعر الجوال فى حالة غير كريمة، عربيداً سكيراً، مقامراً، على استعداد لأن يتقبل كل الإهانات، فهل كان فنه فى مستوى أرفع من تقاليده؟ فيما يلى سنحاول الإجابه على هذا السؤال.

الرحلة إحدى الخصائص الجوهرية للشاعر الجوال، وتعنينا فى دراسة التاريخ الأدبى على نحو خاص. وعلى نحو ما كان الشاعر العربى يفعل، يجىء من المشرق إلى الأندلس طلباً للشهرة، أو الثروة، أو المتعة، كان الشاعر الجوال فى الأندلس يرحل بحثاً عن جمهور جديد، وهو فى رحلته هذه ينشر المطوى من الآداب، ويشيع الجميل من الأنغام، بين المقاطعات والإمارات والممالك المختلفة، المتناثرة على امتداد شبه الجزيرة الإيبرية. لقد كان هناك أربعة من الرجال المثقفين فى العصر الوسيط يتعاونون على جعل الأدب عالميًّا: التاجر، ورجل الدين، وطالب العلم، والشاعر الجوال.

كان الشاعر الفقير يرحل على قدميه، وفى لحظات طارئة غير مستقرة، كان يملك دابة، وكل متاعه الذى يحمله معه هو العود، أكثر الآلات الموسيقية استخداماً، ومخطوط يضم القصائد التى يُغنيها، وعادة يكون صغير الحجم، متآكل الجوانب، متواضع الكتابة والزخرفة والتجليد. وهو يرحل على امتداد الأندلس كله، وكان العميان أكثر رحلة من غيرهم، وربما طاف أحدهم شبه الجزيرة كله، بقصيدة واحدة يتعيّش منها. أما الأغنياء فكانوا يملكون

ما يركبونه، حصاناً أو بغلا أو حماراً، وكلهم، الفقراء والأغنياء، يبحثون عن جمهور يستمع، فى الأسواق والشوارع والميادين العامة، وآونة فى قلاع السادة أو قصور الأغنياء.

وعُرِفَ الشعراء الجوالون بالعيافة، يتفاءلون ويتشاءمون ، فيزجرون الطير، ويستقرئون النجوم، ويستهدون مطالع الفلك، واستقبال الشاعر بالترحيب شيء تفرضه العادة، بين الشعب أو عند السادة، فلا يجهد نفسه، لحظة وصوله إلى أى مكان، فى البحث عن مأوى ينزل فيه، فالناس جميعاً يعرفون أنه يحمل معه من البهجة والمتعة ما يقطع رتابة الحياة فى أى بيت يمضى الليل فيه. والذين يقصرون رحلاتهم على الملوك يظهرون أمامها عادة، يحملون رسالة توصية من فارس، أو من شاعر منشد، أو من نبيل صديق، وحتى الشعراء الجوالون الذين يؤدون مهمتهم موظفين ثابتين، كانوا يرحلون إلى أراض أخرى، استجابة لدواعى مهنتهم، وبحثاً عن المزيد من الشهرة والمعرفة والتجربة.

هذه الرحلات المتواصلة أعطت فن الشعراء الجوالين طابعاً عالميا سمحاً، يأخذ ويعطى، يُؤَثِّر ويَتَأَثَّر، وكانوا، دون ما ريب، أداة فعالة لتبادل الآداب بين المناطق المتعددة، ذات اللهجات المختلفة، فى الأندلس، وبين بقية العالم المتحضر إذ ذاك. فهم يأتون من فرنسا وإنجلترا وإيطاليا، أو يذهبون إليها، والقادمون من المشرق، وبخاصة إلى الجانب الإسلامى من الأندلس، لا ينقطع سيلهم، من العراق، وسوريا ومصر، وكان الأندلس بقسميه المسيحى والإسلامى، وصقلية الإسلامية، نقطة الالتقاء بين الشعراء الجوالين، من العرب أو المسيحيين.

وكانت الرحلة بعامة، ورحلة هؤلاء الشعراء بخاصة، عاملا هاماً فى إشاعة الموسيقا والأدب بين المقاطعات المختلفة، والبلاد المتعددة، فعوضت العالم إذ

ذاك عن المطبعة، وكانت رحلة الشاعر الجوال أكثر تأثيراً من أى شخص آخر لأن فنه يسمع ويفهم دون حاجة إلى معرفة جيدة باللغة التى يُغنَّى فيها، وإنما يكفى الإلمام بها، أو حتى دون معرفتها، ولم يقف دور هؤلاء الشعراء عند ربط المقاطعات ذات اللهجات المختلفة، والتمكين للغة أدبية واحدة تفرض نفسها على الجميع، وإنما تجاوزوا هذا الهدف، وهو بذاته جليل وخطير، إلى تقريب الأذواق، وإشاعة الشعر. إنهم وهم يرحلون من قصر إلى قصر ، ومن سوق إلى سوق، يصنعون باللغة والشعر والفن ما تصنعه بها الإذاعة الآن.

الدور الأكبر أهمية للشعراء الجوالين فيما يتصل بتاريخ الثقافة هو ابتداع الشعر، وإشاعة الموسيقا. ويعنى بهم دارس الأدب وتاريخه بوصفهم رواة ومؤلفين. ويهمنا منهم بنوع خاص، فى هذه الدراسة، أولئك الذين اتجهوا إلى أدب الملاحم، بألوانه المختلفة، بطولة ومغامرات وقصصاً. وثمة آخرون اهتموا على نحو أشد بالقصيدة الغنائية، هجاء وغزلا، وألوانا أخرى كلها ذاتية وغير قصصية. وإذا كان شعراء القصيدة الغنائية معروفين، وحفظ لنا التاريخ معلومات وافرة عنهم، فنحن نجهل أصحاب الملاحم تماماً.

كان الشاعر الجوال ينشد الشعر الغنائى ويرويه، فإذا طمح أن يكون شاعراً منشداً فحينئذ يقرض الشعر أيضاً. وهؤلاء الشعراء، جوالين أو منشدين، كانوا يؤدون نفس الدور الذى اضطلع به الشاعر الجاهلى من قبل، إثارة ومدحا وتمجيداً. وقد جاء الشاعر الجوال **البروفنسالى مركبرو** Mara-cabru إلى إسبانيا عام ١١٣٥م، ومدح **ألفونسو السابع**، واستمنحه جوائزه، ولعله ألف وهو فى قشتلة قشتالة قصيدته Le chont de La voir يدعو فيها إلى الحروب الصليبية، ولما عاد إلى جنوب فرنسا أخذ يستثيرهم للذهاب إلى إسبانيا لقتال المرابطين دفاعاً عن المسيح. وبعضهم كان يشارك فى القتال **مع سيده فعلا، فالشاعر القطلانى المنشد هوجو دى متبلانا** Hugo de

قاتل مع **بدور الثانى** ملك أرجون ضد الموحدين فى معركة Mataplana العقاب. والقصائد التى أشاعها هؤلاء الشعراء، عبر شبه الجزيرة الإيبرية، أول طراز من الشعر الغنائى، وقد ازدهر فى العالم اللاتينى بأجمعه، ومس جوانب متعددة من مشاكل الإنسان، من حب ومدح، ووصف وهجاء، وأشعار رعوية، غير أن معظم قصائد هؤلاء الشعراء، من البدء إلى أن استقرت اللغة فى مطلع القرن السادس عشر، غير مفهومة تماماً، أو يعسر فهم المراد منها إلى حد بعيد. ومن المفيد أن نشير هنا إلى أن ديوان **ابن قزمان** الأندلسى المتوفى عام ١١٦٠، وكتب فى عامية أهل الأندلس، وهى خليط من العامية العربية والرومانثية الأندلسية، ووصلنا كاملا، مازلنا عاجزين عن فك طلاسمه، ولم نفهم من قصائده إلا القليل.

● ● ●

أول ذِكْر لشاعر جوال ينشد الشعر القصصى نجده فى «كتاب التاريخ» لمطران طليطلة **لذريق**، وانتهى من تأليفه عام ١٢٤٣م، وفى ضوء ما أورده لنا من معلومات يرى علماء النقد أن الجانب المسيحى من الأندلس لم يعرف شعر الملاحم قبل القرن الثالث عشر، والحق أن هذا اللون من الشعراء والشعر كان موجوداً قبل تأليف هذا الكتاب بزمن طويل، فى مقاطعة بروفانس جنوبى فرنسا، وفى جليقية شمال غربى الأندلس، غير أنه لم يُحفظ لنا من هؤلاء الشعراء الملحميين ولا اسم واحد، ولم تصلنا منه ولا ملحمة واحدة، باستثناء ملحمة السيد.

لكن الظلام الذى يلفّ هؤلاء الشعراء الملحميين لا يعنى أبداً، وعلى أى نحو، أنهم كانوا وأعمالهم أقل احتراماً، أو يسترعون انتباها أقل . على العكس، كان لهم فى قصور الملوك والفرسان مكان ملحوظ، وإذا كان الإنتاج

الشعرى الغنائى له من الأهمية ما جعله يجمع فى ديوان، فإن العمل الملحمى كان أكثر علوا وتقديرا فجمع فى « مدونات ». وشخصية كل من الشاعرين توضح لنا الفرق بينهما، وتفسر لنا كثرة الأخبار فى جانب وانعدامها فى الجانب الآخر. فالأخبار الهائلة عن الشعراء الجوالين الغنائيين مردّها إلى أن الشاعر الجوال عندما يُغنى، أو ينشد شعراً غنائيًا، فإنما يغنى لنفسه عن نفسه، رغم كثافة الجمهور الذى حوله، ويصور انطباعاته إزاء الحياة التى تحيط به، ومن ثم فإن أشد القصائد قصرا ترد فى الدواوين أو كتب المختارات منسوبة إلى صاحبها دائماً، وفى أحايين كثيرة مصحوبة بترجمة مفسرة لها، لتوضيح الإشارات الواردة فيها.

وعلى النقيض من ذلك تأتى القصائد الكبرى، وتضم آلاف الأبيات، فى المدونات التاريخية دون أن يعنى ولو بإشارة عابرة إلى الشاعر، لأن المؤلف كان يعتقد أن ذكره، إذا كان اسمه معروفاً، تشكيك فى صدق الرواية التى يوردها، إلى جانب أن المؤلف كان يجهل شعراء هذا اللون من الشعر عادة. كان شعراء ومنشدو الشعر الغنائى لا يملون الحديث عن أنفسهم واتخاذها مثلا إذا دعت الضرورة، بينما شعراء الملاحم ورواتها ومن يتغنون بها يؤثرون أن يقدموا القصة محايدين وموضوعيين، دون أن يصلوا بينها وبين الحياة اليومية الجارية. وهم يؤثرون ألا يذكروا عن أنفسهم شيئاً. والحق أن الملاحم الفرنسية تذكر اسم الشاعر المؤلف، أما الملاحم الأندلسية فلم تخرج عن قاعدة تجاهله ولا مرة واحدة. ويمكن أن نفسر تجاهل مؤلف الشعر الملحمى بأن شعره ليس من إبداعه، وإنما هو، فى كثير من الحالات، صقل لعمل آخر أكثر قدما. وقد تكون أيضاً عملا جماعياً، وليست من صنع مؤلف واحد، فشارك فى صوغها كثيرون على امتداد عصور متعاقبة.

أدّى الاختلاف بين الفنيين وبين الشاعرين إلى اهتمام مختلف بهما، وإلى

دراسة منفصلة لكل واحد منهما، ولو أنهما متكاملان فى الحقيقة، فالذين اهتموا بالشعر الغنائى رسموا لنا صورة جذابة للشاعر الجوال، بعاداته ومشاعره ورحلاته وهداياه فى بلاط الملوك، وتسوّله بين العامة، ونشاطه المستمر والمريب على الحدود مع الدولة الإسلامية، وأن شعره يتدفق من داخله، يعكس أعماقه، فيأتى فناً ذاتيًّا خالصاً. بينما الشعر الملحمى يبقى بكل شهرته، داخل نطاق الرواية والشعبية، وإذا كان مؤلف القصيدة الغنائية لا يحب أن يسمى شاعراً جوالا Juglar ويفضل أن ينادى شاعراً منشداً Troubadour، فإن شاعر القصيدة الملحمية لا يمكن أن ينسب إلا إليها، فهو شاعر جوال ذو لون خاص، داخل معنى الكلمة الفضفاض. وكانت الكنيسة الرسمية فى الجانب المسيحى غير راضية عن الشعراء الجوالين الغنائيين، وتعطى تأييدها كله للشعر الملحمى، بوصفه رسالة تهذيب، لتعليم التاريخ، وتربية الوجدان غير الرخىّ، وهو رأى لا يبعد كثيراً عن رأى نظرئهم من رجال الدين فى الجانب الإسلامى.

وإذا كنا لا نعرف رواية واحدة لملحمة شخصية، إلا أن المدونات التاريخية احتفظت لنا بمقتطفات من ملاحم أكثر قدماً من أية قصيدة غنائية محفوظة، وتسمح لنا، ولو تقريباً، بتصور ألوان الشعر القصصى الذى كان يتغنى به الشعراء الجوالون. سنجد أن هؤلاء الشعراء يقصون علينا ألوانا من الصراع الداخلى بين العائلات القشتالية الإقطاعية، قصص فيه ثأر وتسامح، وعفو وانتقام، وحب وخيانة، وشرف وخسة، ووفاء وغدر، وكل فضائل الحياة الإنسانية ورذائلها، ولم تأخذ هذه الملاحم مادتها من الصراع بين المسلمين والمسيحيين وكلهم أندلسيون، إلا عندما غزا المرابطون الأندلس، وهم أفريقيون، ثم باستيلاء السِّيد على بلنسية، وكان السيد يمثل عاصفة هزت كل بنيان الأندلس المستقر، فى مجالاته المختلفة، الاجتماعية والدينية والطبقية. ويتميز

الشعراء الملحميون الإسبان دائماً بأنهم يلتقطون مادة ملاحمهم من الأحداث المعاصرة التى تحيط بهم، بينما الشاعر الملحمى الفرنسى، والبروفنسالى على نحو أخص، يقص دائماً أحداثاً بعيدة، ترجع عادة إلى عصر شارل.

أما الجوّال الأعمى، ويتعيش من إنشاد المغامرات القديمة أو غنائها، فقد أصبح موضع الاحتقار من شعراء البلاط، ومن رجال الدين على السواء، خلال القرن الخامس عشر وما تلاه، ثم لف الظلام حياته وحمله التدهور حتى النهاية، فلم يستطع أن يستردَّ، أو يلعب دوره فى الحياة الأدبية. ولقد احتضرت الآن كل هذه الأشكال القديمة، ولكن، على نحو ما فى العالم العربى، لاتزال لها ظلال شاحبة فى قرى كورة «أشتورياش» المنعزلة، وكورة «أبلة» الناضحة بكل تقليد أندلسى أصيل، فيها مازال الموسيقى؛ وهو أعمى عادة، يُغنِّى الناس على قيثارته قصصاً يتحدث عن معجزات القديسين، ومغامرات اللصوص، وحيل الشطار، ومفارقات الحياة الغامضة.

● ● ●

منذ البدء كان الشاعر الجوال يسلى الجمهور من كل الطبقات بالغناء والموسيقا، وليس ثمة شك أنه ورث وتمثَّل جانباً كبيراً من التراث الذى وجده، حكايات وأساطير، وأفاد كثيراً مما جاء به المسلمون، ومن الرحلة إلى إيطاليا وجنوب فرنسا، وكان عليه دائماً أن يجدد هذا التراث، لكى يلاحق التطور السريع فى الأذواق، والحركة الدائبة المتغيرة للتقاليد والحياة اليومية، ومراعاة هذا الجانب أعظم ما برع فيه الشاعر الجوال. لقد كان يعيش من عطف الجماهير وفَضْل خيرها، جماهير متجددة تسمع وتعجب وتدفع وتتفوق، والشاعر الخلاق المجدد هو الذى ينتزع منها الإعجاب ويدعها تمضى وفى أعماقها شىء من حبه وتقديره، والعودة إليه، ومطالبته بالمزيد من البقاء.

بدأ الشعراء الجوالون يغنون لحظة انهيار المسرح اللاتينى، وعندما بدأت اللاتينية تتراجع فى ألسنة الجماهير، فكانوا أول من واجه محنة الأديب حين يتحدث إلى جمهوره بلغة لا يفهمها، وأول من أحس بالحاجة الملحة إلى الإنشاد والغناء باللغة المشتركة للسامعين، وهكذا بدأ، شيئاً فشيئاً، يقترب من العامة، ولابد أن وقتا طويلا مضى قبل أن يتمكن هؤلاء الشعراء من أن يجعلوا اللغة اللاتينية غير المفهومة، قريبة إلى أذهان السامعين، يمزجونها شيئاً فشيئاً بكلمات وتعابير من اللغة الشعبية، عائلية أو حياتية أو أدبية، حتى انتصرت هذه أخيراً، وقضت على اللغة اللاتينية نهائياً. وبذلك حقق الشاعر الجوال انتصاراً حاسماً فى المجال الأدبى. لقد شق بشعره الرومانثى طريقه إلى قصر السيد، وفناء الكنيسة، وعرصة السوق، ورحبة الميدان، وامتداد الشارع، وحطم الأسوار الحاجزة بينه وبين وجدان الجماهير، وهى القطاع الأكثر عدداً واتساعاً فى العصر الوسيط، وجعل لغتها مركباً لفنون من القول عالمة وراقية، وقادرة على أن تخلف اللغة اللاتينية، فى الوقت الذى كان فيه الكاتبون بهذه اللغة، محاصرين وضائعين، سجناء لغة ميتة، بلا جمهور ولا ثقل ولا تأثير.

لقد وُلدت الآداب الحديثة على يد الشعراء الجوالين، جاءت إلى الحياة والجماهير غايتها، واستمرت لقرون عديدة أدباً عاميا يتجه نحو العامة، وابتدعها أناس ممتازون، رغم أنهم كانوا يعيشون فى أوساط ذات ثقافة منحطة، بعيدة عن اللغة العالمة، ومع ذلك فلم يكن الشعراء الجوالون من الجهلة، ولا يمكن أن يكونوا، حتى ولو جهلوا اللغة اللاتينية، وبالتالى القراءة والكتابة، فقد كان على كل واحد منهم، فى ضوء ظروفه وقدراته ومحيطه، أن يرتفع إلى مستوى أستاذه ومهنته. ورغم أن شعره كان موجها إلى جمهور أقل ثقافة، لم يكن يختلف، أو يختلف قليلا، عن قصائد الشعراء المنشدين، وهى أكثر أرستقراطية. نعم كان جمهوره بدائيًّا لا يعرف اللاتينية، أميًّا يجهل القراءة،

متفاوت الثقافة، متعدد الذوق، وهى عقبات لا تقلل من قيمة شعره أبداً، لأن المسرح المعاصر، وهو فى قمته يتجه إلى جمهور يختلف ذوقاً وثقافة وعمراً، على نحو أوضح مما كان عليه جمهور العصر الوسيط.

كانت القصائد التى يتغنى بها الشاعر الجوال تتعرض للتهذيب والتنقيح، سواء كانت من تأليفه، أو اشتراها، أو مسروقة، أو منسوخة، لان الجمهور توّاق دائماً لما هو جميل ولطيف وطريف، وعلى الشاعر لكى يحتفظ بمكانته قريباً من قلوب سامعيه وعقولهم أن يجدد نفسه دواما، وكان خلال إنشاده أو غنائه يتحسس ملامح سامعيه، ويرقب مشاعرهم، ولو أن ذلك لا يعنى أن كل قصيدة أعيد بناؤها فريدة بابها. ولم تكن أشعار كل الشعراء موضع تنقيح وتهذيب، فبعض القصائد كانت دون إعجاب الجمهور وتقديره فاختفت سريعاً، وبقيت مُدونّة، إذا كانت قد دُوّنت، فى شكلها الأول بلا تغيير. كما أن بعض القصائد استطاع مؤلفها أن يضعها، منذ أول لحظة، فى آنق لفظ، وأروع جملة، وأنغم بيت، وما من حاجة تدعو إلى إدخال تعديل عليها، ولدينا من هذا اللون كتاب « الحب المحمود » ديوان شعر كامل لرئيس كهنة مدينة هيتا، فقد جاء غاية فى بابه منذ أن جرى به قلم صاحبه شعراً رقيقاً.

● ● ●

كان مسلمو الأندلس، فى جملتهم الغالبة، من العناصر التى لقيها الفاتحون المسلمون فى شبه الجزيرة، ومع استقرار هؤلاء انتشرت لغتهم، وساد دينهم، وأخذ السكان يتكلمون فى حياتهم اليومية لغة هى خليط من العربية والرومانثية، ولقد ابتُدع الزجل فى قرطبة فى آخر القرن التاسع الميلادى وأول العاشر ليواجه هذه الظاهرة، ويرضى النهم الجمالى عند المتحدثين بها، ممن لا يفهمون العربية الفصحى، ولا الرومانثية الخالصة، ولا اللاتينية المتحجرة،

وإذا كان ديوان **ابن قزمان** أحسن مثل لهذه الظاهرة فى اللغة العربية، حيث تتناثر الكلمات الرومانثية بكثرة وسط الكلمات العربية، فثمة أشعار رومانثية أيضاً، لشعراء جوالين مسيحيين، جاءت على هذا النحو، حيث تتناثر الكلمات العربية بكثرة وسط الكلمات الرومانثية، وكانت مفهومة لأى أندلسى، حتى ولو كان مسيحيًّا شماليًّا لا يقيم بين المسلمين. كلمات مثل : حبيب، وحزين، ويارب، والقلق، والصباح، والفجر، وكلمات أخرى كثيرة ذات إشعاع وجدانى. وقد أدت هذه الظاهرة إلى نتائج هامة على الصعيد الرسمى للدولة، فكان الأندلس أشد بلاد العالم الإسلامى تشددا فى الدين، وتحمساً للفصحى، وعناية باللغة، وتتبعاً للأخطاء، وتأليفاً فى «لحن العامة»، وإهمالا للظواهر التى تمس هذا الاتجاه على صفحات كتب الأدب والتاريخ والمختارات، فليس بين أيدينا ما يساعد على معرفة نشأة الزجل أو الموشحات وتتبع تطورهما، على نحو واضح وبضمير مطمئن. **وإذا كنا نجهل الآثار الأدبية لهذا الاتجاه، فمعلوماتنا عن الشعراء الجوالين المسلمين فى الأندلس الإسلامى قليلة للغاية، أو هى نادرة وبخاصة فى المراجع العربية.**

إلى حد بعيد يمكن اعتبار **ابن قزمان** المتوفى عام ١١٦٠م. مثلا للشاعر العربى الجوال، وأورد لنا المؤرخون نتفاً من أشعاره، ووصلنا ديوان أزجاله كاملا، وكان فى حياته الخالصة مثالا حيا للمسلم الأندلسى الأصيل. كان مرتفع القامة، أشقر الشعر، أزرق العينين، عربيداً متهتكا، غير كبير اعتداد بالدين والتقاليد، قليل الاستقرار والإقامة، كثير الرحلة من بلاط إلى بلاط، يربح عيشه من الحفلات خاصة أو عامة، يعيش من شعره، ويستهدى مادحيه وسامعيه، نبيذاً أو ملابس أو دقيقاً أو سكناً، أو جواهر لعشيقاته، أو حتى دراهم ليقص شعره، وهو إلى جانب أنه شاعر وزجّال، صاحب نكتة ونادرة، جليس ومسامر، يستطيع أن ينثر البهجة، ويبعث المرح، بين من يسهرون معه

أو يستمعون إليه، وهى خصائص الشاعر الجوال كما أومأنا إليه.

ونجد فى المصادر الأندلسية المسيحية معلومات لا بأس بها عن شعراء جوالين مسلمين، كانوا يقيمون فى الجانب الإسلامى أصلا، ثم يرحلون إلى المالك المسيحية ليتعيّشوا، أو من المسلمين الذين تخلّفوا فى المالك المسيحية بعد أن انحسر عنها مدّ الإسلام.

كان رجال الدين المسيحيون دائمى الشكوى من أن المسيحيين يأتون بالشعراء الجوالين المسلمين واليهود إلى الكنائس ليغنوا ويرقصوا مما يتنافى مع وقار أمكنة العبادة وجلالها. ونجد هؤلاء الشعراء المسلمين فى رفقة عدد من الأمراء أو الأغنياء، فعندما ذهب الأمير **بدرو**، والذى سيصبح فيما بعد الملك **بدرو الثالث** العظيم، ليزورحماه **ألفونسو العالم**، فى ابريل عام ١٢٦٩م كان يصحب معه فى رحلته لتسليته مجموعة من الشعراء الجوالين، بينهم عدد من المسلمين، ويتلقون طبقاً للسجلات مرتبات عالية.

وعندما أرسل **فرناندو الرابع** ملك قشتالة عمه الأمير **دون خوان** ليتفاوض مع **خايمة الثانى** ملك أرجون، عام ١٣٠٤م، تلق هو وأفراد حاشيته هدايا من الملك الأرجونى، وتذكر السجلات من بين هذه الحاشية **الشاعر الجوال محمد**، وكان يجيد العزف على البزق. وفى الكتاب الذى ألفه الملك **ألفونسو العالم** «أغنيات لمريم المقدسة» رسم لشاعرين جوالين، أحدهما مسلم والآخر مسيحى، يعزفان على العود معاً، واقفين متعاونين، إلى جانب منضدة صغيرة عليها نبيذ. وفى بلاط **شانجه الرابع** ملك قشتالة نجد فى عام ١٢٩٢م، عدد الشعراء الجوالين الذين تدفع لهم مرتبات يبلغون سبعة وعشرين، من بينهم ثلاثة عشر مسلما، فيهم امرأتان، وواحد يهودى، واثنا عشر مسيحيا وثمة شاعران آخران، كانت تدفع لهما الملابس فحسب.

ويقول رئيس كهنة مدينة هيتا، وعاش فى القرن الرابع عشر الميلادى، إنه كتب كثيراً من الأغانى لمغنيات مسلمات ويهوديات، ويُرجح أنه كتبها فى رومانثية تفهم عند المسلمين والمسيحيين، وهو يُحذّر بأن كل شعر وله موسيقاه، وكل أغنية ولها آلتها. وأخيراً فقد شهرت مدينة **شاطبة** فى شرق الأندلس بأنها كانت مركزاً كبيراً لهؤلاء الشعراء الجوالين، عنها يصدرون إلى شتى أنحاء الجزيرة، وإليها يعودون، إذا كبرت بهم السن أو ضاقت عليهم سبل العيش.

ومع مطلع القرن الثانى عشر الميلادى بدأ الشعراء الجوالون، على امتداد الأندلس كله، يتغنون بملحمة جديدة، كان بطلها ملء سمع النصف الثانى من القرن الحادى عشر، وقُدر لها أن تكون الوحيدة التى تصلنا من هذا القرن وما بعده، وأن تكون أول وأجمل درر الأدب القشتالى فى العصر الوسيط، إنها ملحمة السيد القنبيطور، وللعثور عليها قصة وتاريخ.

قصة الملحمة

ملحمة السيد Poéma de Mio Cid أول نص أدبى قشتالى يصلنا، ولو أن ذلك لا يعنى بالضرورة أن أول نص مكتوب هو أول نص قيل. وإنما هى قمة محاولات سبقتها، بدأت ربما منذ نهاية القرن العاشر، لتعبر عن صراع الحياة فى عصر تميز بالقلق، وهى نوع من الملاحم الشعرية Poésie épique ، لون من الأدب كان رائجاً فى الأندلس حتى نهاية القرن الخامس عشر، طوال فترة الصراع بين المسلمين والمسيحين، ولم ينضب إلا بعد أن انتهت الحرب لصالح الطرف الأخير. ولم تكن ملحمة السيد وحدها هى التى تنسب إلى هذه الفترة، وإنما ثمة ملاحم أخرى سبقتها فى الأحداث، والتأليف، مثل التى قيلت فى **فرنان جونثالث**، وفى **لوس انفانتس دى لارا**، وفى **برناردو دل كابيو**، وفى **شارل مارتل** وغيرهم من الأبطال الذين برزوا فى صفوف القتال، من إسبان وفرنسيين، وليس من الضرورى أن يكون السبب دائماً تفوقهم على المسلمين، لأن القصائد التى قيلت فيهم قالتها الجماهير، وقالتها بعد حياتهم بزمن، فما كان فى ذاكرتها من الأحداث أشبلح كستها الثوب الذى تريد، وفيما عدا ملحمة السيد فإن الملاحم الأخرى ضاعت ولم تبق منها غير فقرات نثرية، أو أخبار مقتضبة ،وهى ملاحم، فيما يرى العلماء الإسبان، سبقت ملحمة السيد أحداثا وتأليفا.

ملحمة السيد هى كل ما حُفظ لنا من ملاحم هذه الفترة، وهى لون من الملاحم الشعبية التى تتحدث عن البطولة وتدور حولها، ونُشرت منها مقتطفات لأول مرة، فى كتاب نشره M. Edelestand du Méril بعنوان : « قصائد شعبية من

الأدب اللاتينى فى العصر الوسيط». ثم طبعت كاملة ولأول مرة عام ١٧٧٩، حين نشرها **توماس أنتونيو سانتشيث** أمين مكتبة القصر الملكى فى كتابه : «مختارات من الشعر القشتالى، السابق للقرن الخامس عشر» ثم طبعت ثانية عام ١٨٥٨، وتوالى نشرها بعد ذلك على نحو واسع منذ أول هذا القرن، بعد أن ثبَّت قراءتها النهائية، وحل طلاسمها اللغوية، العالم اللغوى الثبت **رامون منينديث بيدال**، فى طبعتها الخالدة وتمت عام ١٩٠٨. ومن ذلك التاريخ فإن كل الطبعات تنقل عنه، وتفيد مما ألحقه بها من شروح وتفاسير، ذلك أن بيدال لم يكن عالماً باللغة أو التاريخ فحسب، وإنما وقف جانباً كبيراً من حياته العلمية الطويلة على كل ما يتصل بالسِّيد نفسه، تاريخاً وأسطورة وملحمة، ويمكن القول أن ملحمة السيد أولى روائع التراث الأدبى الإسبانى، دراسة واعتناء وإقبالا. وهى أول ملحمة شعرية أوربية تصلنا كاملة، إنها تسبق ملحمة La Chanson du Roland الفرنسية، وملحمة Les Nibelumgen الألمانية.

وصلتنا الملحمة فى مخطوطة وحيدة، كانت فى القرن السادس عشر موجودة فى محفوظات المجلس البلدى لقرية بيبار Vivar، وفى سنة ١٥٩٦م. قام من يدعى **خوان رويث** بنسخ واحدة أخرى منها، توجد الآن محفوظة فى مكتبة مدريد الوطنية، والنسخة الأم التى نقل عنها كتبها مجهول يدعى بير أبات Per Abbat ، ويرى المستشرق الهولندى دوزى أن بير أبات هذا كان يعمل مرتلا فى الكنيسة الخاصة بالملك **ألفونسو العاشر**، وأن اسمه يرد فى الوثائق الخاصة بتوزيع الأراضى فى أشبيلية، وتوجد فى مطلع الجزء الثانى من كتاب «تاريخ إشبيلية» لمؤلفة **أسبينوسا**، وقد أمر بتوزيعها ألفونسو العاشر عام ١٢٥٣م، بعد أن افتتح والده **فرناندو Fernando** المدينة عام ١٢٤٨، ويرد اسم بير Per أو بيرو Pero ، وكلاهما اختصار لاسم بدرو Pedro ، فيها مرتين، إلى

جانب أسماء أخرى من عائلته، مرة عند توزيع الأراضى، والمرة الأخرى عند توزيع الحدائق.

تنتهى المخطوطة الوحيدة التى لدينا بالفقرة التالية :

مَن كَتب هذا الكتاب،

فإلى الله خالق السموات،

كتبه فى شهر مايو بير أبات،

عام .CC XL. V

ولكن يداً ثانية أضافت ألى هذه النهاية، فى نفس القرن الخامس عشر، فقرة أخرى مما تعود الشعراء الجوالون أن يرددوها على مستمعيهم عند نهاية الغناء أو الإنشاد :

لقد انتهت القصيدة،

فهبونى شيئاً من النبيذ،

فإذا لم يكن عندكم فبعض الدنانير،

أو شيئاً من الملابس تتركونه هناك،

وماأجمل أن تعطونى الملابس مع المال والنبيذ.

والأرقام الرومانية ,CC XL. V تعنى عام ١٢٤٥ فى التاريخ الرومانى، وهو ما يعادل عام ١٢٠٧ فى التاريخ الميلادى. ويرى **دوزى** أن **بدرو أباد** هذا ناسخ الملحمة وليس ناظمها، لأننا نجده بعد كتابتها بستة وأربعين عاماً، أى فى عام ١٣٥٣، يتحدث عن مخطوطة الملحمة، فيقول إنه « نسخها »، وهو فعل

يستخدم للدلالة على الكتابة المادية، وليس مقصوداً به الخلق الفنى، لأن عملية الإبداع والنظم الشعرى، يعبرون عنها عادة بالفعل « ألفّ ». وهو افتراض يقوم أصلا على ما يراه تاريخاً لحياة بير أبات، فيما أشرنا إليه من قبل.

غير أن المختصين فى دراسة تطور الخط اللاتينى المستخدم فى الأندلس المسيحية يقولون إن طابع الخط الذى كُتبت فيه المخطوطة لا يمكن أن يذهب إلى أبعد من القرن الرابع عشر، ومن ثم فإن **منينديث بيدال** يرى أن هناك C ثالثة ساقطة فى التاريخ الذى بآخر المخطوطة، ومعها يجب أن يصحح فيكون عام **١٣٤٥** بالرومانى، أى **١٣٠٧** بالتاريخ الميلادى.

وهناك من يرى، اعتماداً على تقاليد الشعراء الجوالين، أن **بدرو أباد** لم يكن ناسخاً ولا مؤلفاً، وإنما عمد إلى عدد من القصائد التى كانت شائعة على أيامه عن السيد فألف بينها وأعاد بناءها من جديد. وعلى أى حال فإن الدراسة اللغوية للمخطوطة التى بين أيدينا تظهر بوضوح أن النص نقل عن رواية مكتوبة وليست شفوية، وأن هناك عدداً محدوداً من المخطوطات، وربما كانتا اثنتين، اعتمد عليها الناسخ. وبجانب هذه المخطوطة الوحيدة للملحمة، لابد أنه كانت هناك مخطوطات أخرى، وربما مختلفة فيما بينها، قد ضاعت ولم تصلنا، وأن إحداها على الأقل كانت أصلا للملحمة، والذى ورد فيما يسمى « مدونة عشرين ملكا من قشتالة Cronica de Viente Reyes de Castilla » وقد كُتبت فى القرن الرابع عشر، نفس القرن الذى عاش فيه **بدرو أباد**، ودونت نص الملحمة نثراً، لتضمها إلى تاريخ مملكة ألفونسو السادس. وواضح بجلاء أنها تعتمد على أصل يغاير الأصل الذى اعتمد عليه بدرو أباد، لأن سير الأحداث فى المدونة يغاير سيرها فى النص الشعرى. ولكنه على أى حال كان عوناً كبيراً على تثبيت نص الأغنية وتصحيحها، وإضافة بعض الأشعار

الناقصة، وملء الفراغ الموجود فى النص، وتكملة بعض الصفحات الساقطة، لأن النص الشعرى، أى مخطوطة بدرو أباد، وصلنا تنقصه الصفحة الأولى وصفحتان فى الداخل.

سواء أكان النص الذى بين أيدينا من صنع فرد واحد، أو شارك فى بنائه أفراد عديدون، على ماسنرى، وسواء أكانت الفكرة نفسها تعود إلى شاعر جوال فرد، ابتدع القصة وصاغها، أو كانت همهمة جماعية، انبثقت تلقائياً، إعجاباً بالبطل وافتناناً به، فى أمكنة مختلفة وزمن متقارب، فالذى لاشك فيه أن الشعراء الجوالين والرواة من بعد، قد حوّروا فى الملحمة، نقصوا منها أو أضافوا إليها، أو أعادوا ترتيب أبياتها، وجرى كل واحد منهم بأحداثها على النحو الذى يرضى ذوقه أو عاطفته، حتى إذا شاعت وراجت وبدأ التدوين يمسك بما تناثر منها، انتهت إلى شاعر أخير أو إلى شعراء متعددين لانعرفهم، فالتقط الروايات كلها أو بعضا منها، وصنع منها الملحمة على النحو الذى هو بين أيدينا الآن، فجاءت متماسكة لا يستطيع إلا أمهر العارفين بتحليل الأسلوب الأدبى التمييز بين عناصرها المختلفة.

● ● ●

إلى أى تاريخ تعود فكرتها الأولى؟ يكاد العلماء يجمعون، اعتمادا على دراسة إشارات القصائد وعلى اللغة، على أنها تعود إلى النصف الأول من القرن الثانى عشر، وأنها أُلِّفت فى حياة الملك **ألفونسو السابع** الملقب بالأمبراطور المتوفى فى عام ١١٥٧م، لأن الشاعر وهو يعدّد رفاق الملك **ألفونسو السادس** ذكر **الكونت رامون دى بورجونيا** (١٠٩٠-١١٠٧م) **والكونت إنريك دى بروجونيا** (١٠٩٤-١١١٤م)، صهرى

الملك، وأشار إلى الأول منهما ونعته بأنه أبو الإمبراطور.

وعنـــدما أزف الموعـــد ذهبـــا إلى اجتماع البـــلاط،
وكان الملك الـطيب **دون ألفـونسو أول** مـــن حضر،
وأيضاً **الـكونت دون إنـريك والـكونت دون رامـون**،
والأخير كان أبا مـــن دُعِـــى بـــالإمبراطور الـــطيب[1]

وبينما يذهب **مثيو يويس** بتاريخها إلى أبعد من ذلك قليلا، فيرى، فى ضوء دراسته للنقود الوارد ذكرها فى الأغنية، أن الشاعر الجوال الذى ابتدعها عـاش فى الثلث الأول من القرن الثانى عشر، يـرى **مننـديث بيـدال**، مسـتدلا بالأبيات التالية، وبالبيت الأخير منها على نحو أخص، على أن الملحمـة كانـت صدى لخطوبة تاريخية تمت عام ١١٤٠م :

وتحادث رسل ملكى **نبرة وأرجون**،
ثم اجتمعوا فيما بعد مع **دون ألفونسو ملك ليون**،
وكانت رائعة حفلات زواج **دونيا إلبيرا ودونيا سول**،
وإذا كان الزواج الأول عظيما، فقد كان الثانى أروع وأعظم،
وبه أصبحت الأسرة أكثر شرفاً،
انظر كيف يزداد كل يوم شرفاً من وُلِدَ فى ساعة طيبة،
فابنتاه أصبحتا سيدتى **نبرة وأرجون**،
وملوك إسبانيا اليوم من أحفاده، وإليه ينسبون[2].

---

(١) القصيدة رقم ١٢٠.

(٢) القصيدة رقم ١٣٥.

ففى هذا العام، عام ١١٤٠م، كان **غرسية راميريث** ملك نبرة وحفيد السيد، **وألفونسو السابع** ملك قشتالة، يتهيآن للحرب ثم عدلا عنها، بعد أن توسط بينهما أفراد الأسرتين الملكيتين، وكبار رجال الدين، ولضمان السلم واستمراره اتفقوا على تزويج الأميرة الطفلة « بلانش »، ابنة غرسية راميريث حفيد السيد، من الأمير الطفل شانجه ولى عهد قشتالة، والذى سيصبح فيما بعد ملكا تحت اسم شانجه الثالث، ولأن كلا من الأميرة والأمير كانا طفلين، فقد اتفق على أن تكون هذه مجرد خطوبة، أما الزواج فقد تم بعد ذلك بأحد عشر عاماً، أى فى سنة ١١٥١م، وكانت هذه المناسبة، والأفراح التى أحاطت بها السبب فى تأليف الملحمة.

لكن **دوزى** وهو حجة فى الدراسات الأندلسية فى العصر الوسيط، لا يرتضى هذا الرأى، ذلك أن الملحمة لم تذكر ولا مرة واحدة اسمى الأميرة « بلانش » أو الأمير« شانجه »، ولو كانت ألفت ابتهاجاً بزواجهما لاقتضى الحال أن يشار إليهما ولو عرضا.

وفيما أرى كان تأليف الملحمة لسبب بعيد عن هذا، كان رد فعل جماهيرى وعفوى من عامة المسيحيين فى الأندلس لإقصائهم عن الحروب الصليبية فى المشرق. لقد توفى السيد فى بلنسية بعد أن استولى عليها، فى نفس العام الذى استولى فيه الصليبيون على بيت المقدس، عام ١٠٩٩م، وكان لاستيلاء هؤلاء الصليبين على المدينة، التى تألم فيها المسيح، صدى عميق فى كافة أنحاء أوربا المسيحية، فانتشر الخبر فى سرعة مذهلة، وتغنت الجماهير المسيحية بأسماء أبطاله، وكان للمسلمين فى الجانب الآخر من الأندلس قصصهم وأبطالهم ونضالهم، فأصبحت حاجة الأندلسيين المسيحيين ماسة إلى أبطال وقصص يواجهون بها المجتمع المسيحى على أيامهم، ويقفون معه على قدم المساواة. وليس من قبيل المصادفة وحدها أن معظم الروايات المسيحية الأندلسية

التاريخية، منذ القرن الثالث عشر حتى القرن الخامس عشر، تقدم الحادثتين، استيلاء السيد على بلنسية واستيلاء الصليبيين على بيت المقدس، جنباً إلى جنب. والحق أن وجه الشبه بين كلا العملين كان واضحاً، فكلاهما قام به جماعة من الفرسان ولم يقم به ملك؛ واستهدف الاستيلاء على مدن إسلامية، مع اختلاف الدافع عند السيد عنه عند الصليبيين. وهكذا أصبح السِّيد بطلا شعبياً، وليس بطلا قوميًا، فلم تكن ثمة قومية إسبانية قد نشأت بعد فينسب إليها، واعتبر مثلا أعلى للشجاعة المقرونة بالتقوى والجود والنبل والفروسية، وامتزج ما كان من صفاته حقًا، بما تخيله الناس فيه مثلا، فلم يعد من الميسور اليوم التفرقة بين الحقيقة والخيال.

● ● ●

وإذا كان العلماء قد انتهوا على نحو يكاد يكون قاطعاً، بأن الأغنية كتبت قريباً من عام ١١٤٠، فإن معرفة المؤلف الأول، أو حتى تحديد ماهيته، شيء لم يجزم به أحد بعد. وقد عكف **منندیث بیدال** على دراسة الطرق الواردة فى الملحمة، بتأن وحذر وعناية : فوجد أن الشاعر رغم أنه يذكر مدناً تغطى كل إسبانيا تقريباً ويصف عدداً من الطرق الهامة، يعطى أهمية خاصة، ويركز كثيراً على الطريق الذى يربط بين **بلنسية وبرغش**، والذى يرتاده أبطال الملحمة أكثر من غيره، فهو يعدد المحاط التي وقفوا عندها، ويسمى البلاد التى عبروها، ويذكر الجبال التي مروا بها، ويسجل بعض الحكايات الغامضة التى تسقط فى ذاكرته أثناء السير، فيروى لنا، ودون مناسبة، حكاية من مدينة سان استبان دى غرماج لا صلة لها بالسيد، ومجهولة تماما، ليس لدينا فحسب ، وإنما لكل القدماء الذين ليسوا من هذه المنطقة :

وعَبْرَ جبال مُونتس كلارُوس همزوا خيولهم،

وعلى الشمال منهم كانت مدينة جريثا، وعمرها بنو علم قديماً،
والكهوف التى سُجِنَتْ فيها « إلفا » من قبل[1].

ويعطى للمنطقة أوصافاً جغرافية دقيقة، تعكس معرفة جيدة بالأرض الواقعة بين مدينتى مدينة سالم ولوثون، ومعرفة على نحو أقل بمنطقتين مجاورتين لها، وهما المنطقة الممتدة من غابات كوريس إلى الشمال الغربى، ومن مدينة قلعة أيوب إلى الشمال الشرقى، بين مدينتى سان استبان دى غرماج ونبالوس. ولقد أنفق الشاعر أربعمائة وخمسين بيتا من الشعر فى وصف الاستيلاء على مكانين صغيرين هما قسطلون والقصير، وهو أمر لاشك فى حدوثه لكنه ليس بذى أهمية، فلا المصادر العربية تشير إليه، ولا التاريخ اللاتينى للسيد يعرض له. والشىء الوحيد الذى يفسر اهتمام الشاعر بهما أنهما يقعان قريباً من مدينة سالم على حين يصف الشاعر غزو السيد لقرى وحصون بريانة والمنارة والشارقة وبنيا كاديًا ومربيطر فى ثمانين بيتا. ويخص حصار بلنسية واستيلاء السِّيد عليها بخمسين بيتا فحسب، رغم أنه أكبر انتصار حربى حققه فى حياته، واقعا وأسطورة. وينبغى أن نلاحظ أن المنطقة التى بين مدينة سالم ولوثون، والتى يكثر الشاعر من الحديث عنها، لم تكن موطن أحداث ذات أهمية حربية، وكل ما هنا لك أن أبطال الملحمة فى ذهابهم وإيابهم كانوا يمرون بها، كما يمرون عبر مناطق أخرى غيرها، لا يعرفها الشاعر ولا يصفها، ولا يعرض لها ولا بكلمة واحدة، فهو يجهل تماماً الطرق ذات الأهمية البالغة خلال العصور الوسطى، وعلى نحو ما حتى أيامنا هذه ، كالطريق الذى يصل بلنسية بطليطلة أو الذى يصل بينها وبين قشتالة ماراً بسلسلة جبال وادى الرمة، لكى يتجه بعدها إلى كاريون أو إلى بلد الوليد أو إلى سهاجون وكانت أيضا معبراً مستمراً

---

(١) القصيدة رقم ١٢٨.

لشخصيات الملحمة، تقطعها جيئة وذهابا، فإذا عرض لها، فعل ذلك خطفا، أو لجأ إلى التعميم، كما فى الأبيات :

ووصل مينايا إلى بلد الوليد.

ومرّتْ الهضاب والجبال والمياه،

ووصلوا إلى بلد الوليد حيث الملك ألفونسو هناك[١].

أو اعتذر بأن تعدادها والوقوف عندها مُمِلّ يذهب بإقبال السامع عليه، كما فى الأبيات :

وخلفهم استقرت أرض بلنسية فى سلام،

وذهب مينايا ألبار هانييث إلى قشتالة،

وسأدع الأمكنة التى نزلها، لا أود أن أثقل بها عليكم[٢].

ومن ثم يمكن الظن بأن فكرة الملحمة بدأت فى مدينة سالم أو ما حولها، وهو ظن يجد له فى بعض ألفاظ الملحمة سنداً، فالمؤلف يستخدم كلمات متعددة فى شكلها الأرجونى، والذى كان رائجاً فى مدينة سالم، ومهملا فى برغش عاصمة قشتالة، ومازال حتى اليوم يكوّن إحدى الخصائص الواضحة فى لهجة أقصى الجنوب الشرقى من قشتالة القديمة، والتى تمثلها اليوم مقاطعة سوريا، لأن هذه المنطقة تعرضت فى الفترة التى سبقت تأليف الملحمة لتأثير أرجونى، وكانت دائما منطقة نزاع، تحاول أرجون أن تنتزعها من قشتالة.

● ● ●

---

(١) القصيدة رقم ٩٨.

(٢) القصيدة رقم ٨٠.

ومن بين المحاولات التى تمت لتحديد المكان الذى أُلِّفت فيه الملحمة ما قام به العالم الألمانى **رودولفو بير Rodolfo Beer**، فقد ارتأى أنها كتبت فى دير كاردينيا، قريباً من برغش، وهو رأى يضعفه ما استخلصناه سابقاً من الوصف الدقيق الذى يقدمه الشاعر لمناطق جغرافية معينة، إلى جانب أنه لا يقدم لنا ، فى نفس الوقت، ملامح خاصة بالدير، فالشاعر لا يعرف كاردينيا إلا على أنها موضع لدير شهير فى قشتالة. ويجهل اسم رئيس الدير، وكان معاصراً لنفى السَّيد، ويأتى عوضاً عنه بشخصية أخرى أسطورية يسميها شانجه[١]، بدلا من الاسم الحقيق لرئيس الدير وهو سان سِسِبوتو وهو شخصية ثابتة تاريخياً، وأشرف على الدير مدة خمسة وعشرين عاماً، وترك أثراً باقياً يستحيل على شاعر من كاردينيا أن ينساه، أو لا يعرض له عندما يتحدث عن موت السيد، وقد دفن فى نفس الدير.

أمّا **ج. برتونى** G. Bertoni الإيطالى، فيرتضى رأى **ميننديث بيدال** فى تحديد الموضع، ولكنه اعتماداً على الأبيات التالية :

يقومون على خدمته، ويكونون له حرّاساً أقوياء عبر الطريق،

وأعطاه ألف مارك من الفضة يقدمها لكنيسة سان بطرس،

على أن يعطى نصف المبلغ للشماس دون شانجه[٢].

يرى أن الأغنية لها طابع دينى أكثر منه ملحمياً، كما أنها تمثل على نحو واضح خصائص ما عرف بشعر الحدود ، وهو ما يفسر اعتناءها باحتلال السيد لمدينتى قسطلون والقصير، لانهما تقعان على الحدود الفاصلة بين المسلمين والمسيحيين.

---

(١) انظر القصيدة رقم ١٤.

(٢) القصيدة رقم ٧٧.

يعزز الرأي فى تحديد مكان تأليف الملحمة بمدينة سالم وما حولها، أنها لا تشير إلى **المستعين**، أبى جعفر أحمد بن هود، ولا إلى **المؤتمن** أميرى **سرقسطة**، وعمل السِّيد لحسابهما زمناً، فدافع عنهما، وقاتل أعداءهما مأجوراً، ولا إلى القاضى **ابن جحاف**، القائم بأمور **بلنسية** عند استيلاء السيد عليها، وقد أمر به غداة انتصاره فأُحرق حياً، ولا إلى **بنى تجيب** أمراء وشقة ولا ردة وطرطوشة، ولا إلى القاضى **أبى الوليد الوقشى**، ولا إلى مسلمين آخرين ارتبطوا بالسيد وأحداثه ارتباطاً كبيراً، فى الوقت الذى يقدم لنا القائد **ابن غلبون** كشخصية هامة، رغم أنه مجهول تاريخياً، ولو أنه معروف للشاعر تماماً، لمجرد أنه يعيش فى مدينة مولينا، قريباً من مدينة سالم، وهى مدينة إسلامية على حدود قشتالة، وكذلك المبارزة التى تمت فى كوريس، وهى الحدث الرئيسى فى الملحمة، مع أنها غير معروفة، وتدخل فى باب الحكايات المحلية لمدينة سان استبان دى غرماج، وهى أيضاً مدينة صغيرة وقريبة من مدينة سالم.

فملحمة السيد إذن ألفت على حدود قشتالة مع الدولة الإسلامية، وكانت قشتالة خلال القرن الثانى عشر، فيما يبدو، مهبط إبداع شعرى، كما أبدعت الحدود مع الدولة الإسلامية فيما بعد ذلك بقرنين من الزمان، أى فى القرن الخامس عشر، لوناً آخر من الأدب هو شعر الحدود Lòs Romanceros de la Frontera ولحسن الحظ فإن جانباً كبيراً منه، بفضل اكتشاف الطباعة، وصلنا مكتوباً.

لقد استولى المسيحيون نهائياً على مدينة سالم فى عام ١١٢٠، وكُتبت ملحمة السيد فى هذه الأعوام، أو بعدها بأعوام لا تتجاوز العشرين، ويمكن أن نفترض أن الشاعر وُلد هناك بعد هذا الاستيلاء ، أو بعد الاستيلاء الأول الذى تم فى عام ١١٠٤م، أو هو من نواحى سان استبان دى غرماج وألفها

لتُنشد فى الميدان العام بمدينة سالم، وكانت ملتقى التجار والقادمين من مختلف الجهات، بل يمكن القول، فى ضوء لغة الملحمة، أن الشاعر كان من المستعربين Los Mozarabe، أى من المسيحيين الذين يجيدون اللغة العربية إلى جانب اللغة الرومانثية، ويسيرون فى حياتهم وفق التقاليد الإسلامية، وأقرب الظن أنه عاش فى مدينة سالم فترة من الزمن خلال عهدها الإسلامى.

بين مدينة سالم ومدينة سان استبان دى غرماج توجد مسافة تبلغ الثمانين كيلو متراً، وهى نفس المنطقة التى تجعل منها الملحمة المركز الدرامى لنمو الأحداث وتطورها، وفيها جرت المبارزة بين السيد وخصومه أميرى كاريون عندما اتهمهم بأنهم أهانوا بنتيه بعد الزواج منهما، وهو حادث تذكره الملحمة ولا سند له من التاريخ، وحدث ذلك فى غابات كوربس، وهى تقع قريباً من سان استيان دى غرماج، ويبدو أنها كانت صغيرة للغاية، حتى أن موقعها كان مجهولا للشخص الذى أعاد بناء الملحمة فى القرن التالى. بينما يسترعى اهتمامنا الشديد، دقة المعلومات، وصدق الأخبار، التى تقدمها الملحمة فيما يتصل بمدينة سان استبان دى غرماج. وكان موقعها عندما نُفِى السيد من قشتالة عام ١٠٨١ على الحدود الواقعة عند سيرادى مييدس، وقريباً منها كانت قلعة هنارس، وسكانها من المسلمين، وقد أخلدوا إلى السلام بعد أن عقدوا مع ألفونسو السادس حلفا، والذى آلمه أن يرى السيد يهاجمهم. وإنه لمن الغرابة بمكان أن تبق مثل هذه الأشياء الصغيرة فى ذاكرة الناس، ولزمن طويل، حتى يأتى شاعر جوال فيجعل منها مادة لملحمته.

وعلى النقيض من هذه الدقة تكون الأخبار المتصلة بمدينة سالم، ففيها اضطراب وخلط، وأشياء غير مفهومة. وأبرز الأخطاء المتصلة بها أن المؤلف يعتقد أن **ألفونسو السادس** استولى على المدينة فى حياة السيد، بينما لم

يحدث ذلك إلا فى عام ١١٠٤، وامتلكها ألفونسو لأربعة أعوام فحسب أما الأستيلاء النهائى عليها، من قبل المسيحين فيجب أن يكون قد وقع قريباً من عام ١١٢٤م.

● ● ●

هذا التناقض بين دقة الأخبار التى تتصل بمدينة سان استبان دى غرماج واضطراب الروايات التى تتصل بمدينة سالم، جعل العالم الإسبانى **منندديث بيدال** يظن بأن ملحمة السيد التى وصلتنا، هى فى الأصل ملحمتان، ولها مؤلفان؛ وأن إحداهما هى إعادة بناء للأخرى. نعم كان هناك شاعران واحد من سان استبان دى غرماج، ويغلب على الظن بأنه كتب ملحمته قريباً جدًّا من مطلع القرن الثانى عشر، بسبب موت السيد عام ١٠٩٩م، وهو دقيق فى سرده للوقائع، يعرف الأحداث التى يتغنى بها، كما لو كان شاهدها، أو لقى الذين صنعوها. مثلا عندما يتحدث عن زواج حفيدة السِّيد لا يسميه زواجاً وإنما خطوبة، وهو الشيء الثابت تاريخياً، وتتضمن أشعاره أخباراً أخرى لها أصول تاريخية أيضاً، مثل هجوم السيد على كونت برشلونة رامون برنجير وأخذه سجيناً للمرة الثانية، ثم إطلاق سراحه عام ١٠٩٠، وفى صراع السيد معه فى المرة الثانية، تختفى من مسرح الأحداث، إحدى شخصيات الملحمة الرئيسية، وهو **ألبار هانييث** لأن مرافقته للسيد تنتهى تاريخياً عند عام ١٠٨٤.

أما الشاعر الآخر فقد جاء بعد الأول بزمن ، فهو غريب عن الأحداث التى وقعت فى عصر السيد، وكل ما هنالك أنه شهد أحداث خطوبة حفيدة السيد، الطفلة **بلانش** ابنة **غرسية راميريث** ملك نبرة، وولية عهده، إلى الطفل **شانجه** ولى العهد، وأكبر أولاد **ألفونسو السابع** ملك قشتالة والملقب بالإمبراطور، وكانت الخطوبة طريقاً لتسوية نزاع حاد بين قشتالة ونبرة فَعقُد

الصلح بينهما وبَعُد شبح الحرب وحل السلام، ورُئى توطيد ذلك بمزيد من توثيق الروابط العائلية بين الأسرتين، فتزوج الملك **غرسية** نفسه من **دونيا أُرّاكه، ابنة ألفونسو السابع** غير الشرعية، واحتفل بعقد الزواج بينهما فى مدينة ليون عام ١١٤٤، فى حفلات باذخة ضمت جميع ضروب اللهو التى كانت معروفة فى تلك الأيام؛ من موسيقا ومبارزة ومصارعة وغيرها. وحضرها الأمراء والأشراف والفرسان فى المملكتين، وكان لها صدى كبير فى الجانب المسيحى كله؛ وأحس به الشاعر فأراد تمجيده؛ ومن ثم عاد إلى الملحمة القديمة التى صاغها شاعر سان استبان دى غرماج، عاد إليها نصاً مكتوباً، أو ملتقطا لها من أفواه الناس؛ بعد أن تعرضت للتحوير والتحريف والزيادة والنقص، وصبها من جديد، ولكن أحداث السيد نفسها؛ وما جرى على أيامه، كانت بعيدة عنه؛ فجعل استيلاء **ألفونسو السادس** النهائى على مدينة سالم، وقد تم فى عام ١١٢٤؛ يعود إلى عصر السيد نفسه وقد توفى قبل أن يتم بخمسة وعشرين عاما. والحق أن شاعر مدينة سالم هذا إن صح التعبير، يضيف ظروفاً ووقائع جوهرية لا يرتضيها الواقع، ولا تجدها سنداً فى أى مصدر تاريخى؛ لقد تصرفّ كصاقل للملحمة، دون اهتمام بالحقيقة نفسها، وعرف كيف يُنَمِّى أحداثها ويطورّها؛ ويعطيها نغماً شاعرياً؛ ومزيداً من الدرامية والجاذبية، وتفاوت إصلاحه فى أجزائها الثلاثة، فهو فى النشيد الأول الخاص بنفى السيد حذر لم يدخل عليه من التعديل إلا الشىء اليسير، بينما تناول النشيد الثانى الخاص بزواج بنتى السيد، بإصلاح أوضح مما فعل فى الأول، على حين تعرض النشيد الثالث والأخير؛ والخاص بالمبارزة؛ لكثير من التبديل والتغيير.

بقى أن نشير إلى أن هذه الاكتشافات القائمة على الموازنات التاريخية **والجغرافية واللغوية لا تمس إلا التغييرات الجوهرية والكبرى، ومن المؤكد أن**

الملحمة لحقتها إصلاحات وتعديلات وتحويرات أخرى، عبر انتقالها إلينا شفوياً، أفلتت منا، ولا يستطيع أى باحث الإمساك بها مهما بالغ فى الدرس والتدقيق.

● ● ●

تتكون الملحمة من **٣٧٥٣** بيتاً من الشعر، جاءت فى ثلاثة أناشيد، وكل نشيد يضم عدداً من القصائد. ويدور حول حدث محدد.

النشيد الأول يقص علينا الأحداث التى أدت إلى نفى السيد، وتتصل به وكيف أن الملك ألفونسو السادس أرسل لذريق دياث دى بيبار، الملقب بالسيد لكى يقبض الجزية من ملك أشبيلية المسلم، وكان يدفع الجزية لملك قشتالة.

وفى ذلك الوقت كان المظفر ملك غرناطة يكره المعتمد ملك أشبيلية حتى الموت، وقد تعود المظفر بمساعدة الفرسان الأغنياء القشتاليين، وعلى رأسهم الكونت غرسية أو ردونييث، وفرتون سانتشيث صهر ملك نبرة، أن يتوغلوا فى أراضى ملك أشبيلية وأن يثيروا فيها الخراب والدمار. لقد جرت العادة فى ذلك الوقت أن يرحل الفرسان المسيحيون ليقاتلوا تحت راية الملوك المسلمين، حباً فى المغامرة، أو طمعاً فى الأجر، أو منفيين من ملوكهم المسيحيين.

وكان لذريق دياث دى بيبار فى رفقة جيش مختلط من مسلمين ومسيحيين **ذاهباً إلى أشبيلية لقبض الجزية، فأرسل ينذر ملك غرناطة ومن معه من فرسان** قشتاليين أن يكفوا عن مهاجمة المعتمد، فلما لم يستجيبوا لرجائه، خرج مدافعاً **عنه، وقريباً من حصن قبرة انتصر على الكونت غرسية أوردونييث وسجنه لمدة** ثلاثة أيام، واستولى على ما معه من ثروة وأذله منتزعاً شعيرات من لحيته، وهو أقسى ما يمكن أن يتعرض له فارس من إهانة، ومن ذلك الوقت عظمت هيبة لذريق عند المسلمين فصاروا ينادونه : سيدى القنبيطور.

وعندما عاد السيد إلى قشتالة يحمل الجزية للملك ألفونسو وجد نفسه متهماً من قبل رجال البلاط الحاسدين له، بأنه احتفظ لنفسه بجزء من الأموال والهدايا التى أُرسل ليجبيها، فنفاه الملك من أرضه، وحدد له أجلا للرحيل لايتجاوز تسعة أيام.

وطبقا للتقاليد المتبعة سار معه ألبار هانييث، ابن عمه وآخرون من أسرته وتابعيه. فترك السِّيد قريةَ بيبار مسقط رأسه، وذهب ليودع زوجه وبنتيه ومازالتا طفلتين، وكن لاجئات فى دير كاردينيا، وتركهن هناك وحيدات ثم دعا الله أن يعيش حتى يزوّج بنتيه، ويقضى بعض حياته مستمتعاً بسعادة الأسرة. وحانت نهاية الموعد، فكان على السيد أن يجتزئ وداعه ليخرج من قشتالة سريعاً؛ وكان أكثر ما يشغله : كيف يستطيع فى المنفى أن يهيئ العيش لنفسه ولمن معه، وكانت أيام المنفى الأولى قاسية، وطريقه إلى النصر بطيئاً. ففكر فى خداع مرابيين يهودين فى برغش، رهنهما صندوقين مملوءين رملا، على أنهما مملوءين ذهباً، وسار فى طريقه فاستولى فى البدء على حصنى قسطلون والقصير على ضفاف نهر شلون. ثم باع إلى المسلمين أنفسهم الأرباح التى حصل عليها. وتوغل فى الأرضى الإسلامية وأصبحت كل المنطقة الممتدة من الترويل حتى سرقسطة تدفع له الجزية. ثم أرسل ألبار هانييث إلى قشتالة يحمل هدية إلى الملك ألفونسو، وتابع المنفِّى تقدمه متخطيا جبال موريا والأرض المجاورة لها، وكانت تحت حماية كونت برشلونة، فالتقيا فى معركة انتصر فيها السيد، وأسر الكونت ثم تكرم عليه فعفا عنه بعد أن أمضى فى السجن ثلاثة أيام.

أما **النشيد الثانى** فيدور حول زواج بنتى السيد.

من نفس جبال موريا اقتحم السيد شواطئ البحر الأبيض بين قسطلون ومربيطر، ثم واصل غارته حتى دانية، واستولى أخيراً على مدينة بلنسية. وأراد ملك أشبيلية المسلم أن يسترد المدينة فهزمه، ومن غنائم هذا النصر اختار السيد

مائة حصان، أرسلها مع ألبار هانييث هدية إلى الملك ألفونسو، ولكى يرجوه أن يسمح لدونيا خمينا أن تخرج من قشتالة وتذهب لتعيش معه فى بلنسية، وأثناء احتلال السيد للمدينة أراد أن يكتسب عواطف المسيحيين فعين على المدينة مطراناً أديبا ومحاربا يدعى دون خرونيمو.

وقد ذهب ألبار هانييث بالهدية إلى قشتالة، وحصل على إذن من الملك يسمح لزوجة السيد وبنتيه بالذهاب إلى بلنسية، وعدن معه فاستقبلهن السيد فى بهجه بالغة، ومن شرفات القصر أخذ يعرض عليهن امتداد المدينة التى استولى عليها، وثراء بساتينها. ولما حاول **يوسف بن تاشفين** ملك مراكش أن يسترد بلنسية هزمه السيد أيضا. ومن الغنائم الهائلة لهذه المعركة أرسل السيد مائتى حصان هدية أخرى إلى ألفونسو، وكان رسوله ألبار هانييث للمرة الثالثة. وقد أحدثت هدايا السيد الهائلة والمتكررة إلى الملك دوياً فى قشتالة، وإعجابا عظيما بالبطل المنفى، ولكنها فى الوقت نفسه عمقت حسد الكونت **غرسية أوردونييث، المهزوم فى قبرة، وفى نفس الوقت أثارت نهم بعض أقرباء** الكونت، وبخاصة أميرى كاريون، ففكرا فى الزواج من بنتى السيد فاتح بلنسية لكى يصبحا من كبار الأغنياء. ورأى الملك أن هذا الزواج مما يشرف السيد، فاقترح على ألبار هانييث أن يحمل الفكرة إليه. وتلاقى الملك والسيد على ضفاف نهر تاجه، وهناك عفا الملك عن السيد، وألغى قرار النفى، ووافق السيد على زواج بنتيه من أميرى كاريون، ورغم أن الزهو الأسرى للأميرين كان يجرح مشاعره، لم يرد أن يرفض للملك طلبا، ثم عاد السيد مع الأميرين صهريه إلى بلنسية، وفيها تم الزواج.

ويدور **النشيد الثالث** عن الصراع بين السيد وصهريه.

فى المعركة التى جرت بين السيد وبو بكر ملك مراكش؛ أظهر أميرا

كاريون جبنا كبيراً. وعندما انتصر السيد أحس بما آل إليه أمره من عظمة وسؤدد، ولم يعد ذلك المنفى الغلبان كما كان قبلا؛ إنه الآن غني وقوى ومخيف وفكر فى أن يجعل المغرب كله يدفع له الجزية، بل وبدا مزهوا بصهريه متناسيا جبنهم، ولكنهما أصبحا هدفا لسخرية قاسية ممن حولهم؛ فلم يستطيعا الصبر **وفكرا فى أن ينتقما من السيد فى شخص بنتيه، فطلبا إذنه بالذهاب إلى** مدينتهما كاريون مع زوجتيهما، ولم يدر بخلد السيد أنهما يضمران لبنتيه سوءا فأذن لهما، وحمّلهما الغالى من الهدايا، وأحسّ وهو يودع بنتيه بشيء ما فى أعماقه؛ هواجس تحركت فى خاطره تحدثه بشيء قادم.

بدأ الأميران رحلتهما، وعندما دخلا أرض قتشالة، فى غابات كوريس الكثيفة جلدا زوجتيهما بقسوة، وتركاهما نصف ميتتين. وعندما علم السيد بهذا العمل الخسيس أرسل ألبار هانييث لكى يعود ببنتيه، وأرسل إلى الملك ألفونسو يطلب منه التحقيق والمحاكمة: « إن الملك هو الذى زوّج بنتىّ، وكل مامس شرفى هو من جانب سيدى » وتألم الملك فدعا بلاطه فى طليطلة، فذهب إليه الأميران مزهوين، وفى عصبة قوية من أقاربهما، على رأسها الكونت غرسية أوردونييث، عدو السيد القديم، وكان هذا الكونت آخر من وصل إلى الاجتماع. وعندما افتتح مجلس البلاط عرض السيد ما لحق ببنتيه، طالبا من الأميرين أن يعيدا إليه مما أهداهما السيفين الثمينين « تيثون » و « كولادا »، ثم « الدوطة » التى دفعتها بنتاه. وأن يسترد شرفه منهما فى ساحة المبارزة. وعبثا حاول الأميران الدفاع عن موقفهما، محتقرين السيد وبنتيه، وأنه مجرد إنسان يحاول أن يصبح أميراً صغيراً، وبنتاه ليستا أهلا لتكونا زوجتين لأميرين من كاريون. ورد السيد على الكونت غرسية يذكره بحبسه إياه فى قبرة. أما الأميران فلايشرفه أن يرد عليهما، فتولى أقرباء السِّيد الرد نيابة عنه، وأظهروا ما اتصف به الأميران من خيانة وجبن وفى هذا الوقت يدخل إلى مجلس البلاط رسولان

يطلبان بنتى السِّيد زوجتين لأميرى نبرة وأرجون، حيث تصبحان ملكتين، ووافق الملك على هذا الزواج المشرف، ثم يعود الحديث إلى ما كان عليه، ويطلب السيد أن تتم المبارزة فى أرضهما فى وادى كاريون، وانتصر السيد على الأميرين، وأعلن خيانتهما، وكان هذا الزواج الثانى أكثر شرفاً من الأول، لأن ملوك إسبانيا أصبحوا من سلالة البطل ابن ببيار.

● ● ●

تلك هى أقسام الملحمة، وكلها تدور حول السيد ومغامراته وانتصاراته والسيد شخصية تاريخية ،وهو فى التاريخ يختلف عنه فى الملحمة، وقبل أن نعرض له كما صورّه الشاعر، أود أن أقدم له صورة تاريخية، وكلا الصورتين تكمل الأخرى.

السّيد فى التاريخ

لا نعرف شيئاً كثيراً عن طفولة **رودريجو دياث**، والذى سيدخل التاريخ تحت اسم **السيد القنبيطور**، ويرجح أنه ولد قريباً من عام **١٠٤٥** فى قرية **بيبار** على بعد تسعة كيلو مترات شمالى مدينة برغش، مكان مهجور فى الهضبة القشتالية، تكتنفه طبيعة قاسية لا نظير لها فى جلاها، والحياة فى هذه البقاع قاسية على السكان الذين اعتادوا منذ حداثتهم أن يعيشوا عيشة معدومة اليسر، مليئة بمظاهر الحرمان. وينحدر والده **دييجو لاينيث** من أسرة قشتالية قديمة، من سلالة القاضى **لاين كالبو**، يعيش حياة مستورة منعزلا فى ضياعه الفقيرة، أما أمه، ولا نعرف اسمها، فكانت تنحدر من سلالة نبيلة أيضاً، فأبوها **رودريجو ألبارث** سيد كبير النفوذ، يمتلك إقطاعيات واسعة فى وادى « دويره » وقد اشترك فى ميعة شبابه مع دييجو لاينيث فى حملات ضد مملكة نبرّة الغربية لحساب ملك ليون، فرناندو الأول.

ويبدو أن والد السيد تُوفى عام ١٠٥٨، ولما يزل الابن غلاما يافعا، فضمه إليه **شانجهُ**، الابن الأكبر للملك **فرناندو**، وأشرف على تربيته وتثقيفه، ثم قلده السيف، وخلع عليه شارة الفروسية، وجعله فى حماه، وصحبه معه فى أول حملة حربية قام بها. ففى ربيع عام ١٠٦٣م، حاول **راميرو** الأول ملك أرجون، وعم الأمير شانجه، أن يستولى على مدينة جراوس، وكانت فى حوزة **المقتدر** بن هود ملك سرقسطة، فأرسل هذا إلى حليفه **فرناندو الأول** ملك قشتالة يطلب العون، فأمده بجيش يقوده الأمير شانْجهْ، وبين صفوفه رودريجو دى بيبار، وقد انتصر المقتدر ومعه القشتاليون؛ وقُتل فى المعركة الملك راميرو، وهكذا نرى أن السّيد شهر سلاحه أول ما شهره، وهو فى صفوف

الجيش الإسلامى، أثناء مدافعته الأندلسيين المسيحيين.

وعندما تُوفى **فرناندو الأول** ملك قشتالة وليون عام ١٠٦٥م. قسمّ مملكته بين أبنائه، على نحو تنقصه الحنكة السياسية، فكانت قشتالة من نصيب أكبر أبنائه **شانجه** - صديق السيد وحاميه - وكان للثانى **ألفونسو السادس** مملكة ليون، وللثالث **غرسية** مملكة جليقية، وأقطع ابنتيه **أرّاكة وإلبيرة** الأديرة الغنية. فأدت هذه القسمة الجائرة إلى حرب طاحنة بين الأشقاء. كان شانجه ملك قشتالة يضطرم بغضاً لأنه، وهو أكبر إخوته، لم يضع يده على مملكة أبيه كلها، فحاول بدءا أن ينتزع من ابنى عمه شانجه ملك نبرة، وشانجه ملك أرجون، بعض المدن فأخفق. فانقلب إلى مقاتلة أخويه ألفونسو وغرسية، ونشبت بين الفريقين حرب ضروس على امتداد ثلاثة أعوام، خرَّبت وديان ليون وقشتالة، وقد تمكن من أن يزيل أخاه ملك جليقية عن عرشه، وبعده تحوَّل إلى ألفونسو السادس، والتقى الاثنان فى معركة فاصلة فى جلبخيرة، قريبا من حصن كاريون دى لوس كوندس، وقد تفوّق ألفونسو فى بدء المعركة، وأوشك أن ينتصر، لكن حرصه على حقن الدماء حال دون تمتعه بثمرات نصره، فعف عن مطاردة جيش شانجه الفار، وترك جنده يحتفلون بالنصر دون تحوّط، ووثق فى كلمة أخيه من الاكتفاء بما حدث. وقد تدخلَّ السِّيد فى اللحظة الحاسمة، فنصح الملك شانجه بأن يجمع بقايا جيشه الممزق، وأن يعيد تنظيمه، ويستغل فرحة جند أخيه بالنصر، وانشغالهم بالغنائم، واستسلامهم إلى نوم مطمئن، ثم ينقض عليهم فجراً. فعمل الملك بنصيحة السِّيد، وتحقق له النصر، وقد أفلت الملك ألفونسو من الموت ولكنه وقع فى الأسر، وأبقى شانجه على حياته، وزج به فى ظلمات دير قريب من برغش، إلى أن دبرت أخته أراكة فراره، فالتجأ إلى ابن ذى النون صاحب طليطلة، وهكذا ضم شانجه ملك قشتالة ليون إلى

مملكته، وكافأ السيد على نصحه، فعينه فارسا له، أى حامل لوائه ، وقائد جيوشه.

لكن الأمور لم تجر على النحو الذى أراده شانجه، فقد دبرت أخته **أراكة** ثورة ضده، بمعاونة **بدور أنسوريث**، وهو شيخ كان يؤدب **ألفونسو السادس**، ولكى يواجه شانجه الموقف حاصر مركز الثورة فى حصن سمورة بنفسه، وبذل المحاصرون جهداً كبيراً لفك الحصار، ثم تخيروا من بينهم فارساً شجاعاً هو **بيِّيدو أدلفو** لكى يخرج ويوغل فى محلة المحاصرين، وهكذا استطاع أن يفاجئ الملك، وأن يطعنه برمح فشق صدره، وأرداه قتيلا فى ٧ من أكتور عام ١٠٧٢ ، ففقد السيد بموته سيده وراعيه، ولقد حاول أن يلحق بالقاتل، فانطلق فى إثره، ولكنه احتمى منه بالمدينة بعد أن أغلق الأبواب بعده، وفى الحال ارتد الجيش المحاصر، وبادرت أراكة فأرسلت إلى ألفونسو فى طليطلة لكى يعود سريعاً، ولقى حين عودته اعترافاً تاماً بحقوقه الملكية فى ليون، ولكنه واجه صعابا فى قشتالة، وفى الأراضى التى كانت تابعة لمملكة نبرة، فقد اشترطت لكى يلى ألفونسو العرش أن يقسم فى حفل رسمى أنه برىء من دم **شانجه الثانى**، فنزل عند إرادتهم على ما فيها من شطط، وتم ذلك آخر عام ١٠٧٢ م فى كنيسة سانتا جاديا فى برغش، وكانت اجتماعات القَسَمَ تجرى فيها عادة.

وقد أحجم أمراء قشتالة عن التقدمّ لتلقين الملك صيغة القسم، ولم يجرؤ على ذلك غير السيد، فارس الملك القتيل، وجعل الملك ألفونسو يردد صيغة القسم المهين مرتين، ولم يغفر له الملك قط جرأته هذه ، وبعدها فقد لقبه كفارس ملكى، وأصبح مجردّ تابع عادى كآلاف الرعايا، بينما أصبح **بدرو أنسوريث** المؤدب القديم للملك، **وغرسية أوردونييث**، الشاب القشتالى النبيل، ومن ألد خصوم السيد، أكثر المستشارين قربا إلى الملك ألفونسو.

لكن الملك مالبث أن أظهر تقديره للسيِّد عندما بحث له عن زوجة من بين طبقة الأشراف، تحقيقاً لإحدى واجبات الملك الأساسية حيال تابعه، فاختار له فتاة من نبلاء أشتورية، **هى دونيا خمينا دياث**، ابنة دييجو رودريجيث، كونت مدينة أو بييدو، والحفيدة الصغرى لألفونسو الخامس ملك ليون، وابنة عم الملك ألفونسو السادس الجالس على العرش، وقد أهدى السيد خطيبته أراضى من أملاكه فى قشتالة، وتحمل الهبة تاريخ ١٩ يولية ١٠٧٤م، وهو التاريخ الذى تم فيه الزواج على ما يرجح، وكانت سن السيد إذ ذاك قريباً من واحد وثلاثين عاماً. وما من شك أن الملك هدف بهذا الزواج إلى المصالحة بين طبقة الأشراف فى كل من قشتالة وليون، حتى أنه جعل شاهدى العقد بدرو أنسوريث، وغرسية أوردو نييث خصمى السيد، وتأكيداً لهذا العمل توجه ألفونسو إلى مدينة أو بييدو حاجاً، وبها كتدرائية سان سلفادور، أجل مكان دينى بعد كنيسة شنت يعقوب فى جليقية، ولم يصحب معه من كبار الشخصيات القشتالية التى حوله غير اثنين، مطران برغش والسيد. وعندما عاد الملك إلى برغش أول مايو ١٠٧٥ أصدر أمره بإعفاء أملاك السيد، ثم خلفائه من بعده، من أية ضرائب أو غرائم تجبى حالياً، أو تفرض مستقبلا.

فى ذلك الوقت كانت مملكتا **طليطلة وإشبيلية** الإسلاميتان تؤديان الجزية لمملكة قشتالة المسيحية بمقتضى معاهدة قديمة، وفى كل عام تفد عليهما سفارة من قشتالة أو ليون لتتلق منهما الجزية، وقد اختار**ألفونسو** السيد عام ١٠٧٩ ليرأس الوفد المتوجه إلى إشبيلية ليقبض الجزية من ملكها **المعتمد بن عباد**، ولقد وصل السيد فى ظرف غير مناسب؛ فقد وجد المعتمد فى حرب صريحة مع **عبد الله بن زيرى** ملك غرناطة، وكان بدوره يدفع الجزية لألفونسو ملك قشتالة، ويضم جيشه نسبة كبيرة من المسيحيين الأندلسيين،

لعل الملك القشتالى أرسلهم إليه ليقيم توازناً بين الجيوش الإسلامية المتعادية فى جنوب شبه الجزيرة ، وليحد من أطماع المعتمد ملك إشبيلية، وكان يرنو ببصره إلى ما حوله من إمارات صغيرة يريد أن يوسع بها رقعة مملكته، وكان على رأس الجنود القشتاليين الذى كانوا فى خدمة ملك غرناطة الكونت غرسية أوردونييث، خصم السيد ومنافسه اللدود.

ولقد وجد السيد الفرصة مواتية ليلتق مع خصمه أوردونييث فى معركة، فأرسل إلى ملك غرناطة يحذره ومن معه من أغنياء القشتاليين من الهجوم على مملكة إشبيلية لأن صاحبها مشمول بحماية ملك قشتالة، ولكن هؤلاء استهانة بجيش المعتمد، وبالسيد ومن معه من قوات صغيرة، ردوّا على إنذار السيد بالهجوم فعلا على مملكة إشبيلية، وهكذا نشبت المعركة قريباً من مدينة قبرة، بين قوات الفريقين، وكل جيش منهما يتكون من جنود مسلمين ومسيحيين، ولقد هُزِمَ جيش غرناطة، وانتصر جَيش إشبيلية بفضل السيد والقلة التى معه، وأسروا كثيرين، بينهم عدد كبير من نبلاء المسيحيين، على رأسهم **غرسية أوردونييث** نفسه، وظلوا فى الأسر ثلاثة أيام، أطلق السِّيد بعدها سراحهم، فعادوا إلى برغش أذلاء مقهورين، أما السيد فقد دخل إشبيلية منتصراً، وتلقى من **المعتمد** الجزية، وهدايا أخرى كثيرة، ثم عاد بعدها إلى برغش عاصمة قشتالة فوصلها فى مايو عام ١٠٨٠م.

لم يقع إذلال **غرسية أوردونييث** من الملك موقع الرضا، كما أن انتصار السيد أثار الغيرة والحسد فى نفوس كثيرة ، بين حاشية الملك ورجال البلاط، وبين أقارب السيد نفسه، وهكذا اتُّهِم، بالحق أو الباطل، بأنه استولى لنفسه على جزء من الهدايا التى كان يجب أن يقدمها للإمبراطور، ولم يستطع الملك أن يصم أذنيه عن تحريض بطانته، ولم ينس له القسم المذِل الذى أجبره يوماً على

أن يقدمه بين يديه، ولكنه انتظر الفرصة المواتية، وسرعان ما جاءته. فبينما **ألفونسو** على الحدود الجنوبية لمملكة قشتالة مشغولا بمناوشة مملكة"طليطلة نُمى إلى السيد وقد تخلف فى برغش مريضاً أن فريقاً من المسلمين شنّوا هجوماً موفقاً على حصن غرماج القشتالى على خط نهر دويره، واستولوا على غنائم كبيرة، فقام بهجوم مضاد دون أن يرجع إلى الملك، وعاد ومعه غنائم وأسرى كثيرون. فصورّ نبلاء قشتالة مسلك السيد على أنه خروج على طاعة الملك، وأذعن ألفونسو السادس لقولهم، وأبلغ السيد عام ١٠٨١ بأنه منفى من بلاده.

• • •

كان هذا النفى نقطة تحوّل هامة فى حياة **السِّيد**، ومصدر أقاصيص وأساطير بعيدة عن الحقيقة، منها الملحمة التى هى موضع الترجمة والدراسة، والحكم بنفى النبلاء كان أمراً شائعاً فى أوربا فى العصر الوسيط، وفى الأندلس بجانبيه الإسلامى والمسيحى، على نحو مختلف بين الجانبين، فلم يكن ثمة نبلاء فى الجانب الإسلامى، ولكننا نعرف أن الحكَم الأول نفى جمهرة كبيرة من القرطبيين عقب فتنة الربض الشهيرة، وكان المنفىّ فى الجانب المسيحى يحتفظ ببعض الحقوق التى لا يمكن تجريده منها، فلا تصادر أراضيه إذا لم يكن قد اقترف جريمة تتعلق بالشرف، وله الحق فى أن يصحب معه أقرباءه وجنده وفرسانه، وهكذا سلك **لذريق** طريقه نحو شرق الأندلس، مطروداً من قشتالة، على رأس فرقة تضم ثلاثمائة فارس تقريباً، ليظفر بلقمة العيش فى أرض غريبة على حد التعبير العرفى القديم، يقاتل بجماعته، أحياناً فى حماية أمير مسلم ولحسابه، وأحياناً لحسابه الخاص.

اتجه أولا إلى **برشلونة** حيث يحكم الأخوان الكونت رامون الثانى، والكونت بيرنجر الثانى، فلم يجد منهما ترحيباً، فمضى إلى **المقتدر** بن هود ملك

سرقسطة، فوجد عنده من الترحيب مالم يجد عند أميرى برشلونة، لكن المقتدر مات فى نفس العام، أكتوبر ١٠٨١م، بعد أن قسمّ أملاكه بين ولديه، فكان نصيب **المؤتمن** مدينة سرقسطة وما والاها وورث **المنذر** دانية وطرطوشة ولاردة، وما لبث الشقاق أن وقع بين الأخوين، فاستمر **السيِّد** فى خدمة المؤتمن الأخ الأكبر ، وطلب الثانى العون من **كونت برشلونة**، ومن **شانجه راميريث** ملك أرجون، وهكذا وجد السيِّد نفسه مضطرّاً إلى محاربة الأرجونيين والقطلونيين فى آن واحد لحساب ملك سرقسطة المسلم، ومن حين **لآخر كان يقوم بالإغارة على أراضيهما، ثم التقى الفريقان لمعركة فاصلة عند** حصن المنارة على بعد ٢٠ ك.م من مدينة لاردة، وإزاء هذا الخطر وَسَّع **المنذر** دائرة تحالفه مع الأمراء المسيحيين، فأمدوه كلهم بما يعينه من جيوش وضربوا حصاراً قويا حول السيد ومن معه، فأرسل هذا يطلب العون من **المؤتمن**، فجاء بنفسه إليهم، وكان **السيد** يائسا من النصر، فطلب من المؤتمن ألا يغامر بالقتال، وأن يدفع الجزية لأخيه وحلفائه، ولكن **المنذر** رفض العرض مزهواً، فأحس السيد بأنه قد جُرح فى كبريائه، ولم يجد أمامه غير القتال، فاقتحم المعركة على الرغم من قلة قواته، وكان النصر حليفه، فأسر كونت برشلونة، وظفر بغنائم هائلة، وبعد خمسة أيام ردّ للكونت حريته، ثم دخل سرقسطة فاستُقْبِل فيها استقبال الظافرين، وأغرقه المؤتمن بالهدايا، وخلع عليه مراتب الشرف ، وظفر بين جنود المؤتمن بمكانة ونفوذ كبيرين.

بعد موت المقتدر بقليل تمرد حاكم روطة، حصين هام من أملاك بنى هود على ضفة نهر شلون، ويبعد ٣٥ك.م. من سرقسطة العاصمة، وطلب مساعدة الفونسو، الذى وجد الفرصة سانحة ليرد على السيِّد وعلى المؤتمن فى نفس الوقت، فأرسل حملة كبيرة على رأسها أمير نبرّة، وحاكم قشتالة، وفى أثناء ذلك توفى المظّفر صاحب لاردة، وكان أخوه قد سجنه فيها، فآثر حاكم روطة أن

يعود إلى حظيرة **المؤتمن**، وأرسل إليه سراً بما نوى، وأنه سوف يغرر بأعدائه من القشتاليين، ومن ثم أخبر قادة الجيش القشتالى القادم لمساعدته، أنه يوّد أن يسلم لهم الحصن، وللملك ألفونسو شخصياً، وقد جاء الملك فعلا، ولكنه كان يشك فيما يهدف إليه القائد، فترك كبار قادته يدخلون أولا، فوقعوا فى الفخ وقتلوا جميعاً، وهزّت المذبحة ألفونسو فعاد إلى برغش حزيناً. ولما علم السيد بالمكيدة خشى أن يقحمه أعداؤه فى هذه المشكلة، فسارع إلى قشتالة لتبرئة نفسه، وليقنع الملك بأنه لا صلة له إطلاقا بمؤامرة حاكم روطة. وحاول فى نفس الوقت أن يعود فيصبح من تابعيه، فقابله ألفونسو بفتور، وأدرك السيد أن الملك مازال يحقد عليه، فعاد إلى سرقسطة يقدم خدماته للملك المؤتمن من جديد.

خرج **السيد** القنبيطور مع **المؤتمن**، وأغارا على أرض **ملك** أرجون، وانطلق رجالهم عبرها يدمّرون ويخربون على امتداد خمسة أيام ،عادوا بعدها محملين بالأسرى والغنائم إلى حصن Monzon ، دون أن يجرؤ الملك **شانجه راميريث** على أن يتعرض لهم مقاوما. كذلك قام السِّيد، لحساب المؤتمن، بإغارات كثيرة على لاردة مملكة أخيه **المنذر**، وعلى نحو خاص فى منطقة مورلّة الجبلية العالية، ذات الطرق الصعبة، والمداخل الوعرة، وأتى السِّيد على ما فيها من بيوت وحيوان وثروات، وحاصر مورلة نفسها، ولما ضاق الحال بالمنذر زار الملك شانجه، ليجدد معه الصداقة التى كانت قائمة بينهما، ويطلب عونه إزاء الخطر الذى يتعرض له، وعقدا محالفة للدفاع عن أراضيهما، ثم جمعا جيشيهما وعسكرا على ضفاف نهر إبره. وأرسل ملك أرجون إلى السِّيد يتوعده، وينذره بأن يخرج سريعاً من أرض الحاجب، فسخر منه السيد قائلا : إذا كان ملك أرجون يطلب الحماية ليعود بسلام عبر الأرض التى نسيطر عليها، فسوف أتولى حراسته مسروراً. وأقدم له، إذا رغب، مائة من فرسانى يرافقونه

فى رحلته، فغضب الملك شانجه من هذا الرد، وبدأت المعركة، فالتقى الجيشان فى ١٤ أغسطس ١٠٨٤، وامتد القتال لساعات وفى النهاية هرب ملك أرجون وحليفه المنذر، ولاحقهما السِّيد لمسافة طويلة، وأسر منهم ألفين، بينهم عدد من كبار رجال البلاط، ولكنه أطلق سراحهم بعد ذلك ما عدا ستة عشر من كبار القواد والشخصيات حملهم معه، وكان بينهم مطران روطة، وشقيق الملك شانجه، واستولى على غنائم وفيرة، وعاد بذلك كله إلى سرقسطة، فاستقبله المؤتمن مع أبنائه وكبار وزرائه، وجمع غفير من سكان العاصمة وماحولها رجالا ونساء، وخرج الناس إلى ما بعد المدينة بأربعة أميال فى انتظاره، وقد أطلق سراح الستة عشر أسيراً بعد ذلك فى ظروف لا يحفظها لنا التاريخ. وظل **السِّيد** فى سرقسطة إلى أن توفى **المؤتمن فى عام ١٠٨٥، فانتقل إلى خدمة ابنه و خليفته أحمد المستعين**؛ ولكن تعوزنا التفاصيل عن الحملات التى قام بها ابتداء من عام ١٠٨٥ حتى ١٠٨٨م، ويبدو أن شهرة **ألفونسو** وقد استطاع أن يستولى على طليطلة فى ٦ مايو ١٠٨٥، حجبت شهرة السِّيد تماماً، لأن هذا السقوط كان أهم حدث فى التاريخ الأندلسى فى العصر الوسيط، فأحدث دويًّا هائلاً، وأدى إلى نتائج خطيرة، فى الجانبين الإسلامى والمسيحى على السواء.

● ● ●

وفى بلنسية قام حفيد صغير للمنصور بن أبى عامر، يُدعى **عبد العزيز ويلقِّب نفسه بالمنصور**، بتأسيس إمارة مستقلة عام ٤١١هـ- ١٠٢١م حكمها على امتداد أربعين عاما، وأورثها من بعده ابنه **عبد الملك الملقب بالمظفر**؛ فى يناير ١٠٦١م. ولكن عبد الملك كان ضعيفا، فخلعه صهره **المأمون بن يحيى بن إسماعيل بن ذى النون** صاحب طليطلة، بعد أن

تمالأ مع **أبى بكر بن عبد العزيز** وزير المظفر الأول، وضُمَّت بلنسية إلى مملكة طليطلة عام ١٠٦٥؛ وكافأ المأمون أبا بكر فعيَّنه حاكما عليها، **تعويضاً له** عن تأييده. وعندما توفى المأمون فى عام ١٠٧٤، وتولى مكانه حفيده **القادر**، وكان يتسم بالعجز البالغ، أعلن أبو بكر بن عبد العزيز استقلال بلنسية، وطلب حماية ألفونسو السادس ملك قشتالة، مقابل جزية سنوية يدفعها له. لكن **ألفونسو** لم يكن يتردد فى أن يبيع حلفاءه ودوهم إذا وجد نفسه محتاجاً إلى المال، وهكذا قرر خلال عام ١٠٧٦ أن يبيع بلنسية إلى **المقتدر** أمير سرقسطة بعشرة آلاف قطعة من الذهب، وتحرك بجيشه نحوها ليحررها من أبى بكر ويسلمها للمقتدر، وعندما أحس ابن عبد العزيز أنه عاجز عن الدفاع عنها؛ خرج بنفسه وحيداً، بلا حرس ولا جيش ولا سلاح للقاء ألفونسو، **وعرف كيف يكون بليغا ومقنعا، وأن يكون صدى بلاغته أعلى أثراً من رنين الذهب وعدّه، فجعل ألفونسو يتخلى عن مشروعه، وينقض اتفاقه مع المقتدر، ويبقى على بلنسية حاكما.**

وعاد **ألفونسو** فباع بلنسية من جديد، باعها فى هذه المرة للقادر بن ذى النون ملك طليطلة، بزعم أنه ساعده فى حروبه مع أعدائه، وكان القادر شحيحا على ما يملك من ثروات طائلة، ورعاياه مفلسون جائعون أرهقتهم مطالب الجزية والضرائب والحصار، فطمع ألفونسو فى ثمن من نوع آخر؛ لا يكلف القادر شيئا، ويكلفه كل شيء، أن يتنازل له عن طليطلة، مدينة الملوك المتكبرة، وعاصمة القوط العتيقة، وكان أصلا يخطط للاستيلاء عليها، وربما دس على القادر من يشير عليه بهذا الرأى، فعرض **القادر** عليه أن يتخلى له عن طليطلة، مقابل أن يساعده فى الاستيلاء على بلنسية، غير أن ذلك وحده لم يكن كافيا، كان لابد أن يصير ألفونسو سيد المدينة والقابض على زمامها فعلا، وهكذا ضرب عليها الحصار فى نهاية صيف ١٠٨٤م، وأقام

مقر قيادته أمام المدينة، فى القصر الرائع الذى كان **المأمون** قد بناه، وعبثا حاول أهل طليطلة طلب الغوث من ملوك المسلمين فى شبه الجزيرة، فقد ظن هؤلاء أن المدينة قد سقطت، وهم فى جملتهم كانوا يؤدون الجزية لملك قشتالة، وفى ٢ من مايو سنة ١٠٨٥م، اجتاز وفد من أشرافهم قنطرة نهر تاجه؛ يسألون ألفونسو شروطه، ويطلبون الضمانات الكافية لتأمين أهل طليطلة المسلمين، وبعد ثلاثة أيام دخل ألفونسو المدينة، وما لبث أن تنكر لكل الشروط التى عاهد المسلمين عليها[1].

وبعد أن استولى **ألفونسو** على طليطلة أخذ فى تمكين **القادر** من استرداد بلنسية، فباسمه يستطيع أن يصبح الحاكم الفعلى على شرق الأندلس كله فخرج القادر قاصداً بلنسية فى آله وصحبه ومجوهراته، وأعرضت عنه كل القلاع الإسلامية التى كان يحكمها ومرّ بها فى طريقه بغضا واحتقاراً، وأوصدت أبوابها دونه، ما عدا قلعة قونقة، فقد رحب به صاحبها **ابن الفرج** ونزل القادر عنده حتى يستجلى الأمر، وبعث بابن الفرج إلى بلنسية، ليداخل حاكمها **عثمان ابن عبد العزيز**، فوجد الرأى فيها موزعا، جماعة تؤثر أن تنضوى بلنسية تحت حماية **المستعين** ملك سرقسطة، وأخرى تميل إلى القادر، وأصبحت المدينة نهباً للفرقة والفوضى، فعاد ابن الفرج إلى القادر

---

(١) موجز هذه الشروط: المحافظة على حياة مسلمى طليطلة وحياة نسائهم وأطفالهم، وألا يلحقهم ضرر فى أملاكهم، وأن يسمح لمن يريد أن يخرج بالخروج، ومن يريد أن يبق بالبقاء، والذين يبقون لا يطلب منهم أكثر من دفع ضريبة الرأس لهم ولأسرهم، وكل مهاجر يمكنه أن يعود فى الحال ويستعيد أملاكه مهما عظمت قيمتها، وأن يبق جامعهم الكبير لهم، وأن تكفل لهم حرية الشعائر الدينية. وكتاب الأكتفاء لأبن الكردبوس هو المصدر الوحيد الذى أورد هذه الشروط، وقد نشر دوزى صفحات منه فى كتابه عن بنى عباد، الجزء الثانى، ص ١٨، ١٩.

ونشر المعهد المصرى فى مدريد هذه القطعة، مع قطعة من نص آخر لابن الشباط، بتحقيق الدكتور أحمد مختار العبادى عام ١٩٧١.

يستحثه على انتهاب الفرصة. فسار القادر إلى بلنسية فى حراسة سرية قوية من الجنود المسيحيين، بقيادة **ألبار هانييث**، فلما وصل ركبه إلى مشارف المدينة تشاور أهلها فى الأمر، ورأوا، حقنا للدماء وجمعاً للكلمة، أن يقبلوه باعتباره صاحب الولاية الشرعية من قبل، وأعلنوا خلع عثمان بن عبد العزيز، فدخلها القادر بين مظاهر حافلة، لم تكن ترحيبا بقدر ما كانت خوفا من الجند الذين حوله، يكسوهم الحديد، وتلمع سيوفهم تحت أشعة الشمس، وتسلم القصر من القاضى **ابن لبون**، ونزل فرسانه فى بيوت المدينة، واحتل ألبار هانييث وجنده المسيحيون ضاحية الرصافة، وكان ذلك فى شهر فبراير من عام ١٠٨٦م.

وهكذا استولى **القادر** على بلنسية، وقامت دولة بنى ذى النون مرة أخرى فى شرق الأندلس، دولة ضعيفة تدين بوجودها لملك قشتالة، وتعيش فى حماية الجند المسيحين. وما لبث القادر الضعيف الخانع أن تحوّل إلى طاغية، وثقلت وطأة القشتاليين على الناس، وأرهقوهم بمؤنهم ومغارمهم، وتُكلف يومياً ما قيمته ستمائة قطعة من الذهب، وجار على المدينة بالضرائب الفادحة، وتوسل إليه السكان أن يتخلص من هؤلاء الجند، لأنهم سيكونون أوفياء له من غير سلاح، فلم يثق فى رعاياه، ولم تعد الضرائب كافية لمواجهة نفقات الجنود المسيحيين ورواتبهم، ففرض مغارم باهظة على كبار الأغنياء من المسلمين ومن اليهود، وفقد الناس ثقتهم فى المستقبل، وأخذوا يهاجرون جماعات، وفقدت الأرض قيمتها، ولم يُقبل أحد على شرائها، وساءت الحالة الاقتصادية. وعندما تأخرت رواتب الجند سجن قائدُهم **ألبار هانييث** القادرَ حتى يدفع لهم ما تبقى، فعرض عليهم أن يستقروا فى مملكة بلنسية، وأن يقطعهم عوض رواتبهم ضياعاً واسعة، فقلبوا عرضه، واستولوا على أرضه، واستخدموا الرقيق فى زرعها، وكوّنوا منها ومن الإغارة على المقاطعات التى حولها ثروات هائلة وتضخم عددهم ونمت قوّتهم،

وانضمت إليهم جماهير غفيرة من أراذل الناس، والمحرومين والأرقاء والعاطلين، والهاربين من العدالة؛ والمرتدين عن الإسلام، وكوّنوا عصابات مرعبة، نالت شهرة محزنة، وراحت تعيث فى الأرض فساداً، فكانوا يمثلون بالرجال، وينتهكون الأعراض، ووصل بهم الأمر أن يبيعوا الأسير المسلم برغيف خبز، أو كأس من النبيذ، أو رطل من السمك، ومن لم يستطيع أن يفدى نفسه، أو لم يقبل، قطعوا لسانه، أو فقأوا عينيه، أو قدموه طعاماً للكلاب.

● ● ●

وخلال ذلك كانت تجرى فى جنوب شبه الجزيرة أحداث ذات أهمية قصوى، فقد عبر المرابطون بقيادة يوسف بن تاشفين إلى الأندلس، فى أغسطس ١٠٨٦ لرد عادية مسيحيى الشمال بعد استيلاء **ألفونسو السادس** على طليطلة، فأخذ ملك قشتالة يجمع الجند من كل ناحية لدفع هذا السيل المتدفق من جند المسلمين، وغادر **ألبار هانييث** وجنده مدينة بلنسية، وقُدِّر للجيوش الإسلامية أن تنتصر على الجيوش المسيحية فى معركة الزلاقة الشهيرة، فى أكتوبر ١٠٨٦م، وقد سُرّ أهل بلنسية لرحيل القشتاليين عنهم، وتنفسوا الصعداء لهزيمة ألفونسو، وسارع **القادر**، كبقية ملوك الطوائف المسلمين يلتمس صداقة أمير المرابطين، ولكن هذا كان فى شغل عن شرقى الأندلس، وطمع جيران القادر فى مملكته، فكان **المنذر** صاحب لاردة يتحين الفرصة للاستيلاء على بلنسية، فسار إليها ومعه سرية من مرتزقة المسيحيين القطلونيين، وضرب الحصار حولها عام ١٠٨٨م، وكان له داخلها أنصار يؤيدونه، فاستولى الذعر على القادر، وهم بتسليم المدينة، لولا أن **ابن طاهر** صاحب مدينة مرسية السابق نصحه بالتريث، وشجعه على الصمود. وأرسل القادر إلى **ألفونسو** ملك قشتالة يطلب عونه، وإلى **المستعين** صاحب

سرقسطة، وكان المستعين يتوق إلى افتتاح بلنسية، ويشعر بالأسى لفشل محاولة قام بها أبوه من قبل، وكان **السيد القنبيطور** لا يفتأ يحث المستعين على تحقيق هذا الهدف، فلما تلق صريخ القادر، وجد أمامه الفرصة سائحة، فهرع إليه فى بعض قواته، يريد إنجاده ظاهراً، ويضمر الاستيلاء على المدينة باطناً، ولم يسر إليه وحده وإنما صحبه جيش آخر يقوده صديق المستعين وحليفه، **وصديق أبيه المؤتمن، وجده المقتدر من قبل، وكان هذا القائد هو السيد** القنبيطور.

وثمة رواية خلاصتها أن **المستعين والسيد** عقدا ميثاقاً سرياً على غزو بلنسية واجتياحها، على أن تكون الغنائم كلها من نصيب السيد وجنوده، وأن تصبح المدينة للمستعين، وهناك رواية أخرى تشير إلى أن المستعين صحب السيد فى تحركه نحو بلنسية، بحجة الاستجابة لصريخ **القادر**، دون أن يفضى إليه بنيته فى الاستيلاء على المدينة، وقدم إليه أموالا طائلة كى يحشد القوات اللازمة. فتولى السيد جمع الجنود، وانثالوا عليه من كل جانب للعمل تحت رايته، مسلمين ومسيحيين، فاجتمع له منهم، فيما يقول **ابن علقمة** مؤرخ مأساة بلنسية، ثلاثة آلاف فارس، وأربعة آلاف راجل، وهى قوة ضخمة وفقاً لمقاييس العصر، ولم يكن جيش المستعين يتجاوز أربعمائة من الفرسان، وعدداً من الرجالة لا تشير إليه كتب التاريخ.

وعندما علم **المنذر** صاحب لاردة، وشقيق **المستعين**، بما اعتزمه أخوه والسيد، ووجد أنه دون خصومه قوة وعدد جيش، فك الحصار الذى ضربه على بلنسية، وأرسل إلى **القادر** يعرض عليه صداقته، والدخول معه فى حلف مقابل أن يصمد وألا يسلم المدينة للمستعين، فاستجاب له رغم إدراكه بأن المنذر ليس أقل طعما فى مملكته من أخيه المستعين.

ولم يتأخر الحلفاء فى الوصول إلى بلنسية، ومع أن **القادر** كان يجهل الاتفاق الذى بين **المستعين والسيد**، إلا أنه كان يشك فى نوايا الأول منهما، فخرج لا ستقبالهما كمحررين جاءا لعونه، وشكر لهما دلائل الصداقة التى برهنا عليها، والمساعدة التى يقدمانها له، ودعاهما إلى النزول بالقصر الكبير فى المدينة الجديدة. وفى نفس الوقت عمل على التفرقة بين الحليفين فاستمال السيد إلى جانبه، بالرشاوى الكثيرة تأخذ شكل هدايا متعددة وغالية. وعندما صارح المستعيُن السيِّد بأن ينفذ ما اتفقا عليه تنكر لوعده، بحجة أن القادر يدفع الجزية لملك قشتالة، فهو تابع له وفى حمايته، والهجوم على بلنسية يعنى إعلان الحرب على الملك **ألفونسو**؛ وهو لا يفكر فى انتزاع المدينة من القادر إلا إذا كان المستعين على استعداد ليعلن الحرب على ملك قشتالة، وكان السيد يدرك سلفا، وعلى نحو مؤكد، أن ملك سرقسطة على قدر من التبصر والحيطة، يحول بينه وبين أن يرمى بنفسه بين ذراعى جيش الإمبراطور القوى، لقد تهاوت آمال المستعين، فعاد إلى سرقسطة مسرعا، وترك فى بلنسية واحدا من قواده مع مجموعة من الفرسان، ليكونوا فى خدمة القادر ظاهراً، وليحتلوا المدينة إذا ما واتتهم الفرصة من جديد.

فى مثل هذه الظروف بدأ **السيد** يستقل بنفسه، ويعمل لحسابه، ويراوغ الجميع، يبيع العدو والصديق على السواء، ومن ثم فكر فى أن تكون بلنسية له، أو أن يكون فيها صاحب النفوذ الأول على الأقل. ولتحقيق هذا الغرض نصح **القادر** سراً، بعد أن استولى على هداياه، أو ارتشى منه إذا شئنا الدقة فى التعبير، ألا يسلم المدينة لأحد، وأنه سيكون إلى يدافع عنه ضد الجميع، ووعد **المنذر** صاحب لاردة بأنه سيعاونه على تحقيق بغيته فى الوقت المناسب، وأوهم **المستعين**، أخا المنذر، بأنه سينتزع له بلنسية إذا وافق

ألفونسو ملك قشتالة على ذلك، وأرسل إلى **ألفونسو** أنه رعيته وتابعه، وأنه سيقاتل لحسابه، وأن الحرب التى يقوم بها تعود بالخير على قشتالة لأنها تضعف أمر المسلمين، وأن هؤلاء الفرسان الذين يقودهم، دون أن يكلفوا الملك شيئاً، هم تحت تصرف الملك وطوع أمره، وأنه يأمل أن يقدم له مدينة بلنسية، وأن يضع شرقى الأندلس كله تحت نفوذه. ولم يقف السيد مكتوف اليدين فبدأ يهاجم القلاع التى على الحدود وكان رده عند كل تساؤل: «إنه يصنع كل ذلك ليربح لقمة العيش»!.

ومن المؤكد أن **السِّيد** توجه إلى بلاط قشتالة؛ وأن الملك **ألفونسو** أحسن استقباله؛ وعنى بأمره كثيراً، وتنازل له عن بعض الحصون، وسلمه براءة يقرر فيها أن جميع الأراضى والقلاع التى يستولى عليها تصبح ملكا خاصاً له، ثم لأولاده وسائر عقبه من بعده. وقفل السيد عائداً إلى بلنسية، وتحت إمرته سبعة آلاف مقاتل.

وعندما علم **المستعين** بالاتفاق بين ألفونسو والسيد، فصم ما بينهما من محالفة، وانتهز **برنجير** كونت برشلونة، وخصم **السيد** العنيف، الفرصة فسارع إلى عقد تحالف مع المستعين، لمواجهة خطر السيد، وقد أصبح بما تحت إمرته من جيوش مرتزقة يهدد الجميع، وسار معه إلى بلنسية لضرب الحصار عليها من جديد، وعسكرا فى جبالة وليريا، وعزما على إقامة حصن ثالث فى البحيرة للحيلولة دون الخروج من بلنسية أو الدخول إليها. وعندما علم برنجير أن السيد قد اقترب من بلنسية، ليفك الحصار الذى ضربه حولها، تغشاه الخوف، وتهيأ للرحيل قبل أن يصل جيش السيد، ولو أن الجنود لم يشاركوا برنجير خوفه، فأخذوا يسبون السيد، ويهددونه بالأسر أو الموت، وتحمل القنبيطور كل إهاناتهم، لأنه كان يعرف أن الكونت برنجير هو عم الملك

ألفونسو. وأخذ الرسل يتوافدون بين الكونت والسيد، وفهم الكونت أن عليه أن يرحل، فآثر السلامة وعاد إلى برشلونة.

عسكر **السيد** أخيراً فى الكدية، ضاحية بلنسية الشمالية، ويفصلها عن المدينة نهر «طوريا» بعد أن مرّ فى طريقه «بمربيطر» وأرغم حاكمها **ابن لبون** على أن يؤدى له جزية سنوية مقدارها ثمانية آلاف دينار. وفى الحال أغرقه **القادر** بالهدايا من تحف وأموال، وأبلغه أنه يضع نفسه تحت حمايته، ويؤدى له جزية مقدارها ألف دينار أسبوعيًّا، ويقال إنها كانت تزيد على مائة ألف دينار فى العام، مقابل أن يُدخل له فى طاعته كل قواد الحصون الثائرين، وأن يرغمهم على دفع الضرائب له، كما كانوا يصنعون من قبل وأن يظل معسكراً فى الكدية، وأن يحمل إلى بلنسية كل الغنائم التى يحصل عليها من إغارته لتباع فيها.

وفى الحال استجاب له قواد الحصون، فلما اطمأن إلى إذعانهم أغار على جبال ألبونت، حيث يحكم **جناح الدولة عبد الله بن قاسم**، وعاث فى أراضيه فساداً ونهباً وسرقة، وأرغمه على أن يدفع جزية سنوية مقدارها عشرة آلاف دينار. وهكذا أصبح فى قبضة السيد أمراء بلنسية، والسهلة وألبونت، ومربيطر، وعلى نحو أدق أصبح كل جنوب شرقى الأندلس تحت حمايته يدفع له الجزية خانعاً!

● ● ●

بعد هزيمة الزلاقة خاف **ألفونسو** من تقدم المرابطين نحو طليطلة عاصمة ملكه، فدعم حصن ألْييط، ويقع فى الطريق إليها، بقوة تبلغ ألف فارس واثنى عشر ألف مقاتل، غير من معهم من النساء والأطفال، وكانت تغير على نواحى

لورقة عقاباً للمعتمد، لأنه تزعم دعوة المرابطين إلى الأندلس وامتدت غاراتها إلى المرِّية ومرسية أيضاً. حينئذ فكر **المعتمد** فى الاستغاثة بأمير المرابطين مرة ثانية، وفعلا جاء ابن تاشفين إلى الحصن وضرب عليه الحصار، وفى صحبته عدد من الملوك والأمراء المسلمين. فكتب ألفونسو إلى **السيد** يستنجد به، ويدعوه إلى أن يتقدم سريعاً لمعاونة المحاصرين فى ألييط، فأبدى السيد استعداده، ورجا الملك أن يخبره بالوقت الذى يتحرك فيه. ثم ترك معسكره فى ركونة Requena واتجه إلى شاطبة ليكون قريباً من مسرح الأحداث، وعندها أدركه رسول الملك يحمل إليه أمراً بأن ينتظر فى بيينا Villena، لأن الملك سيمرّ بها فى طريقه إلى المعركة، وأخبره بأن الجيش الذى جمعه الملك كبير يضم ثمانيَة عشر ألفاً من المقاتلين.

لكن **السِّيد** عسكر فى أونتنيينت Onteniente ليؤمِّن تموين قواته، فهى تقع فى واد ريان، وفير الماء، غنى بالخيرات، من شعير وقمح وفاكهة وزيت وأغنام، وترك فى كل من بيينا وجنجالة طليعة تخبره بوصول الملك. غير أن **ألفونسو** سلك طريقاً آخر، فلما عرف السِّيد الخبر ترك هلين مسرعاً، حيث يوجد، مع قلة من رجاله، ليلحق بالملك فى مولينا، تاركاً وراءه معظم الجيش، ولكنه وصل متأخراً بعد أن انتهت المعركة، لأن أمير المرابطين ومن معه رفعوا الحصار بلا قتال. وعاد ألفونسو إلى طليطلة فى **٢٥** نوفمبر **١٠٨٩**، وفيما بعد أمر بإخلاء الحصن لأن الدفاع عنه كان مرهقاً. وأعطى وصول السِّيد إلى المعركة متأخراً الفرصة لخصومه لكى يهمسوا فى أذن الملك بأن القنبيطور وصل المعركة متأخراً عن قصد، ليمكن المسلمين من الجيش القشتالى فيمزِّقونه شر ممزَق، ومن ثم أصدر الملك ألفونسو أمراً بمصادرة كل الضياع والحصون التى منحها للسِّيد من قبل، والأموال التى له، ويسجن زوجته وأطفاله.

وما إن عرف **القنبيطور** الاتهام والعقاب حتى أرسل واحداً من فرسانه ألى الملك يبرئ نفسه مما اتهم به، ويقدم البراهين على براءته، ثم دعا خصومه إلى معركة قضائية أمام بلاط الملك، وقد رفض ألفونسو عرضه. ولكنه خفَّف من العقوبات التى أنزلها به، فأطلق سراح زوجته **دونيا خمينا**، وأطفاله، وسمح لهم بمغادرة قشتالة وأن يلحقوا بأبيهم.

وجد **القنبيطور** نفسه وحيداً، تخلى عنه **ألفونسو**، وانفصل عن **المستعين**، ومحاط بالأعداء من كل جانب، لا يتبع أحداً؛ وليس لجنوده ما يطعمونه إلا ما يربحه مغيراً. ونهماً إلى الغنائم، تشغل فكره، ترك ألش Eleche فى مطلع العام الجديد ١٠٩٠، واستقر فى قلعة بولب قريباً من ألقنت، بعد أن جاءته الأخبار أن فيها جواهر ثمينة وأموالا مخبَّأة، فحاصر الحصن، وأرغم حاميته على التسليم، وغنم كل ما وجد فيه، وأتى عليه أرضاً، ثم اتجه **إلى أوريولة قريباً من شاطبة، فلم يبق فى طريقه على جدار قائم. ومن هناك** مضى إلى كورة طرطوشة فاستولى على مرابط Miravet، وفيها أرسل إليه **المنذر** صاحب لاردة وطرطوشة يطلب محالفته. ولما علم **القادر** ملك بلنسية بهذه المحاولة خشى أن تكون على حسابه، فأرسل المزيد من الهدايا إلى السِّيد ليشترى رضاه، ومثله حذا كل صغار القادة والأمراء الذين حوله. بينما بدأ **المستعين**، ثم المنذر بعد أن تحالف السِّيد مع **القادر**، يكوّن حلفا جديداً ضد القنبيطور يجمع بينه وبين أخيه **وشانجه راميريث ملك أرجون، وبرنجير** كونت برشلونة، **وإرمنجول** كونت أورجل، فلم يستجب له منهم إلا كونت برشلونة، وكان يحقد على السيد كثيراً منذ أرغمه على الرحيل عن بلنسية وفك الحصار، فتحرك بجيشه من برشلونة، وذهب إلى دروقة Doroca ليزور ملك سرقسطة المقيم هناك، وقدم له المستعين مقابل عونه أموالا طائلة، ثم ذهب

الاثنان لمقابلة ألفونسو السادس ملك قشتالة، وكان ساعتها نازلا فى أورون Oron يطلبان عونه ضد السيد، وتحمس برنجير فأكد أنه سيطرد السيد من أراضى طرطوشة، وأن السبب الذى حال دون ذلك فى الماضى أنه كان رعية الإمبراطور - اللقب الذى يطلق على ألفونسو - وشاركه جنده الذين كانوا معه فى السخرية من القنبيطور، وشاركهم الرأى أعداء السيد ألذين كانوا فى بلاط الملك، غير أن ألفونسو لم يثق فى قدرتهما، فلم يعدهما بشىء، وعادا من رحلتهما دون أن يمدهما بجندى واحد.

وأدرك **السيد** أنه غير قادر على مواجهة خصومة مجتمعين، فرحل من مرابط وعسكر فى غابات تيار، واد تحيط به الجبال العالية، والدخول إليه عسير، وعمل على التفرقة بين المتحالفين، وكان **المستعين** أول من وقع فى الفخ، فقد أدرك بعد أن ردَّهما **ألفونسو** أن فى المسالمة السلامة، فبعث إلى السيد يطلب ودّه، وتجاوز المسالمة ليخون حليفه، فأسرّ إلى السيد أن الكونت **برنجير** يتهيأ للقائه. وكان كونت برشلونة يعتقد أن القنبيطور يمكن أن يرحل تحت ضغط التهديد والتحدى، فكتب إليه: «تزعم أننى ورجالى نساء، وإذا ساعدنا الله فسوف نبرهن لك سريعاً إلى أى مدى أنت وقعت فى الفخ... نحن نعرف أن آلهتك هى الجبال والغربان والصقور، وباختصار كل الطيور، وأن ثقتك فى عرّافيك أكثر من ثقتك فى عون القوى القادر. أما أنا ورجالى فعلى العكس منك، نؤمن بإله واحد، وأن هذا الإله سوف يثأر لنا منك، ويلقى بك بين أيدينا. غداً مع أول شعاع للشمس ستزانا عندك، وإذا تركت الجبل لتجئ إلينا، فستعرف قدر نفسك فى السهل. إننا نتنظر لذريق الملقب بالمحارب وبالقنبيطور، وإذا لم تجئ فسوف نعتبرك ختّاراً... لن ندعك تفلت قبل أن تقع فى قبضتنا جثة هامدة، أو حياً أسيراً، وسوف نعاملك بالطريقة

التى تحب أن نعاملك بها، فإلى المبارزة... إن الله سوف ينتقم للكنائس التى دنّستها، وللأديرة التى هدمتها».

وقرأ السيد الرسالة فى معسكره، بين جنوده، وفوراً رد عليه: «... لقد أهنتك، وإليك الأسباب: كنت مع **المستعين** فى قلعة أيوب وقلت له: إننى لم أضع قدمى فوق أرضه خشية منك، ونفس الشىء قاله أتباعك للملك **ألفونسو**، فى حضور فرسان قشتاليين، ثم قلته أنت أخيراً للملك ألفونسو بمحضر المستعين، وأنه لن يفوتك أن تطردنى من بلاد الحاجب **المنذر**، وأننى لا أجرؤ على انتظارك. وفى لحظة أخرى تعللت بأنك لاتريد أن تحارب ضد أحد رعايا الملك. لأجل هذا كله أهنتك ووجهت إليك السباب!. طيب... **تعال إلىّ، لم يبق لك حجة لكى لا تهاجمنى، لقد وعدك المنذر بمبلغ ضخم،** ووعدته أنت بطردى من أراضيه، احفظ كلمتك!، تعال لمقابلتى إذا استطعت، إننى فى سهل، أعظم السهول اتساعاً، وعلى أى حال عندما ألقاك سأعطيك راتبك كالعادة»!.

بلغ الغيظ والحنق مبلغه من **برنجير** وجنده من القطلان، فأقسموا على الانتقام، وانتهزوا فرصة ظلام الليل، واحتلوا دون أن يحس بهم أحد الجبال التى تحيط بمعسكر **السيد**، ثم انقضوا عليه فجأة مع انبلاج الفجر، وكان الهجوم مفاجأة للسيد ولجنوده، حتى أن الوقت لم يتسع لهم لإعداد السلاح، فاستعر القنبيطور غضباً وحنقاً وغيظاً، ولم يفقد لحظة واحدة فانقض على أول جماعة لقيها من الأعداء، وقاتل مستميتاً، وسقط عن جواده، وجرح فى ساقه، لكن أتباعه واصلوا القتال صامدين إلى أن أصابوا النصر. وبعده انقضوا على معسكر الأعداء فنهبوا ما فيه من ملابس وجواهر وتحف وخيام، وغنموا ما لهم من خيل وسلاح وبغال، وأسروا الكونت برنجير نفسه، وخمسة آلاف

من أتباعه، واقتيد برنجير إلى خيمة السيد، وتقدم إليه كسير النفس يطلب العفو منه، لكن السيد عامله بقسوة زائدة، فلم يسمح له أن يجلس إلى جواره فى خيمته، وأمر جنوده أن يسحبوه خارجها، وأن يحرسوه جيداً، غير أنه أمر بأن يقدم له، وللأسرى الآخرين، ما يكفيهم من الطعام، ثم قبل منه الفدية التى عرضها عليه، ولواحد من فرسانه يعزه، هو جيرود المان وتبلغ قيمتها أربعة وعشرين ألف مارك من الذهب البلنسى، أما بقية الأسرى فقد أطلق سراحهم مقابل وعد منهم بأن يدفعوا الفدية مستقبلا. فلما عادوا إلى مدنهم جمعوا من الأموال ما استطاعوا، ولم يكن ما جمعوه كافيًا، فعرضوا عوضاً عنه آباءهم وأبناءهم وأقاربهم، ولكن السِّيد وقد أحس تعاستهم كان كريماً معهم، فأبرأ ذمتهم من باقى الفدية. بقى أن نشير إلى أن شاعر الملحمة قد أبدع وهو **يقدم لنا الموقف الدرامى الذى جرى بين السيد والكونت برنجير، بعد أُسر وقُدم له الطعام، وأعطانا تفصيلات وافية، وحواراً نابضاً بالحياة**[1].

● ● ●

تأثر كونت برشلونة إزاء عفو السيد، فعرض عليه أن يكون صديقه وحليفه، غير أن السيد وكان يطوى جوانحه على بغض شديد للكونت رفض العرض، لكنه نزل عند نصيحة جنده وإلحاحهم، ووافق على أن يتحالف مع خصمه القديم، ولما عرف المنذر صاحب لاردة هزيمة كونت برشلونة مات كمداً، تاركا وراءه طفلا فى سن طرية ،فاشترى له أوصياؤه رضى السِّيد وحمايته بجزية سنوية قدرها ٥٠ ألف دينار.

وإلى جانب ما ذكرنا من جزية كان يتلق من بنى رزين سادة شنتمرية

(١) انظر القصائد من رقم ٥٦ إلى ٦٢.

الشرق عشرة آلاف دينار فى كل عام ومن عبد الله بن قاسم صاحب البونت عشرة آلاف دينار، ومن ابن لبون حاكم مربيطر ثمانية آلاف، ومن قلعة شيب ستة آلاف، ومن الشارقة ثلاثة آلاف، ومثلها من حصن المنارة، وألفى دينار من ليريا. أما أعلى جزية فكانت تدفعها مدينة بلنسية وقيمتها اثنان وخمسون ألف دينار سنويًّا، فضلا عما يساوى اثنين فى المائة من قيمتها، أى خمسة آلاف ومائتى دينار، تدفع لمطران بلنسية، القائم على شئون المستعربين، وتسميه المراجع العربية سعيد المطران.

وبينما كان **السيد** يحاصر ليريا لأنها امتنعت عن دفع الجزية، تلقى رسالة من ملكة قشتالة تطلب إليه أن يلحق بالحملة التى يقودها الملك **ألفونسو** ضد مسلمى الأندلس، فتحرك نحو جنوب شرقى الأندلس فعلا، والتقى بالملك فى مرتوس، غربى جيان، فأحسن ألفونسو لقاءه، لكنه ما لبث أن غضب عندما رأى السيد ينصب خيامه فى السهل، بينما عسكر الملك على قمة الجبل، **ورأى فى تصرفه شاهداً جديداً على تكبره، وقال لحاشيته : « أى عار يُلحق بنا** لذريق، جاءنا متعباً يشكو من رحلة طويلة قطعها ليلحق بنا، وها هو ينازعنا السهل، وينصب خيامه أمام خيامنا » وكالعادة فإن رجال الحاشية جعلوا الحق كاملا فى جانب الملك.

والتقى **ألفونسو** مع المرابطين، وفى البدء أوشك ميزان المعركة أن ينقلب لصالحه، غير أنه فى النهاية أصيب بهزيمة قاسية، وأوشك الملك نفسه أن يقع صريع سيوف أعدائه، وطبعاً عُزيت الهزيمة إلى تصرفات لذريق فغضب عليه الملك، وسبّه وحاول أن يسجنه، لكن السيد انتهز فرصة ظلام الليل وولىّ هارباً، عاد نحو بلنسية بجزء من قواته، أما الكثرة الغالبة ففارقته وانضمت إلى جيش ملك قشتالة. حينئذ قرر الملك ألفونسو أن يعاقبه، وأن يضع حداً

لنفوذه، وذلك بانتزاع بلنسية منه، وكانت تدفع الجزية للسيد، فعقد حلفاً مع أهل بيشة Pisa وجنوة لكى يحاصروا المدينة بحراً بينما يحاصرها هو من البر. واتجه ألفونسو إلى بلنسية فعلا وضرب عليها الحصار، بينما تأخرت سفن البشيين والجنويين.

فى ذلك الوقت كان **السيد** فى سرقسطة مشغولا بمؤازرة ملكها المسلم، فى صراعه مع ملك أرجون المسيحى، فلما نُمى إليه ما حدث غادر سرقسطة مع جيشه، واتجه إلى قشتالة نفسها، ينشر فيها الدمار والخراب، فانقض كالصاعقة على ناجرة وقلهرة، وهى من أملاك الكونت **غرسية أوردونييث** عدوه اللدود، ثم أتى مدينة لوجرونيو فجعل عاليها سافلها. وألحق بأهلها المسيحيين أضراراً بالغة، فلما اتصلت الأخبار بالملك **ألفونسو** رفع الحصار عن بلنسية، وقفل مسرعاً إلى مملكته لكى يتولى الدفاع عنها، بينما اتجهت السفن الجنوية والبيشية وقد جاءت متأخرة إلى طرطوشة.

كان السيد كالإعصار وهو يجتاح أرضى قشتالة، فدمرها تماماً، ولقد احتاج الملك إلى ثلاثة أعوام كاملة لكى يعيد بناء مدينة لوجرونيو الصغيرة إلى ماكانت عليه.

سيِّد بلنسية

إذا كانت أعمال السيِّد قبل تمكنه من بلنسية تخضع للنقد التاريخى، وتدخل فى نطاق الترجيح، فإن استيلاءه على هذه المدينة تم فى وضح التاريخ، وتجمع عليه كل المصادر الإسلامية والمسيحية، والإسلامية أشد تفصيلا وأكثر دقة فيما تقدم من أخبار، ولقد مرَّت كبرى مدن شرق الأندلس بلحظات عصيبة قبل أن تقع بين فكى مغامر لا يرحم.

فبعد أن رفع **ألفونسو** الحصار عن المدينة بزمن قليل، اعتزم البلنسيون أن يتخلصوا من العبودية التى فرضها عليهم **السيِّد**، وكان **السيِّد** أثناء تنقلاته الكثيرة قد اعتاد أن يترك ببلنسية ممثلا مباشراً له، مسلماً شديد الإخلاص لقضيته، اسمه **ابن الفرج**. وكان قاضى المدينة أبو أحمد ابن جعفر بن عبد الله **بن جحَّاف** المعافرى رجلا طموحاً، يترعم فى المدينة الحزب المناوىء للسيِّد، ويناهض الحزب الذى يلتف حول **القادر**، ويعيش فى حمى السيِّد ويدفع له الجزية، فأرسل سرًّا إلى **ابن عائشة** قائد المرابطين، وكان يرابط بجيشه فى مرسية ودانية قريباً من بلنسية، بأن يساعده فى تسلم المدينة إذا ساعده فى محاربة القادر والسيِّد، واستجاب ابن عائشة لدعوته، واستيقظت المدينة ذات صباح على قرع الطبول، وسأل ابن الفرج عن الخبر فقيل له : إن سريّة من الجيش المرابطى فى خمسمائة فارس تقف على باب تطيلة، ثم تبين أنهم لم يكونوا غير أربعين بقيادة **أبى ناصر**. ومع ذلك استبد الهرج بالمدينة، وقاد ابن جحَّاف جموع الثائرين واتجه إلى القصر الملكى، واعتقل ابن الفرج ممثل السيِّد، وعبثاً حاول العثور على القادر، لقد كان لدى الملك من الوقت ما أتاح

له أن يتزيى ملابس امرأة، وأن يحمل ثرواته الأغلى ثمناً والأندر نوعاً، ثم خرج من القصر بين عشيقاته، واختفى داخل منزل متواضع المظهر، فى حىّ قليل الارتياد، ولقد نهب الثائرون القصر وأتوا على ما فيه دون إراقة دماء، فلم يقتل عنده غير جنديين.

كان ابن جحاف يعرف أكيداً أن القادر لم يغادر المدينة، فبحث عنه حتى وجده، ونوى أن يستولى على ما معه من مجوهرات يخبؤها، وبينها حلى وجواهر الملكة زبيدة، وتساوى مبالغ طائلة، وطريقه إليها أن يتخلص من حياة الملك أولا، فترك بعض جنده المخلصين على حراسته، وأسرّ إليهم أن يغتالوه إذا جاء الليل، وقام بالأمر رجل يُدعى ابن الحديدى له عند القادر ثأر، فقد قتل فى سابق طغيانه بعض أقاربه. وحمل القتلة رأس القادر، وطافوا بها شوارع بلنسية.

وكان ذلك فى آخر يوم من رمضان ٤٨٥ هـ = ٤ من نوفمبر ١٠٩٢ م، ثم طرحوها فى مستنقع قريب، ودفعوا بجزء من الجواهر للقاضى ابن جحاف، واحتفظوا بالباقى لأنفسهم، وجاء بضعة رجال فحملوا بقية الجسد، ووضعوه فى نعش، وغطوه بلبادة قديمة، وحملوه خارج المدينة، وواروه التراب بلا تكفين.

وأصبحت بلنسية جمهورية تحكمها « الجماعة »، نفس ما حدث فى قرطبة وإشبيلية بعد سقوط الخلافة، وأصبح **ابن جحاف** القاضى رئيساً لها، ولعله أمّل أن يكون فى بلنسية ما كان **ابن عبّاد** القاضى فى إشبيلية، أو ما كانه **ابن جهور** فى قرطبة، ولكنه كان دونهما فطنة وسياسة ووقاراً، فاستخف بادىء الأمر، غير أن الظروف أرغمته على أن يفكر بطريقة أكثر جدية، فبدأ

يحشد الجند، ويحصّن أطراف المدينة، ويستعد للطوارىء.

أثناء ذلك هرب بعض أتباع الملك، وعدد من جند **ابن الفرج**. وذهب جماعة منهم إلى سرقسطة تقص على **السيد** ما حدث، فسار نحو بلنسية، وانضم إليه كل المهاجرين، وأقسموا له يمين الولاء، ووضعوا أنفسهم تحت تصرفه، ونزل جبالة Cebolia وضرب الحصار حول بلنسية، واستولى على ربضى «بلة نوبة»، أى المدينة الجديدة، والكدية، وأخذ يرسل العشرات من الغارات فى اليوم الواحد، ويأمر قواته ألا تدمر غير المعسكرات وألا تزعج سكان المزارع والفلاحين. بل وكان يبيع لسكان مربيطر الغنائم التى يحصل عليها وما يحتاجون إليه من تموين. ثم حاول أن يستميل **ابن جحاف** إلى جانبه فأرسل إليه بأن يطرد المرابطين من المدينة ويتعهد له بأن يصبح سيد بلنسية الوحيد، وأن يمده بالعون والحماية على نحو ما كان يفعل مع **القادر** من قبل. ولم يقطع ابن جحاف فى العرض قبل أن يستشير ابن الفرج صديق السيد وممثله من قبل، وأعرف الناس بما عليه، فنصحه بأن يعتمد على السيد. فبدأ ابن جحاف يمهِّد للأمر، أرسل إلى السيد يخبره بأنه قبل عرضه، وقلّل من رواتب فرسان المرابطين بحجة أنه فى حاجة إلى الأموال ليرغمهم على ترك المدينة. غير أن القاضى لم يكن يثق فى السيد كثيراً، ولم يرد أن يقطع صلته بالمسلمين نهائيًّا، فعرض على «الجماعة» أن يرسل جانباً من الأموال التى أخذت من القادر إلى أمير المرابطين ليهيىء بها جيشاً يجىء لعونها عند الضرورة، فوافقت الأغلبية على القرار، وكلفت جماعة تتكون من خمسة أشخاص، بينهم ابن الفرج، بحمل هذه الأموال فى سرية تامة، لكن ابن الفرج أنبأ السيد سرًّا بما حدث، فاقتفى هذا أثرهم بفرسانه، وأدركهم فى الطريق، وجردهم من كل ما كان معهم من أموال.

غير أن انتصارات **السيد** خارج المدينة، وتقاعس المرابطين، واختلاف الكلمة فى الداخل، جعل السكان راغبين فى الوصول إلى اتفاق مهما يكن الثمن، وعندما طلبوا من السيد شروطه لتوقيع اتفاقية السلام، رد عليهم بأن يضعوا هم الشروط التى يريدونها شريطة خروج المرابطين. وأخيراً انتهت المفاوضات بينهم على أن يغادر المرابطون المدينة آمنين، وأن يدفع **ابن جحاف** ثمن ما كان مودعاً بمخازنه من حنطة وقت مقتل **القادر**، وأن يدفع الجزية التى كانت تدفع من قبل، ومقدارها ١٠ آلاف دينار شهريًا مع متأخراتها من وقت أن بدأت الحرب، وأن تبق الضواحى التى استولى عليها السيد بقوة السلاح له، وأن يسمح له بأن يعسكر بجيشه ما بق فى أرض بلنسية فى حصن « جبالة ».

وخرج المرابطون من المدينة، بعد أن ملوا مؤامرات قادتها وصغارهم وسرعان ما نقض **السيد** عهوده - كالعادة - وأخذ يتردد فى جنده على ضواحى المدينة ويعيث فيها، ويرهق **ابن جحاف** بمطالبه المالية، بينما بدأ هذا يعانى من المؤامرات الداخلية، ومن مناوأة الزعماء المحليين، وبخاصة **بنى طاهر** أصحاب مرسية السابقين، وكانوا يتصلون بالسيد سراً، ويتآمرون معه على ابن جحاف. وحاول السيد أن يعجم عود القاضى، ويقيس مدى خضوعه، فطلب منه أن يتنازل له مع بعض أصحابه عن القصر الملكى ليقيم فيه لبضعة أيام، وكان يضم واحدة من أروع الحدائق العالمية، ووافق ابن جحاف، وهيأ القصر ومداخله، فغطّى الأرض بالسجاجيد الفاخرة، وأعد ولائم هائلة، وفى اليوم المحدّد انتظر السيدَ طويلا، ولكنه لم يجىء، ومع الظلام قدم رسول منه يقول إن مزاج لذريق مشوّش، ويحول بينه وبين تحقيق ما وعد به، وأحسّ البلنسيون قسوة الإهانة، وغضب لها الجميع حتى خصوم القاضى، وتولى ابن جحاف

والأشراف، وكانوا يرتجفون خوفاً على أراضيهم وضياعهم، تهدئة الجماهير، فلم يتحرك مخلوق.

ولما رأى **السيد** أن القاضى تجرّع الإهانة صاغراً ظهر فجأة فى حديقة القصر، وزاد فاستولى على الضاحية المحيطة به، بينما سكان بلنسية ينتظرون فى صبر نافد تقدم جيش المرابطين، وسارع **ابن جحاف** فأعلمهم مهدئاً بأن إقامة السيد فى القصر الملكى مؤقتة، فلما أعرضوا عنه هدّد مناوراً بالتخلى عن رئاسة الجماعة، والعودة إلى حياته الخاصة، فذهب البلنسيون إلى **ابن طاهر** يعرضون عليه أن يصبح رئيساً للجمهورية، وبدأوا يتمردون على ابن جحاف وسياسته، وأغلقوا أبواب المدينة فى وجه السيد. وبدأ المرابطون يتقدمون حتى وصلوا مدينة شاطبة، وانسحب السيد من حدائق القصر الملكى، واستقر رأيه على انتظار الأعداء حيث هو، وحطّم كل الجسور القائمة على نهر الوادى الكبير، وأغرق كل السهول المحيطة به، حتى لا يستطيع المرابطون أن يهاجموه إلا من طريق متعرج تماماً.

وعمت بلنسية فرحة غامرة لم يقدر لها أن تدوم طويلا، فقد جاءهم من ينقل إليهم أن المرابطين لن يتقدموا، وأنهم نكصوا على أعقابهم، فأصبح الناس سكارى لا يفهمون ما يقال لهم، واسودت وجوههم، على حد تعبير مؤرخ مسلم، كما لو كانت قد طليت بالقطران، وفقد الناس ذواكرهم كما لو كانوا قد سقطوا فى أعماق المحيط. بينما شملت البهجة جنود السيد فأخذوا يسبون سكان المدينة ويتوعدونهم لكى يدفعوهم إلى التسليم، وعاد السيد مرة ثانية إلى القصر الملكى وحدائقه بينما الجنود نهمون يتطلعون إلى الساعة التى تتاح لهم لكى يهجموا على المدينة وينهبوا ما فيها.

ولم يفقد البلنسيون الأمل نهائياً فى مساعدة تـأتيهم، فقـد كتـب **ابـن عائشة**، قائد جيش المرابطين، إلى **بنى طـاهر** يخـبرهم بـأن المرابـطين لم ينسحبوا جبناً، وإنما لاعتبارات تتعلق بالتموين، وأن حملة جـديدة تعـد، وهـى وعود شدت عزائم المحاصرين لوقت قصير، فقد جاءت الأخبـار أخـيراً بـأن الجيش المرابطى عبر المضيق عائداً إلى المغرب، فهبطت الروح المعنوية للنـاس، وفقد **ابن طاهر** شعبيته، وبدأ **ابن جحاف** يسترد مـكانته، ووجـد الفـرصة سانحة لكى يؤلب العامة على بنى طاهر، وأنهم بـلا خـبرة أو كفـاية، وهـم المسئولون عن كل الرزايا التى أصابت المدينة، وجـاءه النـاس يـطلبون ريـاسته ثانية، وهو يتمنع ظاهراً بحجة أنه انصرف إلى حياته الخاصة، ولا يستطيع أن يعطى رأيه لأناس تغلب عليهم روح التعصب، وأن طريقهم لـدفع الـكارثة أن يتركوا خلافاتهم وأحقادهم، وإذا أرادوا نصحه وعونه، فليجردوا بنى طاهر من سلطانهم. وأمام المستقبل وظلامه استجاب له النـاس طـائعين وبـويع بـرياسة الجماعة من جديد، فى فبراير أو مارس عام ١٠٩٤م.

كان **ابن جحاف** يتوقع معارضة بنى طاهر وهم كثـيرون وأقـوياء، ولهـم أتباع، فعمل على أن يشل حركتهم، دعا السـكان إلى العمـل، ودفـع الجـزية المعتادة إلى السيد، على أن يدعهم السيد فى أمان. وأسرّ إلى السيد أن يأتى إلى أسوار المدينة وأن يقول للبلنسيين إنه لن يستمع إلى أى اقـتراح منهـم قبـل أن يترك بنو طاهر المدينة، وبعدها كلف ابن جحاف واحـدا مـن قـواده يـدعى **التاكرتى** بأن يذهب ليلا ويعتقلهم، ووضع تحت إمـرته عـدداً كبـيراً مـن الفرسان والمشاة، واحس **بنو طاهر**، ولم تـكن بيـوتهم محصّـنه، فلجـأوا إلى منزل فقيه تحيط به أسوار عالية، يحتمون به حتى تستيقظ المدينة ويجىء أتبـاعهم لمساندتهم، ولم يضيع القائد وقته فى تسلق الأسوار، فأشعل النار فى الأبـواب،

واقتحم الجنود البيت، وبينما تكفل هؤلاء باعتقال بنى طاهر، قام الغوغاء الذين تجمعوا من كل جانب بنهب ما فيه من مؤن وأثاث ومتاع، وألقى بهم ابن جحاف فى السجن، لكنهم لم يبقوا فيه طويلا، فقد عم الغضب بلنسية احتجاجا على ما حدث لهم، وجاء السيد فى مساء الغد فأطلق سراحهم، وتركهم يغادرون المدينة ويسكنون ضواحيها.

خرج **ابن جحاف** من المدينة إلى «بله نوبه» لمقابلة **السيد** فكان فى استقباله مطران شنتمرية الشرق، وعدد من الفرسان، وفى ظنهم أنه سوف يهاديهم بشىء، وهو ما لم يفعله، فصحبوه إلى السيد فتلقاه فى البدء باشاً، وأمسك بركابه، وعانقه، ورغب إليه أن يخلع لباس القاضى، وأن يرتدى زى الملوك، لأنه ملك فعلا، وطال الحديث، وتوقع السيد أن يقدّم له ابن جحاف شيئا من جواهر القادر وتحفه، فلما لم يفعل غير لهجته، ووعد ابن جحاف بحمايته وصداقته، مقابل شروط ساقها إليه شرطا وراء آخر، الأقل صعوبة فالأصعب إلى أن انتهى به إلى موقف قاس مهين. أن يتنازل له عن نصف دخل المدينة والمزارع المتصلة بها، وأن يقوم بجباية ضرائبها مشرفه الخاص، وقبل ابن جحاف، فزاد السيد : وأن يقدم القاضى ابنه رهينة لتنفيذ الشروط، وامتقع وجه ابن جحاف، ولكنه كبح مشاعره ووافق، فطلب منه السِّيد أن يأتى فى اليوم التالى ليوقع الشروط، وعاد القاضى التعس إلى بلنسية، وقلبه يقطر أسى، لقد عرف كم كان متهوراً عندما وافق على أن يرغم المرابطين على الرحيل وأن يثق فى السيد.

ولم يجئ القاضى فى اليوم التالى، وأرسل **السيد** فى طلبه، وكان ردّ **ابن جحاف** إنه يفضل أن يفقد رأسه قبل أن يضحى بابنه، وغضب السيد من

رده، وتوعدّه بأنه وقد أخلف وعده لم يعد أهلا لصداقته، وبدا الاتفاق بين الاثنين مستحيلا، وأخذت الحالة فى المدينة تتدهور سريعا، فقد أحكم السيد الحصار حولها، وبدأ جنوده يقتربون من أسوارها، وتهاوت أسعار البيوت والأثاث. فكل الناس يريدون البيع وليس هناك راغب فى الشراء، وارتفعت أسعار الأغذية بشكل جنونى، واستمر الحصار على هذا النحو عشرين شهرا، فتك الجوع بالسكان، وأكل الناس الفيران والكلاب والجيف، وبلغ ثمن رطل القمح مثقالا ونصفا، وأوقية الجبن ثلاثة دارهم، ورطل البقل بخمسة دراهم، وبيضة الدجاجة بثلاثة دراهم، ورطل اللحم بستة دنانير، وعظم البلاء، وتضاعف الغلاء، وأصبح الناس سواء، الفقراء والأغنياء، وكان من المناظر المألوفة أن ترى جمعا من الناس يفتش عن بقايا عنقود من العنب بين المجارى ومزالق القمامة، وعشرات من الرجال والنساء والأطفال يتربصون اللحظة التى يفتح فيها أى باب من أبواب المدينة لكى يندفعوا هاربين إلى معسكرات السيد، فينتهى بهم الأمر إلى أن يقتلوا فورا، أما الذين فيهم بقية من رمق، فيباعون إلى مسلمى الكودية، برغيف من الخبز أو زق من النبيذ، وكان هؤلاء يموتون عادة قبل أن يحصلوا على مايسد الرمق، وأخيرا فالذين يصلون فى صحة لا بأس بها، من الطبقات الموسرة، يباعون لتجار الرقيق الذين توافدوا فى أعداد هائلة من وراء البحر.

وإزاء هذا الموقف البالغ السوء كتب **ابن جحاف** إلى **المستعين** ملك سرقسطة، يصور له مآسى المدينة ويطلب عونه، ودفع بالكتاب إلى رجل خرج من المدينة تحت جنح الظلام، غير أن المستعين لم يكن راغبا فى الاصطدام مع السيد صديقه وعميله القديم، فترك الرسول ينتظر ثلاثة أسابيع، وأخيرا وبعد إلحاح من الحاشية سلّمه رداً يخبر فيه ابن جحاف بأنه سوف يكتب لألفونسو ملك قشتالة يطلب عونه، وينصحه أن يتذرع بالصبر، وأن يقاوم، «وأعلمنى

بأخبارك بين حين وآخر ». وتابع ابن جحاف خطته، وبدأ يحفر المنازل بحثاً عن الأغذية، ويستولى على ما يجده منها، ولا يترك للملاك إلا مئونة نصف شهر. يدفع ثمن ما يأخذ أحيانا، وعادة لا يدفع شيئا، ولكنه يعد دائما. وكان رده بإزاء أى احتجاج، إنها محنة، على الجميع أن يتقاسموا ضرّاءها، وأن يواجهوها صابرين. ونفدت الأطعمة وترمّق سائر الناس بالجلود والأصباغ وعرق السوس، وبالفيران والقطط وجيف الآدميين. وفى دوامة المحنة، صعد بلنسى مسلم أعلى برج فى المدينة، وألقى قصيدة مؤثرة، بكى فيها المدينة، وصوّر مأساة سكانها، وهى قصيدة تستحق وحدها وقفة خاصة، ودراسة مستأنية وعرضناها فى مكان آخر[1].

وتوالت رسائل **ابن جحاف** للمستعين ملك سرقسطة يطلب النجدة، ولم يكن عند **المستعين** ما يقدمه غير وعود لم يوف بها أبدا وأنه طلب عون **ألفونسو** ملك قشتالة، فرد عليه بأنه أرسل له **غرسية أوردونييث** عدو السيد اللدود، مع عدد من الفرسان القشتاليين، وأنه سيلحق بهم شخصياً. وكتب ابن جحاف نفسه إلى أصدقاء الملك ألفونسو، غير أن هذا آثر أن يراوغ حتى يرى كيف تستبين الأمور.

كان **السيد** يدرك جيداً ما يكلفه الهجوم على المدينة قبل أن يدمرّها من الداخل، فحاول أن يثير الناس على **ابن جحاف**، وراسل بعض السكان ليثوروا، ولكن القاضى علم بالمؤامرة، وقضى على رءوسها، قتل بعضهم، وألقى بالآخرين فى السجون.

ومع الزمن كان الجوع يأخذ بخناق المدينة، على نحو لم تعرفه الإنسانية،

---

(١) انظر فصل : «مرثيه بلنسية ضائعة»، من كتابنا : دراسات أندلسية، فى الأدب والتاريخ والفلسفة، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٣.

ولا فى لحظات الأوبئة الطاحنة، لم يعد القمح يباع بالرطل، وإنما بالحفنة، والحفنة تساوى ما يزيد على خمس ليرات، والليرة الواحدة تساوى ثلاثة دنانير والناس يسقطون موتى من الجوع فى الأسواق والميادين والشوارع وحول جدران الحصون، وتحولت الأراضى الخالية إلى مقابر، وكل قبر يضم عشر جثث على الأقل، وفضّل الناس أن يهربوا إلى معسكر السيد، يموتون هناك بضربة واحدة، أو تكتب لهم الحياة فيصبحون رقيقاً.

● ● ●

وخلال تقدم الجوع كان **السيد** يستعجل النهاية، لأنه يخشى وصول المرابطين، وراودته فكرة أن يستولى على المدينة بضربة واحدة، وغررّ به عملاؤه داخلها، وهكذا جمع كل قواته، وأمر بالهجوم على باب الحنش، وما إن تقدّموا حتى غطاهم طوفان من الأحجار والسهام، بقوة لم يعرف لها السيد مثيلا من قبل، واضطر أن يختبىء فى حمام، فاقتحمه جنود ابن جحاف، فهرب من باب خلفى صغير، وفشل مشروعه تماماً، وندم بمرارة لهذه الغلطة، وقرر ألا يعود لها ثانية، وأن يسير على خطته الأولى، وهوأن يستولى على المدينة عن طريق الجوع. وعمل فى الوقت نفسه على زيادة الأفواه غير الضرورية فى المدينة، فأعلن بواسطة مناد اقترب من المتاريس ليسمعه المحاصرون، يأمر فيه سكان بلنسية الذين خارجها أن يعودوا إليها، ويهدد كل شخص يحاول الخروج منها بالحرق حياً، ووضع تهديده موضع التنفيذ فأحرق علانية، على أكوام من الحطب متأججة، ثمانية عشر رجلا فى يوم واحد، ومع ذلك كان هناك من يفضل أن يموت محترقاً فى ساعة، على أن يموت جوعاً على امتداد أيام، وبعضهم نجح فى أن ينقذ حياته، لأن جنود السيد كانوا يخبئونهم، ويبيعونهم رقيقاً فى غفلة من قائدهم، والحق أن مثل هذا العمل كان ترفا خُصت به الفتيات والأطفال. وأحياناً إذا عرفوا أنهن ينتمين إلى أسر غنية صعدوا بهن إلى

مآذن المساجد التى خارج المدينة، يتظاهرون برميهن أحياء أو رجمهن بالحجارة، فيفتديهن أهلوهن بالجواهر والأموال، شريطة أن يسمح لهن بالبقاء فى أرض الكودية.

وهكذا حقّقت المجاعة أغراضها، وبدا أقارب **ابن جحاف** وجنده من دعاة الاتفاق مع **السيد**، بعد أن استنفد الناس طاقتهم فى تحمل الآلام، ولم تعد لديهم أية قدرة، وفقدوا الأمل نهائياً فى مساعدة تأتى من قبل **المستعين** ملك سرقسطة أو المرابطين، فاجتمعوا لدى الفقيه **أبى الوليد الوقشى** لكى يكلم القاضى ابن جحّاف، وأرغموه على مفاوضة السيد، وعقد الصلح، فأذعن وترك لهم أمر المفاوضة، فذهب وفد منهم لمقابلة السيد، وتم الاتفاق على أن يبعث البلنسيون رسلهم إلى ملك سرقطة، وإلى **ابن عائشة** قائد المرابطيين فى مرسية يطلبون الغوث والإنجاد فى عدة خمسة عشر يوماً، وأن يقوم **ابن عبدوس** خلال ذلك بالإشراف على المدينة، وأن تُسلّم الأبواب ليحتلها الروم المحليون، فإذا لم يحضر أحد للنجدة فى خلال المدة الممنوحة سلمت بلنسية بالشروط التالية : يتولى ابن جحاف منصب القاضى الذى كان يشغله من قبل، ويؤمن فى شخصه وماله ونسائه وأطفاله، وأن يصبح ابن عبدوس، وكان موضع ثقة السيد والبلنسيين معاً، مسئولا عن الضرائب، وأن يصبح **موسى**، وكان حاكماً للمدينة أيام القادر، وزيراً مسئولا عن بلنسية، وأن يقيم السِّيد فى « جبالة » وأن تحترم شريعة المسلمين وعاداتهم وعملتهم التى كانت سائدة، وألا تزيد نسب الضرائب التى كانت مفروضة من قبل.

وفى اليوم التالى لتوقيع الاتفاق رحل خمسة من البلنسيين إلى سرقسطة ومثلهم اتجهوا إلى مرسية، واشترط **السيد** ألا يحمل أى منهم أكثر من خمسين ديناراً، وكان الذاهبون إلى مرسية سيبحرون فى سفن مسيحية تحملهم إلى دانية

أولا، ومن هناك يتابعون الرحلة براً، وصعد السفراء ولم تتحرك السفينة، فقد كانت الأوامر التى لدى القبطان ألا يتحرك قبل أن يصل السيد نفسه، وجاء فعلا، وقام بتفتيشهم شخصياً، فوجد معهم أموالا كثيرة يحملونها لأنفسهم أو حمّلها لهم بعض التجار لكى يفلتوا بها من قبضة الحصار فانتزعها منهم، ولم يترك لهم غير المبلغ المتفق عليه.

وخلال الهدنة بدأ المتاجرون فى السوق السوداء يبيعون ما عندهم من أطعمة بأعلى الأسعار، لأن الحصار سوف يرفع قريباً، ومرت الخمسة عشر يوماً، لكن أحداً من السفراء لم يعد، وحاول **ابن جحاف** أن يقنع السكان بالانتظار ثلاثة أيام أخرى فكان ردهم بأنهم لا يريدون ولا يستطيعون، بينما أقسم لهم **السيد** بأعظم الأيمان، بأن مرور لحظة واحدة بعد الموعد المحدد دون تسليم المدينة يجعله فى حل من الإتفاق. ومر يوم دون أن تفتح المدينة أبوابها، وعند ما ذهب الذين وقعوا الإتفاق لمقابلة السيد قال لهم: إنه غير ملزم بشىء على الإطلاق، لأن موعد التسليم قد فات. غير أن الناس ألحوا عليه فى أنهم يضعون المدينة بين يديه. وفى اليوم التالى خرج ابن جحاف صحبة زعماء المدينة من المسلمين والمسيحيين إلى مقابلة السيد ووقّع معه اتفاقاً بتسليم المدينة، ثم عاد إليها، وفى الساعة الثانية عشرة ظهراً فُتحت الأبواب، وكان ذلك فى يوم الخميس ١٤ من يونية عام ١٠٩٤. وتجمعّت الجماهير التى طحنها الجوع، وجوههم مصفرةّ، وأنفسهم كسيرة، كما لو كانوا فى يوم الحشر يبعثون من القبور، ليمثلوا أمام جلال الله.

وعند ما فُتحت الأبواب تدفق جنود السيد داخل المدينة، فاحتلوا المتاريس والقلاع، ولم تُجد صيحات ابن جحاف القاضى بأن هذا نقض لنصوص الاتفاق، بينما شغل البلنسيون بالحصول على الطعام.

جاء باعة الخبز والفول من الكودية، فتدافع الناس عليهم فى شراهة بالغة، وذهب الأغنياء إلى الربض بأنفسهم يشترون من هناك كل ما تسمح لهم به دخولهم، وانتشر الفقراء لا يملكون مابه يطعمون فى الحقول المجاورة، يجمعون الحشائش ويقتاتونها، ولم تهبط نسبة الموتى كثيراً، فبالأمس كانوا يموتون جوعا، وهم اليوم يموتون تخمة.

وصعد **السيد** برج أعلى قلعة، وتفحصّ المدينة، وجاء السكان يقبّلون يده فكان يستقبلهم مرحبا، وأمر بتغطية نوافذ الأبراج التى تطل على المدينة، حتى لا يتطلع فضولى من الجنود إلى ما يجرى داخل بيوت السكان، وأمر المسيحيين بأن يظلوا على احترامهم للمسلمين، يسلمون عليهم إذا مروا بهم، ويفسحون لهم فى الطريق إذا التقوا معهم، وأُخِذَ المسلمون للوهلة الأولى بخلقه وسياسته، وتنظيم جيشه، وحاول **ابن جحاف**، وعرف إن السيد غضب عليه يوم أن ذهب للقائه بلا هدايا، أن يقدم له جانبا من الأموال التى جمعها من بيع الخبز غالياً أيام قحط المدينة، خلال الحصار، ورفض السيد قبولها لأنه كان يعرف مصدرها.

وأرسل مناديا يطوف بالمدينة يدعو« الفرسان والرجال الشرفاء » إلى حضور اجتماع يعقده **السيد** فى حدائق ضاحية « بله نوبه » وجاء بلنسيون آخرون كثيرون كانوا قد تركوا المدينة خلال الحوادث إلى ليريا ومرسية وجيان، وصعد السيد على منصة غُطيت بالسجاد والحصر، وبدأ يخطب الحاضرين عن قضايا عديدة، ولم تشر المصادر العربية إلى هذه الخطبة، ولكن « المدونة الأولى للتاريخ العام » أوردت نصها كاملا باللغة القشتالية ولا يشير أى مصدر إلى اللغة التى ألقيت بها، ومن المؤكد أن السيد كان يجيد عامية أهل الأندلس، وأنه تحدث بها، لأن جمهوره، والذين كان يعنيهم بالخطبة، من المسلمين. وننقل فيما يلى جانباً منها :

« إننى رجل لم يكن لى ملك قط، ولم يكن كذلك لأحد من قومى، ولكن منذ اليوم الذى رأيت فيه هذه المدينة وجدتها تطيب لى، ورغبت فيها، وسألت الله أن يجعلنى سيدها، فانظروا إلى قدرة الله الذى أنعم على بأن وهبنى بلنسية، وإن حكمت بالعدل وأحسنت تصريف الأمور فسيتركها الله لى، أما إن تجبرت وأسأت فسيستردها منى، فليرجع كلٌّ إلى ما له ويتملكه كما كان يتملكه من قبل، فمن وجد كَرْمه أو جنته خالصة فليعد إليه، ومن وجد حقله مزروعاً فليدفع أجر زراعته ويمتلكه كما تأمر الشريعة الإسلامية، ولا يأخذن جباة الضرائب فى المدينة أكثر من العشر كما جرى عليه العمل، وقد هيأت نفسى لأسمع الشكاوى يومين من كل أسبوع، هما الاثنين والخميس، ولكن من كانت له قضية عادلة فليأت متى شاء وسأستمع إليه، فإنى لا أحتجب عنكم، ولا أخلو مع النساء للشراب والغناء كما كان يفعل أو لو أمركم ممن لم يُمكنكُمْ قط رؤيتهم، وأودّ أن أعالج جميع أموركم بنفسى، وأن أكون لكم رفيقاً، وأدافع عنكم كما يدافع الصديق عن صديقه والقريب عن قريبه، وسأكون قاضيكم ووزيركم، وإن شكا أحدكم من آخر أنصفته منه ».

واختتمها بقوله : « أنا لست راغباً فى دخول مدينتكم، ولا أريد أن أسكنها، ولكنى أريد أن أبنى منزلا فوق جسر القنطرة أجىء لأستريح فيه من حين لآخر، وأعدكم بأننى سوف أتنازل عنه حين يحتاج أحدكم إليه ».

سمع البلنسيون الخطبة، وغمرتهم البهجة، وصدقوا وعود السيد، غير أنهم عندما ذهبوا ليستردوا أراضيهم رد عليهم جنوده الذين كانوا على الأرض بأنهم تلقوها منه مقابل مرتباتهم لهذا العام؛ بينما تذرع آخرون بأنهم استأجروها ودفعوا الإيجار فعلا، ولما ينته موعده بعد ! فانتظر المسلمون حتى الخميس، اليوم الذى حدده السِّيد ليفصل فى الخصومات.

وجاء الخميس، وجلس **السيد** فى الحديقة على منصة، وتقدموا له بشكاياتهم

وبدأ يقول أشياء لا صلة لها بتاتاً بما كان قد وعدهم به فى الخطبة السابقة : « إذا بقيت بدون رجالى كنت كمن فقد ذراعه اليمنى ، أو كمحارب بلا سيف ولاسهام، الشيء الأول الذى يهمنى فى هذا النزاع وأخبركم به، هو أننى أتخذ أفضل السبل لحماية نفسى ورجالى، لأن الله وهبنى بلنسية بإرادته الطيبة، ولا أحب أن يكون فيها سيد غيرى، ولكن إذا كنتم معى، وأردتم أن يشملكم عفوى، فمكنونى من **ابن جحاف**، لأنكم جميعاً تعرفون الخيانة الكبيرة التى ارتكبها ضد سيده ملك بلنسية، والشقاء الكبير الذى جعله يتعرض له، وتتعرضون له أنتم أيضاً أثناء حصاركم ».

ذهل المسلمون مما سمعوا، لقد وجدو **السيِّد** ليس بأفضل من الوعود التى قطعها لهم، فردوا عليه بأنهم سيتشاورون فيما بينهم قبل أن يقرروا شيئاً. وذهب ثلاثون منهم إلى مقابلة **ابن عبدوس** المشرف على الضرائب، وصديق السيد، يطلبون نصحه فيما يجدون من تغيّر السيد ونكثه فى الوعود، وكان رد ابن عبدوس : « أيها السادة النبلاء، النصيحة من السهل التقدم بها، لقد ارتكب **ابن جحاف** ضد سيّده خيانة عظمى، اتفقوا الآن كيف نمكن السيِّد منه، لا تترددوا ولا تخافوا شيئاً، لأنى أعرف أنكم بعدها لن تطلبوا من السيد شيئاً إلا أجابكم إليه ».

وعاد المسلمون سريعاً إلى **السيد**، يوافقونه على تسليم **ابن جحاف** ويطلبون قوة ضخمة للتنفيذ، وذهبوا جميعاً إلى بيت القاضى، فحطموا الأبواب، وقبضوا عليه وعلى كل الأسرة، وحملوهم جميعاً إلى حضرة السيد فرمى بهم فى السجن، وحُمل إليه أيضاً كل الذين شاركوا فى قتل **القادر** ملك بلنسية، ثم قال لهؤلاء الكبار : « لقد نفذتم ما أمرتكم به، فائمرونى بما تريدون، سوف أنفذ لكم ما يتصل بالمزارع، شريطة أن تكون إقامتى داخل المدينة، فى القصر، وأن يقوم جنودى بحراسة كل القلاع »، وكانت هذه مخالفة ثانية للاتفاق، أحنى لها البلنسيون رءوسهم طائعين.

● ● ●

نقل **السيدُ** ابنَ جحاف إلى جبالة، وأمر بتعذيبه حتى الموت، ثم رده ثانية إلى بلنسية، واودع السجن فى حديقة القصر الذى يسكنه السيد، وهناك أمره بأن يكتب بخط يده قائمة بكل أملاكه، فسجل **ابن جحاف** كل شيء : القلائد والخواتم، والمجوهرات، والأثاث، والملابس، والديون أيضاً. وألقى السيد نظرة على القائمة، وطلب دعوة سكان بلنسية المسلمين والمسيحيين ليحلف بمحضرهم أنه لا يملك شيئاً آخر، وأن من حق السيِّد أن يعدمه إذا ظهرت له أملاك أخرى. ولم يثق السيِّد كثيراً فى يمين القاضى، كان يعرف أن **القادر** ملك بلنسية المقتول أغنى من عرفت الأندلس، وأن ابن جحّاف مازال يحتفظ بالكثير من ثروته. فأمر بتفتيش منازل أصدقائه، وهددّ بمصادرة أولئك الذين يساعدون القاضى فى إخفاء ثرواته وإعدامهم، وبدأ الذين ترك ابن جحّاف عندهم شيئاً من ماله لحراسته، ثم اقتسامه بعد أن تمر المحنة، يتخلصون مما لديهم هربا من العقاب، والتماساً لعفو السيد. ثم أمر أيضاً بنبش بيت القاضى وبمعاونة واحد من خدمه وُجدت تحت الأرض ثروة ضخمة من ذهب وجواهر وأحجار ثمينة.

وأثناء ذلك جمع **السيِّد** كبار رجال بلنسية ليخطبهم من جديد : « أيها العقلاء من جماعة بلنسية، أنتم تعرفون كم خدمت ملككم وساعدته، وكم من الجهد بذلت لأربح هذه المدينة، والآن وقد شاءت إرادة الله أن تجعلنى سيِّدها، أريدها لى، ولأولئك الذين ساعدونى على ربحها، أنتم الآن جميعاً فى قبضتى، أصنع بكم ما أريد وما أراه نافعاً. أستطيع أن أستولى على ما تملكونه فى كل العالم، وعلى أشخاصكم وأولادكم ونسائكم، ولكنى لا أريد أن تجرى الأمور على هذا النحو، وإنما لخير الجميع أمرت أن يبقى الرجال الأشراف منكم ، ممن أظهروا ولاءهم لى فى بلنسية، فى نفس منازلهم مع أهليهم، على ألا يملك أى واحد منكم أكثر من بغلة، ومن خادم، ولا تحملون سلاحاً، ولا تحتفظون به فى بيوتكم إلا عند الضرورة وبإذن منى. أما البقية فعليها أن تترك المدينة، وأن تقيم فى ضاحية الكودية، حيث كنت أعيش قبلا، ستكون لكم مساجدكم فى بلنسية، وفى

خارجها، وفى الكودية، ولكم فقهاؤكم، وتعيشون طبقاً لشريعتكم، ويكون لكم قضاتكم ووزيركم الذين أعينهم أنا، وستكون لكم مزارعكم، ولكن أعطونى الحق فى أن أحصل على كل الضرائب، وأن أشرف على القانون، وأن تكون لى عملتى الخاصة، والذين يقبلون سيادتى ويريدون أن يبقوا معى يبقون، والذين يريدون أن يذهبوا أتمنى لهم فى مغامرتهم حظا سعيداً، على أن يذهبوا بأشخاصهم فحسب لا يحملون معهم شيئاً، ولقد أمرت بأن تكونوا جميعاً فى أمان».

وأدرك الحاضرون ما يريد **السيد**، وغمرهم حزن العاجز، فلم يكن بوسعهم غير التنفيذ، فبدأ سكان بلنسية يخرجون من المدينة بنسائهم وأطفالهم، عدا أولئك الذين رضى عنهم السيد، وفى نفس الوقت فإن عدداً من أتباعه فارق الكودية ليقيم فى المدينة مكان الذاهبين، وكانت أعداد الخارجين والوافدين كبيرة، واستمرت طوال يومين كاملين.

واصبح **السيِّد** سيِّد بلنسية المطلق، ولم يعد يحلم بشىء أكبر من الحكم بالطريقة الأشد قسوة وإرهاباً، ومضى فى طغيانه فقرر أن ينتقم من القاضى **ابن جحاف** وأهله، بعد «أن استصفى أموالهم، واستنفد أحوالهم، فلم يترك لهم لا ظاهرا ولا باطناً». فقرر أن يقتله حرقا. فأمر بإضرام النار، وحُشِر الناس مسلمين ومسيحيين، وسيق القاضى يرسف فى قيوده، وأهله وبنوه حوله. وحُفر للقاضى حفرة وأدخل فيها إلى حُجزته، وسوّى التراب حوله، وضمت النار إليه، فلما دنت منه، ولفحت وجهه قال: «بسم الله الرحمن الرحيم»، ثم ضمها إلى جسده، لتكون أسرع فى إنهاء حياته، ولفظ أنفاسه الأخيرة وسط آلام مريعة، رحمه الله تعالى!

ومتعطش إلى الدماء، كما يقول **دوزى**، أراد **السيد** أن يحرق أيضا زوجه، وابنه وبناته، وسائر أسرة **بنى جحاف**، فضج الناس غاضبين وراجين، ومعهم حتى جنود السيد، وتشفعوا عنده أن يرحم على الأقل النساء والأطفال، وقد رفض

فى البدء أن يستجيب لشفاعتهم، غير أنه قبل فى النهاية أن يستثنى النساء والأطفال. وعمد إلى الجلة من أهل بلنسية فثقّفهم وأغرمهم، واستأصل جميع ما عندهم، وجعل الناس فى المحنة سواء، وأحرق عدداً آخر منهم، بينهم الشاعر الرقيق **أبو جعفر البتى**، لسبب غير معروف، وربما طيشا دون حاجة إلى سبب.

كان لابن جحاف خلال حياته أعداء كثيرون، وكانت تصرفاته تتسم بالخفة والرعونة، لكن إحراقه ارتفع به إلى منزلة القديسين فى نظر البلنسيين، وجعل منه شهيداً فى نظر المسلمين والمسيحيين، وحتى خصومه نسوا أخطاءه القديمة فبكوه، ولم يعودوا يذكرونه إلا بالثناء الفيّاض. وتم إحراق القاضى فى شهر مايو **١٠٩٥** م. وحاول أهل بلنسية الثورة على السِّيد، ولكنه أخمدها سريعاً، وبنفس القسوة.

أحسّ **السيد** بأنه أصبح السيد المطلق، فجعل من المدينة مقره العسكرى، وتصرّف كما يتصرف الملوك المتوّجون، وأراد أن يستريح بعض الشىء فأرسل فى طلب زوجه وأبنائه الثلاثة، وهم **دييجو**، ومات عام **١٠٩٧** فى زهرة شبابه إثر الهزيمة التى أنزلها المرابطون بجند قشالة فى قنيشرة، وفتاتان هما : **كريستينا وماريا**، تزوجت الأولى بعد ذلك بأعوام الأمير **راميرو دى نبرة**، وتزوجت الثانية **رامون بيرنجر الثالث** كونت برشلونة، وكان زواجهما يمثل الغاية التى انتهت إليها حياة السِّيد.

رُوِّع الأندلس لسقوط بلنسية فى يد السيد، كما روِّع من قبل لسقوط طليطلة فى يد ألفونسو، وأرسل المسلمون إلى **ابن تاشفين** أمير المرابطين يطلبون عونه، فقرر أن يسترد المدينة، وندب ابن أخيه **محمد بن تاشفين** ليقود الحملة، وكتب إلى حاكم غرناطة وإلى أمراء شرقى الأندلس أن يجمعوا الجند، ويسيروا لاسترداد بلنسية، وعبرت الجيوش المرابطية من سبتة فى المغرب فى سبتمبر **١٠٩٤**، أى لأربعة شهور من سقوط المدينة، وسارت القوات المتحدة صوب بلنسية وعسكروا فى « مسلانة » غربى بلنسية، وصلوا عيد الفطر هناك، ثم بدأوا الهجوم.

وقد أدرك القائد المرابطى شدة تحصين المدينة، وكان الأمل فى مساعدة تأتى من الداخل معدوماً، فقد جرد **السيِّد** المدينة من كل عناصر المقاومة، أخرج منها من شك فى ولائهم له، وجردها من سائر السلاح فلم يبق فيها من يملك مسماراً من الحديد، فقرر أن يضرب حولها الحصار، نفس السلاح الذى استخدمه السيِّد من قبل. واستشار السيد منجمَّه، وزجر طيره، ثم أطمأن للنصر، وأشاع الخبر بين جنده، وخلال ذلك أرسل يطلب عون **بدرو الأول** ملك أرجون، **وألفونسو السادس** ملك قشتالة، غير أنه لم يعلق على عونهما كثيراً، فقد كان يعرف المشاكل الداخلية الكثيرة التى تقيد حركتهما. ومن ثم سارع إلى الهجوم، فخرج بقواته ليلا، بعد أن خدع المحاصرين، وفاجأهم بشدة، فأوقع الذعر والاضطراب فى صفوفهم، فتراجعوا مسرعين، واستولى منهم على غنائم عظيمة من الخيل والسلاح والمؤن والملابس والأموال، وقُتل من المسلمين عدد كبير، ثم عاد إلى المدينة فامتنع بداخلها من جديد.

وبدأ **السيد** يحلم بدولة أكثر اتساعاً، فأخذ يهاجم ما حوله من حصون وقلاع ويستولى عليها إن استطاع. وركز بصفة خاصة على قلعةOlocau ، فقد كان يعتقد أن فيها جانبا كبيراً من ثروة **القادر** ملك بلنسية السابق، هرّبه إليها قبل مقتله، وكان السيد نهما إلى المال يريده بأى ثمن، وعلى وعى كامل بدوره فى الحياة، وفى مثل ظروفه على نحو خاص. غير أنه كان يحس بأن حياته قاربت النهاية فبدأ يصلح ما بينه وبين السماء، ببناء الكنائس، والإغداق على الأديرة، «ذلك الذى أحرق عدداً كبيراً من الناس أحياء، وآمن بالعرافة، وعمل جُل حياته مقاتلا فى خدمة أمراء مسلمين». وتوّج عمله مخالفا نصوص وروح كل الاتفاقيات، فحوّل مسجد المدينة الجامع إلى كاتدرائية وأطلق عليها اسم «سانتا ماريا» وأهداها كأساً أنيقة من الذهب وسجادتين مزركشتين من أروع ما رأت العين. وعندما جاءته الأنباء بأن ابنه الوحيد **دييجو** قُتل فى المعركة التى دارت بين **ألفونسو** ملك طليطلة وبين جيش المرابطين، وكان النصر فيها

للمسلمين، سقط مريضاً، ورغم مرضه أرسل فرقة من الجيش إلى شاطبة، لتنتزع المدينة من المرابطين، فاصطدمت بجيش المرابطين بقيادة **ابن عائشة**، وكان عائداً لتوّه من معركة مع قوات ألفونسو بقيادة **ألبار هانييث**، انتصر عليهم فيها قريباً من قونقة، ولم يكن جنود السيد بأسعد حظا من جنود الملك، فكانت هزيمتهم ساحقة، ولم يعد منهم إلا القليل، وأصبح الطريق إلى بلنسية مفتوحا لمن يريد. وهكذا فإن الجيش الذى عُرف بأنه لا يُقهر أبداً قُهر فعلا، وكانت الهزيمة ضربة قاصمة للسيد فمات غما وكمدا وحزنا فى العاشر من شهر يولية عام **١٠٩٩م**، وهو فى السادسة والخمسين من عمره.

حاولت **دونيا خمينا** أرملة السيد أن تدافع عن بلنسية ضد هجوم المرابطين عملا بمشورة الحاشية التى كانت تحيط بزوجها، واستطاعت أن تصدهم على امتداد عامين. غير أن المرابطين شددّوا الحصار، وضيقوا الخناق على المدينة بجيش كبير للغاية، تحت قيادة الأمير **أبى محمد المزدلى**، فأرسلت خِمينا المطران **خيرونيمو**، من أصل فرنسى، إلى بلاط الملك **ألفونسو** يرجوه المساعدة، وأثرّ الأسقف فى الملك، كما أثرّ من قبل فى السيِّد فجعله يحوّل كل المساجد إلى كنائس، فأسرع يقدم لها المساعدة، ولم يصطدم المرابطون بالجيش القشتالى القادم، وآثروا أن يستمروا فى حصار المدينة دون قتال، ورأى ألفونسو ما عليه الجيش الإسلامى من ضخامة، فلم يرد أن يغامر فى معركة لا يضمن نتائجها، وفى بلد بعيد عن مملكته، فنصح خمينا، بأن تغادر المدينة، فعزمت على الرحيل ومعها أغلبية المسيحيين، خرجت ومعها ذخائر **القادر بن ذى النون** ملك بلنسية السابق؛ والأموال الهائلة التى غنمها زوجها السِّيد خلال غزواته ومغامراته، ثروات هائلة سوف يستولى ألفونسو على جلهّا فيما بعد، وخرج معها ألفونسو وجنوده، وحملت معها جثة زوجها بعد أن نبشت قبره فى **٥** من مايو **١١٠٢م**.

لقد كانت بلنسية مدينة جميلة، فعزّ عليهم أن يتركوها للمسلمين

يستمتعون بها بعدهم، فأسلموها للنار والدمار، ولم يغادروها إلا بعد أن أصبحت أطلالا دارسة، وكان على المرابطين أن يحوّلوا الخرائب والأنقاص إلى مدينة جديدة تضج بالحياة والناس، وهذا ما كان.

ذهبت **دونيا خمينا** لتعيش فى قشتالة، وحملت معها جثمان السيد، لقد طُرد من هناك منفيًّا، ولم يقدر له أن يعود إلى مسقط رأسه إلا جثة هامدة، ودفُن فى فناء كنيسة سان بطرس فى كاردينيا، قريباً من برغش، ولم تعش بعده غير خمسة أعوام، لأنها توفيت فى ١١٠٤م وبقى السيد مدفوناً فى مكانه، ثم بدا لألفونسو العالم أن القبر دون ما يستحق، فمن نسله ينحدر بعض ملوك إسبانيا، فشيّد له عام ١٢٧٢م قبراً جديداً، وبعد ذلك، فى عام ١٤٤٧م، جُددِّت الكنيسة، فَوُضعت جثة السيد فى لحد جديد ينهض على أربعة تماثيل لأربعة أسود، وفى عام ١٥٤١م نُقلت إلى جانب الحائط، فقد استكثروا عليه أن يقوم ميتاً على أكتاف أربعة أسود، غير أن شارل الخامس، أصدر أمره بأن يوضع فى القاعة الرئيسية للكنيسة لما هو عليه من شهرة ونبل وبطولة.

وفى عام ١٨٣٥ م، اجتاحت إسبانيا عادة الاعتداء وسرقة الآثار الهامة، دينية وسياسية، ولم تنج من هذا الاعتداء لا جثة السِّيد، ولا جثة خايمة الأول ملك أرجون، فنقلت جثة السِّيد إلى كتدرائية برغش الكبرى عام ١٨٤٢، ولا تزال فيها حتى الآن، ولو أن رهبان دير كاردينيا يطالبون به، بعد أن أصبح قبر السِّيد مورداً هاماً من موارد السياحة فى المدينة، فما من إنسان يهبط برغش إلا ويذهب لرؤيته متأمِّلا أو مترحِّما.

لقبان : السِّيد والقنبيطور

اسمه الحقيق **رودريجو دياث دى بيبار** **Rodrigo Diaz de Vivar** وكلمة رودريجو وردت فى الوثائق الأندلسية تحت صورة **لذريق** فى المصادر الأولى القريبة من الفتح، مثل « أخبار مجموعة » لمؤلف مجهول، « وتاريخ افتتاح الأندلس » لابن القوطية، وغيرهما. وفى صورة **رذريق** فى المصادر المتأخرة، كمؤلفات ابن الأبار، و« الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة » لابن بسام، ذلك أن الوافدين أصبحوا أكثر فهماً وتمكنا من اللغة الرومانثية، وتبينا لحروفها، لكن الفارس الأندلسى دخل التاريخ بلقبين أكثر ذكراً ودوراناً.

أول اللقبين كلمة **السِّيد** **El Cid** ، ولا تأتى فى الملحمة إلاّ مضافة إلى ضمير المتكلم سِيدى mio Cid ، وأكثر الاحتمالات رجحاناً أن السِّيد حمل هذا اللقب فى سن مبكرة من حياته، حين كان فى خدمة **المؤتمن** ملك سرقسطة، وبالتحديد فى عام ١٠٦٣م، وله من العمر عشرون عاماً تقريباً، فى ذلك الوقت خاض أول معركة حربية ضارية إلى جانب المؤتمن ملك سرقسطة، ضد **راميرو الأول** ملك أرجون، وأبدى براعة حربية فائقة، وشجاعة متفوقة نادرة، فأطلق عليه جنود المؤتمن لقب السِّيد، وثمة رواية أخرى غير ذات ثقة جاءت فى « المدونة العامة » ومؤداها أن اللقب أطلق عليه بعد استيلائه على بلنسية، فحين دخلها ظافراً احتفل بالمناسبة مع جنده احتفالا مهيباً، « ومن اليوم أصبح يدعى السِّيد El Cid ، سيدى mio Cid ، القنبيطور El Campeador صاحب بلنسية » وهو احتمال بعيد يعنى أن اللقب جاءه فى أواخر حياته، لأن الاستيلاء على بلنسية جاء متأخراً تتويجاً لسلسلة من الانتصارات الحربية المتوالية، واتخذ طابعاً معادياً لأهلها، وعقب حصار عنيف، وإذلال مهين، وفيه تنكر السِّيد

لعهوده، وتراجع عن وعوده، فلم يكن ثمة ودّ أو تقدير أو إعجاب يدفع سكانها إلى تمجيده، وإضفاء لقب السيادة عليه، والجند الذين كانوا معه ليسوا جند يومهم، إنما هم معه من زمن طويل، وشاركوه كل ما خاض من معارك، وحاز من انتصارات.

يكاد العلماء يجمعون على أن سيدى mio Cid هى صورة أندلسية للفظ سَيِّدى فى الفصحى، بمعنى مولاى، ثم نقلت إلى الإسبانية بهذه الصورة، ثم صار اللقب علماً عليه معرّفاً بالأداة El Cid غير أن ثمة شكاً كبيراً يراودنى فيما يتصل بهذا التفسير، ومبعثه أن اللقب أطلق عليه وهو فى سن فتية، وكلمة سيّد من الكلمات التى ترتبط بالسن فيما هو مرعىّ من التقاليد العربية، فلا تقال إلا لمن بلغ مبلغ الرجال، حين تأتى من حر ولو كان تابعاً، ولا تقال فى أى سن إلا من الأدنى، أو من الأرقاء قانوناً أو واقعاً، والجنود الذين أطلقوها على السيد لم يكونوا أرقاء له، ولا أدنى منه سنّاً، وإنما كانوا مجرد معجبين. ورسم الكلمة فى القشتالية لا يجرى مع نطقها الأندلسى، فالأندلسيون ونستطيع أن نتصور لهجتهم - إلى حد ما - فى ضوء اللهجة المغربية، وعلى نحو أوضح وأدق فى ضوء اللهجة الجزائرية، المنعزلة وغير المتأثرة بالفرنسية، وبخاصة فى الأمكنة المأهولة بمهاجرين أندلسيين، لا ينطقون كلمة سِيدْ cid إلا مضافة إلى الضمير، فيقولون سِيدى cidi ، فإذا أضافوها إلى غير الضمير حذفوا منها الحرف الأخير، أى الدال، تخففاً، فهم يقولون سِى Ci ، إما إذا لم تكن مضافة فتجرى على النحو العربى الفصيح، فيقال سيِّد Sayyed ، بقى أن نذكر أن المصنفات التاريخية القشتالية القديمة، قليلا ما تطلق لقب السيِّد على الفارس الأندلسى، ولا نجد له ذكراً فى المصادر العربية، إنما اللقب الشائع الذى يطلق عليه عادة هو « القنبيطور ». ولا تعرف هذه الوثائق أيضاً كلمة سيد Cid بمعنى سَيِّد، وما وجد فى العصور المتأخرة من أسماء

إسبانية على صورة سيد، فإنما جاءت تقليداً للقب الذى عُرف به لذريق، دون أن يقع فى خاطرمن أطلقوه، أو ينادون به، المعنى الذى يرمز إليه، إنما تستخدم هذه الوثائق كلمة سِيدى مرسومة فى هذه الصورة Cidi حين يراد منها معنى السيادة صفة، أو علماً منقولا، ونجد فى ملحمة السيِّد نفسها كلتا الكلمتين، كلمة السيد El Cid، أو سيدى mio Cid علماً عليه، وكلمة سيدى Sedi صفة تسبق العلم.

أما الذى أراه فهو أن كلمة **السيد** التى أطلقت على **لذريق**، ليست تطوراً صوتياً لكلمة سَيِّد، وإنما هى كلمة أصيلة وقديمة لم يدخل عليها أى تحوير، وتعنى الذئب، أو الأسد فى بعض الإشارات، وقد جاءتنا بالمعنى الأول فى شعر **أبى دواد الإيادى**، شاعر جاهلى من القرن الخامس الميلادى، يصف فرسه فيقول :

رفيع المعدِّ، كَسِيد الغضا تميم الضلوع بجوفٍ رحب[1]

وقد يراد بها حين إطلاقها على **لذريق** كلا المعنيين، فقد كان له من صفات الأسد والذئب نصيب، واتخاذ كلمة السِّيد بمعنى الذئب علماً أمر كان شائعاً فى الأندلس، فى الجانبين الإسلامى والمسيحى، فى اللغتين العربية والرومانثية. فلدينا فى العربية مثلا **ابن السِّيد البطليوسى**، العالم اللغوى الفيلسوف، المتوفى عام ١٠٥٢م، وتكثر كلمة **لويث** **Lopez** فى القشتالية، ومعناها ابن الذئب، مشتقة من كلمة لوبو **Lopo** ومعناها الذئب. وإذا كانت كلمة السِّيد، بمعنى الذئب، قد أطلقت على لذريق، وشاعت من بعده اسماً لشخصيات عديدة، مراعى فيها المعنى الأصلى أو تيمناً بلذريق، فإن كلمة Luobo أو Lupo القشتالية دخلت العربية الأندلسية، وأصبحت تطلق اسماً، فى

(١) المعد : الجنب. السيد : الذئب. راجع القصيدة فى كتابنا : امرؤ القيس: حياته وشعره، ص ١٣٧، الطبعة الرابعة، دار المعارف بمصر، ١٩٧٩.

صورة مكبرة، ولدينا عدد من الشخصيات يحملون هذا الاسم، أشهرهم أسرة **بنى لُبون Lobon** أو **Lupon**، وكان لهم دور فى حياة بلنسية السياسية، وما جاورها من مدن وإمارات فى الفترة التى سبقت دخول السِّيد المدينة. ولدينا أيضاً من بنى قسى سادة الثغر الأعلى، **محمد بن لُب**، وكان مسلمو الأندلس وهم يطلقون هذا الاسم يعرفون ما يعنيه فى اللغة الرومانثية، يقول المقّرى فى « نفح الطيب » : « وبها - أى الأندلس - سبع يُعرف باللب، أكبر بقليل من الذئب، فى نهاية القحة، قد يفترس الرجل إذا كان جائعاً ».

● ● ●

أما لقب **القنبيطور** فأقدم من لقب السِّيد، وعرف له منذ بدء حياته السياسية، فعندما توفى **فرناندو الأول** ملك قشتالة عام ١٠٦٥م، وقُسِّمت مملكته بين أولاده الأربعة، وأصبحت قشتالة من نصيب **شانجه الثانى**، كان أول ما فعل أنه عين ربيبه لذريق فارساً، أو قائداً للجيش الملكى بلغة العصر الحديث، وأتيحت الفرصة سريعاً للذريق كى يدافع عن المصالح القشتالية عند حدوث الخلاف بين مملكتى نبَّرة وقشتالة، وكان الطريق إلى إنهائه إما تحاكم قضائى، أو مبارزة حربية، طبقاً لتقاليد العصر. وكان على السيد، فارس الجيش القشتالى، أن يدخل فى مبارزة مع فارس الجيش النبرى، **خمينو جرثيس**، وانتصر عليه. حينئذ أُطلق عليه اسم Campi doctor. وتُنطق فى اللهجة الرومانثية قنبيطور Campeador أى الذى انتصر فى ساحة المعركة، غير أن هذا اللقب أصبح ينصرف أول ما يطلق إلى رودريجو دياث دى بيبار.

ويرد فى المصادر العربية على صور مختلفة، ولكنها متقاربة، فنجد كلمات قنبيطور، وقمبيطور، ثم الكَنْبَيْطُور، وهى أقربها إلى اللهجة الرومانثية نطقاً،

ونجدها عند ابن بسام فى كتابه الذخيرة، وكان معاصراً للسيد[1].

التفسير الذى قدمناه لِلقّب هو أحدث التفاسير، وصاحبه **لويس دى بَلْديا بيانو** الأستاذ فى كلية الآداب بجامعة مدريد، والحجة فى تاريخ إسبانيا فى العصر الوسيط، وأورده فى القسم الثانى، من الجزء الأول من كتابه «تاريخ إسبانيا»[2]. **غير أن الأمر ليس بالبساطة التى تبدو للوهلة الأولى، فقد أثار اللقب كثيراً من المشاكل، ودار حوله العديد من الدراسات.**

كان خوان **فرانسيسكو مسديو** (١٧٤٠-١٨١٧م) أول من أثار المشكلة فى كتابه الممتاز «التاريخ النقدى لإسبانيا والحضارة الإسبانية»، وقد رأى أن هذا اللقب لا يوجد فى مؤلفات ما قبل القرن الثالث عشر، ولا يعنى تمجيد صاحبه، وكل ما يفهم منه أنه يطلق على شخص يُكثر من الإغارة على بلد عدو، فصاحبه مجرد قائد لمجموعة خفيفة من الفرسان وليس جنرالا، أى أن كلمة **قنبيطور** لا تعنى أكثر من مجرد جندى مغامر ومقدام، ولكنه لا يعرف كيف يقود الحرب بطريقة عالمة، وفى سلّم العاملين فى جهاز الحرب، هو فى أدنى درجات الموظفين. وإذا كانت وجهة نظر العالم الإسبانى مقبولة فيما يتصل بالتفسير إلا أن لنا ملاحظة عليها فيما يتصل بتاريخ استخدام الكلمة، فهى أقدم من التاريخ الذى حدده بدءاً لوجودها فى المصادر، فنحن نجدها فى كتاب **ابن بسام** الشنترينى، وقد أشرنا إليه من قبل، وهو من مؤرخى الأدب الأندلسى فى القرن الحادى عشر، غير أن اكتشاف مؤلّفه والإفادة منه جاء

---

(١) انظر دراستنا لابن بسام وكتابه الذخيرة، فى كتابنا: «دراسة فى مصادر الأدب»، الطبعة السادسة دار المعارف بمصر ١٩٨٣.

(٢) L. de Valdeavellano: Historia de Espana, Tcmo I. Segunda parte, p. 312, 2 edicion, Madrid 1955.

متأخراً للغاية، فى نهاية القرن الماضى ومطلع هذا القرن، ومن ثم فهى هفوة لا تحسب عليه فى مجال البحث والتدقيق.

ويرى **هوبير** M.Huber أكثر الكتاب تعقلا، أن الأمر معقد، ومن الصعوبة بمكان أن يدلى فيه المرء برأى قاطع. غير أنه يصرح، من جانب آخر، بأن كلمة **قنبيطور** Campeador لا صلة لها بكلمة Campus اللاتينية بمعنى بطل، وإنما هى مشتقة من الكلمة الجرمانية القديمة Champh بمعنى المبارزة، ومنها انتقلت إلى كافة اللغات الرومانية : الفرنسية، والإيطالية، والبرتغالية، والإسبانية، والبرفنسالية، والقطلونية، وأخذت فى كلٍّ نبرا معيناً، وهجاء مختلفاً، بينما بقيت أصولها واحدة فى الجميع.

ويزيد **دوزى** الأمر توضيحاً، فيرى أن الاعتقاد الشائع بأن كلمة **قنبيطور** Campeador مرادفة لكلمة Champion الفرنسية بمعنى بطل خاطئة، لأن كلمة Le Champion فى العصور الوسطى تعنى إنسانا يذهب من مكان إلى آخر ليؤجر خدماته فى قتال مشروع، وهو يقاتل راجلا دائما، فلا يمتطى جواداً أبداً، ولا يستخدم من السلاح غير العصا والترس، ومهنته شائنة، لأن القانون يضعه فى نفس المستوى الذى يضع فيه اللصوص والنساء العاهرات. ولقد كان الحق، بهذا الفهم، مع مَسديوُ حين رأى أن كلمة القنبيطور لقب مهين.

ويرى **دوزى** فى بحثه، وقد التقط الخيط من **هوبير**، وفى ضوء تمكنه القوى من اللغة العربية، ومعلوماته الواسعة المنظمة عن الأندلس وتاريخه وأدبه، أنها تعنى المنازل أو المبارز ومعانى أخرى. والمنازلة والمبارزة معنى استعاره المسيحيون من المسلمين الأندلسيين، فقد جرت عادة العرب من قبل، واحتذى بهم المسلمون فيما بعد، عندما يلتقى جيشان للقتال أن يقفوا صفوفا أو خطوطا أو كتلا متراصة، ثم تبدأ المعركة بلقاء فردى يقوم به الأبطال

الممتازون، حين يتقدمون الصفوف، ويطلبون المبارزة، واحداً منفرداً، أو أكثر من واحد مجتمعين، ولا شيء يضع المرء فى القمة، بطولة وشجاعة وإقداما، كأن يدعو العدو إلى المبارزة، أو يقبل تحديّه، وحفظ لنا التاريخ الإسلامى عدداً من كبار المبارزين، مثل حمزة بن عبد المطلب، وعبيدة بن الحارث، وعلى بن أبى طالب، وآخرين.

وأمسك **دوزى،** فى ذكاء، برواية أوردها المؤرخ الأندلسى العظيم، أبو بكر محمد بن الوليد، **الملقب بالطرطوشى،** نسبة إلى بلده طرطوشة فى مقاطعة سرقسطة، فى مؤلفه «سراج الملوك» عن السياسة ونظم الحكم، وكتبه خلال إقامته فى مصر، وأهداه إلى أميرها **المأمون البطائحى،** وتوفى فى الاسكندرية عام ٥٢٠ هـ = ١١٢٦ م، أى أنه يعتبر على نحو ما معاصراً للسيد. يقول: «كان بسرقسطة فارس يقال له **ابن فتحون،** وكان يناسبنى فيقع خال والدق، وكان أشجع العرب والعجم، وكان **المستعين** أبو المقتدر يرى له ذلك، ويعظمه. وكان يجرى عليه فى كل عطية خمسمائة دينار، وكانت النصرانية بأسرها قد عرفت مكانه، وهابت لقاءه؛ فيحكى أن الرومى إذا سق فرسه فلم يشرب يقول له: اشرب؛ هل ابن فتحون رأيت فى الماء؟ فحسده نظراؤه على كثرة العطاء، ومنزلته من السلطان، فأوغروا به صدر المستعين، فمنعه أياماً. ثم إن المستعين أنشأ غزوة إلى بلاد الروم، فتواقفت المسلمون والمشركون صفوفاً، ثم برز علج إلى وسط الميدان ينادى: هل من مبارز؟. فخرج إليه فارس من المسلمين فتجاولا ساعة فقتله الرومى، وصاح الكفّار سرورا، وانكسرت نفوس المسلمين، وجعل الرومى يكرّ بين الصفيّن وينادى: هل من اثنين لواحد، فخرج إليه فارس من المسلمين فقتله الرومى، فصاح الكفار سرورا وانكسرت نفوس المسلمين، وجعل يجول بين الصفين وينادى ويقول: ثلاثة لواحد، فلم يستجرىء أحد من المسلمين أن يخرج إليه، وبق الناس فى حيرة. فقيل للسلطان: مالها إلا **أبو الوليد بن فتحون،** فدعاه وتلطف به، وقال له:

أما ترى ما يصنع هذا العلج ؟ . فقال : هو بعيني. قال : فما الحيلة ؟ قال أبو الوليد : فماذا تريد ؟. قال : اكفف المسلمين شره. فقال : الساعة يكون إن شاء الله تعالى. فلبس قميص كتان، واستوى على سرجه بلا سلاح، وأخذ بيده سوطاً طويل الطرف، وفى طرفه عقدة معقودة، ثم برز إليه، فعجب منه النصرانى، ثم حمل كل واحد منهما على صاحبه، فلم تخط طعنة النصرانى سرج ابن فتحون، وإذا بابن فتحون متعلق برقبة الفرس، ونزل إلى الأرض لا شىء منه فى السرج، ثم طفر على سرجه، وحمل عليه، وضربه بالسوط فى عنقه، فالتوى على عنقه، فجذبه بيده من السرج، فاقتلعه من سرجه، وجاء به يجره فألقاه بين يدى المستعين، فعلم المستعين أنه كان قد أخطأ فى صنعه معه، فأكرمه ورده إلى أحسن أحواله ».

فالمبارز المسلم، وهو **ابن فتحون** داخل جيش **المستعين** ملك سرقسطة، يقابله المبارز المسيحى، وهو **لذريق دياث دى بيبار** داخل جيش **شانجه الثانى** ملك قشتالة، إذن فكلمة قنبيطور Campeador تساوى تماماً كلمة مبارز العربية، وهو معنى يدعمه أن اللقب أطلق على السيد فى مبارزة له مع فارس نبرى، كما أشرنا إلى ذلك فى البدء[1] ويؤيد هذا الرأى أن المعجم الإسبانى، الصادر عن المجمع اللغوى الملكى، يجعل لكلمة قنبيطور معانى متعددة من بينها : « من يواجه التحدى ويبرز إلى لقاء العدو فى المعارك الحربية على الطريقة القديمة »، أى المبارزة فى مفهومها العربى.

أما المؤرخون العرب فى العصور الوسطى فيفسرون القنبيطور « بصاحب الفحص » أى قائد الغارات فى السهول، الخبير بالغزوات فى أرض الأعداء، وهو تفسير يرفضه منندیث بيدال، ويراه معيبا فى حق السيد

---

(١) انظر ص ١٣٠ وما بعدها.

السِّيد إنساناً

آثرت أن أقول إنسانا لأنى أريد أن أتحدث عنه فى هــذا الإطــار، أى مجموعة من الفضائل والنقائص التقت فى كيان واحد هو السِّيد، لم يكن ملاكا مبرأ من العيوب، ولم يكن شيطانا صيغ من شرور، وإنما كان فيه ما فى البشر من خير وشر. وحديثنا عنه وصفى تقريرى، لا يستهدف الحكم عليه أو تقييم أخلاقه، ذلك أن الخطوط الفاصلة بين الفضيلة والرذيلة دقيقة جداً، متحركة وغير ثابتة، وما يكون فى عصر فضيلة يكون فى آخر قبحا لا يغتفر. وفى العصر الواحد ما يكون فى لحظةٍ إثما فاضحا، يكون فى غيرها خليقة محمودة، وإذن فلست مع الذين جعلوا من السِّيد مجرد قاطع طريق، متمرد خارج على القانون. ولست مع الذين يريدون أن يجعلوا منه بطلا قوميا، مفكراً، صاحب دعوة وطنية ورسالة، ولم يكن كذلك لا واقعا ولا تاريخا. لقد حاولت، محايدا وموضوعيا، أن أكتب فيما مضى صفحات من تاريخه العام، أو السياسى إذا شئت الدقة، معرضا عما فى الأساطير من مبالغات، ومتجاوزاً الآراء غير العلمية. وبنفس الروح والمنهج : أحاول أن ألقى شيئا من الضوء على السِّيد الإنسان.

والمشكلة التى يواجهها الدارس لهذا الجانب من حياة السِّيد، أن السيد فى الملحمة غيره فى التاريخ، غيره فى الشعر، وأحدهم لا يحل مكان الآخر على نحو مفاجئ ومتميز، وإنما يكون الانتقال بين النماذج الثلاثة ناعما ومتدرجا، ولقد وقفت عند المصادر الثلاثة، لم أحتقر بدءا أى واحد منها، ويخيل إلىّ أن السيد فى الأشعار الشعبية أقرب الثلاثة إلى الحقيقة، نعم، ليست الحقيقة خالصة، ولا كاملة، ولا دائما، ولكنها الحقيقة على أى حال. لقد أصبح السيد بعد

نصف قرن من موته بطلا، بطلا شعبيا، كانت سيرته تقدم مادة طيبة، لخيال شعبي ساذج، لكى يصوغ منها الملحمة التى يريد، واستطاع هذا الخيال باتساعه وواقعيته أن يكون قريبا من عقول الناس وأذواقهم، وأن يضع التاريخ الحقيق فى زوايا النسيان، وأصبح من العسير الآن، إن لم يكن مستحيلا، الفصل بين التاريخين.

كان **السيد** بطلا شعبيا، ولم يكن قوميا، لأن الوطنية لم تكن عرفت بعد، ولم تكن اللغة على أيامه تعرف كلمة تعبّر عن هذا المعنى، والفارس فى الأندلس لم يكن يقاتل من أجل وطنه أو دينه، وإنما - مثل السِّيد - يقاتل من أجل الحصول على لقمة الخبز، وليس يهم بعدها أن يقاتل مع أمير مسيحى، أو تحت راية أمير مسلم، أو مستقلا حين يستشعر القوة والاستقلال عن هؤلاء. ولم يكن السيد وحده، من بين جيله، هو الذى سار فى هذا الطريق، وإنما سبقه وتابعه فيه كثيرون من الفرسان، ارتقوا إليها من عامة الشعب أو كانوا أصلا أمراء ونبلاء. فالكونت **غرسية أوردونييث** معاصر السِّيد وعدوه اللدود، والرجل الثانى فى بلاط **ألفونسو السادس** ملك قشتالة، انتقل إلى خدمة المرابطين، وقاتل تحت رايتهم بعد معركة سالتريس فى عام ١١٠٦م، وبعد ذلك بقرنين ونصف من الزمان كان الأمير **دون خوان مانويل**، صاحب كتاب حكايات «الكونت لوكارنو» يقاتل ضد ملكه مع قوات المسلمين. وكان مفهوم الفروسية فى العصور الوسطى فى بقية دول أوربا شيئاً مختلفا عن هذا تماما، كان يعنى أن يكون الفارس مسيحيا مخلصا، يتعهد بالدفاع عن الكنيسة، وبالخضوع لها دواما، وأن يقاتل الكفرة بلا هوادة، ويؤدى جميع واجباته الإقطاعية، فيخلص النية لسيِّده، ويدافع عنه، وعن شرفه مهما كلفهما الأمر، واختلاف الأمر بين بقية أوربا والأندلس، يدعم ما أشرنا إليه قبلا، من أن الناس جميعا كانوا أندلسيين، مسلمين ومسيحين، رغم فارق الدين.

كان **السيِّد** يعيش مُثُل عصره وفضائله، ومن تحميل الأمور فوق طاقتها أن نطالبه بمشاعر ومُثُل لم تعرفها الإنسانية إلا بعده بزمن طويل. كانت فضائل عصره فى أوربا حربية فحسب، وفى الأندلس حربية وعلمية،وحاز السيد الجانب الأول بأكمله وبرَّز فيه. فهو محارب ممتاز، يعرف كيف يقاتل، على نحو لم يتأت لغير القليل من فرسان عصره، وتميّز بالعنف والخشونة والقسوة ،وظل حتى آخر يوم من حياته مغلقا فى وجه المشاعر الطرية، كان يدرك أنها بداية العفن عند الحكام والقادة، والخطوة الأولى فى طريق سهل منزلق ممتع، ينتهى بصاحبه إلى الخراب والدمار. وفى أول حديث له مع أعيان بلنسية قال إنه لن يُشغل عن مصالحهم بما كان يشغل به ملوكهم من قبل، من الموسيقا والشراب والنساء.

كان، دون ما شك، أقوى فرسان القرن الحادى عشر، اجتمع تحت لوائه كل متمرد على أميره، أو منفى من ملكه، أو غاضب على المجتمع، أو شغوف بالقتال، أو باحث عن لقمة العيش، من المسلمين والمسيحين على امتداد الأندلس العريض، وهم جميعا، والسِّيد على رأسهم، فى خدمة من يدفع مقابلا أكبر ،يستوى فى ذلك أن يكون الطلب من أمير مسلم أو أمير مسيحى، وهم يقاتلون دفاعا عن الإسلام بنفس الحماسة التى يقاتلون بها دفاعا عن المسيحية، الشيء الوحيد الذى يهمهم المرتبات التى يقبضونها والنهب الذى يقومون به، وانتهى به الأمر قائداً مستقلا يقاتل لحسابه، ويقف ضد كل من فى الأندلس، ويتحرك بوحى من مصالحه وحدها. رجل حرب يحلم دائماً بالمعارك والقتال، نبيل جاء إلى الحياة فقيرا فهو نهم إلى الثروة والمال، قائد متمرد، بلا قلب ولا قانون، يدنس الكنائس، ويهدم المعابد، يحرق سجناءه أحياء، أو يمزقهم بالسواطير، قاس لا يرحم، ولقد خرب بأشد طرق التدمير فظاعة المقاطعة التى ولد فيها، ونسب إليها، وأمضى طفولته فى قصور ملكها. وحياته

مزيج من التعقل والشجاعة، ومن الخداع والجرأة، صاحب حيلة لا يقف بها عند الحرب والقتال، وإنما يستخدمها فى جمع المال. لقد احتال على يهوديين من برغش، فاقترض منهما مبلغاً كبيراً، رهنهما فى مقابله صندوقين مملوءين رملا، وأوهمهما أن بداخلهما كل ثروته، وأمرهما بالا يفتحاهما قبل عام، ولم يُعد إليهما ما اقترض منهما أبدا لا تاريخا، ولا فى الملحمة.

يخون إذا اقتضت مصلحته، ويخلف وعده إذا كان ذلك فى صالحه، ويتراجع عن كلمته إذا كان العدول عنها يعنى مزيدا من المال، وقد مكر بألفونسو السادس ملكه، ومكر بمسلمى سرقسطة وعاش بينهم بجنده سبعة عشر عاما متوالية، ومكر بكل الذين فى شبه الجزيرة، وكانت الجماهير المطحونة بالفسدة من الحكام والطغاة من القادة، والمنحرفين من رجال الدين، تعجب به، وترى فى تحركه ثأراً لمظالمها، ولا بأس بعد ذلك أن يكون قاسيا، مادام يثأر لها ممن لا تستطيع منهم قصاصا.

هل كان **السِّيد** فى حياته كاثوليكيا ؟. أما أنه وُلد لأبوين كاثوليكيين فأمر لا شك فيه. وأما أنه كان كاثوليكيا مؤمنا وطيبا ففيه شك كبير، فحتى العامين الأخيرين من حياته ليس فى تصرفاته ما يوحى أبدا أنه يستهدى المُثل المسيحية فى مواقفه، ولا نجد شاهدا تاريخيا آخر يومئ بأنه كان ذا حمية كاثوليكية، وقد بذل **مننديث بيدال** جهدا كبيرا فى أن يجعل منه بطلا إسبانيا قوميا وكاثوليكيا، وأطلق اسمه على مرحلة من تاريخ الأندلس، أدار حول أحداثها مؤلفه « إسبانيا فى عصر السيد »، ومع ذلك أهمل تماما فى كتابه عن « السيد القنبيطور »، وزحمه بالنصوص، ما كان منها تاريخيا ثابتا، أو أسطورة مخترعة، وصية السِّيد عند موته، لأنها والرجل بين الحياة والموت، فى اللحظة التى يتوب فيها الفاجر، ويؤمن الزنديق، لاتنم عن أى نبض مسيحى، يقول :

« أنا **لذريق بن بيبار** المسمىً بـالسِّيد الشـجاع القنبيـطور، المنتصر على الدول الإسلامية، وروحى تسلك طريقها إلى الله Dios لكى تستقر فى ملكوته، وبدنى ومن التراب خُلق، إلى التراب يعـود، أودّ بعـد مـوتى أن تحنـطونى وأن تدهنونى بالطيب، من العطور التى أرسـلها إلى سّلطان فـارس، ومحمـولا على فرسى « بَبْييكا »، ومن خلفى رايتى وأعلامى، أظهـرونى للملك **أبـو بـكر**[1]، ولكل المدافعين، وآمر بأن يدفن فرسى « بَبْييكا »، وألا تترك الـكلاب تنهشـه، لطالما ضنَّ ببدنه عن نهش الـكلاب. وأود أن يحضر مشـهد دفـنى النبـلاء، وأولئك الذين قاسمونى مائدتى، وأكلوا خبـزى، وكبـار الفـرسان »[2]. وصـية لا تتبين أن صاحبها مسيحى ،إذا لم تكن تعرف ذلك مسبقاً. وأي مسـيحى ؟ كاثوليكى من فجر العصر الوسيط!

لكن ذلك لا يحول دون القول، إن **السِّيد** فى أواخر حيـاته، قـريباً مـن موته، ضعف إنسانياً، ووقع فى قضبة **دون خرونيمو**، راهب فرنسى، ينتمى لطائفة Cluuy، وهى جماعة دينية فـرنسية تسرّبـت إلى قشـتالة عـام ١٠٣٣، وتميَّزت بالتعصب الدينى الشديد، ولعبـت دوراً فى نقـل الـروح الصـليبى إلى الأندلس، وكانت وراء الكثير من مآسى اضطهاد المسلمين، وقـد عينّـه السِّـيد مطراناً لبلنسية، بضغط من كبار رجال الطائفة فى طليطلة، فـانتزع منـه قـراراً بتحويل مسجد بلنسية الجامع إلى كنيسة، ومساجد أخرى، رغم تعهّـد السِّـيد للمسلمين من قبل بألا يمس معابدهم أو شعائرهم الدينية، واستهداه عددا من التحف والجواهر التى استولى عليها مما كان فى أملاك **القادر بن ذى النـون**

---

(١) يشير إلى أبى بكر سير بن يوسف بن تاشفين، قائد جيش المرابطين فى الأندلس.

(٢) لم يتيسر لى النص فى مصادره الأسبانية، فعربته عن ترجمته الفرنسية الواردة فى كتـاب (تـاريخ إسبانيا المسيحية) لمؤلفه Jean Descola .

وغيره من أثرياء المسلمين، وكان من بينها سجادتان شرقيتان، من روائع السجّاد الشرقى ،كانتا من قبل فى قصر آل ذى النون فى طليطلة، أيام أن كانوا ملوكاً عليها.

● ● ●

معلوماتنا عن الحياة الخاصة للسِّيد قليلة للغاية، أمر متوقع من محارب مغامر لايكاد يستقر فى مكان، غير أن أيامه فى بلنسية كانت أكثر هدوءا من غيرها، لتقدم سنه، وللأمراض التى تعاورته، والجراح التى تركت آثارها فلم تبرأ تماماً، وللهزائم التى بدأت تلوح فى أفق حياته، وإحساسه بأن بساط المجد بدأ ينكمش تحت قدميه، ولا كتئاب داخلى أحس معه أن أيامه على وشك المغيب، فأخلد إلى الراحة، وبدأ يأخذ بحظه من الحياة الاجتماعية، إنساناً غير عادى، يتصرف كملك متوج، يجلس للقاء الوفود، وتنشد بين يديه قصائد المديح.

حينئذ بدأ يجمع إلى جواره رفاقه فى رحلة الحياة العنيفة والمريرة فاستقدم أسرته، زوجه وبنتيه، من قشتالة، وابن أخيه **ألبار هانييث ومونيو جوستيوس** عديله، فقد كان متزوجاً من أخت دونيا خمينا، وآخرون من كبار القوّاد، ترتفع بهم الوثائق إلى ثمانية وعشرين، وتقف بهم الملحمة عند أربعة وعشرين، وهى دقة توحى بأن الملحمة أقدم بكثير مما يذهب إليه الدارسون[١]، وأنها كُتبت إن لم تكن فى أيام السِّيد الأخيرة فبعدها مباشرة دون تأخير طويل. وكان بلاط السِّيد أندلسيًّا حقاً، فيه جند مسلمون ومسيحيون، من كل أنحاء شبه الجزيرة، وفيه قادة كبار من ممالكها المختلفة، من قشتالة وليون، وأرجون، ولقد صمتت الملحمة تماماً عن أصدقائه من المسلمين فلم تذكر غير واحد هو

---

(١) انظر الفصل الخاص بقصة الملحمة ص ٦٢ وما بعدها.

ابن غلبون ، صديق السيد الحميم وحاكم مدينة مولينا Molina. وأغفلت الدراسات الحديثة، وأبحاث **مننديث بيدال** بوجه خاص، الحديث عمن كانوا فى بلاطه من المسلمين. أما الملحمة فلأن شاعرها مسيحى كان ينشدها مسيحيين، أو مسلمين مُستَغَلِّين فى أرض مسيحية، وربما كانت تنشد فى الجانب الإسلامى على نحو آخر، وفى صورة أخرى لم تُسجل. وأما المحدثون فللإيحاء بأن **السيد** كان بطلا قوميًّا مسيحيًّا حقًّا، وليس ذلك بصحيح، فنحن نعرف من سير الأحداث، ومن إشارات، «مدونة تاريخ إسبانيا العام»، أن بعض المقربين إلى السيد وممن حوله من كبار مستشاريه كانوا مسلمين. كان **بن عبدوس** مسلما، ويتمتع باحترام مسلمى بلنسية والسِّيد على السواء، وكان مشرفا على الضرائب، وعندما تفاوض السِّيد على دخول المدينة، كان من جملة شروطه أن يبق ابن عبدوس فى منصبه. وكان هناك **ابن الفرج** ممثله فى بلنسية قبل أن يدخلها فاتحا، وحين كان يقبض الجزية من أميرها **القادر** بن ذى النون. وكان السِّيد على صلة طيبة بالقاضى **أبى الوليد الوقشى** ،واختاره قاضيا لمدينة بلنسية، يستشيره ويسمع منه، فى كل ما يتصل بأمور المسلمين.

لم يكن **السِّيد** صاحب مشاعر رقيقة، ولم ينبض قلبه بالحب أبدا، وكان زواجه ثمرة مصلحة سياسية، وفُرض عليه، ولم يكن وليد عاطفة إنسانية، ودَفْع داخلى، فلا عجب أن بقيت زوجه لسنوات طويلة بعيدة عنه فى قشتالة، وكان هو مشغولا عنها بمغامراته الحربية، ولم يعش إلى جانبها إلافترات قصيرة، أطولها أيامه الأخيرة فى بلنسية، مريضاً منهكا، ولم تتجاوز أربعة أعوام، ولم يرزق منها بغير ولد واحد، مات قتيلا فى إحدى المعارك، وفتاتين. كذلك لم تكن **دونيا خمينا** زوجه، وهى ترجو الملك أن يتفضل فيختار لها لذريق زوجا تعبر عن

إعجاب رومانسى، وإنما لجأت إليه لتدفع حربا أهلية توشك أن تمزق قومها، لم تكن تحب لذريق، ولربما فكرت أنه سيعرف يوماً الدافع الذى حملها على الزواج منه، والإخلاص الذى تكنه له، فتقوى العلاقة بينهما، وتتمزق أستار الوحشة.

وليست لدينا معلومات دقيقة عن الثروات التى خلفها **السِّيد** أو عن الجواهر الثمينة التى حازها من **القادر،** أو ابتزها من سكان بلنسية، طواعية أو بالتعذيب والإحراق، وأثمن ما يملك منها أسورة نادرة، جوهرة ذات صناعة بديعة فريدة، كانت تخص **زبيدة** زوج **هارون الرشيد**، هكذا يقال، وظلت عبر ثمانية قرون، من القرن الثامن حتى القرن الخامس عشر، حديث الناس فى الشرق والغرب، وعلى جانبى البحر الأبيض، وانتقلت من بغداد العباسيين إلى بلاط الأمويين فى قرطبة، ومن قرطبة إلى بنى ذى النون فى طليطة، واستقرت أخيراً فى يد القادر، فحملها إلى بلنسية، مع بقية ثروته وجواهره، وكان بنو ذى النون من أغنى أمراء الأندلس. فلمّا تقاسم السِّيد وجنوده الغنائم، عندما دخلوا بلنسية منتصرين، جعلوا ثروة القادر بما فيها من تحف وحلىّ من نصيب السِّيد، وهكذا انتهى المطاف بأسورة سلطانة بغداد لتكون الحلية المفضلة لدونيا خمينا زوج السِّيد، فى بلنسية أولا، ثم فى قشتالة من بعد، حين فارقت المدينة مكرهة أمام حصار المرابطين.

كانت هذه الجواهر كثيرة، وتتبع التاريخ سيرها إلى ما بعد موت السِّيد بأربعة قرون، ففى عام ١٤٥٣م انتهز **خوان الثانى** ملك قشتالة فرصة اغتيال القائم على أموال مملكته، فاتهم قائده **ألبار دى لونا،** وكان فى البدء من أقرب الناس إليه، وبلغ قدراً كبيراً من النفوذ والسلطة، وصار أقوى وأغنى رجل فى الأندلس دون منازع، فى الأندلس الإسلامى والمسيحى على السواء،

فأثارت قوته غيرة الملك، فانتهز هذه المناسبة، وتخلص منه بالإعدام. وكما كان السِّيد نهما إلى المال، كذلك كان خوان الثانى، فصادر أموال ألبار دى لونا وتتبع كل ثرواته الخفية، وخزائنه السّرية، وفى أشدها خفاء، وأبعدها عن الأعين، ظهرت جواهر ملوك قشتالة القدامى، ومن بينها حزام نسائى من الذهب الخالص، المزخرف بالماس، والأحجار الثمينة، من أملاك السيد، ويعتقد بعض المؤرخين أيضاً أنه بعض جواهر **زبيدة** زوج **الرشيد**. وهذا الحزام سيظهر فيما بعد، تتمنطق به **إيزابيل**، بنت خوان الثانى، والتى ستدخل التاريخ بوصفها ملكة على يدها، مع زوجها **فرناندو**، وضعت الكاثوليكية حدا لإسلام الأندلس، حين دخلا معًا غرناطة فاتحين ومنتصرين فى ٢ من يناير ١٤٩٢. وكانت إيزابيل مغرمة بالجواهر والحلى، غير أن أحدا لم يعد يسمع عنه بعد ذلك شيئاً، ويظن أن الملكة باعته لتواجه بثمنه نفقات الحرب التى اضطلعت بها ضد المسلمين، وذهب إلى حيث لم يعد يهتم به التاريخ أو يتحدث عنه.

● ● ●

بعض ملامح التأثير العربى نلتقى بها فى حياة السِّيد، كان يفرش أرض داره بالسجّاد، أو الحصير، وهى عادة عربية، انتقلت، إلى أوربا خلال الحروب الصليبية وعن طريق الأندلس، فقد كانوا فى أوربا يعلقون السجاد على الجدران فحسب، أما السِّيد فيجمع بينهما، يفرش الأرض، ويغطى الجدران، وخلال حكمه لبلنسية تعوّد أن يلتقى بأعيان المدينة، جالساً على منصة، فُرشت أرضها بالسجّاد والحصير، وهو فى قصره يستمع إلى الشعراء فى اللغة العربية الفصحى، أو فى عامية أهل الأندلس، أو فى الرومانثية، ولا أظنه كان يعرف من اللاتينية غير القليل، فقد أصبحت على أيامه لغة ميتة، لايفهمها إلا رّجال

الدين، وغير المتخصصين منهم لا يعرفون إلا ما يتصل بالصلوات والمواعظ، يلقونها على جمهور يهز رأسه خاشعا، ويتابع صلواتهم مؤمناً، ولكن دون أن يعى جيداً ما يقولون.

لم يلتفت **المؤرخون المسلمون**، وهم الذين أوردوا لنا نتفاً من أخباره يمكن أن تعد تاريخاً، كابن بسام، وابن علقمة، إلى غير الجانب الحربى والعسكرى من حياة **السِّيد**، غير جملة جاءت عرضاً فى حديث **ابن بسام**، ولكنها ذات دلالة هامة، فهو يروى أن السِّيد كان يجلس فيستمع إلى قصص العرب، ويعجب من بينها بسيرة **المهلَّب بن أبى صفرة** ويطرب لسماعها ويطرب، وهو أمر طبيعى، فقد كان فى حياة المهلب، ومنهجه فى الحرب، وتخطيطه للقتال ما يتفق وأفكار السِّيد. وأتصور أن إقباله على الثقافة العربية أو الإسلامية، ضعها تحت أىّ اسم شئت، أوضح مما يشير إليه المؤرخون، فقد كانت الثقافة العربية على أيامه أرقى بكثير جدًا من المسيحية، وقد تعوّد معاصره **بدور الأول** ملك أرجون أن يوقع أوامره بالعربية زهواً وافتخاراً. ولقد أمضى السِّيد سبعة عشر عاماً كاملة ومتواصلة فى خدمة أمير مسلم، وجانب كبير من جنده، يتجاوز النصف أحياناً، كانوا مسلمين، وكانت سرقسطة حيث عاش مركزاً حضاريًا عربياً، وبلاط **بنى هود** أصدقائه عامر بالشعراء، والأدباء، قادمين أو وافدين، وأمراؤه يقرضون الشعر، ولم تكن بلنسية أقل إشعاعاً من سرقسطة، إن لم تزد، **والوقشى** قاضيه على المدينة، ومستشاره لشئون المسلمين، كان شاعراً وفيلسوفاً ولغوياً، إلى جانب اهتمامات فكرية أخرى يعدها له أصحاب المعاجم والترجمات، وكان **القادر** حليفه حيناً، ومحميّه حيناً آخر، مغرماً بالكتب واقتنائها، ويملك مكتبة من كبريات ما فى الأندلس من مكتبات، ورثها من آبائه، وأضاف إليها ما أمكنه، وكان من بين ما أضاف

إليها شراء مكتبة المؤرخ الأندلسى الكبير **ابن حيان**، وجاءت فى ثلاثة وأربعين صندوقاً. فهل يحق لنا أن نتصور أن حياة الرجل كانت فى الجانب الأرجح منها عربية التقاليد إسلامية السمات ؟

غير أننا يجب ألا ننسى أن اهتمامات **السِّيد** بالشعراء جاءت فى أواخر حياته حاكماً على بلنسية، ويخيل إلىّ أنه كان يضطلع بها استجابة لمراسم منصبه، حين جلس على عرش ملك مسلم، كان من بين مهامه الأولى أن يغذى هواية الناس للفنون والآداب وشتى مظاهر الجمال، ويعطى المثل من حياته، يلقى الشعراء، ويغدق عليهم العطايا، ويقتنى الكتب، وينمىً صناعة الكتاب. **غير أن المؤرخ الإسبانى مَنْديو يذهب إلى أن السِّيد مجرد مغاور** almogaver جاهل أمى، مهمته أن يغير وأن ينهب، دون أن يفكر فى الثقافة والفنون والإقبال عليها. وهو أمر لا يمكن قبوله على إطلاقه، والذى أدى إليه أن المؤرخ الإسبانى كان يجهل العربية، فلم يستطع أن يستفيد بما فيها من مصادر تلقى الضوء الكثير على حياة السِّيد، غير أننا من جانب آخر نرفض الفكرة المقابلة والمتطرفة، والتى تجعل من السِّيد ليس مثقفاً فحسب، بل وعالماً متمكناً من القانون القوطى. والرأى الذى نرتضيه هو مفهوم رواية **ابن بسام**، فقد أشار إلى أن الرجل كان يقبل على الثقافة العربية ما اتصل منها يسير الأبطال وقصصهم، إذ كان يرى نفسه فى حياتهم، وخططه صورة من نشاطهم، وانتصاره شبيها بانتصاراتهم، دون أن يذهب إلى أبعد من هذا، فيجعل منه « ابن عباد » آخر.

• • •

أما الملحمة فتقدم لنا السِّيد فى صورة مغايرة، تتفق مع التاريخ فى أنه مخادع وماكر، ويقاتل من أجل لقمة الخبز، ويؤمن بالعرافة، وفيما عدا ذلك

تقدم لنا شخصاً مختلفاً تماماً. فهو مسيحى طيب عند كل موقف صعب، ويتوجه بالدعاء الحار للخالق بعد كل نصر، يعفو وينسب فعله للحماية الإلهية، يألم لنفيه من وطنه، فيظهر له جبريل فى الأحلام، يواسيه ويبشره بمستقبل سعيد. ويخدم ملكه بإخلاص كامل، وظلمه ألفونسو السادس عندما نفاه، وكان هذا رأى سكان برغش كبرى مدن قشتالة على الأقل، وقد صاحوا به عندما مرّ بمدينتهم. «ياألله !... ألا تعطى هذا التابع الطيبّ سيداً صالحاً» غير أن السيد إبقاء على مكانة الملك، لا يتهم **ألفونسو**، ولا يخوض فى سيرته، وإنما ينسب ما وقع له إلى الحاشية، إنها وحدها السبب فيما يعرض له من مصاعب. ودائماً يحاول أن يخفف من غضب الملك عليه، وعندما علم أن ألفونسو تحرّك لكى ينتزع منه فتوحاته تخلى عنها، لأنه لا يرغب فى القتال ضد سيده، وإذا استحوذ على غنائم فى القتال، بادر فأرسل إلى الملك بهدية كبيرة منها. وعندما التقى الملك معه استقبله ضارعاً، وسجد أمامه، وأخذ العشب بأسنانه، وفاضت دموعه فرحاً.

وهو بين جنوده، وبين أعدائه، مثال للطيبة والكرم، فإذا استولى على قلعة وأراد أن يتركها جاءه سكانها المسلمون باكين، يرجونه أن يبقى، أو يرافقونه حيث يذهب. وعندما خلف وراءه مسقط رأسه منفيًّا، تاركاً داره وأسرته، بكى ألماً. **والسيِّد** فى الملحمة أب وديع وحنون، يسأل دائماً عن زوجه، وعن بنتيه **دونيا ألبير أو أودونيا سول**، وحول زواجهما يدور موضوع الملحمة الرئيسى. وعندما نقلوا إليه فى بلنسية رغبة الملك فى أن يزوّج بنتيه من أميرى «كاريون» أحسّ بالثقة فى نفسه، وصاح: إننى مجرد منفى، استولوا على أملاكى، وما معى الآن ربحته بالجهد والتعب، شكراً يا إلهى، لقد رضى عنى الملك أخيراً. ومع أن الأميرين من طبقة النبلاء، ويتمتعان بنفوذ كبيرة فى بلاط

الملك، كره السيد زواجهما من بنتيه، لأنهما لا يستطيعان أن يحققا لهما السعادة، غير أنه لا يعارض، خضوعاً لرغبة الملك، فليس له إزاء رغبة عاهله كلمة.

لقد طلب أميرا «كاريون» يدى بنتى السِّيد، ألبيرا وسول، طمعا فى ثروتها، فقد كان أبوهما بعد ما حاز من غنائم يعد من كبار الأغنياء، وكانا تافهين ومزهويْن، وقاسيين وجبانين، وكان جبنهما بإزاء أسد انطلق من مربضه فى حديقة قصر السِّيد فى بلنسية، موضع التهكم والسخرية، ولما ضاقا ذرعا بما يوجه إليهما، أصرا أن ينتقما من السِّيد فى شخص بنتيه، فرغبا إليه فى العودة إلى «كاريون» مع زوجتيهما، والأموال الهائلة التى أصاباها، وصحبهما قريب للسِّيد يدعى **فِلث مُنيوث.** وفى «مولينا» استقبلهما **ابن غلبون،** مسلم حليف وصديق للسيد، فى حفاوة بالغة، ولما عرفا ما يملك من ثروة، بيتّا النية على قتله، والاستيلاء على خزائنه، لكن مسلما يعرف الرومانثية فهم ما يتبادلان من قول، وأعلم سيده، فاتهمهما ابن غلبون بالخيانة، ثم تركهما يذهبان، دون أن يعاقبهما بما يستحقان إكراماً للسيد. وعندما وصلوا إلى غابات «كوربيس»، نفّذ الأميران خطة شائنة، خطّطا لها فى بلنسية قبل الرحيل. فقد أمرا كل تابعيهم بالمسير فجراً، وبقيا وحدهما مع زوجتيهما، حينئذ بدآ ينتقمان منهما، فجردّاهما من ملابسهما، وضرباهما بسيور المهماز حتى سال منهما الدم، وتركاهما تعيستين لا تستطيعان الكلام، نهباً للنسور والحيوانات المفترسة. غير أن فِلث منيوث لم يكن مطمئناً إلى مصير بنتى عمه، فكمن وراء غيابة من الجبل، ولما رأى الأميرين قادمين وحدهما تركهما يمران، وعاد إلى الغابة فوجد بنتى عمه نصف ميتتين، فناداهما باسميهما، ففتحتا عيونهما أخيراً، واستردتا وعيهما شيئاً فشيئاً، فسترهما بعباءته، وحملهما على حصانه، ونقلهما إلى مكان مأمون.

وأخبر السِّيد بما حدث فصمت طويلا، وتأمل مستغرقاً، ورفع يده، ثم أمسك بلحيته وشكر المسيح سيِّد العالم وأقسم بحق لحيته التى لم يمسها مخلوق : « إن أميرى كاريون لن ينعما بما فعلا طويلا، وسأزوج بنتى زواجا كريما » ولقد تحقق له أمله، فزوّج إحداهما من أمير نبرة، والأخرى من أمير أرجون.

وضاع **السِّيد** التاريخى تماما فى ضباب الأسطورة، وأصبح قديسا وبدأ الجنود عند الحرب يتبركون بقطع يحملونها من تابوته، تحميهم من الهزيمة، وتجلب لهم النصر، وتقدم **فيليب الثانى** (١٥٢٧ - ١٥٩٨) أعظم ملوك أسبانيا، وأشدهم تعصباً، بطلب إلى **البابا** فى الفاتيكان أن يضيف السِّيد إلى قائمة القديسين؛ ورفض البابا. لقد أراق صاحب هذا السيف دماء غزيرة، ولم يكن منظر أكاليل القديسين يقع منه موقع الرضا، ولم يكن صوفيا ولا زاهداً، بل « وكان مسلما بقدر ما هو مسيحى، ولا يزال حتى اليوم، داخل قبره مسيحيا يحمل ملابس عربية ».

ولم يعجب قرار البابا **فيليب الثانى**، فسحب سفيره من روما احتجاجاً والحق أن السيد لو عاش على أيام فيليب الثانى، لقضت عليه محاكم التفتيش بالموت حرقا، بتهمة الإلحاد أو تدنيس المقدسات.

سيظل السيد سجين الخيال الشعبى، فى منتصف الطريق بين الحقيقة والأسطورة، وسيبقى هذا الجندى الأجير الذى صنع لنفسه بسيفه ملْكا، المسيحى الذى يقاتل لصالح المسلمين، شاهد صدق على طبيعة الأندلس كما ألمحنا إليها فى المقدمة والتمهيد، ودليلا على ما كان بين المسلمين والمسيحين فى شبة الجزيرة من تسامح وتآخ، حين تنأى عنهم أطماع الحاكمين، وتخف قبضة رجال الدين.

شخصيات الملحمة

فى البدء، وقد اختلط التاريخ بالأسطورة فى الملحمة، كان يُظن أن الوقائع كلها، بما فيها شخصية السِّيد، عمل اخترعه خيال شاعر مجهول، وأنها لم تجر أحداثها على النحو الذى رُوِيت به أبداً، ومع النهضة الحديثة، وتقدم وسائل الدرس، ونشر الكثير من المصادر الأندلسية، والعربية منها بوجه خاص، بدأت شخصية السِّيد تتضح، على نحو مخالف لما عليه فى الملحمة، ولكن بطريقة لا تدع مجالا للشك فى أن الرجل وجد وعاش فعلا، ثم تجاوزه الأمر إلى الشخصيات التى وردت فى الملحمة، وباستثناء عدد قليل منها، ودوره ثانوى، فإن الكثرة الغالبة شخصيات تاريخية، وجدت حقًّا، وشاركت فى أحداث عصرها سلباً أو إيجابا. ولسوف يساعد على تفهم أحداث الملحمة، ماهو حقيق منها وما هو أسطورى، أن نتتبع حياة الشخصيات التى تدور حولها الأحداث، فى بساطة موجزة، بقدر ما تساعدنا عليه المصادر، دون أن نتجاوز كتب التاريخ إلى الملحمة نفسها، لأن تتبع نشاطهم فيها يمكن للقارئ أن يلتقطه من النص المترجم مباشرة.

● **ألفونسو السادس Alfonso VI** (١٠٦٥-١١٠٩) ملك قشتالة، وهو أوضح شخصيات الملحمة، فقد تحدَّاه السِّيد على مرأى من مجمع الفرسان والنبلاء، حين اضطره أن يردِّد القسم الخاص ببراءته من دم أخيه **شانجه الثانى**، وقد اغتيل بتدبير من أخته **أراكه**، ومن أخيه **ألفونسو** فيما يظن، قبل أن يرضى به القشتاليون ملكا عليهم، وأسرّها الملك فى نفسه فلم يلبث أن نفى السِّيد من مملكته. ويعد ألفونسو من أعظم ملوك قشتالة، فقد جمع تحت

تاجه ممالك جليقية وأشتورياش وليون وقشتالة، وكان يرمى إلى توحيد الأندلس المسيحى كله تحت لوائه.

وتجاوز نفوذه الأندلس المسيحى إلى الأندلس الإسلامى، فدفع له الجزية عدد من ملوك الطوائف الصغار، وارتبط تاريخه فتى بالصراع الإسلامى المسيحى، وبلغ ذروته فى نهاية القرن الحادى عشر، وتعرفه المدوّنات العربية فى جوانب متعددة من حياته. فحين هزُم فى موقعة جلبخيرا عام ١٠٧٢م، أمام جيوش أخيه شانجه الثانى، وأُسر فى المعركة وسُجن، ثم أفرج عنه فيما بعد، لجأ إلى طليطلة الإسلامية، ، ونزل ضيفاً على **المأمون بن ذى النون**، فأحسن استقباله، وأعطاه سكناً فى القصر الملكى يشرف على حصون المدينة. وهو آمن فى حدائق القصر الواسعة، خلّ من متاعب الحياة، كان همه أن يدرس جغرافية المدينة ومسالكها، وأفضل الطرق للاستيلاء عليها، ولم يطل به التفكير، فقد ترامى إلى سمعه ذات يوم، وهو ينعم تحت ظل شجرة وارفة فى الحديقة، حديث يدور بين بعض القواد المسلمين عن المدينة ومنعتها، وأنها لا تهزم إلا أمام الجوع لأن ضرب الحصار حولها سهل، وليس لها من سبيل إلى العيش غير ما يحمل إليها مما حولها. ووعى **ألفونسو** الدرس جيداً، وبعد تسعة أشهر اغتيل أخوه **شانجه** الثانى، فى ٧ من أكتوبر ١٠٧٢، وهو يحاصر مدينة سمورة، فأرسلت إليه أخته **أراكة** تستدعيه لكى يصبح من جديد ملكا على قشتالة، ويضم إليها ليون، وعدداً آخر من الممالك، وما لبث، حين واتته الفرصة بعد ثلاثة عشر عاماً، أن طبق نظرية القواد المسلمين، فحاصر طليطلة فى قوة، وخرَّب ما حولها بقسوة، وسقطت فى يده من غير قتال.

وأدى سقوط طليطلة إلى عبور المرابطين مضيق جبل طارق لنجدة المسلمين. والتقوا بالجيوش المسيحية، وقد أخذت شكل حملة صليبية، شارك

فيها جنود مسيحيون من كل العالم الكاثوليكى إذ ذاك، بقيادة **ألفونسو السادس**، فى مكان يعرف بالزلاقة، وبه شهرت المعركة، ودارت الهزيمة على الجيش المسيحى، وكان النصر للمرابطين، على نحو ما ألمحنا إليه من قبل، ونتيجة لمعركة الزلاقة، استقر المرابطون فى الأندلس، وخلعوا ملوك الطوائف واحداً وراء آخر، وقُتل فى صدام معهم عند قرطبة حاكمها **المأمون بن المعتمد بن عباد**، ثم سيق أبوه ومن تبق من أسرته أسارى إلى مراكش، فما كان من زوج المأمون المقهورة من مصرع زوجها وإخوته وأسر أبيه، إلا أن لجأت إلى **ألفونسو السادس** ملك قشتالة، فكانت له واحدة من زوجات خمس إلى جانب عدد من الخليلات والمحظيات على عادة ملوك شبه الجزيرة **مسلمين ومسيحيين، وكان له منها الابن الوحيد، وقتل فى ميعة صباه، يقود** جيش قشتالة فى معركة ضد المرابطين تعرف بموقعة أقليش، وجرت فى ٣٠ من مايو عام ١١٠٨، وكانت الدائرة فيها على المسيحيين.

● **ألبار هانييث** Alvar Hanez ، ويكتب الحرف الأول من هانيث F فى المصادر القشتالية القديمة و H فى اللغة الإسبانية الحديثة، وهى تطور للغة القشتالية، والنطق واحد فى كلتيهما. وتسميه المصادر العربية **ألبار هانس** وهو أكثر شخصيات الملحمة ذكراً عند المؤرخين العرب.

ويظهر لأول مرة فى وثائق أعوام ١٠٩٧-١١٠٧ القشتالية كحاكم لمدينة Zorita ، وكان واحداً من كبار الفرسان فى بلاط **ألفونسو السادس** ، والتقى مع المرابطين فى أكثر من معركة، وخلال حكم **أراكة** ابنة ألفونسو السادس عين حاكما على طليطلة من ١١٠٩ إلى ١١١٤، وفى العام الأخير اغتاله أهل شيقوبية، وهو يدافع عن حق الملكة، ضد أنصار الملك الأرجونى **ألفونسو المحارب**. وتدعوه الملحمة ابن أخ السيد، وهى قرابة تؤكدها الوثائق

التاريخية، وتذكر أيضاً أنه كان ساعد السيد الأيمن، وإلى جانبه دائماً. والحق أن حياتيهما جرت متباعدة، ومن المؤكد أنه صحب **السِّيد** فى نفيه، لأنه اسمه لا يظهر فى وثائق القصر الملكى فى قشتالة خلال أيام النفى، غير أنه يعود إلى الظهور مرة أخرى فى أعوام ١٠٨٥-١٠٨٧، إذ عهد إليه ألفونسو بأن يكون مع القوات التى تحت أمره فى خدمة **القادر بن ذى النون** ملك بلنسية، بعد أن أزاحه عن عرش طليطلة، ثم يظهر فى الوثائق الملكية بعد ذلك، فى أعوام ١٠٩٠- ١٠٩٥، حين كان السيد مشغولا بالاستيلاء على بلنسية، ولقد أمضى **ألبار هانييث** أياما مع عمه فيها، لكننا نجده فى العام الذى توفى فيه السيد، أى عام ١٠٩٩، منفصلا عنه، يقاتل المرابطين عند كونكة، ثم يخرج من المعركة مهزوماً.

أما فى المصادر العربية فنجده لأول مرة سفيراً لألفونسو، يحمل رسالة إلى **المعتمد بن عباد**، تنضح كبرياء وصلفا، وينعت فيها ملك قشتالة نفسه بأنه «سيد الشعبين وأمام الملتين»، فأجاب المعتمد عليها برسالة أشد كبرياء واعتزازاً وعنفاً. لكن أمير إشبيلية، إزاء تردد المرابطين فى العبور إلى الأندلس لدعم المسلمين، لم يجد بداً من دفع الجزية للملك ألفونسو. وكان مع **ألبار هانييث** يهودى بارع فى شئون النقد يدعى **ابن شاليب**، مهمته أن ينقد المال الذى يدفعه المعتمد، فقد كان تزييف النقد، ودفعه فى المغارم والجزية عملا شائعاً، غير أن اليهودى بالغ فى أداء مهمته، فعدّ ذلك وزراء المعتمد إهانة لهم، ورفضوا أن يسمحوا له بالاستمرار فى عمله، وحاول **ألبار هانييث** أن يسوى الخلاف، فاقترح أن يقدم المعتمد سفنا حربية بدل المال المطلوب، لأنه مكلف بألّا يقبض أية دراهم أو دنانير دون تفحص ونقد وتحقيق.

وقد غضب **المعتمد** لهذه المعاملة من جانب السفير وخبيره النقدى غضباً

شديداً، وتبالغ بعض الروايات العربية فتقول إنه بطش بالسفير، أو فقأ عينيه، وقتل رفاقه وهم ثلاثمائة، ولم ينج منهم سوى ثلاثة لاذوا بالفرار، وضرب اليهودى حتى غُشى عليه ثم صُلب. وهى رواية غير دقيقة لأننا سوف نلتقى بعد الحادثة بالسفير **ألبار هانييث**، ولزمن طويل، فى أكثر من مكان. أما الرواية الوثيقة فتقول إن المعتمد أنب السفير، وكان يقيم فى خيام له بظاهر إشبيلية، ولم يعتد أحد على حياته جريا على سنن القانون الدولى، ولكن بعض جنود الصقالبة، وحاشية المعتمد، انسلوا إلى خيمة اليهودى، وربما بإيعاز من المعتمد نفسه، فقتلوه ومن كانوا معه. وعاد السفير إلى طليطلة يتوعد المعتمد بنقمة مولاه.

ونجده بعد ذلك فى رفقة **القادر** ملك بلنسية، يثبّت عرشه ويدفع عنه السكان الثائرين عليه، وحكام القلاع المتربصين به، ثم يرحل من هناك لينضم إلى جيوش **ألفونسو** الذاهبة لمقاتلة المرابطين فى موقعة الزلاقة الشهيرة، وأصبح **ألبار هانييث** قائد الجيوش المسيحية، وتتألف من جند قشتاليين، ومن أرجون، ومن متطوعة كاثوليك جاءوا من وراء الأندلس ،وتقدر بعض الروايات العربية الجيش المسيحى بأنه كان فى ثمانين ألفا، وقد مزقه المسلمون تماما ولم ينج منه غير خمسمائة فارس، فرّوا إلى طليطلة مع الملك ألفونسو، ومعظم الفارين كانوا مثخنين بالجراح، فلم يصل حيا منهم غير مائة وكان **ألبار هانييث** من الناجين لأننا سوف نلتقى به حيا بعد عام ١٠٨٦، تاريخ المعركة؛ وسيجىءُ إلى إشبيلية مرة أخرى، ليقاتل فى هذه المرة مع **المعتمد بن عباد** ضد المرابطين؛ وقد انتصر المرابطون، وارتد القشتاليون، وأثخن ألبار هانييث فى هذه المرة جراحاً.

● **بير، أو بدرو، أنسوريث Per (Pedro) Ansûrez** من أكثر شخصيات

الملحمة ذكرا فى النصوص المسيحية القديمة، فقد كان واحدا من النبلاء الكبار، وكان الشخصية الأولى فى بلاط الملك **ألفونسو**، وعندما وقعت الحرب بين الأخوين ألفونسو ملك ليون، **وشانجه** ملك قشتالة، فى «جلبخيرا» قريبا من «كاريون»، قاتل الأخوان **جنثالو** و **بدروأنسوريث** إلى جانب الأول، وقاتل **السِّيد** إلى جانب الثانى، وانتهت الحرب بهزيمة ألفونسو ملك ليون، فلجأ إلى كنيسة المدينة، وتبعه شانجه ومعه السِّيد إلى هناك وأخذه أسيرا، ثم أطلق سراحه فيما بعد، لكى يذهب لاجئا سياسياً إلى بلاط بنى ذى النون فى طليطلة، وصحبه فى منفاء الأخوان بدرو وجنثا لو. وكان بدرو من حين لآخر يترك طليطلة سرا، ويذهب إلى سمورة، ليلتقى بالملكة **أرّاكه** أخت الملكين، فيخطط معها لعودة ألفونسو إلى عرشه فى مدينة ليون وكان **بدرو** لفترة من حياته العشيق الرسمى للملكة **أراكه**، رغم أنها كانت متزوجة.

وتطلق الملحمة على **جنثالو أنسوريث**، اسما آخر هو **جنثالبو** Gonzalvoأو **الكونت جنثالبو**، وهو والد أميرى كاريون **دييجو وفرناندو**، اللذين سيتزوجان بنتى السِّيد، الزواج الأول. وكانت الأسرة تتمتع بشهرة واسعة لأنها تنتمى إلى **جومث ديات**، وكان صهر كونت قشتالة الشهير **فرنان جنثالث**، وقائده وأصبح يطلق عليهم منذ القرن العاشر اسم **بنى جومث Vanigomez ، وفى الإسبانية الحديثة Bani gomez، وبه شهروا فى** المصادر العربية، وأصبح **بدرو** منذ عام **١٠٩٥** يحكم بلد الوليد، ومنطقة واسعة تمتد بين نهرى إسلا وبِسْورجا، وتشمل مدن كاريون، وسمورة وسلدانيا، وليْبَنَا. وسفر بدرو لألفونسو، فكان سفيره إلى **عبد الله بن بلقين** ملك غرناطة لكى يقبض منه الجزية، فرفض ملك غرناطة أن يدفع له شيئاً، ولكى

يعاقبه بدرو على رفضه، خرج مع رجاله وجيش **المعتمد بن عباد** ملك إشبيلية، وخربوا أراضى مملكة غرناطة.

وأميرا «كاريون» فى الملحمة هما ابنا **الكونت جنثالو** وتم زواجهما من بنتى **السيد** بإشارة من الملك **ألفونسو**، وهما شخصيتان تاريخيتان، ويظهر اسماهما فى الوثائق الملكية لقشتالة فى أعوام ١٠٩٠-١١٠٩، مع لقب ابنى الكونت، ومن حاشية الملك، غير أن الوثائق التاريخية لا تشير قط إلى قصة زواجهما، وزواج بنتى السِّيد من أمير نبّرة وكونت برشلونة ثابت تاريخيا، لكن هذا لا يعنى أن الزواج الأول لم يحدث، وكل ما هنالك أنه كان مخالفاً لقوانين الكنيسة، وكانت رقابتها على ما يكتب عنيفة فلم تسمح بتسجيله. وكان من الشائع فى العصور الوسطى، داخل العالم الكاثوليكى، أن يتم الزواج الثانى، دون حاجة إلى طلاق ترفض الكنيسة فى إصرار وعناد أن تقره أو توافق عليه، والمتصوَّر هنا أنَّ بنتى السِّيد تزوجنا من أميرى كاريون ثم فشل الزواج، فكان زواجهما الثانى برغم أن الزوجين الأولين أحياء، ولعل طلاقا وقع على سنن المسلمين وتأثرا بهم، ذلك أن الملحمة، فى معظمها، تدور أحداثها حول هذا الزواج وليس حول السِّيد وفتوحاته، فمن الصعب تصوّر أن القصة كلها خيال من صنع الشاعر، فى ملحمة خطوطها الرئيسية أحداث تاريخية، أكدتها الوثائق والمدوّنات. ولعل الزواج تم فى مرحلة كان والد الأميرين صديقا للسِّيد، ففى عام ١٠٧٤ نجد توقيع الكونت **جنثالو** شاهدا على عقد زواج السيد من **دونيا خمينا**.

بقى أن نشير إلى أن الشاعر الذى صاغ الملحمة قشتالى أصلا، فعواطفه مع الملك **ألفونسو**، وهواه مع **السِّيد**، ومن ثم فهو ينظر بعين العداء إلى نبلاء ليؤن، وكانوا فى الحزب المناهض للسيد، أما بعد أن زالت العداوة، واتحدت

المملكتان، قشتالة وليون، تحت عرش واحد، فقد أصبح اسم **بدرو أنسوريث** موقرّا، واختفى كعدو للسيد، فيما أدخل على الملحمة من إصلاح، بل إنه مُحِىَ تماماً من الأصل الذى نسخ منه الملحمة **بدرو أباد**، المخطوطة الوحيدة التى وصلتنا شعراً، أما اسم **جنثالو أنسوريث**، وكان مجهولا من الشعراء، فبقى كما هو، ولم يحتج بالتالى إلى إصلاح.

● **الكونت غرسية أوردونييث** Garcia Ordonez، نجده فى الوثائق حاكما لمدينة نجرة منذ عام ١٠٧٧ م، وعلى مدينة جرانيون فى مقاطعة ريوخا منذ عام ١٠٩٤م، ويرد فى الوثائق تحت اسم دون غرسية جرانيون ويُذكر فى المصادر العربية مصحوباً بلقب «صاحب الفم الأعوج». وبدأ حياته صديقا للسيد، وكان شاهد زواجه من **دونيا خمينا** عام ١٠٧٤، وبدأت العداوة بينهما، فيما يبدو، منذ التقيا مختلفين فى معركة قريباً من قرطبة، عند حصن قبرة. وكان **السِّيد** فى جانب **المعتمد**، والكونت **غرسية** فى جانب **المظفر** ملك غرناطة، وانتصر فيها السِّيد، وأسر الكونت غرسية وسجنه، ثم أطلق سراحه فيما بعد؛ وأصبح يطلق عليه سخرية كونت قبرة. ولعب دورا هاماً فى بلاط **ألفونسو السادس** ضد السيد، وهو دور تشير إليه الملحمة، وغير موثق تاريخيًّا؛ إلا أن مثل هذا النشاط من الدسّ لا يدخل فى نطاق التسجيل، ويمكن أن يتصور من الأحداث نفسها، فقد ظل غرسية لا ينسى للسيد أبداً أنه انتصر عليه، وأهانه وسجنه، وكان يتمتع بنفوذ كبير، وموطن ثقة الملك، فعهد إليه بتربية ولى العهد، وكان يقول عنه : «مجد مملكتنا العظمى»، وقد تحدّاه السيد للمرة الثانية، فهاجم مقاطعة ريوخا عام ١٠٩٢، وكانت تحت حكم الكونت غرسية. وشارك الكونت غرسية إلى جانب المسلمين فى الحرب التى وقعت بين **المستعين** صاحب سرقسطة وبين **شانجه راميريث** ملك

ارجون، حين حاول هذا الأخير أن يستولى على مدينة وشقة، ثانية مدن مملكة سرقسطة، فضرب الحصار حولها، ولم يستطع المستعين أن يواجهه منفرداً فاستصرخ **ابن تاشفين** أمير المرابطين، فأمدّه بجيش يتألف من ألف فارس، وستة آلاف راجل، وطلب عون **ألفونسو** ملك قشتالة، فأمدّه بفرقة من الجند يقودها غرسية أوردونييث، وخلال الحصار توفى الملك **شانجه،** وتولى الملك بعده ابنه **بدرو،** فلم يقنع بالحصار، وآثر النزال، فسار فى قواته لملاقاة المسلمين، ونشبت بين الفريقين معركة عنيفة فى « الكرازة » الواقعة قرب وشقة، استمرت طوال يوم كامل، وبلغت خسائر الفريقين قدراً كبيراً، وهزم المسلمون أخيراً، بعد أن فقدوا هم وحلفاؤهم اثنى عشر ألف قتيل، أو نحوها. وكان بين القتلى **غرسية أوزدونييث** قائد الجنود القشتاليين. وتحدد المصادر المسيحية يوم ١٨ من نوفمبر عام ١٠٩٦ تاريخاً لهذه المعركة.

● **مَرتْين مونيوث** Martin Munoz، كان فارساً وحكم مدينة منت ميور، وتقع الآن فى البرتغال، وحمل لقب وزير alguacil، ثم عينه **ألفونسو السادس** كونت لمدينة قلمرية، وهى فى البرتغال أيضا، وظل فى وظيفته هذه من عام ١٠٩١ إلى عام ١٠٩٤، حيث خلفه فى منصبه الكونت **دون رامون،** كونت جليقية وصهر الملك، وربما تم إقصاؤه من منصبه فى ظروف غير ودية، لأن اسمه سيختفى بعد ذلك من الوثائق الملكية، وكل ما نعرف عنه بعد ذلك أنه فى نفس العام الذى عُزل فيه ذهب لينضم إلى السِّيد فى بلنسية، غاضباً من الملك لإقصائه عن منصبه، وليس من السهل تصور أنه صحب السيد طوال أيامه، أو أنه كان معه عندما نفاه الملك. وسوف يظهر اسمه مرة أخرى، عام ١١١١م، عندما رحل من أرجون إلى قشتالة، لكى يحارب الملكة **أرَاكة،** أرملة الكونت **دون رامون،** لصالح **ألفونسو الأول** ملك أرجون.

● **دون إنريك Enrique، ودون رايموندو Raimundo**، وينحدران من أصول فرنسية، وينسبان إلى بورجونيا Borgona، وجرت عادة الفرسان الأمراء من جنوب فرنسا أن يهبطوا الأندلس المسيحى بحثا عن زوجات أميرات، يصبحون معهن ملوك المستقبل، أو فى الأقل من كبار الأغنياء. وهما ابنا عم، وتزوجا من بنتى **ألفونسو السادس**، أولهما، **إنريك**، تزوج من **تيريزا**، ابنة غير شرعية للملك من عشيقته **خمينا**، وتزوج الثانى، **رايموندو**، من الأميرة **أراكة**. وقد أصبحا بعد الزواج من الشخصيات الرئيسية فى بلاط ملك قشتالة، وما لبث ألفونسو أن تنازل لرايموندو عن الأراضى البرتغالية ليحكمها، وتكون لخلفه من بعده، فى نطاق التبعية لملك قشتالة، وأخذت المنطقة التى يحكمها تتسع، فضم إليها جليقية، وسمُّورة، وعين رايمواندو ابن عمه إنريك حاكماً على مقاطعة قلمرية، غير أن أطماع الأميرين كانت كبيرة، فلم يقنعا بهذه المنطقة، كانا يحلمان بأن يخلفا ألفونسو السادس على كل مملكته الواسعة، وفعلا كان من المقرر أن يكون رايموندو وارثا للعرش، فلما رزق ألفونسو بابنه شانجه، من الأميرة **سيِّدة**[١]، أبعد رايموندو، لأنه كان يضيق بزهوه، ولا يرتاح إليه. ثم توالت الحوادث، وكانت أكبر منهما، فلم يعد يحسّ بهما أحد، غير أن حكمهما لمنطقة البرتغال، كان اللبنة الأولى فى انفصال هذا الجانب من الأندلس المسيحى، ليصبح فيما بعد دولة مستقلة تحمل اسم البرتغال.

---

(١) انظر صفحة ١٥١ من هذا الكتاب. والإشارة الوحيدة فى المصادر العربية لهذه القصة، وردت فى مصدرين فقط فيما أعلم : البيان المغرب لابن عذارى، جـ ٤ ص ٥٠، وفتوى لأبى العباس أحمد بن يحيى الونشريشى من علماء القرنين الخامس عشر والسادس عشر، وكلاهما لم يذكر اسمها، ولكنه ورد فى المدونات الأسبانية على الصورة التالية Zaida، ودرج المؤرخون العرب، متابعة للأستاذ محمد عبد الله عنان، فى رسمه بالعربية (زايدة)، وفى ضوء دراستى له، وفى ضوء الصوتيات الإسبانية أعتقد أنه (سيدة).

● **الكونت دون فرويلا دياث** Don Fruela Diaz، وهو شقيق **دونيا خمينا** زوج السِّيد، وكونت ليون وأشتورياش ورئيس التشريفات فى بلاط **ريموندو** صاحب جيلقية والبرتغال، وقد عرضنا له فيما قبل، فهو من الشخصيات التى ترد فى الملحمة، ولا نعرف شيئاً عن دون فرويلا هذا، أكثر من هذه الإشارة العابرة.

● **ألبار ألبارث** Alvar **وألبار سلبادورث** Alvar Salvadorez، وهما من أتباع السِّيد، ونجد اسميهما فى الوثائق الخاصة بزواجه من **دونيا خيمينا**، والأول طبقاً للوثائق وللملحمة كان ابن أخ له. وتذكر الملحمة ابن أخ ثانياً له هو **بير، أو بدور، برمودث** Per vermudéz، وكان حامل علمه، وهو شخصية حقيقية، فقد اضطلع بمهمات فى بلاط الملك **شانجه الثانى**، ويظهر أيضاً فى الوثائق الخاصة بالملك **ألفونسو السادس**، المتصلة بأعوام **١٠٦٩** -١٠٨٥م. وهناك **مونيو جوستيوث** Muno Gustioz، ورباه السيد، فأخلص له وظل طوال حياته من أتباعه الأوفياء، ويبدو فى الوثائق كما لو كان من أقارب دونيا خمينا زوج السِّيد، فقد ظل مرافقاً لها بعد ترمّلها، وبعد أن تخلت عن بلنسية. والتجأت إلى قشتالة، وحتى وفاتها فى عام ١١١٣م. ثم **ألبار دياث** Alvar Diaz، ويظهر فى وثائق البلاط القشتالى الخاصة بأعوام ١٠٦٨ إلى ١١١١م، وفى مرات كثيرة يأتى اسمه باعتباره حاكماً لمدينة أكا Oca، مدينة قديمة، كانت تقع قريباً من برغش.

وتبق بعد ذلك شخصية **دون خيرونيمو** Don Geronimo، مطران بلنسية وهو شخصية تاريخية حقيقية، راهب فرنسى الأصل، وكان مغامرا تملأ رأسه الأفكار الصليبية، وذهب إلى بلنسية قبل موت السيد بعامين، أى فى سنة ١٠٩٧، ليفيد من جاه السيد، وليقوى عنده الاتجاه المسيحى، وكان يشارك فى

القتال إلى جانبه، ويطلب أن تكون الضربة الأولى له، وهو إلى جانب ذلك، تاريخياً وفى الملحمة، ذو ثقافة واسعة، وميل أدبى ظاهر. ولعب دوراً بارزاً فى تحويل مساجد بلنسية إلى كنائس، ولم تضع جهوده عبثاً، فقد منحه السيد ضيعة واسعة فى جبالة، إحدى ضواحى بلنسية.

ولدينا ثلاث شخصيات أخرى هى : **فيلث مونيوث** Félez Munoz، ابن أخ السيد، و **مرتين أنتُلنيث** Martin Antolinez ، البرغشى الوفى، و **جليندو غرسية** Galindo Garcia ، الأرجونى الجرىء، ولا تظهر أسماؤهم فى أية وثائق تاريخية ربما لأنهم من غمار الناس، أو لأن أسماءهم شابها تحريف فى ألسنة العامة، ثم جاء الشاعر فالتقطها منهم كما هى.

ثم **يوسف بن تاشفين** أمير المرابطين، وقد حكم من ١٠٦١ إلى ١١٠٦م، وأظنه فى غير حاجة إلى فضل بيان، يكفى أن نذكر أنه كان على رأس حركة إسلامية إصلاحية، تأسست فى القرن الحادى عشر الميلادى، على يد رجل مسلم تقى يدعى **عبد الله بن ياسين**، يقيم فى رباط من جزيرة تقع فى منتحى نهر النيجر، على مقربة من مدينة تنبكتو، وموقعها فى مالى الآن، وكان أعضاء الجماعة فى البداية غالبا من « لمتونة »، وهى فرع من قبيلة « صنهاجة » البربرية، ويعيش أعضاؤها عيشة البدو فى الفلوات الواسعة من الصحارى التى حولهم، ويغطون وجوههم بألثمة تحت العيون، كما تفعل سلالتهم من « الطوارق » فى الجزائر حتى اليوم، ومن ثم كانوا يُسمون بالملثمين أحياناً، وأخذوا على عاتقهم نشر الإسلام فى القبائل التى حولهم، وكُللت جهودهم بالتوفيق، فما هى إلا سنوات حتى أصبحوا سادة الشمال الغربى لأفريقية، ثم سادة الأندلس فى آخر الأمر. وفى عام ١٠٦٢ أسس **يوسف ابن تاشفين** مدينة مراكش، وقد أصبحت عاصمته وعاصمة أخلافه من بعده. وقد ارتبط

تاريخه، وتاريخ المرابطين أيضاً، بالأندلس منذ موقعة الزلاقة فى **٢٣** من أكتوبر عام ١٠٨٦، حين استغاث به ملوك الطوائف المسلمون، فاستجاب لصريخهم، وأنقذهم من مخالب أعدائهم، ولكنه رأى أخيراً أنهم ليسوا على مستوى الأحداث التى حولهم، فأزالهم عن عروشهم، وضم الأندلس إلى إمبراطوريته، واتخذ من إشبيلية عاصمة له فى شبه الجزيرة، وبقى الأندلس فى حوزة المرابطين، وأمضى هؤلاء أيامهم به فى صراع لا يهدأ مع ملوكه المسيحيين، إلى أن سقطت الدولة المرابطية فى المغرب والأندلس بقيام دولة الموحدين.

الشخصية الإسلامية الثانية التى ترد فى الملحمة، ترسمها المخطوطة فى هذه الصورة اللاتينية Bucar ، وأرى أن المقصود به هو **أبو بكر سير بن تاشفين،** فقد كان فى الأندلس، ومعاصراً للسِّيد، وقاد الجيوش الإسلامية لحصار بلنسية. ويرى **منندث بيدال** أن دون ذلك صعوبات لغوية كبيرة، يستحيل معها الاعتقاد بأن Bucar هى تطور لكلمة : أبو بكر. وأرى أنه ليس من الضرورى أن يكون نطق اسم أبو بكر بين المسيحيين هو على النحو الذى ورد مكتوباً به فى مخطوطة الملحمة الوحيدة Bucar ، فنجرى عليه قواعد علم اللغة، وقوانين التطور الصوتى، والأقرب إلى التصور أن يكون الناسخ، أو الشاعر، كتبه بطريقة عشوائية لا تصور نطقه بدقة، وإنما لمجرد تذكره فحسب، ومن ثم كان ينطقه بطريقة لا تمثل الصورة التى كتب فيها، ومثل هذه الهفوات فى كتابة الأسماء العربية بحروف أجنبية، كانت شائعة فى تلك الأيام، ولا تزال حتى أيامنا هذه، ونفس الصعوبة نعانيها فى العربية حين نرسم الأسماء الأجنبية بحروف عربية.

والشخصية الثالثة، **تميم** ملك بلنسية، ويراه **بيدال** - ودائماً بيدال فيما يتصل بأية دراسة عن السيد - شخصية أسطورية، ولست أدرى كيف وقع

العالم الإسبانى الكبير فى هذا الوهم، صحيح أن تميماً لم يصبح ملكاً لبلنسية أبداً، ولكن كلمة ملك لم تكن تعنى حينذاك ما نعنيه منها الآن، وإنما مجرد لقب اجتماعى رفيع، يطلق على أى حاكم قوى أو أمير شهير، **وتميم بن يوسف ابن تاشفين**، وكنيته **أبو الطاهر**، كان قائد الجيش المرابطى الذى التق بجيوش قشتالة فى موقعة أقليش عام ١١٠٨م، وهى الموقعة التى واجهت فيها الجيوش القشتالية هزيمة ساحقة، وفيها قتل **شانجه** الابن الوحيد لألفونسو السادس، وقُتل معه مؤدبه الكونت **غرسية أوردونييث**، عدو السيد اللدود، وقد بقى **تميم** فى الأندلس، بعد وفاة والده، قائداً لجيوش المرابطين، على حين تولى أخوه **علىّ** إمارة المسلمين، وكان يسيّر شئون الأندلس فى ذكاء ومقدرة وحنكة وتوفى فى عام ٥٢٠هـ = ١١٢٦م.

وتبقى ثلاث شخصيات إسلامية آخرى ضائعة فى ضباب التاريخ، وعبثاً حاولت فى المصادر العربية، وما بين يدى من المصادر الإسبانية أن أمسك لها بخيط. أولهم **ابن غلبون** Abengalvon ، حاكم مدينة مولينا Molina ، مدينة إسلامية تقع قريباً من حدود قشتالة، ومن مدينة سالم، حيث أنشدت الملحمة، وهو معروف للشاعر تماماً، وهو صديق حميم للسِّيد، ومحب للسلام، ومهذب للغاية وجواد كريم. ثم **غالب** Galib **والحارث** Faris، وتعرض لهما الملحمة فى مقام النزال مع جيوش السيد.

وأخيراً **راكيل** Raquel **وفيداس** Vidas ، وهما يهوديان يعملان فى الصيرفة، والإقراض بالربا والرهونات، فى مدينة برغش، كبرى مدن قشتالة، وبديهى أن التاريخ، وبخاصة فى العصر الوسيط، لم يكن يقف عند مثل هذه الشخصيات البعيدة عن مواطن الحرب والنزال، رغم أهمية الدور الذى تلعبه فى توجيه الأحداث.

الملحمة والنقد

استمد الشاعر أحداث ملحمته من الروايات الشفوية، للأحداث التاريخية، كما كان يتداولها سكان مدينة سالم وما حولها، وسرعان ما وجدت طريقها للانتشار خارج النطاق المحلى للمدينة، فأصبحت تنشد فى مقاطعات أخرى، ثم ألهمت الشعراء الجوالين الذين جاءوا بعد شاعرها، احتذوا أثره، ونقلوا بعض أحداثه، وحتى وقعوا فيما وقع فيه من أخطاء.

كانت الملحمة شائعة فى الأندلس، وليس من الضرورى أن يكون ذلك الشيوع دواماً فى النص الوحيد الذى وصلنا، وإنما فى صورة أخرى دخلها كثير من التعديل والنقص، وربما الزيادة أيضاً. وناسخ المخطوطة الوحيدة التى لدينا، وقد كُتبت فى القرن الرابع عشر الميلادى، و « مدونة العشرين ملكا » وقد أوردت نص الملحمة نثراً، وكتبت فى نفس القرن، استخدما النص الأقل انتشاراً وشيوعاً فى عصرهما، توقيراً للقديم وحبا فيه، ومعارضة للأغلبية وخروجاً عليها. ذلك أن « المدونة العامة » وقد كُتبت قريباً من عام ١٢٨٩م، أوردت الملحمة كلها منثورة، ولكن فى صورة مغايرة. وبمقارنتها بالنص الشعرى الوحيد، نلاحظ أنها تعرضت لتغيير محدود فى القسم الأول منها، ثم لتغيير واضح وشامل ابتداء من الحديث عن فتح بلنسية، واستهدف الصقل الجديد لها، أن يستدرك ما نسيه الشاعر الأصلى، وأن يجعل من الحبكة أشد تعقيداً، وأن يمد فى أحداثها وأن يعطى الرواية شكلا أكثر فروسية من شكلها البطولى الساذج الذى كُتبت فيه. فإذا تجاوزنا القرن الثالث عشر، إلى نهاية النصف الأول من القرن الرابع عشر حين كتبت « مدونة السِّيد » وأوردت نص الملحمة

للمرة الثانية، ومنثوراً أيضاً، نجد التعديل أكثر وضوحاً وأوسع شمولا، فامتد إلى بدء الملحمة، وبقى فيما سبق سليما، أو يكاد، وفيها نلتقى بشخصيات جديدة لم تكن معروفة لنا من قبل.

من خلال هذا الصقل المستمر امتدت حياة الملحمة عبر القرون، وهى فى كل قرن، وبين كل جماعة، تلتقط أذواق السامعين وتتواءم معها، حتى إذا وصلنا إلى القرن الخامس عشر، تفرعت عنها أغان شعبية رومانثية، تتضمن بعض أبيات الملحمة، ولكنها تكسوها ثوباً جديداً من شعر طريف، وبعض هذه الأشعار مازال يتردد صداه حتى اليوم فى إسبانيا والبرتغال وشمال المغرب، عند من استقروا هناك، واتخذوا الإسبانية لساناً.

وبعد القرن الخامس عشر أنهك **فيليب الثانى** إسبانيا فى حرب دينية لا تنتهى، وشُغل عامة الناس بأمجاد فريدة، تتمثل فى اكتشاف إسبانيا لقارة كاملة، ولأول مرة فى التاريخ، ثم غزوها واستعمارها، وبنهضة أدبية رفيعة، لفترة دخلت تاريخ الأدب تحت اسم «العصر الذهبى»، فقد كان بعض أعلامه قمماً إنسانية خالدة، يكفى أن يرد فى خاطر المرء **سرفانتيس** مؤلف «دون كيخوته»، فى الرواية، و **كالديرون** و **لوبى دى فيجا** فى المسرح، فلم يعد المثقفون، إلا قلة عالمة، يذكرون شيئاً عن ملحمة السِّيد، وعندما طُبعت لأول مرة عام ١٧٧٩، لم يعرها أحد كبير التفات، لأن الحياة الإسبانية يومها، كانت فى جوانبها المختلفة، سياسية أو ثقافية أو اجتماعية أو أدبية، ذات طابع فرنسى خالص، أو كما يقول أحد كتاب ذلك العصر: «كان الناس يومها يأكلون ويشربون ويلبسون ويتحدثون على نحو فرنسى». لكن من الحق أيضا أن أدب العصور الوسطى كان مجهولا لدى أوربا كلها، إن ألمانيا لم تعرف ملحمتها الشعبية Nibelungos إلا بعد تاريخ نشر ملحمة السِّد بأربعين عاما، واحتاجت

فرنسا إلى ستين عاما لكى تعرف ملحمتها « رولان ».

وبينما كانت الملحمة تحظى بتقدير متواضع للغاية فى إسبانيا نفسها، جاءت الرومانسية الوليدة فى الخارج، وكانت تتعاطف مع العصور الوسطى، فألقت عليها مزيداً من الضوء، وشدّت إليها انتباه المثقفين. ففى عام ١٨٠٨ قال عنها الشاعر الاسكتلندى **روبيرتو سوثى** Rodberto Southey (١٧٧٤- ١٨٤٣)، وعكف طويلا على دراستها، وفك صعوبات نصها : « إن ملحمة السِّيد أجمل قصيدة كُتبتْ فى اللغة الإسبانية »، وعاد فى عام ١٨١٣، « فنعى على الإسبانيين أنهم لا يعرفون قيمتها الممتازة، وتضم تاريخ السِّيد شعراً، وما داموا لا يمزقون حجب الذوق الزائف الذى يحول بينهم وبين معرفتها، فلن يستطيعوا أبداً أن يبدعوا شيئا عظيما يدخل دائرة الفن الرفيع. ويمكن القول أنه بين كل الملاحم التى أُلّفت بعد الإلياذة، فإن ملحمة السِّيد أشدها هومرية فى روحها، ولو أن اللغة فى شبه الجزيرة فى ذلك العصر، كانت ريفية وفى طور التكوين ».

ودرس المؤرخ الأمريكى **جورج تكنور** Jorge Ticknor (١٧٩١- ١٨٧١) **الملحمة، فى كتابه «تاريخ الأدب الإسبانى»، ونشره عام ١٨٤٩، وكان تعليقه** عليها : « يمكن التأكيد بأنه خلال القرون العشرة الماضية، منذ انهيار الحضارة الإغريقية والرومانية، حتى ظهور الكوميديا الإلهية لدانتى، فإن أى بلد لم يبدع قصيدة من الشعر أشد أصالة فى شكلها، وتنضح واقعية وقوة وحيوية، مثل ملحمة السِّيد » بقى أن نشير إلى أن الشاعر الإنجليزى لم يعرف ملحمة « رولان » الفرنسية على وجه التأكيد، ويُشك فى أن المؤرخ الأمريكى عرفها، لأنها نشرت لأول مرة عام ١٨٣٧ ولو عرفاها لربما استأنيا فى أحكامهما قليلا، وتخفّفا من التعميم شيئا. وانفتح أمامهما باب المقارنة عريضا واسعاً.

أما العالم الألمانى **فرناندو فولف** Fernando woif (١٧٩٦ - ١٨٠٦).
وكان متخصصا فى اللغات الرومانية بعامة، وفى الأدب الإسبانى بخاصة، فقد ركّز على الوحدة التى تربط بين أجزاء الملحمة الثلاثة، والتقائها فى إطار فنى واحد رسمه الشاعر. «ويتمثل جمالها فى أنها ليست عملا تجريديا أو فكريا خالصا، وإنما التقاط عفوى للواقع، ومن ثَم فهى أكثر إخلاصا وأشد تلقائية، وعَرْض الفن عاريا يدفع إلى أعماقنا بالحقيقة صافية، وبالواقع كاملا، ونحن نستنشق أحداثها بسيطة وساذجة ونفَّاذة. والتكرار المستمر للكلمات والجمل، للتعبير عن نفس الأفكار والظروف، واستخدام ذات الأوصاف، يذكرنا بالملاحم الإغريقية».

وحاول **دَما إنار** Damas Hinard الفرنسىّ أن يحكم على الملحمة من خلال عصرها، واتخذ ملحمة «رولان» الفرنسية قاعدة للمقارنة، وكانت طبعتّها الثانية قد صدرت خلال أعوام قليلة من طبعتها الأولى، وأصبحت مع الزمن نموذجا شهيرا، وانتهى إلى أن شاعر «رولان» أوسع ثقافة من السِّيد، ويعرف من العصر الكلاسيكى القديم الشىء الكثير، مما كان معروفا على أيامه، وجاءت ملحمته وليدة فكر صائب، واتسمت بالوحدة والبساطة فكانت بشيراً بالكلاسيكية الفرنسية للقرن السابع عشر، لكن تنقصه صفات الشاعر العظمى، والإحساس بالحياة الإنسانية، والقدرة على التعبير عنها. وجغرافية الملحمة رائعة، وشخصياتها غالبا متخيلة، أو تنتمى إلى عالم الأساطير، رءوسهم ضخمة، وأعمالهم تدخل فى دائرة المستحيل. فقرع الطبول فى ملحمة «رولان» يسمع على بعد ثلاثين ميلا، والبطل «توربين» وأربعة سهام فى بدنه، أو «رولان» ورأسه مقطوع، يتحرك ويقاتل كقديس والجيوش ضخمة، ٣٦٠ ألف مقاتل، و٤٥٠ ألف فارس، وخمسة فرنسيين قتلوا أربعة آلاف

مسلم، وفقدان الواقعية يبدو حتى فى العرض.

وعلى العكس من ذلك، شاعر السِّيد لا يحب أن يسرف فى الخيال، وإنما يستخدمه ليضع أمام أعيننا الحقيقة فحسب، وهو لا يقدِّم لنا لوحة لإسبانيا فى القرن الحادى عشر، وإنّما ينقلنا نحن إلى نفس القرن، ويجعلنا نشاهد الأحداث بأنفسنا. والشخيصات مرسومة بالألوان المناسبة، ونغم الحكاية ولونها يأخذ شكلا مناسباً مع كل حدث، فإذا عرض قصة رهن صندوق الرمل لليهوديين، أو أسْر كونت برشلونة، أو مبارزة «كوربس» أو اجتماع بلاط طليطلة، تحسٌ أنك فى حضرة قصاص ممتاز من القصاص المحدثين، قصاص من طراز ولتر سكوت مثلا.

ولكن كاتبا بلجيكيا من القرن التاسع عشر هو **ل. دى مونج** L. de Monge يرى أن مؤلف ملحمة «رولان» همجى موهوب الذكاء، ينضح بجهل عظيم، بينما شاعر السيد روح مثقف، يتابع من فوق واقع عصره مثلا أكثر سموا، ويدفع كل شيء بذكاء نادر إلى الهدف الذى ارتآه. فى «رولان» نصطدم بقسوة التقاليد، والوحشية، والتعصب، وفى السيد نجد الإنسان، والإحسان، والطلاوة، وباختصار فإن ملحمة السيد قد تكون أقل عظمة من ملحمة «رولان» ولكنها أقل همجية، وأكثر واقعية، وأشد حيوية، وأعمق إنسانية، وذات مشاعر تنساب مباشرة، وسريعا، إلى قلوب كل الرجال، فى كل الأوقات.

أما فى النقد الإسبانى فلا نجد إلاّ صدى خافتاً لإعجاب **سونى** الرومانسى، ودراسة **فولف** المتعمقة، إلى أن يأتى العالم اللغوى **ميلا إى فُنْتنالس** Mila y Hontanals (١٨١٨-١٨٨٤م) فيملأ هذا الفراغ ويعرّف أوربا فى عام ١٨٧٤، ولأول مرة، بمكان الملحمة الحقيقى، بين مجموع الأدب

الملحمى القشتالى، وكان من قبل مجهولاً. وإلى جانب ذلك قدّم لنا تقويماً فنياً للملحمة، ممتازاً ومنصفاً. فرواية الشاعر ذكية، ودون أن يبتعد كثيراً عن الهدوء الجاد، نراه فى المواقف العائلية، ليّن الأسلوب رقيق المشاعر. وحين يعرض لقصة صندوقى الرمل أو الأسد نلقاه ساخراً صاحكا، وفى مأساة «كوربس» حزينا مهتما، ثم يقطع الرواية بعنف بالغ لحظة انتهائه من تتبع سير القتال.

والخصائص الجسمية والخلقية لشخصيات الملحمة تبدو مرسومة بوضوح وفى دقة، وهذه الميزات، رغم لغتها الجافية وغير المنتظمة، وأن الشعر خشن وغير مكتمل، ورغم غياب الجاذبية وضحالة ينابيع الفن، تسمح لنا بأن نصف ملحمة السيِّد بأنها ملحمة معلِّمة، نتاج عصر همجى وبطولى، خصبة فى صورها الشاعرية، وليست مجردة فى العمق من المشاعر النبيلة، ولو أنها على نحو واضح للغاية بعيدة عن المثل الأعلى للمسيحية، إلا أنها مرآةصادقة لسلسلة من الأحداث والتقاليد، تكمل الوثائق التاريخية، وهى قبل ذلك أثر لا مثيل له فى لغتها الأدبية، وفى تصويرها للإنسان.

وإذا كان **ميلا** قد عرفّ أوربا بالملحمة، فإن تلميذه **مننديث إى بلايو** أشاعها بين الأوساط الأدبية فى إسبانيا، مما جعل الأدباء المحدَثين يقرأون الملحمة ويستلهمونها، ويوجز رأيه : «الأكثر فتنة فى الملحمة، أنها تبدو شعراً يُعاش، وليست كلاما يُنشد، وهى نتاج قوة غامضة تمتزج بالطبيعة نفسها، وسرها يفتقده الرجال المثقفون».

● ● ●

فإذا تركنا النقاد إلى الملحمة نفسها، وجدناها تـراوح بـين القص والحـوار على كثرة فى الأول وقلة فى الثانى، وحين تنتقل إلى الحـوار تفعـل ذلك دون أن تمهدّ له بما يهيء السامع لادراكه، من كلمات : قال أو ردّ أو أجاب أو تحدث، وقلمّا تربط بين الجمل بأدوات العطف اللغوية.

والبطل فيها شخصية مثالية، رقيق مبتسم؛ مقـدام فى الهجـوم، عـاقل فى النصح، مخلص للملك، لا يشهر السلاح فى وجهه حتى ولو تلق منـه الأذى. ويحب زوجته وأبناءه، متسامح مع أتباعه، بل ومع المهزومين أمامه، مستقيم فى آرائه، عارف بالطباع الإنسانية، صاحب سـخرية حقيقيـة، متـدين أحيـاناً، وملحد أحياناً أخرى.

وصورّ الشاعرُ الملك **ألفونسو** على العكس من **السِّيد** البـطل : جعلـه غير ذى رأى، أسير رجال البلاط، يمـلأون سمعـه بآراء سـخيفة، وبـأكاذيب لا تنتهى، وغضبه ضد السِّيد عنيف، وليس له ما يبررّه، وعنـدما نفـاه هـدّد سكان برغش بأقسى العقوبات إن هم آووه أو باعوا له طعاماً، وهمّ بـأن يـردّ السِّيد إلى عفوه ثم تراجع فى رأيه. غير أنه حاول أن يعوضه عن مظالمه بـألوان من الحنان المتوالى، وبدا له السِّيد. بالرغم من غيرة فرسان الملك منـه، كريمـاً فى أعماقه، مخلصاً فى ولائه، مثله لا يختلس شيئاً مـن الغنـائم، وقـد أرسـل ليجبيها.

وإلى جانب شخصية السِّيد وألفونسو، فإن الشخصيات الثانوية فى الملحمة تأتى محددّة الصفات، **فمرتين أنتولينيث** برغشىّ وفّى، **وألبار هانييث** عاقل مخلص، وسفير ثقة، وفارس عملاق، **وبـدرو بـرمودث** شـجاع منـدفع، عريض العمل قليل الكلام، **ومونيو جوستنيوث** ربيب السِّيد، السـاخر من

جبن أميرى « كاريون »، **وألبار سلفادورث** الثقة، والأرجونى **جلين غرسية** النبّال الجرىء، وقاما على حراسة بلنسية عندما تركها السِّيد ليلق الملك، والمطران **دون خرونيمو** رب السيف والقلم وهكذا...

ووسط هؤلاء المحاربين يلفهم صخب المعارك، ويفتقدون هدوء السلام، تظهر **دونيا خمينا** وبنتاها، فتشيع جوًّا من الحنان ولطف الأنوثة، فدونيا خمينا نبيلة وابنة فارس، وزوجة شريفة، تحترم زوجها وتخلص له، رقيقة المشاعر فى الحب وعند الحزن، تجزع من طبول الحرب، وتميد أمام ضجيج المعارك، وبنتاها : إلبيرا وسول بيضاوان كصبح يوم صاف، لم تترك على ملامحهن أيام بُعدهن عن الأب منفيًّا أية سمات قاسية أو حزينة، وبانتقام زوجيهما منهما يصبحان من الشخصيات الرئيسية فى البناء الدرامى للملحمة.

وفى مقابل هذه الشخصيات النبيلة يقدم لنا الشاعر طائفة أخرى من الشخصيات غير راض عنها. فغرسية أوردونييث يغار من السِّيد، ومستشار ردىء للملك ولأسرته، انهارت عظمته منذ أن أسره السِّيد فى « قبرة » وعفا عنه، ومن يومها حمل لقب « كنت قبرة ». وكونت برشلونة جبان مستهتر، وأسور جنثالث طويل اللسان، طفيلى نهم، صديق الموائد الغنية، ومعبود الأطعمة الجيدة. وأميرا « كاريون » دييجو وفرناندو، مصدر كل سوء يُدبر، نهمان إلى ثروة السِّيد، مزهوان بأسرتهما، غير أنهما لا يحترمانها واقعاً، وهما فارسان طيبان، ولكنهما جبانان عند اللقاء، جبانان حتى الرعب كما وقع منهما فى حادث الأسد[١]، ثرثاران، ينتقمان توهما، كما صنعا مع زوجتيهما، جلداهما، وتركاهما عاريتين، نصف ميتتين، انتقاماً من سخرية الحاشية منهما، وملاحقتهما بالنكات، لفرارهما مرعوبين عند انطلاق الأسد من مربضه فى حديقة النصر.

---

(١) انظر القصيدة رقم ١١٢ من النص.

وهناك اليهوديان، **راكيل وفيداس**، وقد فجأهما الشاعر يعدان النقود التى كسباها، لا يثقان فى أحد، ولا يدفعان قبل أن يقبضا، والحياة عندهما أن يربحا شيئاً، يتشاوران فى كل شيء، ويقضيان كل أمر فى السر، فرحين ببريق الثراء المقبل، فالصندوقان اللذان رهنهما السِّيد فيهما كل ثروته، ومن نصيبهما بالتأكيد، فالملك لن يرضى عنه، ولن يعود من المنفى قبل عام، وإذن فكل ما بداخلها من جواهر ومال سيكون من نصيبهما.

والشخصيات الأسطورية والقصصية، وهى قليلة، يأتى بها الشاعر لكى يثبت معها بعض الحقائق فى أعماق مستمعيه، فالملاك جبريل يظهر للسِّيد فى آخر ليلة يمضيها فى قشتالة، قبل أن يضرب فى أرض الأندلس منفيًّا، يقدمها الشاعر دليلا على براءة السِّيد، وأن الله لن يتخلى عنه، ولن يحرمه من رعايته، وهو يحميه ويعده بالنصر ما امتدت به الحياة. ومن يدرى فلعلّ هاجساً حقًّا فاض فى أعماق السيد، وبدا له حلماً عندما أفلت اللاوعى من سيطرة الشعور.

والسِّيد فقير جدًّا، ولكى يواجه مطالب العيش له ولرجاله، يلجأ إلى الحيلة، يملأ بالرمل صندوقين، مزخرفين مذهبين، مغالاة فى الخداع، ويدفع بهما إلى اليهوديين لكى يرهنهما، ويحصل فى مقابلهما على مال، ثم يقارن بين فقره، بطريقة غير مباشرة، وبين نهم اليهوديين.

وتعكس الملحمة بطريقة إنسانية ومثيرة الحياة اليومية، والتقاليد، وأفكار العصر، فى أسلوب أقل لمعاناً، ولكنه أكثر وفاء للواقع، ومع أن الشاعر يلتقط مادته من الروايات والحكايات الشفوية لمدينة سالم لكنه يقدم لنا من خلالها ما يساعد على تصحيح أخبار المدونات، أو يكملها، أو يحدّد مكان الأحداث. وندرك منها أن الثأر فى الواقع، كما هو فى الملحمة، واجب عائلى، تضطلع به

الأسرة كلها، وأن غضب الملك كاف لنفى المرء ومصادرة أمواله دون أدنى محاكمة.

● ● ●

لا نجد فى الملحمة أى صدى للطبقات الاجتماعية، وأحداث الملحمة تجرى بين طبقة النبلاء مولدا أو انتساباً، غير أن هؤلاء النبلاء يتفاوتون درجات داخل الطبقة نفسها. ولكن الشاعر، وهو من الشعب، وإلى عامة الشعب كان يتوجه بإنشاده، معاد لطبقة النبلاء، ومن ثَمّ فهو يقدمها لنا جبانة مخنثة، تعيش حياة طرية وغضة، وهو يحترم الملك، حتى عندما يظلم السِّيد، ويتحدث عنه بوقار، لأنه الدعامة التى يعتمد عليها عامة الشعب، فى مواجهة مظالم الأمراء والفرسان والإقطاعيين. وعواطف الشاعر تتراوح بين السِّيد والملك، ولو أنها إلى الأول أميل، وهو يقدم لنا صورتين لعلاقة السِّيد بالملك : الأولى التابع فى خدمة الملك، والأخرى التابع الثائر عليه، وحياة السِّيد قسمة بينهما، لقد نفاه الملك وصادر أمواله، وقام هو من جانبه بالإغارة على مملكة قشتالة، فنهب ودمّر وخربّ، ولكنه مع ذلك لا يريد الحرب مع الملك، ويرسل له هدية خير ما يصيب من الغنائم.

والأسرة فى الملحمة ذات مدلول واسع، قريبٌ من معنى الأسرة عند عرب الجاهلية، فهى مجموعة كبيرة، وينسب إليها حتى أولئك الذين يربون فيها ولو لم يكونوا منها، وكان رب الأسرة يربى دائماً أكثر أتباعه ولاء، والأسرة متماسكة فيما بينها، وتجمع الأولاد والأحفاد والأعمام والأقارب الأباعد، وكلهم يواجهون متاعب الحياة متضامنين، والإهانة التى تصيب واحدا، تعد كما لو كانت موجهة للجميع، والثأر لها واجب الأسرة كلها. ولا تلعب المرأة دوراً بارزاً فى الأحداث، ولكنها وراء بعضها، ولا تتكلم فيها إلا لكى توقّر زوجها، أو أباها،

أو لتشكر حمايته لها خاشعة، لطيفة حلوة حتى وهى تتقبل قسوته. وليس فى الملحمة أثر لغزَل حسّى أو عُذرى، وليس ثمة فساد ولا تحلل، والسِّيد لا يقتحم معاركه كبقية الفرسان على أيامه، بفكرة أن يُظهر فروسيته وشجاعته لصديقته أو عشيقته، وإنما يفكر دائما فى زوجته العزيزة والشريفة، وفى وجودها يحس بعزيمته تزداد صلابة وقوة.

وتقدم لنا الملحمة تفصيلات عن الحرب ونظمها؛ لا تكتفى بأن تقول: التق الجيشان صفين، وتقدم المبارزون، وإنما تقدم لنا ألوانا منها، كالطليعة والغارة والمعركة الفاصلة، وتصورّ ما يجرى فيها من كر وفرّ، ثم تتابع الغنائم، وهى الهدف من أية معركة، وتقف عند تقسيمها. وهى معرض حافل بألوان الأسلحة التى تستخدم فى القتال، فهناك السيوف القاطعة ذات المقابض الجميلة، والنصال والسهام والحراب، والفئوس القادرة على اختراق الدروع، وقطع الأجسام، وخلع السواعد، والدروع والخوذ، والرايات والأعلام، والخدع الحربية وتضليل العدو، وإرسال العيون، واستخدام الجوع، والحصار الشديد وقطع الماء وإغراق السهول. ويمضى بنا الشاعر عبر الجبال والسهول والوديان والحصون والقلاع، وكلها أمكنة معروفة، ولها من تاريخ الأندلس نصيب.

ثم يحدثنا عن بعض العادات الاجتماعية، ومراسم البلاط، ومظاهر السيادة عند الملك، والتبعية عند الفرسان؛ فتقبيل يد الملك دلالة على التبعية والولاء، والانحناء أمامه مظهر يقتضيه الإجلال والمبالغة فى الإخلاص، وأخيراً فإن السيد يجثو على قدميه ليقبل قدمى الملك، ويلتقط حشائش الأرض بأسنانه، إظهاراً لعودته إلى ساحة الملك تابعاً ورعيّة.

وينسى الشاعر أحياناً، وهو جوال منشد، فيصف الشىء الواحد بوصفين مختلفين فى مكانين، «فكوفية» السِّيد من قماش رقيق escarin، وهى فى مكان

آخر من قماش rancal، ثم يقــول على لســان ألبــار هــانييث للملك، إن السِّيدانتصر فى خمس معارك فاصلة، ولكنه لا يعد منها غير اثنتين. وفى الموقعة التى جرت مع يوسف بن تاشفين، يذكر أن ألبـار سـلفادورث وقـع أسـيراً فى قبضة أمير المرابطين، ثم يعود فيجعله فى صحبة ألبار ألبارث لا يفـارقه، دون أن نعرف كيف تحرر من الأسر. ويجعل السِّيد يبدى إرادته فى أن يرسل خيمـة أمير المرابطين يوسف بن تاشفين، وقد غنمها فيما غنم بعد انتصاره فى المعـركة، هدية إلى ألفونسو السادس ملك قشتالة، ولكنه عند إرسـال الهـدايا وتعـدادها لا يعرض لها. ومن يدرى فربما صححها الشاعر، هـى وغـيرها، فى روايـات أخرى، لأننا نجدها مصححة فى المدونات التى نقلت الملحمة نثرا.

ومعلومات الشاعر المسيحية متواضعة للغاية، ويخـطىء فى أشـياء جـوهرية يعرفها أى مسيحى عادى يتردد على الـكنيسة، دون أن يـكون مثقفـاً، مثــلا يتصور أن كلمتى Calvario و Golgota اسمين لجبلين مختلفـين فى فلسـطين، وأن اليهود أمسكوا بالمسيح على الجبل الأول، وصلبوه على الجبل الثانى. والحق أنهما اسمان لجبل واحد، وكل ما هنالك أن الـكلمة الأولى تـطلق عليـه فى اللغــة اللاتينية بينما الثانية اسمه فى اللغة العبرية، أما الجبـل الـذى أمسـكوا بـالمسيح عنده، فهو جبل الزيتون[١].

وثمة تفصيلات صغيرة يسكت عنها الشاعر، ولا تعد نسـيانا، فقـد وعـد السِّيد بأن يهدى كنيسة بلنسية الطبل الذى فى جيش ابن تاشفين بعـد النصر، ثم لا يذكره بين الهدايا. وخلال رحلة دونيا خمينـا مـن قشـتالة إلى بلنســية، ونزولها ضيفة ومن معها على ابن غلبون حاكم مولينا، بالغ فى إكرامهم، ومـن

(١) انظر القصيدة رقم ١٨.

ثم وعده ألبار هانييث بأن يحدّث السيِّد عما أسداه إليهم من جمائل ومعروف، لكي يكافئه على حسن صنيعه، غير أنه لم يذكر شيئاً عن مكافأة السِّيد له، رغم أنه وصل معهم إلى بلنسية.

ويجعل إساءة أميرى «كاريون» لزوجتيهما، بنتى السِّيد، والانتقام منهما، بعد استيلائه على بلنسية، والحق أن ذلك، إذا جرينا على أن هذا الزواج قد تم فعلا، يجب أن يكون حدث قبل فتح بلنسية.

لا توجد فى الملحمة فكرة وطنية أو قومية، والشاعر يتحدث عن بطل شعبى، يحظى بإعجاب الجميع، أيًّا كانت المقاطعة التى ينشد فيها، وأيًّا كان الجمهور الذى يستمع إليه، ولو أنه كان دائما يراعى أذواق المستمعين، فيوائم بين ما يقول وما يريدون، ولا أظن أن ذلك مما يعاب فيها، فتلك أفكار كانت خارج اهتمامات العصر.

وأخيراً فإن ملحمة السيد، كإبداع أدبى ينتمى إلى العصر الأدبى الأوربى الوسيط، تتميز كأى عمل أدبى آخر بين الشعوب الرومانية، بغياب الشخصية وفقدان التنوع، فكل الشعراء، فى كل البلدان، يدورون حول نفس القضايا، ويُشغلون بنفس الاهتمامات، وأكاد أقول، ويستخدمون نفس الصور والمعانى.

تأثيرات عربية فى الملحمة

هناك ثلاث نظريات حول نشأة الملاحم القشتالية بصفة عامة، بعضهم يردّها إلى التأثير الفرنسى، والفريق الثانى يردّها إلى أصل جرمانى قديم، وأحدث الدراسات وأكثرها موضوعية يردها إلى أصل عربى.

الفريق الأول يأتى على رأسه الشاعر الفنزويلى، والكاتب السياسى **أندريس بيو** Andrés Bello (١٧٨١-١٨٦٥)، والعالم الفرنسى الشهير **جاستون بارى** Gaston Paris((١٨٣٩-١٩٠٣)، وهو حجة فى تاريخ الشعر الفرنسى خلال العصر الوسيط، وتنهض وجهة نظرهما على دعامتين : أن الشكل العروضى فى الملاحم الفرنسية والقشتالية متشابه فى نواح كثيرة، ألوان من التشابة لايمكن أن تجئ صدفة وعفوا. والدعامة الثانية أن الإنتاج الملحمى بدأ فى الأندلس فى الوقت الذى كانت فيه الملاحم الشعبية الفرنسية قد وجدت من زمن طويل، ولم يحدث أن صيغ من أى حادث تاريخى إسبانى ملحمة تُغنَّى، قبل أن تشيع الملاحم الفرنسية فى إسبانيا، قريبا من نهاية القرن الحادى عشر، أو أوائل القرن الثانى عشر.

لم يرتض العالم الإسبانى **مننديث بيدال** وجهة النظر هذه ويرد على الدعامة الأولى منها، بأن عروض الملاحم الإسبانية لا يعرض لنا فى صورة عالية من الإجادة والدقة على النحو الذى كانت عليه الملاحم الفرنسية، ولو كانت الأولى تقليدا للثانية لسارت على هديها فى هذا المجال. لقد مرت الملاحم القشتالية بتطور ذاتى وبطىء قبل أن تبلغ هذا القدر النسبى من الإجادة فى عروضها، وفى حالات كثيرة نجدها تخضع لإضافات لغوية تقتضيها حركة

الروى، وليس لها فى الفرنسية شبيه.

ويرد الدعامة الثانية، بأن الملحمة الفرنسية دخلت إسبانيا فى نهاية القرن الحادى عشر وأثّرت فى ملحمة السِّيد، وأناشيد أخرى تالية ذات صفة ملحمية، ولكن قبل هذا القرن، أى فى القرن العاشر، كانت توجد شواهد ملحمية قشتالية مثل أسطورة الكونت **فرنان جنثالث**، وملحمة «سمورة»، وكلها كُتِبتْ بعد قليل من وقوع الحوادث التى تتغنى بها، وتُعالج فيها الموضوعات بطريقة تغاير ما هو متعود فى الملحمة الفرنسية.

ويتبنى **بيدال** وجهة النظر الثانية، فيرى أن الملحمة الجرمانية هى الأصل لكل من الملاحم الفرنسية والقشتالية، وهى نظرية تجد معارضة شديدة من الدوائر العلمية الفرنسية، لأسباب قومية وشعورية، ويبنى رأيه على أساس أن بعض العادات الجرمانية العنيفة، وغير المتمدينة، وتعيش فى الملاحم التى أنشدت جنوب جبال البرانس وشمالها، وأوضحها الثأر، فلا شيء يغسل الدم فى الملاحم الجرمانية كالدم، والثأر مسئولية جماعية، تنهض به الأسرة كلها، ويتوارث من جيل لآخر، ويرتبط به شرف العائلة، ويمكن أن يؤخذ من المعتدى أو أقرب الناس إليه، وهى تقاليد يجهلها القانون الرومانى، والقانون الإسبانى القوطى، وضد تعاليم الكنيسة. وكذلك بعض تقاليد المجتمع، كنزال الفرسان للوصول إلى الحقيقة، واعتبار المهزوم مخطئا أو خائنا، ودعوة الفرسان للتشاور إزاء القضايا المشتركة، وإعطاء السيوف أسماء خاصة، وعدم التسامح أو العفو فيما يمس الشرف، والصلة بين السِّيد والتابع وما تفرضة من تعاون مستمر، وإجارة المرأة للمستجير شيء مقدس.

وإذا كان رفض الفرنسيين لفكرة التأثير الجرمانى وليد عوامل نفسية

وشعورية وقومية، فرفض فكرة التأثير الفرنسى، والقول بالتأثير الجرمانى وليد عوامل مشابهة لتلك، فالصلات العلمية، من زمن طويل، بين مراكز البحث فى إسبانيا وألمانيا، قوية متينة، والتعاطف بينهما واضح بيِّن، وليست هى كذلك بين الفرنسيين والإسبان. ولم يستطع **بيدال**، وكان فى مجال الدراسات العربية مستطيعا بغيره، لأنه لا يعرف العربية ويعتمد على المترجمات، أن يدرك أنَّ ما جعله سببا جوهريا للقول بالتأثير الجرمانى وهو الثأر ومظاهره عادة عربية متأصّلة، وما تزال بقية من ظواهرها حية حتى اليوم فى البوادى، رغم أن الإسلام يحرّم الثأر، وأن القوانين المدنية تعاقب عليه.

أما النظرية الثالثة والأخيرة، فداعيتها العالم البلنسى الجليل **خوليان ريبيرا**، وتنهض على أن الأندلس عرف بعد الفتح الإسلامى بقليل لونين من الأدب الشعبى، عربى كُتب فى العامية، وإسبانى كُتب فى الرومانثية، متأثرين فيما بينهما ومؤثرين، فى الشكل والمضمون. وإذا كنا نعرف أكيداً أن الزجل ابتدع فى الأندلس، وصيغ فى عربية عامية، أو مزيج منها ومن الرومانثية، قريباً من نهاية القرن التاسع الميلادى، أو أوائل العاشر، فما من سبب يجعلنا نعتقد أن الزجل وقف عند حد الشعر الغنائى، ولم يتجاوزه إلى الشعر الملحمى، لأن الشعوب عندما تُغنى فى بدء حياتها تتغنى بكل شىء، ويأتى التميز بين ما هو غنائى ذاتى، وما هو ملحمى موضوعى، فى مراحل متقدمة من تطورها الفنى.

والحق أننا فى القرن التاسع، والقرن الذى شهد مولد الزجل، نجد إشارات لقصيدتين ذواتى طابع تاريخ، وخصائص قصصية أو ملحمية، إحداهما **للغزال**، يحيى بن الحكم (٧٧٠-٨٦٤ م) من سفراء **عبد الرحمن الثانى**، والثانية **لتميم بن علقمة**، (٨٠١-٨٩٦ م)، وكان وزيراً لثلاثة أمراء أمويين : **محمد والمنذر وعبد الله**. ولسوء الحظ فإن كلتا القصيدتين

ضاعتا، رغم شيوعهما فى العصر الذى قيلتا فيه، وجاءتنا فى وصفها إشارات قصيرة، ولكنها كافية لكى نعرف الآن، فى اطمئنان واثق، شيئاً عن شكلهما الشعرى، ومضمون كلتيهما. **فابن الأبار** فى كتابه «الحلة السيراء» يورد ترجمة مختصرة لتميم يضمنها هذه الفقرة: «وله الأرجوزة المشهورة فى ذكر افتتاح الأندلس وتسمية ولاتها، والخلفاء فيها، ووصف حروبها، من وقت دخول طارق بن زياد مفتتحها إلى آخر أيام الأمير عبد الرحمن بن الحكم». ولمزيد من توثيق الخبر نذكر أن **ابن القوطية** المؤرخ، وعاش فى الجيل التالى مباشرة لجيل تميم، فقد توفى عام ٩٧٧م أشار إليها فى كتابه «تاريخ افتتاح الأندلس» ولكنه لم يورد منها بيتاً واحداً.

أما **يحيى الغزال** فالأخبار عن ملحمته أوفى تفصيلا، تقول الرواية إنه كان عائداً من سفارة فى بلاد النورمانديين، أى الدنمرك والنرويج فى عصرنا الحاضر، فاضطر إلى البقاء فى مدينة شنت ياقب Santiago de Compostela، وتقع فى أقصى الشمال الغربى من إسبانيا، وخضعت فترات قصيرة ومتقطعة للحكم الإسلامى، ويمكن القول بإن أحداً من المسلمين الوافدين لم يتخذها سكناً دائماً، لبردها القاسى، وأمطارها الغزيرة، وثلوجها الدائمة، وانطلاقاً من هذه الحقيقة لا نشك فى أن الرومانثية كانت لغة الحياة فيها لكل القاطنين، حتى ولو وُجد بينهم بعض المسلمين. والأرجح أن يحيى كان يجيد هذه اللغة إلى جانب لغات أخرى، ومع هؤلاء القوم، وبعيداً عن شواغل الحياة، عكف على نظم أرجوزته عن فتح الأندلس، ويقول عنها المؤرخ **ابن حيان** (٩٧٨-١٠٧٠ م)، وعرفها جيداً، إنها صيغت فى بحر الرجز، جميلة وعظيمة، تعرض لأسباب الفتح، وتقص وقائع الحرب وتصف المعارك التى حدثت بين المسلمين الفاتحين والقوط الحاكمين، وتذكر أمراء الأندلس بأسمائهم، وكُتبت فى لغة

رقيقة، معتنى بها، وكانت متداولة بين أيدى الكثيرين.

كانت هذه القصائد إذن قصصية ومطولة، وذات مضمون تاريخى أو حربى، وتتخللها حكايات شعبية، وروايات شفوية مسيحية، فقد كان **الغزال** طبقاً للإشارات التاريخية، ينحدر من أصول مسيحية أندلسية، **وتميم** ولو أنه ينتمى إلى أسرة عربية، كان متزوجًا من مسيحية ذات أصل نبيل، ابنة كونت أندلسى، أى أنه فى بيته، مع سكنه، كان يتحدث اللغة الرومانثية، ويعرف شيئاً من أقاصيص أهلها وحكاياتهم، فليست هناك زوجة تسمع دائماً، إنها مع زوجها تتكلم أكثر مما تسمع. ولم يكن الغزال أو تميم وحدهما، وإنما هناك قصائد كثيرة، لشعراء عديدين، تقص بطولات **المنصور بن أبى عامر**، ومحاربين آخرين ممن عرفهم الأندلس، فى الشعر العربى، أو فى الزجل العامى، ضاعوا فى غمار التاريخ، كما ضاعت آثارهم، وكما ضاع كل تاريخ لمبدع الزجل نفسه. وفيما أرى فإن أكثر هذه القصائد تجديداً، وأقربها إلى العامية، هو الذى ضاع. أما القصائد التى جاءت على النحو التقليدى فقد وصلنا منها القليل، فابن عبد ربه (٨٦٠-٩٤٠) قال أرجوزة مجدّ فيها **الخليفة الناصر**، ووصف حروبه وغزواته، وأوردها كاملة فى كتابه « العقد الفريد ». وأورد **ابن بسام** فى القسم الأول من كتابه « الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة » المجلد الثانى النص الكامل لأرجوزة **أبى طالب عبد الجبار**، من جزيرة شقر، وكان يُعرف بالمتنبى لبراعته فى الأدب، وتفننه فى العلوم، وإجادته المنثور المنظور، وقال عنها ابن بسام : « وله أرجوزة فى التاريخ أغرب فيها، وأعرب بها عن لطف محله من الفهم، ورسوخ قدمه فى مطالعة أنواع العلم، وقد أثبتها على طولها، لاشتمال فصولها على علم جليل، وباع فى الخبر طويل ». وجاءت الأرجوزة فى **٤٥٢** بيتاً، بدأها بخلق الكون، واستعرض فيها تاريخ الأنبياء والخلفاء، ومن تلاهم من

بنى أمية، فدولة بنى العباس وبنى أمية بالأندلس والفتنة الأولى بقرطبة، وملوك الطوائف الثوار؛ وانتهى عند على بن يوسف؛ الأمير الثانى لدولة المرابطين.

هذا الشعر القصصي والتاريخى، فى اللغة الفصحى أو فى عامية أهل الأندلس، كان العامل فى نشأة الشعر الملحمى القشتالى والفرنسى، والثانى كان تالياً للأول فى الوجود، وانتقال هذا التأثير ليس بعسير، إذا وعينا الدور الذى لعبه الشعراء الجوالون فى إشاعة الثقافة، وكان بينهم شعراء مسلمون، ومن ينشدون بالعربية أو العامية أو الرومانثية[1]، بل إن انتقال الشعر العربى الفصيح إلى اللغة الرومانثية مترجماً، كان يتم بقدر أكبر مما نتصور، وضياع الأصل العربى لمرثية الوقشى فى بلنسية، وعرضنا لها فى مكان آخر، وبقاؤها فى الشعر القشتالى الشعبى شاهد على ما أقول[2]. وبديهى أن الشعر بالعامية، أى الزجل كان أكثر انتشاراً، وأشمل ذيوعا، مما عليه الشعر الفصيح.

تلتقى الملاحم القشتالية مع القصائد القصصية العربية الأندلسية فى ألوان من المشابهات لا تأتى عفوا، فكلتاهما تدور حول شخصية تاريخية حقيقية، وتعبر عن أحداث وقعت فى تاريخ قريب من اتخاذها شعراً، وأبطالها بشر فعلا، فلا تلجأ إلى شخصيات أسطورية أو خرافية لإعطاء القصة مزيداً من الأهمية، وتدور الحرب فيها بصفة عامة، حول قضايا داخلية، أو بسبب الصراع العائلى، وفى درجة تالية قد يكون عاطفيا، وفى كلتا الحالين تعالج الأمر على نحو طبيعى دون أن تستهدف مثلا أعلى محددا تذيعه وتدافع عنه. وخصائص المجتمع العربى تبدو واضحة، مهما كان الشعب الذى تتحدث عنه، ففيها

---

(١) انظر فصل: الشاعر الجوال ص ٣٦ من هذا الكتاب.

(٢) انظر فصل: مرثية بلنسية ضائعة فى كتابنا: دراسات أندلسية: فى الأدب والتاريخ والفلسفة، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٣.

إجلال الكرم، وإحساس بالغ بالشرف، وحرص نادر على الثأر، والمبارزة فى الحرب، والصياح عند اقتحام المعركة، والغارة وتقسيم الغنائم طبقا لقوانين الشريعة الإسلامية، فخمسها للخليفة أو من يضطلع برسالته؛ والبقية تقسّم بين المقاتلين : للراجل سهم، وللفارس سهمان، وتتحدث عن الطلائع، واستخدام العيون، أو الجواسيس فى القاموس العسكرى الحديث. وتعكس على نحو دقيق واضح صورة التعايش بين المسلمين والمسيحيين، حياة حتى فى الحرب فيها تسامح وتقدير وعفو، بين عامة الناس وبسطائهم على الأقل، ممن كان الشاعر يؤلف الشعر لإمتاعهم، ظاهرة لا تجدها فى كتب التاريخ، وهى تقدم وجهة النظر الرسمية، وتمثل رأى المستفيدين من إذكاء الصراع وحث الناس عليه، وإنه لأمر ذو أهمية بالغة أن القتال بين المسلمين والمسيحيين فى الأندلس، لم يأخذ فى أية ملحمة قشتالية معنى وطنيا قوميا.

● ● ●

فإذا تجاوزنا التأثير العربى فى نشأة الملاحم القشتالية بعامة، إلى ملامح هذا التأثير فى ملحمة السيِّد على نحو خاص، أقدم ملحمة قشتالية وصلنا نصها كاملا ومدوناً، كان علينا أن نضع فى الاعتبار عدة حقائق : أن النص الذى بين أيدينا ليس هو النص الأصلى الذى كُتِبَ قريباً من النصف الأول للقرن الثانى عشر، وأن إضافات أدخلت عليه، ومقاطع حذفت منه، ومواقف صُوِّرت لتواجه مواقف سياسية متغيرة وطارئة، ابتسرت بزوال دواعيها. مثلا كانت الملحمة خلال فترة الصراع بين قشتالة وليون ترسم لنا نبلاء هذه فى صُورة غير كريمة، فلما تغيِّرت الصورة السياسية، بزوال العداوة، وتوحدّت الدولة والملك والراية، تغيرت نظرة الشعراء لنبلاء ليون، فحذفوا من الملحمة كل ما يسىء إليهم.

وفى ضوء هذا الواقع يحق لى أن أفترض أن جانباً كبيراً مما يتصل بالإسلام والمسلمين دخله التعديل، وأصابه البتر، لقد أنشد الشاعر الملحمة لأول مرة وسلطان المسلمين فى الأندلس كان متيناً، رغم كل الهزائم، وحضارتهم مزدهرة، وثقافتهم جذّابة، وتشمل دولتهم الجانب الأعظم من شبه الجزيرة، وأكاد أتصور أن حظهم من أحداثها، كان أوفى مما هو عليه، وأن تقدير الشاعر لهم كان أوضح، وأن التعبيرات العربية، ألفاظاً وجملا، كانت أكثر شيوعاً، وليس من المغالاة فى شيء أيضاً أن أقول : إن نسخة منها بعامية أهل الأندلس كانت تُسمع بين المستعربين فى الجانب الإسلامى، وبين المدجنين، أعنى المسلمين الذين يقيمون فى الجانب المسيحى، غير أن هذه قضية أخرى سوف أعود إليها فى نهاية هذا الحديث، ويكفى أن نشير الآن إلى أن أول شاعر أنشد الملحمة كان مستعرباً، أى مسيحيًّا يعيش فى الجانب الإسلامى، ويتكلم العربية لغة، أو العامية منها على أقل تقدير، يعايش المسلمين، وحياته اليومية مطبوعة بتقاليدهم، وأنه قالها فى مدينة سالم، ومن الإشارات ما يحدد أنه كان ينشدها فى ميدان المدينة الكبير، وكانت الجالية الإسلامية فى مدينة سالم كبيرة، والمستعربون فيها قلة، لأنها - كما يهدى إليه اسمها - أنشأها مسلم بدءا، ولم تكن موجودة قبل وصول المسلمين، وفيها دفن **المنصور بن أبى عامر** حين فجأه الموت قريباً منها عام ١٠٠١م.

لا يمكن الجزم بأن الشاعر الجوّال وهو ينشد ملحمة السِّيد احتذى قصيدة عربية معينة. أو ملحمة شعبية محددّة، لأن الأدب الشعبى فى العربية، وفى كل اللغات، قطع مرحلة كبيرة من حياته يُردَّدُ شفاها، وظل لقرون عديدة موضع احتقار كبار الأدباء والمؤرخين فلم يسجله أحد، والإمساك بخيوطه وتتبع روافده أمر عسير المنال. لكنى أجد الكثير بين **ملحمة السِّيد وسيرة بنى هلال** من

جوانب التوافق، فكلتاهما رواية شعبية، غير ذات طابع أسطورى، وانتقلت شفاها عبر سنين طويلة، وتتناول أحداثا وبشراً لهم أو لجلهم واقع تاريخى، لا ترتفع بهم إلى مصاف الآلهة، ولا تضفى عليهم من الصفات ما ينافى طبيعتهم البشرية، وكلا البطلين ثائر على السلطة، منفى يقاتل لحسابه، وكلتا الملحمتين لا تتناول من قضايا العاطفة والحب إلا حب الرجل زوجته، وعطفه عليها، وخوفه من فراقها، وفرحه بلقائها، وتذكّرها عند غيابها، وتجرى على لسان الزوجة من العواطف، محزونة أو مبتهجة، مثل ما تجرى على لسان الزوج، فهى تبكيه مودِّعة، وتدعو له راحلا، وتتعلق به بعيداً غائباً.

وتجد **اليهود** فى كلتا الملحمتين على صورة متقاربة، يشتغلون بالتجارة والصيرفة، وبالربا والرهونات، ويحرصون على المال حرصاً شديداً، وهم من أجل الربح ينافقون ويصانعون، ويستعينون دائناً على قضاء حوائجهم بالكتمان. وتكاد صور الحرب أن تكون فيهما واحدة، من قطع الطريق، وحجز الماء، وضرب الحصار، وتدمير المزارع، واستخدام الجوع سلاحا، وتزخران بالحركة المستمرة، فما تكاد الواحدة تخلص من وقعة إلا لتبدأ فى أخرى، ولا تغادر موضعاً إلا لتدخل فى موضع آخر، ومن ثم فهما لا تلتفتان إلى ما تعودنا عليه فى حياتنا اليومية المستقره الوادعة.

التأثير اللغوى العربى نلتقى به فى الملحمة خلال عدد من الكلمات العربية تُذكر بلفظها، وتُرسم فى حروف لاتينية، دقيقة أحيانا، ومحرفة أحيانا أخرى، وأكثرها تداولا أداة النداء « يا » Ya ، فنجد مثلا ياسيد **Ya Cid** وياسيِّدى **Ya Senor** ، وليس للنداء فى اللغة القشتالية، ثم الإسبانية من بعد، أداة معينة للنداء، فإذا اضطرت إليه استخدمت الصوت Oh، ولم تذهب « يا » من اللغة الإسبانية المعاصرة كليّة، وإنما انفصلت عن معنى النداء، وأصبحت

تعبيراً عن التنبيه بصفة عامة.

وحرف التنبيه « ها »، والذى يسبق الضمائر المنفصلة أحيانا، وأسماء الإشارة، وأصبح جزءاً من هذه الأخيرة، يأتى على هذا النحو فى الملحمة فيسبق الضمائر القشتالية المقابلة للضمائر العربية، التى يمكن أن تسبقها « ها » التنبيه هذه، ولكن فى نطقه العامى « أهُو » أو مما لا « أهِهْ » Afe، مثل Afevos أى ها أنتم، لأن F كانت هى و H سيان فى قشتالية العصر الوسيط، وأحيانا يأتى فى صورته العامية، ولكن غير مسبوق بالهمزة فيصبح Fe ، أى « هـه » ممالة، كقول الشاعر فى الملحمة Fem ante vos ها أنا أمامكم، وهى ظاهرة تخلصت منها الإسبانية المعاصرة، باللغة المعلمة عن طريق الكتاب والمدرسة، ثم الصحافة والإذاعة. ففى مرحلة من تاريخ إسبانيا كان هناك من يحرص فى شدة على تنقية الإسبانية، بالعزوف ما أمكن عن استخدام الكلمات ذات الأصل العربى، غير أن هذا الاتجاه خف الآن، لأن كل اللغات الحية سخية تأخذ وتعطى، فى ضوء قوانينها، دون انتظار لقواعد تفرض عليها من خارجها.

وتستخدم الملحمة لفظ « حتى » Fasta مرادا به انتهاء الغاية، كما فى العربية، فيقول الشاعر إن الغارات وصلت حتى القلعة Fasta alcala وبق مستخدما فى الإسبانية المعاصرة، كما كان عليه فى القشتالية القديمة، وكما هو فى العربية الآن، ولو أنه فى النصوص الحديثة يرسم طبقا للإملاء الحديث hasta وهو حرف من أكثر ألفاظ لغة الحياة دورانا على الألسنة، فيقال: حتى الصباح، حتى قريب، حتى غدًا، حتى أراك...

وثمة ألفاظ أخرى، فطليعة atalaya جيش السِّيد تقوم بالغارة algara ومن بين ما يلبسه السِّيد الكوفية Cofia واسم جيشه المحلة almohalla، ويطلق أحياناً

على المكان الذى يعسكر فيه. وكلمات : القائد alcaide والقاضى alcalde والمصلىّ almoçala وتعنى السجادة، وكان العرب يطلقون على أسرة كونت « كاريون » اسم Beni Gomez فتأتى الملحمة وتتحدث عنهم فى هذه الصورة Vanigomez بدل أن تقول أبناء غومث بالقشتالية hijos de Gomez، وغيرها.

وإذا تركنا الكلمات إلى التعابير، فسنجد بينها ما هو من خصائص اللغة العربية، ويكاد يكون ترجمة حرفية لها، ونكتفى منها بتعبير يتردد كثيراً وهو بكت عينه Llorar de los ojos أو بكى من قلبه Llorar de Coraçon وهذا التعبير الأخير لا يعرفه أى أدب أوربى باستثناء الأدب الإسبانى، والشعر البروفنسالى.

●●●

فإذا تجاوزنا الألفاظ والتعابير إلى النظم والتقاليد، وجدنا السيد فى الملحمة، يقسم الغنائم طبقاً للشريعة الاسلامية، فله الخمس بوصفه رئيساً لتابعيه ومستقلا عن أية دولة أخرى، والباقى يقسم على المقاتلين، للراجل سهم وللفارس سهمان. ويجرى القتال على الطريقة العربية، فتبدأ الحرب بالمبارزة، وعلى قائد الجيش عند بدء الهجوم أن يتقدم ويصيح باسمه، وينادى : هل من مبارز ؟ فإذا احتدم القتال، راح القائد يجول بين الصفوف ويهتف باسمه عاليا، ليثبت جنده ويبث فيهم الشجاعة، ويذكّر بأنه معهم حى يقاتل ، والسيد فى كل معاركه لا يكاد يتقدم حتى يردد اسمه عاليا. ونعرف من الملحمة أنه عند الحرب ينادى المسلمون النبى محمدا يستلهمونه النصرة، بينما يصيح المسيحيون باسم القديس يعقوب، شنت ياقب Santiagoفى المصادر العربية القديمة، وكانت الدية تقبل فى حالات القتل الخطأ، عوضاً عن القصاص، وتنهض بها الأسرة كلها، وهو نظام إسلامى بحت، وليس له مثيل فى شريعة المسيحيين،

أما فى حالات القتل العمد فلا بد من الثأر، والتنازل عنه فى حكم المستحيل، على نحو ما أشرنا إليه من قبل.

ونجد فيها التصافح باليدين عقب أى اتفاق، تأكيداً على الوفاء به، وقد يكون التسليم باليدين علامة الرضا على أمر مطلوب، دون حاجة إلى موافقة مسبقة، وهى عادة لا تزال جارية حتى اليوم فى قرى إسبانيا الصغيرة. ويكثر فى الملحمة تقبيل اليدين، من الصغير للكبير، ومن الأقل للأعظم احتراماً، ومن الزوجة لزوجها، والبنت لأبيها حبًا وإجلالا، ومن الفارس للملك خضوعاً وتبعية، وقد تكون طلباً للمعروف أو شكراً عليه، فاليهوديان اللذان أودعهما السِّيد صندوقيه، يقبلان يديه شاكرين، ثم يعيدان تقبيلهما طالبين معروفاً، وتعبير يقبل يدكم فى الملحمة تعنى : يطلب منكم معروفاً.

ومظاهر التعبير عن الحزن فى حالات الموت أو الفراق أو الهزيمة، أو غيرها أن يرسل المرء لحيته، وألا يقص شعر رأسه، وألا يقلم أظافره أحياناً. وقد يفعل هذا معلَّقا على وعد أو قسم أو نذر يجب أن يبرّ به أوّلاً، وهى ظاهرة لم تختف تماماً، ومن أبرزها أن فيديل كاسترو، زعيم ثورة كوبا ورفاقه، أقسموا وكانوا مبعدين عن وطنهم منفيين، ألا يحلقوا لحاهم إلا بعد تحرير وطنهم، فلما حررّوه حلقها بعضهم، وأبقتها الغالبية إلى ما بعد الانتصار على التحديات الكبرى التى تواجههم فى معركة البناء الداخلى. والإمساك بلحية شخص آخر فى مقام الاختلاف إهانة بالغة، وكان السِّيد حريصاً دائماً على تجنبها، فهو يمسك بلحيته، محافظاً عليها، ومحذراً فى نفس الوقت، ومن نافلة القول الإشارة إلى أن هذه العادات عربية، وماتزال حية فى مدننا وقرانا حتى اليوم.

ويتردد إكرام الضيف، والمبالغة فيه، على الطريقة العربية، فى كل أناشيد

الملحمة، ونجد الخيل فى حفلات النصر والسباق، والمهرجانات العائلية والعامة، تزين رقابها وسروجها، باللامع من الستائر، والمذهب من الأجراس، والحرير الذى يسرج به السيد خيله أو يرتديه، مصرى مستورد من الإسكندرية، ونجد ابنتى السِّيد تتزوجان مرتين، وهو تأثير إسلامى بحت، ويعزز رأى **دوزى** فى أن **السِّيد** كان نصف مسلم ونصف مسيحى، ورأى **خوسيه كمون أثنار** **José Camon Aznar**، أستاذ تاريخ الفن فى العصور الوسطى، الإسلامى والمسيحى، والعميد الأسبق لكلية الآداب فى جامعة مدريد، فهو يرى أن السِّيد كان مستعرباً، أى مسيحيًّا يقيم بين المسلمين، يتحدث لغتهم ويحتذى ما هم عليه من تقاليد، لأن الملحمة صريحة فى أن بنتى السِّيد تزوجتا لثانى مرة وأن تركهما للزوجين الأولين كان انفصالا ولم يكن ترملا، والكنيسة الكاثوليكية لا تقر الطلاق بحال، وبخاصة للعاديين من الناس، غير الملوك والمنتمين إلى الأسر الكبيرة أو الحاكمة.

● ● ●

إلى جانب التأثير اللفظى والتعبيرى، والتقاليد والعادات، نجد من بين قصص الملحمة ما هو من أصل عربى أكيداً. فعندما نفى الملك **ألفونسو السادسُ** السِّيد من قشتالة، ولم يكن معه ما يواجه به الحياة هو وتابعوه، أراد الاقتراض من يهوديين فى برغش، هما **راكيل وفيداس**، يقومان بالصيرفة، ويقرضان بالربا ومقابل رهن؛ ولم يكن مع السِّيد ما يرهنه لهما فقرر أن يحتال عليهما. أحضر صندوقين بفن وإحكام، ومكسوين بالجلد المزخرف، ومساميرهما وأقفالهما مذهبة، وملأهما رملا ليثقل وزنهما، وأوهم اليهودين بأن فيهما كل ثروته، من ذهب ومجوهرات، ولا يستطيع أن يحملهما فى رحلته منفيًّا، وفى حاجة عاجلة إلى المال ويريد رهنهما، فقبلا مسرورين، ودفعا له مقابلهما

ست مائة مارك، لأجل لا يزيد على عام. وهى خدعة فى غير موضعها، ولكن الشاعر يدافع عنها بأن السيد كان مضطراً، وأن اليهوديين كانا البخلَ مجسَّماً.

الخداع على هذا النحو رائج فى الحكايات العربية، وبخاصة فى قصص «ألف ليلة وليلة»، وغيرها من الحكايات الشعبية التى تعود إلى العصر الوسيط؛ وحكاية الخداع بالرمل كانت معروفة وشائعة على نحو واسع فى الأندلس، وأعطاها المزيد من الذيوع والانتشار فى الأدب الأندلسى المسيحى وعنه نقلتها الآداب الأوربية، ، يهودى أندلسى يدعى رابى موسى سَفَردى، وكان معاصراً للسيد، ويعيش فى الأرض التى كانت مسرح أحداثها، فهو ينسب إلى مدينة وشقة، واحدة من كبرى مدن مملكة سرقسطة، وبها ولد عام ١٠٦٢م، ثم اعتنق الكاثوليكية واتخذ اسم بدرو ألفونسو عام ١١٠٦م، وألف كتاباً أسماه «تربية العلماء Disciplina Clericalis»، وليس فيه من المسيحية غير المقدمة والعنوان، وبقيته حكايات عربية، وحتى تركيب الجملة التى يستخدمها فيه سامية أكثر منها لا تينية؛ ويُعتقد أنه كتبه أولا باللغة العربية، ثم قام بترجمته إلى اللغة اللاتينية من بعد. وهو نفسه يصرح بأن جانباً من كتابه يضم أمثلة وحكماً من الفلاسفة العرب، والجانب الآخر أساطير وأشعاراً؛ أو مواعظ على ألسنة الطير والحيوان، وتبلغ حكاياته العربية ثلاثين حكاية،وبعضهم يبلغ بها أربعاً وثلاثين، أو تسعا وثلاثين. ونال فى عصره شهرة واسعة، ولقى إقبالا عظيماً، ونُشرَ تحت عناوين كثيرة، وفى لغات مختلفة، رومانثية أو لا تينية، وطارت شهرته عبر كل الآفاق، فعرفته القشتالية والقطلونية والبروفنسالية والبرتغالية والفرنسية والألمانية والإيطالية، والإسانية فى أكثر من ترجمة.

من بين حكاياته العربية واحدة تقول : إن رجلا كان يريد الحج إلى مكة؛ فلما أعوزته النقود احتال عليها، فدفع إلى مراب يهودى عشرة صناديق مليئة

بالاحجار، أقفالها مفضضة، وطلاؤها جيد، فجازت الخدعة على المرابى، وأعطاه المال الذى يحج به. وإذا استثنينا عدد الصناديق، والهدف من طلب المال، فإن التشابه بين القصتين يكاد يكون كاملا. وما من شك فى أن الشاعر كان يعرف القصة العربية، قرأها فى كتاب بدرو ألفونسو، أو سمعها حكاية من أفواه الجماهير، والقصص الذى من هذا النوع كثير، وسهل الذيوع والانتشار، وخدعة الصناديق هذه سوف نجدها بعد قرنين من الزمان عند الكاتب الإيطالى بوكاشيو Boccio (١٣١٣-١٣٧٥) فى مؤلفه الشهير Decameron.

وثمة قصة أخرى فى الملحمة ذات أصل عربى، فبينما كان السيد فى قصره مستلقيًا على سريره، ومعه صهراه، زوجا بنتيه، أميرا «كاريون» وحوله خاصته، إذ خرج أسد من قفصه فى حديقة القصر، فهرب الناس جميعاً، واختبأ الأميران وخافا، وأوشكا أن يموتا من الرعب، وأخذا يترحمان على أيامهما فى «كاريون»؛ وأنهما لن يرياها مرة أخرى. فما كان من السِّيد إلا أن نهض من سريره، واتجه إلى الأسد، فلم يكد هذا يراه حتى تلاشت صولته فأمسك السِّيد برقبته، وانقاد له الأسد طائعاً ومضى به السِّيد حيث أعاده إلى قفصه من جديد[١].

أقول إن هذه القصة ذات أصل عربى؛ رغم أن عدداً من المستشرقين راحوا يبحثون عن أصل لها فى كل الآداب إلا فى الأدب العربى، ربما لأنهم يجهلونه، ذلك أن لقاء الأسود وترويضها أو الأنتصار عليها قديم جداً فى الأدب العربى، ولدينا منه ألوان مختلفة، وأقدم مظهر له فيما أعرف، قطعة من روائع القصيد، **لبشر بن عوانة**، شاعر جاهلى من القرن السادس الميلادى، يحكى

(١) انظر القصيدة رقم ١١٢.

لصاحبته؛ فى خيال ممتع وقص بديع؛ ولغة سلسلة، كيف لقى الأسد؛ وكان له شجاعة وإقداماً؛ نصحه أن يمضى لحاله؛ وأن يلتمس قوته عند غيره، لكن الأسد لم يسمع له ومشى إليه؛ فما كان من بشر إلا أن سل مهنده؛ وقدَّ أضلاع الأسد؛ فخرّ مضرجاً فى دمائه :

أفاطمُ لو شهدت ببطن خَبْتٍ ... وقد لاقى الهزبرُ أخاك بشرَا
إذاً لرأيتِ ليثاً أمَّ ليثاً ... هزبراً أغلباً لاقى هزبرا
تَبَهنَسَ إذ تقاعسَ عنه مهرى ... محاذرةً، فقلت : عقرتَ مهرا
أنلْ قدمىَّ ظهرَ الأرضِ إنِّى ... رأيتُ الأرضَ أثبتَ منك ظهرا
تحاولُ أن تعلِّمنى فراراً ... لعَمْرُ أبيك قد حاولتَ نُكرا
وقلتُ له - وقد أبدى نصالاً ... محدَّدةً ووجهاً مكفهرّا -
نصحتُكَ فالتمسْ ياليثُ غيرى ... طعاماً إنَّ لحمى كان مرًّا
وأنتَ ترومُ للأشبال قوتاً ... وأطلبُ لابنة الأعمام مهرا
ففيمَ ترومُ مثلى أنْ يُولِّى ... ويتركَ فى يديكِ النفسَ قهْرا
فلمّا ظنَّ أنَّ النصحَ غشٌّ ... وخالفنى كأنِّى قلتُ هُجرا
مشى ومشيتُ من أسدين راما ... صراعاً كان إذْ طلباه وَعْرا
وأطلقتُ المهنَّدَ من يمينى ... فقدَّ له من الأضلاع عشرا
فخرَّ مضرَّجاً بدمٍ كأنى ... هدمتُ به بناءً مشمخرّا
وقلتُ له : يعزُّ علىَّ أنِّى ... قتلتُ مناسبِى جَلداً وفخرا
فلا تجزعْ فقد لاقيتَ حُرًّا ... يحاذِرُ أن يُعابَ فمتَّ حرّا

غير أن القصة التى أراها أصلا مباشراً لما فى الملحمة، لتشابه الظروف ولأنها كانت رائجة فى المغرب والأندلس، وجرت أحداثها فى الوقت الذى كان الشاعر يتهيأ لتأليف ملحمته، قريباً من عام ١١٤٠م، تتصل بأمير الموحدين.

عبد المؤمن بن على، وكان الأندلس يكوّن جزءاً من إمبراطورية الموحدين، وخلاصتها أنه عندما تُوفى **محمد بن تومرت**، مهدىّ الموحدين، عام ١١٣٠ م، لم يعلم بموته أحدا سوى عبد المؤمن بن على (١١٠٠-١١٦٣)، فأخفى خبره، ولبث يحكم باسمه ثلاثة أعوام كأنه حىّ، وأدرك أن أعضاء مجلس العشرة[1] الذين إلى جانبه، يطمحون فى مثل ما يطمح إليه من تولى الإمارة، وخشى أن تمزّق الخلافات والحرب الأهلية الإمبراطورية الوليدة، فقرّر أن يحتال للأمر. فربّى أثناء قيامه بالحكم شبلا، روّضه حتى صار أنيساً كالكلب، ودرَّب طائراً على أن ينطق بهذه الكلمات: «النصر والتمكين للخليفة عبد المؤمن أمير المؤمنين، سند المملكة وناصر االدين». ولما كمل ترويض الأسد، وتدريب الطائر، أقام حفلا دعا إليه شيوخ الموحدين وأكابرهم، وأقام منصة عالية جلس فى صدرها، ثم نعى المهدىَّ إلى الحاضرين، بين مظاهر الحزن العميق، وقال إنه أعرب فى كلماته الأخيرة عن أمنيته فى أن ينبذ الموحدون أهواءهم ومصالحهم الشخصية، وأن يختاروا من بينهم رجلا يولونه الزعامة، ولما انتهى من خطبته ساد صمت رهيب، وإذا بطائر ينطق فجأة: «النصر والتمكين، للخليفة **عبد المؤمن** أمير المؤمنين، سند المملكة وناصر الدين». وفى الوقت نفسه انفتح باب خفى كان يحجب الأسد، فانطلق مزمجراً بين الحاضرين، منفوش الشعر، مكشر الأنياب، رافعاً ذيله، وعيناه تقدحان شرراً ،فذعر الناس وارتعدت فرائصهم، فبادر عبد المؤمن إلى الأسد، فأنس إليه فى الحال، وأخذ يلعق يديه فى هدوء، فدهش الحاضرون، ورأوا فيما حدث معجزة،

---

(١) مجلس العشرة أحد مجلسين كانا إلى جانب **ابن تومرت** أمير الموحدين، يعاونانه فى الحكم، ويتكون من عشرة أعضاء، هم المهاجرون الأولون الذين أسرعوا إلى إجابته، وكان الثانى يتكون من خمسين عضواً، ينتمون إلى قبائل شتى، وكان ابن تومرت يسميهم جميعاً بالمؤمنين.

ودعوة إلى تولية عبد المؤمن بن على، فبايعوه بالإمارة راضين[١].

تلك هى القصة العربية، ولا فارق بينهما وبين قصة الملحمة إلا فى الجزئيات وأسماء الأبطال، وظروف المناسبة، وهى هنا كما هناك أسطورة مصنوعة، فموت **ابن تومرت**، وتولية **عبد المؤمن**، أوردهما لنا **عبد الواحد المراكشى** فى كتابه « المعجب فى تلخيص أخبار المغرب » وهو مؤرخ مغربى عاصر الأحداث، فلم يشر إلى شىء من هذه الأفاويه، وفصّل القول فى الأمر، فذكر أن ابن تومرت دعا « جماعته » قبل أن يموت بأيام، فخطبهم وأوصاهم، وكان هو الذى اختار عبد المؤمن خلفاً له، علانية وعلى رؤوس الأشهاد.

وكما وجدنا أثر قصة الخداع بالصناديق المنوءة رملا فى أدب بوكاشيو الإيطالى، فستعبر قصة الأسد جبال البرانس إلى فرنسا، ونجد صداها فى ملحمة أدنيه Adenet ، فى أسطورة « برت ذات الأرجل الطويلة Berte aus grans Piés » منها ؛ وكتبت قريباً من عام ١٢٧٥ ، يهرب أسد الملك من قفصه، ويرعب كل من فى القصر، فيتصدى له ببينو Pepino ، وهو فى العشرين من عمره، فيصارع الأسد وينتصر عليه ويقتله.

● ● ●

يبقى الجانب الآخر من القضية، وهو أدق معالجة، وأظلم طريقاً، وأفقر توثيقاً. لماذا أغفلت مصادر الأدب الأندلسى التى بين أيدينا الملحمة فلم تشر

---

(١) أورد هذه القصة **ابن أبى زرع الفاسى** فى كتابه « الأنيس المطرب بروض القرطاس، وأخبار ملوك المغرب ومدينة فاس »، ص ١٢٠، طبعة المستشرق **كارل تورنبرج**، أبسالة ١٨٤٣، وارتضيها أسطورة، ولا أطمئن إليها تاريخاً، وذكرها كتاب « الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية »، المطبوع فى تونس، والمنسوب وهما إلى **لسان الدين بن الخطيب**، ص ١١٣، ولكن بصورة أخرى، وفى مناسبة لا صلة لها بتولية عبد المؤمن إمارة الموحدين.

إليها من قريب أو بعيد؟

كان حظ **السيِّد** شخصاً فى المصادر العربية على النقيض من الملحمة، فقد عُنى به معاصروه، وتحدثوا عنه مؤرخين، ذكروا من أخلاقه ما كان جميلا يحمد، وما كان سيئاً يذم، وأفرد له **ابن بسام** فى كتابه الذخيرة صفحات، وألف **ابن علقمة** فى حصاره لبلنسية كتاباً ضاع نصه فى العربية، غير فقرات نقلها من جاءوا بعده، كابن عذارى ولسان الدين بن الخطيب، ونقلت معظمه مترجماً إلى القشتالية «مدونة تاريخ إسبانيا العام»، وتميزت أخبار المصادر العربية بالدقة والتحرى والموضوعية، بينما جاءت روايات المصادر المسيحية، فى غير ما نقلت عن العربية، أساطير وحكايات التقطت من أفواه الشعراء الجوالين بما فيها من خيال وتزيد وأوهام، قصد بها جذب انتباه السامعين. وإذا فلم يكن السيد نفسه غريباً عن المصادر العربية، أما الملحمة نفسها فكأنها تنتمى إلى عالم آخر غير الأندلس، قصىّ وبعيد.

ينبغى أن نستبعد أصلا أن الأندلس الإسلامى كان يجهل الملحمة تماماً، مثقفيه وعامته، فى الوقت الذى كان فيه خاصة الأدباء فى بغداد يتناشدون إلياذة هومير، أو شيئاً منها، فى نصها اليونانى، أو منقولة إلى السريانية، وكتبت بعيداً عن العرب، فى أرض اليونان، وتنتمى إلى أدب يفصله عن قيام الدولة العباسية قريباً من ألف وستمائة عام.. بينما هؤلاء يعيش الشاعر بينهم، وينشد الملحمة فى مجامعهم، وإذا فعلينا أن نبحث لسكوت المصادر عن سبب آخر غير الجهل بها.

أول مؤرخ أدبى وصلنا كتابه، وعاش بعد إنشاد الملحمة زمناً يسمح له بأن يتابع أخبارها، هو أبو بكر **ابن خير** الإشبيلى، المتوفى عام ١١٧٩م، لكن مؤلَّفه «فهرسة ما رواه عن شيوخه» كما ينبىء عنه عنوانه، مجرد قائمة بأسماء

الكتب التى درسها، أو أجيز له روايتها، مما تثقف به فى صباه وبدء شبابه، وهى مرحلة من العمر تسبق إنشاد الملحمة، فبديهى ألّا تقع الملحمة بين الكتب التى تلقاها عن أساتذته، لأن مكانها الذى تسمع فيه هو قصر الأمير أو سوق المدينة.

ويأتى بعده، ممن عنوا بالتاريخ الأدبى، **ابن بشكوال** المتوفى عام ١١٨٢م **والضبى** المتوفى عام ١٢٠٢، واتجهت عنايتهم إلى التراجم، ومؤلفاتهم تكملة لكتب أخرى سبقتها، فهم مقيدون بمنهج سابقيهم، وبطبيعة المادة نفسها، ومؤلف الملحمة شاعر جوال ومجهول، لا ترتفع به مهنته إلى أن يُترجم له، وليس ثمة فرصة متاحة للحديث عنه، حتى لو أراد المؤلفون.

أما **ابن الأبار** عام ١٢٦٠م، فكان مؤرخاً أوضح منه أديبًا، وسياسيًّا أكثر منه مؤرخاً، وشغل بأحداث عصره، ومؤلفاته تدور حولها، فلم يتسع له وقته ليهبط حيث الشعراء الجوالون، وهو بلنسى الأصل، وعاش أيامه فى زمن مشابه لما كانت عليه بلنسية أيام السيد، فقد زحف عليها **جاقة البرشلونى**، خايمة الأول الغازى Jaime I el Conquistador ، واستولى عليها عام ١٢٣٨، وسفر ابن الأبار بين المدينة وأمراء المسلمين فى الشمال الأفريقى يطلب عونهم، وانتهت به الإقامة فى تونس، حيث مات مقتولا عام ١٢٦٠ م؛ وهو يأتى فى «الحلة السيراء» على ذكر السيد مرتين، ولكنه فيهما عالة على ابن بسام.

هؤلاء الأدباء المؤرخون ابتداء من ابن بسام، وانتهاء بابن الأبار، كانوا يحررون تراجمهم وأخبارهم، فيما يبدو لى، داخل اتجاه سياسى محافظ، يقف فى وجه اتجاه شعبى زاحف، مضاد للاتجاه العربى، يهاجمهم أولا من جانب اللغة والأدب، يحتقر ما يوقرون، ويستخف ما يعظمون، وينشىء لنفسه أدباً يتغنى به وينشده، فحالَ هؤلاء بين هذا الأدب وبين أن يصبح تراثاً مسجلا ومكتوباً،

وهذا ما يفسر لنا عزوفهم عن الموشحات وجمعها، أو تضمين مؤلفاتهم شيئاً منها، رغم أنهم ترجموا لعدد من الوشاحين كشعراء أو سياسيين[1] ومثل هؤلاء لا يتوقع منهم، ولا يطلب، أن ينتبهوا للملحمة تمجد السيد، وتكتب فى الرومانثية.

كان **ابن سعيد**، المتوفى عام ١٢٧٦ م، أول أديب أندلسى نلتق به وقد خفَّت قبضة الاتجاه المحافظ، فلم يتردد فى أن يضمن كتابه «المغرب فى حلى المغرب»، وقد تعاون على تأليفه مع أسلافه من أسرته، موشحات وأزجالا كتبت فى العامية الأندلسية، لكن هذا المؤلَّف العظيم ضاع، ولم تصلنا منه غير أوراق متناثرة، عكف **الدكتور شوقى ضيف** على جمع وترتيب ما وجده منها خاصًّا بالأندلس، فجاء فى مجلدين، وهو قليل من كثير، فأصل الكتاب يقع فى خمسة عشر مجلداً، خص الأندلس منها بستة. فهل تضم الأجزاء الضائعة إشارات إلى ملحمة السيد؟ أكاد أتصور هذا، فقد وقف الرجل جزءاً من مؤلفه على الأندلس المسيحى، أسماه «كتاب لحظة المريب؛ فيما بقى من جزيرة الأندلس لعباد الصليب»، وصلنا عنوانه، وصفحة واحدة منه.

وبعد **ابن سعيد** تحدق بالأندلس الإسلامى أخطار جسام، وتتخطفه النوائب من كل جانب، ويقفر فى مجال الأدب، ويضيع ما يكتب وماورث مع الزمن، فلا نعرف مؤرخين أدباء بعده غير اثنين، **لسان الدين بن الخطيب**، وكان سياسياً ووزيراً، وشاعراً عذباً، ووشاحاً رقيقاً، وناثراً مجوداً، لكنه يقف، بحكم تكوينه الطبق والثقافى، فى الصف المناوىء للأدب الشعبى، وانحصرت حياته بين غرناطة وشمال أفريقية، وكانت غرناطة على أيامه نهباً

---

(١) فصلت القول فى هذا الاتجاه عند دراستى لابن بسام وكتابه الذخيرة، فى كتابى «دراسة فى مصادر الأدب»، الطبعة السادسة، دار المعارف بمصر، ١٩٨٣.

موزعاً بين القلق والثورات والحروب، فلم يلتفت مؤرخ غرناطة ووزيرها إلى ملحمة السيد، كان مشغولا بما هو أفدح وأخطر. أما معاصره **ابن خلدون**، فإقامته بالأندلس كانت قصيرة، وارتبطت اهتماماته بفلسفة التاريخ فلا يعرض للقضايا الأدبية إلا ما كان منها تفسيراً لمذهبه، أو يتخذ منه الشاهد والاقتباس.

كان إعراض العرب عن ترجمة **الإلياذة** والإفادة منها يرجع إلى أسباب أهمها الدين، فمن الطبيعى أن يُعرض المسلمون عن شعر يزدحم بالآلهة المتصارعة والمتعددة والمختلفة، والإقبال عليها فوق طاقة شعب موحِّد، يجل الإله ويرتفع به فوق الرذائل، ولم يكن المسلمون وحدهم فى هذا الاتجاه، فسارت المسيحية على أيامها الأولى فى نفس الطريق، فكانت تحرم تدريس الإلياذة خشية أن تفسد عقائد أبناء المسيحيين. وربما كان من الأسباب أيضاً صعوبة فهم اللغة اليونانية على المثقفين العرب، وعجز المترجمين السريان عن نقلها إلى العربية أدباً، **وشهنامة الفردوسى** وقد خلت من هذه الصعوبات ترجمت إلى العربية فعلا، ترجمها **الفتح بن على البغدادى الأصفهانى**، بإشارة من الملك **عيسى بن العادل أبى بكر الايوبى**. لكن ملحمة السيد كتبت على أرض الأندلس، وبين المسلمين، وصانعها كان يجيد العربية بالقدر الذى يجيد فيه اللغة القشتالية التى كُتِبَتْ فيها، وأتصور أن عامة المسلمين كانوا يفهمونها، إذا أنشدت فى نصها الأصلى، على النحو الذى كان يفهمها فيه عامة المسيحيين، وتصوّر بطلا نصف مسلم ونصف مسيحى، تصويراً واقعيًّا بلا خرافات ولا أساطير، وكانت على ما رأينا تحمل طابعاً إسلاميًّا فى تقاليدها، وما تحكى من عادات، ولأنْ يهملها كتاب يحتقرون الأدب الشعبى فشىء يعرفه التاريخ فى القديم والحديث، فى الشرق والغرب، أمّا أن تصمت عنها كل

الوثائق، فشىء أعلله بأن مصادر الفترة المتأخرة التى تلت إنشادها، وربما تضمنت شيئاً عنها، ضاع معظمها أيام الفتن، أو بعد أن سقطت دولة المسلمين.

كذلك نفتقد أية محاولة لتقليدها بين شعراء الأندلس المسلمين، فى شعر فصيح أو زجل عامى؛ وهى ظاهرة واضحة التفسير، فالأندلس الإسلامى لم ير بعد **المنصور بن أبى عامر** قائداً عظيماً يستحق أن يُبكى ويُمجد، لقد عرف الصراع المستمر مع الأندلس المسيحى شجعاناً لا يهابون الموت، وجنداً يقاتلون بشرف؛ لكن الفارق بين الشجاعة والبطولة كبير.

ومع انحدار شمس الأندلس الإسلامى إلى المغيب أصبحت غاية الشاعر أو الأديب أن ينتهى به المطاف إلى بلاط أمير أو كبير، يشاركه خلىّ البال متعه المنحلة، والشاذة أحياناً؛ وحوّل الترف البالغ صلابة الحكام إلى رخاوة، وقدرتهم إلى عجز، وقعد بهم عن التدبير المحكم والرأى المصيب، وجعل الشعراء والأدباء لا يرون أبعد من لحظتهم، ولا يفكرون إلا فى يومهم؛ مجالس شراب، ومخادنة نساء، فقصروا عن كل إبداع أصيل ،وأى فنان لا يستطيع أن يبدع إذا لم يعرف القلق ويعايشه. وكان العامة فى يأس مطبق، همومهم كبيرة، وأحزانهم طافحة، وحقدهم على الحاكمين دفين، ومع العجز عن التغيير؛ تغيير الحاكمين وتغيير الواقع، سجنوا أنفسهم داخل ذواتهم، وتركوا القافلة تسرع نحو الهاوية بلا أبطال ولا أمجاد.



نصّ الملحمة



النشيد الأول

نَفْيُ السِّيد

الملك ألفونسو السادس ملك قشتالة وليون أرسل السِّيد ليقبض الجزية من ملك إشبيلية المسلم - الكونت القشتالى غرسية أوردونييث يهاجم ملك إشبيلية - السِّيد يدافع عنه لأنه فى حماية قشتالة، وينتصر على غرسية أوردونييث فى «قبرة» ، ويأسره ذليلا - السِّيد يعود بالجزية إلى قشتالة ولكن أعداءه يوقعون بينه وبين الملك - الملك ينفى السِّيد[1].

أرسل الملك دون ألفونسو الفارسَ رُوى دِياث، سيدى لكى يقبض الجزية التى يدفعها له ملكا قرطبة وإشبيلية.

وكان المعتمد ملك إشبيلية، والمظفر ملك غرناطة، فى أوج عداوتهما، ويكره كل منهما الآخر حتى الموت. وكان مع المظفر ملك غرناطة بعض الرجال الأغنياء الذين يساعدونه : الكونت غرسية أوردونييث، وفرتون سانتشيث، صهر دون غرسية ملك نبرّة، ولوبى سانتشيث. . . وكل واحد من هؤلاء الرجال الأغنياء يساعد المظفر بكل قوته، وكانوا جميعاً ضد المعتمد ملك إشبيلية.

---

(١) الورقة الأولى من المخطوطة الوحيدة للملحمة ضائعة، فاستعيض عنها بنقل نصها من كتاب «مدونة العشرين ملكاً»، وجاءت بالكثير من أجزاء الملحمة رواية منثورة، وما نقلته المدونة مترجم من كتاب «التاريخ اللاتينى للسيد».

وعندما عرف السِّيد رُوى دِياث أنهم اتخذوا موقف العداوة من ملك إشبيلية الذى كان تابعاً، ويدفع الجزية، للملك ألفونسو سَيّده، وقع ذلك منه موقعاً سيئاً، وعز عليه كثيراً، فأرسل إليهم جميعاً رسائل يرجوهم فيها أن يعدلوا عن الهجوم على ملك إشبيلية، وتخريب أراضيه، للصلة التى تربطه بالملك دُون ألفونسو، فإذا أصروا على ذلك، مهما يكن الثمن، فليعلموا أن واجب الملك دون ألفونسو أن يساعد تابعه، ولأنه يدفع له الجزية فلم يُقم ملك غرناطة ولا رجاله الأثرياء اعتباراً لرسائل السِّيد، وهاجموا بعنف ملك إشبيلية، وخربّوا كل أراضيه حتى حصن قبرة.

وعندما رأى السِّيد رُوى دِياث هذا جمع كل ما استطاع من جيوش من مسلمين ومسيحيين، وسار ضد ملك غرناطة ليطرده، من أراضى ملك إشبيلية. ولما عرف ملك غرناطة والرجال الأثرياء الذى كانوا معه، أنه متوجه إليهم بهذا القصد، أرسلوا إليه يقولون : إنه ليس ذلك الرجل الذى يستطيع أن يخرجهم من تلك الأرض. وعندما سمع رُوى دِياث السِّيد هذا أسرَّ فى نفسه : إنه سوف يخسر شرفه إذا لم يعاقبهم. فهاجمهم، والتحم معهم فى معركة فاصلة، استمرت من الساعة الثالثة فجراً حتى منتصف النهار، وقُتِل فيها كثيرون، مسلمون ومسيحيّون، من أتباع ملك غرناطة. لقد انتصر عليهم السِّيد وأرغمهم على الهروب، وأسر السِّيد فى هذه المعركة الكونت دُون غرسية أوردونييث، وانتزع شعيرات من لحيته... وأسر فرساناً آخرين كثيرين، يعجز المرء عن حصرهم. وظلوا أسارى السِّيد طيلة ثلاثة أيام، ثم أطلق سراحهم جميعًا. وخلال أسْرِهم أرسل رجاله فأخذوا غنائم ما تبقى فى ساحة المعركة من متاع وثروات. ومن هناك رحل السِّيد مع رفاقه وغنائمه، ليقابل المعتمد ملك إشبيلية.

فى إشبيلية أعطى السِّيدُ الملكَ، ورجالَه المسلمين، من الغنائم ما كان أُخذَ منهم وتعرفوا عليه، وأعطاهم مما تبق ما أرادوا، ومن تلك اللحظة أطلق المسلمون والمسيحيون على رُوى دِياث دى بيبار لقب : السِّيد القنبيطور، أى المحارب.

وقد حّمله المعتمد بالهبات الثمينة، وأعطاه الجزية التى جاء ليقبضها. . . وعاد السِّيد مع الجزية ليرى الملك ألفونسو سَيده. فأحسن الملك استقباله، وسر كثيراً، وهنأه على كل مواقفه، مما غرس الحسد فى نفوس كثيرين، فكادوا له، وأوقعوا بينه وبين الملك. . .

ولما كان الملك غضوباً وحاقداً على السيد، فقد أعارهم سمعه. . . وأرسل إلى السِّيد رسالة يطلب منه أن يخرج من مملكته وقرأ السِّيد الرسالة الملكية، وقد فاض به الحزن، لكنه لم يرد أن يعصى للملك أمراً، ولم يبق من أجل ليرحل عن المملكة غير تسعة أيام فحسب.

١

أرسل السِّيد فى طلب أقاربه وأتباعه، وتحدث إليهم كيف أمره الملك أن يخرج من كل أرضه، ولم يعطه أجلا غير تسعة أيام، ويريد أن يعرف من منهم يريد أن يهاجر معه ومن يفضل أن يبق.

«والذين يريدون أن يأتوا معى سوف يحميهم الله.
والذين يريدون أن يبقوا سوف أقول لهم كصديق مودعاً : إلى اللقاء».
حينئذ ردَّ **ألبار هانييث** ابن أخيه :
معك ياسيِد، معك نمضى عبر القفار والعمار،

ولن ندعك أبداً ما دام البدن صحيحاً معافى.
وحتى تهلك فى خدمتك الخيل والبغال،
وتبلى ملابسنا، وتنفد كل أموالنا،
ونحن الآن، ودائماً، فى خدمتك أتباع مخلصون.
وأمنًوا كلهم مجتمعين على ما قاله **دون ألبارو.**
فشكرهم سيدى جميعاً على كل ما أبْدوْه.
وفى الحال خرج من بيبار إلى برغش بلا رواحة،
تاركاً قصوره خالية ومهجورة[(١)]،
وعيناه تفيضان دمعاً.
ثم التفت وراءه، وراح يتأمّلها للمرة الأخيرة:
رأى الأبواب مفتوحة وأقفالها مرسلة،
والمشاجب عارية من الملابس، عباءات من قطن أو جلود،
ولم يكن هناك أيضاً صقور متوفِّزة ولا نسور مدربة.
وتنهد السيِّد عميق الألم، طافح الحزن.
وتحدث كالعهد به، دقيقاً وبحساب:
«شكراً يا إلهى، يا أبانا الذى فى الأعالى،
أعدائى الملاعين هم الذين سببوا لى هذا الأذى».

---

(١) هنا تنتهى الورقة الضائعة من الملحمة فى مخطوطة بدرو أباد، وقد نقل هذا الجزء الضائع من «مدونة العشرين ملكاً»، وبالبيت التالى تبدأ الملحمة، كما وردت فى المخطوطة الوحيدة التى وصلتنا.

٢

تفاؤل وتطيُّر فى طريق برغش

لقد همزوا الخيل، وأطلقوا لأزمتها العنان،
وهم خارجون من بيبار رأوا الغربان عن يمينهم،
وهم على مشارف برغش كانت تحلق على يسارهم،
فهز لها سيدى كتفيه، ونتر رأسه :
« الغنائم يا **ألبار هانييث** أخرجتنا من أرضنا،
لكن، وبشرف عظيم، سوف نعود إلى قشتالة ».

٣

السيد يدخل برغش

دخل سِيدى **رُوى دياث** برغش،
وحوله ستون يحملون الرايات،
وخرجت لرؤيته النساء والرجال،
وفى كل نافذة بُرغُشيّون وبُرغشيات،
والعيون الباكية تفضح أحزانها،
ومن كل الأفواه تخرج نفس الحسرة :
« يا إلهىِ. . . يا له من تابع صالح لو كان له سَيد طيِّب ! ».

٤

لا أحد يستضيف السيد

- طفلة صغيرة فحسب تتوجه إليه تأمره أن يبتعد -
السِّيد يضطر إلى أن يحط رحاله خارج المدينة فى الرمال

بكل ترحاب ودوا لو يستضيفونه، لكن أحداً لم يجرؤ :
كانوا خائفين من الملك **دون ألفونسو**، وغضبه على السِّيد شديد،
وقبل أن يسقط الليل جاءت إلى برغش رسائل،
تحمل أوامر شديدة الصرامة، أجازها الملك بتوقيعه :
« لا أحد يستضيف **سِيدى رُوِى دياث** فى منزله،
ومن يجرؤ على ذلك فقد قال الملك كلمته،
سوف يفقد أملاكه، ومن وجهه تُقْتلع عيناه،
بل ويفقد جسمه وروحه ».
فعم السكان المسيحيين جميعاً حزن كظيم،
وعندما رأوا السِّيد أعرضوا عنه، ومروا به صامتين.

وتقدم القنبيطور متوجها إلى بيته؛
وعندما بلغ الباب وجده مغلقاً بإحكام،
صنع هذا سكان المنزل خوفاً من الملك ألفونسو،
وهو يؤثرون أن يتركوا السِّيد يحطم الباب على أن يفتحوا له،
بينما أتباع سِيدى بأصوات عالية ينادون،
وسكانه من الداخل حتى بكلمة واحدة لا يجيبون.
فهمز السِّيد فرسه واقترب من الباب،
ثم انتزع قدمه من المهماز، وركله بخبطة قوية،
ولكن الباب لم ينفتح لأنه كان محكم الإغلاق.
واعترضته طفلة صغيرة ذات سنوات تسع :
« قنبيطور، يا من فى ساعة طيبة تمنطقت سيفك !،
لقد منعنا منه الملك، وبالأمس جاءت رسالة،

تحمل أوامر صارمة، وبالطابع الملكى ممهورة،
ولن نجرؤ، لأى سبب، أن نقدم لك أو لأتباعك مأوى،
وإذا جرؤ أحد على فعله فقد ثروته ومسكنه،
بل وأكثر من ذلك، يفقد عينيه،
وإذا نزل بنا العقاب يا سيد فأنت لا تربح من أذانا شيئاً،
ارحل إذن، وليحرسك الخالق، ويسبغ عليك نعمه المقدسة»،
هذا ما قالته الطفلة، ثم عادت إلى بيتها.

وفهم السِّيد أن الملك لن يكون عَفُوًّا،
فابتعد عن الباب، وعَبْر برغش مضى مرتحلا،
وعندما وصل إلى كنيسة مريم المقدسة ترجلّ،
وجثا بركبتيه على الأرض مصلياً، ودعا من قلبه.

وعندما انتهى من صلاته امتطى جواده من جديد،
وخرج من باب «مريم المقدسة» وعبر نهر أرْلانثون،
وبجوار برغش، بعد النهر، على الرمال حط رحاله،
ثم أمر فنصبت له الخيمة، وترجل عن جواده،
وهكذا سِيدى، **رُوى دياث**، من تمنطق سيفه فى ساعة طيبة،
عندما لم ير أحداً يستضيفه اتخذ من الرمل معسكراً،
وقريباً منه استراح خلصاؤه الذين رافقوه،
وعسكر السيد كما لو كان فى قمة الجبل،
لقد كان ممنوعاً عليه فى برغش أن يشترى من متجر أو بيت
أى شيء يعينه على العيش،
ولم يجرؤ أحد على أن يبيع له حتى أتفه الأشياء.

٥

مارتين أنتولينييث يجىء إلى برغش ليقدم إلى السِّيد زادا

إنه **مارتين أنتولينييث** البرغشى الوفى،
من جاء يحمل إلى السِّيد ورفاقه خبزاً ونبيذاً،
لم يشتره لهم؛ وإنما أهداهم مما يملك،
أمدهم بما هو ضرورى من زاد ومئونة،
فُسُرّ بها سِيدى القنبيطور الوفى،
وكل المحاربين الذين فى رفقته.

وتحدث البرغشى فاسمعوا ما قال:
«ياقنبيطور، يا من ولدت فى لحظة سعد!،
نبقى هذه الليلة هنا؛ ثم نرحل فجراً،
لأنى سأُعاقب بما قدمت إليكم،
وسوف يلاحقنى غضب **الملك ألفونسو** أكيداً،
وإذا هربت معكم سليما معافى، وعشت إلى جواركم،
فقريباً أو بعيداً سوف يحتاجنى الملك صديقاً،
وإذا لم يحتجنى، فما يهمنى أىّ طريق سلكت.

٦

السيد فقير بلا مال يلجأ إلى فطنة مارتين أنتولينييث - صناديق الرمل

وتحدث سيدى، من تمنطق سيفه فى لحظة سعيدة:

«**مارتين أنتولينييث**، أيها الفارس الشجاع !
إذا عشتُ فسوف أضاعف لك راتبك؛
لقد أنفقت الذهب والفضة لسد حاجتى،
وكما ترى؛ رحلت دون أن أحمل معى شيئاً،

وأحتاج إلى الذهب والفضة لكل حَمْلتى،
وبالقوة يجب أن أنالهما؛ فباللطف لن يعطينى أحد شيئاً؛
وعملا بمشورتكم أريد أن أصنع صندوقين،
نملؤهما رملا، وهكذا يصبحان ثقيلين،
صندوقين مغطيين بجلد مزخرف، ومسمرينْ بفن.

٧

الصندوقان يُصنعان للحصول بهما على أموال من يهوديين بُرْغُشيينْ

ليكنْ لون الجلد أحمر، والمسامير واضحة التذهيب.
اذهب إلى **راكيل وفيداس** وقل لهما فى السر :
« إنهم فى **برغش** رفضوا أن يبيعونى، والملك غضب علىَّ ونفانى،
ولا أستطيع أن أحمل معى ثروتى، ومن ثقلها أعانى،
وأفضل أن أرهنها لكم مقابل مبلغ معقول،
وعليكما أن تحملا الصندوقين ليلا حتى لا يراكم المسيحيون،
الخالق وحده يراكم، ومعه كل القديسين،
وما من طريق آخر، فأنا مكره على ما أصنع الآن ».

٨

مارتين أنتولينييث يعود إلى برغش بحثاً عن اليهوديين

ولم يتأخر **مارتين أنتولينييث**،
ذهب إلى برغش، ودخل الحصن، حيث يعيش اليهود،
وطلب أن يرى **راكيل وفيداس** سريعاً.

٩

اتفاق مارتين أنتولينييث مع اليهوديين - اليهوديان يذهبان إلى خيمة السيِّد ويحملان الصندوقين مملوئين رملا

كان **راكيل وفيداس** جالسين سويًا، مشغولين كليهما
يعدّان الاموال الطائلة التى ربحاها معاً،

وعندما وصل **مارتين أنتولينييث** سأل حذراً مترقباً :
« أين **راكيل وفيداس**، صديقاى الغاليان ؟
أريد أن أتحدث إليهما وحدهما »
لم يتأخرا عليه، وانتحى الثلاثة مكاناً قصياً يتسارّون :

« **راكيل وفيداس**، مُدَّا يديكما كلاكما، ـ عاهدانى،
لا تكشفا سرى لمخلوق، لا للمسلمين ولا للمسيحيين،
سأجعل منكما ثريين إلى الأبد، ولن تعيشا مطية العمل،
اعلما أن **القنبيطور** هو القائم على استلام الجزية،
وقد تسلم أموالا طائلة، الذهب فيها أكثر من الفضة،
واحتفظ لنفسه منها بكل ما هو غال وثمين،

ولهذا اتهمه حسّاده عند الملك بأنه استولى على خير ما فيها،
وفى الحقيقة يملك صندوقين مملوءين من الذهب النضار.
ولعلكما تعرفان أن الملك غاضب عليه،
فاضطر إلى ترك ثروته وحصونه وقصوره،
ولا يستطيع الرحيل حاملا معه ثرواته من الذهب حتى لا ينكشف أمره،
ويريد **القنبيطور** أن يترك الصندوقين عندكما،
وأن تقرضاه مقابل رهنهما ما هو معقول ومقبول،
خذا إذن الصندوقين، وضعاهما فى حرز أمين.
وبقسم عظيم احلفا، وعاهدانى كلاكما،
ألا تفتحاهما طوال ما يتبقى من العام».

وفى تأمل عميق فكر **راكيل وفيداس** لحظة:
«الذى يهمنا دائماً أن نربح من أية صفقة شيئاً،
ونحن نعرف أن **السيِّد** ربح كثيرًا،
عندما اقتحم أرض المسلمين وقبض الأموال منهم،
ومن يملك ثروات طائلة لا ينام مطمئنا،
سوف نأخذ هذين الصندوقين إذن،
ونضعهما فى مكان أمين غير معروف، لا يبلغه أحد،
ولكن، حَدِّثنا عن **السيِّد**، كم يطلب فى مقابلهما مالا؟
وكم من الفائدة يعطينا لما تبقى من العام».

تردّ **مارتين أنتولينيث** الحذر فى هدوء:
«سِيدى يحبّ ما هو حق وعدل،
رجال حوله، وآخرون من كل صوب يجيئون، وكلهم معدمون،

وأعتقد أن ست مائة مارك تكفيه لمواجهة نفقات تابعيه ».
قال **راكيل وفيداس** : « سنعطيها له مسرورين ».
فردّ **مارتين** : « انظرا، الليل يزحف علينا، **والسيد** عجل، نافد الصبر،
وفى حاجة ماسة لأن تعطونا الست مائة مارك الآن ».
وردّ **راكيل وفيداس** : « الاتفاقات التجارية لا تتم هكذا،
بل نأخذ نحن أولا، ثم نعطيك ثانياً ».
فقال **مارتين أنتولينييث** : « ليس لدى مانع،
ومعاً، نذهب ثلاثتنا متفقين، لرؤية **القنبيطور**،
ثم نعينكم، وذلك حق وواجب،
فى نقل الصندوقين؛ ووضعهما فى مكان أمين،
على ألا يعرف ذلك إنسان، لا مسلم ولا مسيحى ».
فردّ **راكيل وفيداس** : متفقون، ، حينئذ ندفع لكم؛
ما إن يصل الصندوقان هناك، حتى تكون فى يدك ست مائة مارك ».
مسرعاً امتطى **مارتين أنتولينييث** صهوة جواده عائداً،
وتبعه **راكيل وفيداس** راغبين ومسرورين.

لم يمرّوا عبْر الجسر، ولكنهم خاضوا صفحة النهر،
حتى لايحس بهم مخلوق فى برغش،
وعجلين دخلوا خيمة **القنبيطور**،
وما إن دخلوا حتى تقدم اليهوديان، وقبّلا يد **السيِّد**،
وابتسم سِيدى، ثم تحدث إليهما :
« يادون **راكيل**، ويادون **فيداس**، لعلكما نسيتمانى !،
إنى أدع هذه الأرض مرغماً لأن الملك نفانى،

ويخيل إلىّ أنكما تذكران عنى شيئًا،
ما مد الله فى حياتكما فلن تتعرضا لمزيد من قسوة العمل».
حينئذ قبّل **راكيل وفيداس** يد سيدى.
ثم أعلن الطيّب **مارتين انتولينييث** صيغة الاتفاقَ،
«ست مائة مارك مقابل رهن الصندوقين،
يحتفظان بهما حتى نهاية العام،
على هذا تم الاتفاق، وعلى تنفيذه حلفًا،
وإذا فتحاهما قبل انتهاء السنة يعاقبان أكيدا،
ولن يعطيهما سيدى من أرباحهما درهما واحداً».
وقال **مارتين أنتولينييث**: «احملا الصندوقين، الآن، سريعاً،
احمل ياراكيل، وأنت **يافيداس،** وضعاهما فى حرز أمين،
وسأذهب معكما لأقبض المال المتفق عليه،
لأن سيدى عليه أن يرحل قبل أن تغنى الديكة»
يا لسرورهما وهما يحملان الصندوقين!
ولم يستطيعا رفعهما رغم قوتهما،
لقد غمرت البهجة **راكيل وفيداس** فرحاً بما أصابا من أموال،
ولأنهما سوف ينفقان ما تبق لهما من الحياة فى ثراء.

١٠

اليهوديان يودعان السيِّد - مارتين أنتولينييث يذهب مع اليهوديين إلى برغش

أخذ **راكيل** يد سيدى ليقبلها:

«**قنبيطور!...** يا من فى ساعة طيبة تمنطق سيفه،
دع قشتالة إلى أرض بعيدة، اذهب وعش مع أناس لا تعرفهم،
ذلك هو حظك، وستكون أرباحك عظيمة،
ياسِيدى، أقبّل يدكم، وأرجو صنيعا:

عباءة من جلد، عربية الصنع، جميلة الشكل، حمراء اللون»
وقال السيِّد: «شيء يسرنى، وأعدكم بإرسالها، كأنها قد جاءتكم فعلا،
سوف أرسلها لكم من هناك وإلا فاخصما ثمنها مما فى الصندوقين»

حمل **راكيل وفيداس** الصندوقين،
ومعهما **مارتين أنتولينييث**، وذخلوا بُرغش متخفيِّن.
وفى سرية تامة وحذر شديد وصلوا البيت،
وفى وسط القصر بسطا مُصلى[١]
وفوقها ملاءة ناصعة البياض، دقيقة النسج،
وعليها نثرا دفعة واحدة ثلاث مائة مارك من الفضة،
عدّها **دون مارتينو**، وبلا نقد أخذها،
والثلاث مائة الباقية سوف يدفعانها ذهبا نضارا.
وملأ **دون مارتينو** الأكياس الخمسة التى أحضرها معه،
وعندما أتم هذا اصغوا إلى ماتحدّث به:
«يادون راكيل و يادون فيداس، الصندوقان الآن معكما،
وأنا مما ربحتم بسببى أستحق هدية، زوجا من النعال!»

---

(١) أى سجادة، ولكن الملحمة تستخدم الكلمة العربية Almoçalla وكانت شائعة الاستعمال فى الأندلس، عند المسلمين والمسيحيين على السواء، من يتكلم العربية أو من يتكلم الرومانثية.

١١

السيد وقد تسلم المال من مارتين أنتولينييث يتهيأ للرحيل

وانتحى **راكيل وفيداس** جانبا، وبينهما دار الحديث همسا،
فلنعطه هديةً ثمينة، لقد بحث عناً وأثرانا :
« يا **مارتين أنتولينيث**، أنت بُرغُشىّ معدود،
تستحق منا مكافأة طيبة، سندفعها لك شاكرين،
ومنها تستطيع أن تشترى عباءة غالية، ونعلا من جلد متين،
سنقدم لك هدية ثلاثين ماركا كاملة،
إنها حق لك فقد صنعت فينا معروفا، وطبقا للاتفاق
عند الاختلاف أنت شاهد العقد الذى أمضيناه ».
فشكرهما **دون مارتين** وقبض الثلاثين ماركا،
وبعد قليل خرج من البيت فودّعاه كلاهما،
خّلف برغش وراءه، وعَبَر جسر أرْلانثون،
وذهب إلى خيمة من وُلد فى لحظة سعيدة،
فاستقبله **السيِّد** مفتوح الذراعين،
« وصلت ؟ **مارتين أنتولينييث**، يا تابعى الوفى،
متى يأتى اليوم الذى أستطيع أن أكافئك فيه ! ».
– « نعم، أنا هو، **يا قنبيطور**، وأحمل معى أخبارا طيبة،
ست مائة مارك لك، وثلاثون ربحتها لى،
مُرْ بالخيمة تُطوى، وهيّا بنا سريعا،
لنبلغ مدينة سان بطرس دى كاردينيا مع غناء الدِّيكة،

ونرى زوجتك، هذه السيدة العاقلة النبيلة،
فلنطو الأرض طيًّا، ونخرج من مملكة قشتالة،
شيء لابد ن نفعله، فالأجل المحدّد للنفى قارب النفاد».

١٢

السيد يمتطى جواده، ويودع كتدرائية بزغش وينذر بأن يصلى ألف مرة فى مذبح العذراء.

وما إن قيلت هذه الكلمات حتى طويت الخيمة،
وركب سيدى ورفاقه الخيل مسرعين،
ونحو شنتمرية وجه الفارس جواده،
ورفع يده اليمنى ملوّحاً ثم صلّب يقول :
« أشكركَ يا إلهى، يا مالك الأرض والسماء،
لتَحفظنى رعايتك المجيدة **يا مريم** المقدسة !
من هنا سأفارق قشتالة لأن الملك غاضب علىّ،
ولست أدرى هل أعود يوماً للعيش فيها مرة أخرى،
فلتصحبنى حمايتك فى رحلتى يا مجيدة،
ساعدينى، أعينينى فى ليلى ونهارى،
وإذا ما فعلت ذلك، وتحققتْ آمالى،
فسأقدّم لمذبحك هبات جميلة وغالية،
ولك نذرٌ علىّ أن أصلّىَ ألف قدّاس ».

١٣

مارتين أنتولينييث يعود إلى المدينة

ألقى الرجل الرزين القوى كلمة الوداع حزينا،
ثم أرسلوا الأعنّة، وحثُّوا الخطى،
وقال **مارتين أنتولينييث** البُرغُشى الوفى :
« سأذهب لأرى زوجتى، لأصبّرها، وسأودّعها هادئا،
وأرشدها كيف تتأسّى فى غيبتى،
وإذا صادر الملك ثروتى فلن يهمنى،
وسوف أعود إليكم ثانية قبل أن تشرق الشمس ».

١٤

السيد يذهب إلى كاردينيا ليودع أسرته

بينما عاد دون **مارتينو** إلى بُرغُش أخذ سيدى وجهة أخرى،
انطلق إلى سان بطرس دى كاردينيا، وجدّت الخيل ما استطاعت،
وحوله رجال يفتدونه بكل حماسة،
وعندما وصل **القنبيطور** الطيب إلى سان بطرس،
وجد الشمّاس **دون شانجه،** وهو مسيحى ومخلص للخالق،
يصلى مع الفجر الذاهب صلاة الصباح لله،
وهناك كانت **دونيا خمينا** وخمس سيدات أخريات جئن معها،
تدعو القديس بطرس، والخالق :
« أنت، يا هادى الجميع، احفظ سيدى القنبيطور ».

١٥

رهبان كاردينيا يستقبلون السيد وتصل خمينا وبنتاها للقاء المنفى

طرقوا الباب. وشاع الخبر بين الجميع،
يا إلهى!... كان وجه الشماس **دون شانجه** ينضح بشرا.
ووسط المشاعل والقناديل ذهبوا إلى الفناء.
وفى بهجة عارمة استقبلوا من وُلدَ فى لحظة سعيدة،
وقال الشماس **شانجه**: «شكرا لله يا سيدى»
أنتم الآن عندى، إلى جوارى، وستكونون ضيوفى».
وقال **السيد**، من ولد فى لحظة سعد:
«شكرا سيدى الشماس وبركم مدفوع،
سوف أعد الطعام أنا، لى ولأتباعى،
ولأنى مكره على الرحيل عن هذه الأرض سأترك لكم خمسين ماركا،
وإذا مد الله فى حياتى فسوف أدفعه لكم مضاعفا،
فلا أودُّ أن أحمل الدير مزيدا من النفقات؛
ولدُونيا **خمينا** أعطيكم خمسين ماركا أخرى،
هى وبنتاها، ومن معها من سيِّدات، آوِهنّ هذا العام،
سأترك لكم بنتىَّ طفلتين، فأحطمهما برعايتك،
أوصيك بهن خاصة، أنت يا شماس، **دون شانْجهْ**،
هما وزوجى، اعتن بهن جيدا، وقدم لهن كل ضروب الرعاية،
وإذا نفد المال، أو نقصكم شىء، فسوف أرسل لكم ما تحتاجون،
كل مارك تنفقه عليهن أردُّه إلى الدير أربعة».

وأمَّن الشماس على قوله ووافق مغتبطا،
هاهى **دونيا خمينا** قادمة مع بنتيها،
كل طفلة مع حاضنتها تحملها بين ذراعيها،
واقتربت **دونيا خِمينا**، وأمام **القنبيطور** جثت على ركبتيها،
تبكى غزيرة الدمع، تريد تقبيل يديه :
« شكرا **قنبيطور**، يا من وُلدَت فى لحظة سعد؛
إن دسائس المؤذين المخربين أخرجتك من بلدك منفيا ».

١٦

خمينا تأسى لأن طفولة بنتيها بلا حماية
السيد يأمل أن يتزوجن زواجا مشرفا

« اسمعنى ياسِيد؛ يا صاحب اللحية الغزيرة،
أنا هنا فى حضرتك، وبنتاك
غَضَّتان، ومازالتا بعدُ طفلتين،
وهناك السيدات اللائى يقمن على خدمتى،
وفيما أرى أنت تتهيأ للرحيل،
وسنفترق عنك من هذه اللحظة إلى حين،
فبحق مريم المقدسة هبنا نصيحة مخلصة ».
ففتح ذراعيه واحتضن طفلتيه، صاحب اللحية الجميلة !،
وضمهما إلى قلبه فقد كان يحبهما كثيراً.
وبكت عيناه بدمع غزير وتنهد عميقاً :
« يا **دُونيا خمينا**، يا زوجتى الوفية،

أحبك كثيراً، مثل ما أحب نفسى.
أرانى مكرهاً على الرحيل، وأحياء سنفترق منذ اللحظة.
سأذهب أنا، وأنت هنا تتألمين.
إليك أضرع يا إلهى، ويا مريم المقدسة:
بيدىّ هاتين أزوِّج بنتينا،
وهبنى حظا وطول عمر،
لكى أسعدكم يا زوجتى الشريفة».

١٧

مئات القشتاليين يتجمعون فى برغش ليرحلوا مع السيد

أعدوًّا وليمة كبرى للقنبيطور الطيب،
وفى نغم مؤثر بدأت أجراس كنيسة سان بطرس تدق،
وعَبْر قشتالة كلها، بين قراها، تحدَّث الناس بالخبر،
كيف رحل سِيدى القنبيطور عن أرضه منفيًّا.
بعض الذين تبعوه خسروا قصورهم، وفقد الآخرون ألقابهم،
وفى نفس اليوم عَبَر جسر أرلانثون؛
مائة وخمسة عشر فارساً مجتمعين؛
كلهم يسأل عن سِيدى القنبيطور،
وانضم إليهم **مارتين أنتولينييث**،
ثم اتجهوا جميعاً إلى سان بطرس ليلقوا من ولُدَ فى ساعة طيبة.

١٨

المائة قشتالى يصلون إلى كاردينيا ويعلنون ولاءهـم للسـيد - السيد يتهيأ لمواصلة السير فى الغد - قداس الصباح فى كاردينيـا - صلاة خمينا - وداع السيد لأسرتـه - وصـايا السـيد الأخـيرة لشماس كاردينيا - السيد يسلك طريقه نحو المنفى، ويهبـط الليـل بعد أن اجتاز نهر دويره.

وعندما رأى سِيدى، **ابن بيبار،**
أنَّ جماعته نمت، وقوتهم زادت،
امتطى جواده مسرعا وخرج للقائهم،
وعندما وقعت عينه عليهم غلبته الابتسامة،
ثم أقبلوا عليه جميعا يقبّلون يده ولاء.
وتكلم سِيدى صادق العزيمة قويا :
إنى لأرجو الله، والأب الروحى،
وقد تركتم من أجلى بيوتكم وأراضيكم،
أن أصنع لكم الكثير الطيب قبل أن أموت،

وما خسرتموه لن يضيع سدىً، سوف تقبضونه مضاعفاً.
كان سِيدى طافح البِشْر بانضمام آخرين إليه، ونموّ جيشه،
وكل رجال الحملة مبتهجين مثله، لأنهم معه،
ومر من الأجل المحدد ستة أيام،
وبقيت ثلاثة فحسب، لا تزيد ساعة كما تعرفون،
وأمر الملك بمراقبة سيدى،

حتى إذا انقضى الأجل ولمّا يزل فى أرضه بعد،
لم يستطع الإفلات ولو دفع ما فى الأرض من فضة وذهب،
وبينما النهار يتلاشى، والليل يتأهب للدخول،
أمر كل فرسانه أن يجتمعوا :
« اسمعونى أيها الرجال، لست أريد أن أسبب لكم ألما،
ولو أن ما معى قليل أوّد أن أعطيكم نصيبكم كاملا،
وليكن واضحا فى أذهانكم ما يجب عليكم أن تفعلوا :
صباحا عندما تغنى الديكة،
أسرعوا وأسرجوا خيولكم،
وفى كنيسة سان بطرس سنجد الشماس الطيب يقرع أجراس الصباح،
فيصلى بنا قداس الثلاثة الأقداس،
فإذا انتهى القداس أسرعنا السير،
لأن نهاية الأجل تقترب، والطريق أمامنا ممتد ».
وما إنْ أمر سيدى حتى أطاع الجميع،
تصرّم الليل، واقترب الصبح،
وصاحت الديكة للمرة الثانية فأسرعوا يُسْرِجون.
وأجراس الصباح تدق سريعة متلاحقة ،
فذهب سيدى وزوجته إلى الكنيسة،
وعلى درجات المذبح ألقت **دونيا خمينا** بنفسها،
ترجو الخالق بكل ما فى وسعها،
أن يحفظ الله سيدى **القنبيطور** من كل سوء :
« ياإلهى المجيد، ياأبانا الذى فى السماء،

يا من خلقت السماء والأرض، وفى اليوم الثالث البحار،
وخلقت النجوم والقمر والشمس لتدفع النهار
وتمثلت شخصا فى مريم المقدَّسة،
ووُلِدتَ فى بيت لحم كما كانت إرادتك،
فمجَّدك الرعاة، وتغنوا بحمدك!
وجاء ثلاثة ملوك من الجزيرة العربية ليعبدوك،
ملتشور، وجاسبار، وبالتسار،
وقدَّموا لك مسرورين الذهب والطيب والمرَّ،
أنت، يامن أنقذت **يونسَ** عندما ابتلعه اليّم،
ودانييل من الأسود فى السجن اللعين،
وقدمت العون فى روما للسنيور **سان سباستيان،**
وأنقذت سانتا **سوزان** من الجريمة المزيفة،
وعلى الأرض بقيت اثنين وثلاثين عاماً ياروح الإله،
وأظهرت معجزات كثيرة خارقة، واجبنا أن نتذكرها:
جعلت من الماء نبيذاً، ومن الحجر خبزا،
ونهض **أليعاذر** من القبر حيًّا لأنها كانت إرادتك،
وتركت اليهود يمسكون بك فيما يُسمى جبل الزيتون Calavrio،
ثم حملوك إلى جبل الجلجلة Golgota حيث صلبوك وتركوك تموت[1]،
وإلى جوارك لصان، واحد فى كل جانب،

(١) تصور الشاعر أن كلمتى Golgota, Calvario اسمان لجبلين مختلفين فى فلسطين، وأن اليهود أمسكوا بالمسيح على الجبل الأول، وصلبوه على الجبل الثانى، والحق أنهما اسمان لجبل واحد، الأول اسمه فى اللاتينية، والثانى فى العبرية، أما الجبل الذى أمسكوا بالمسيح عنده فهو جبل الزيتون.

أحدهما للجنة، والآخر لن يراها أبداً،
وأنت على الصليب صنعت معجزة كبرى؛
كان **لونجينوس** أعمى؛ لم ير فى حياته النور أبدا؛
ففتحت جنبه بسكين وجرى الدم غزيرا
على حد السكين الأسفل؛ وبه تلطخت يداك؛
فرفعها **لونجينوس** وحملها إلى وجهه،
وفتح عينه فرأى كل الجهات،
وفى الحال آمن بك لأنك أبرأته من علته،
ومادفنت فى القبر حتى عدت مبعوثاً،
ثم هبطت إلى الجحيم لأن هذه كانت إرادتك،
فحطمت الأبواب وأخرجت من هناك الآباء القديسين،
أنت ملك الملوك، وأبو العالم كله،
إننى أعبدك، وأومن بك، بكل قوتى،
وأرجو القديس بطرس أن يساعدنى فى دعائى
لسِيدى القنبيطور، كى يحفظه الله من كل سوء.

وإذا كنا سنفترق اليوم، فسوف نلتقى غداً إذَا امتدت بنا الحياة».
وبانتهاء الدعاء انتهى القدَّاس،
وخرج الجميع من الكنيسة وامتطوا صهوات الخيل.
وتأهب **السِّيد** ليعانق **دونيا خمينا**،
بينما **دونيا خمينا** تتأهب لتقبل يده،
تبكى عيناها والهة، ضائعة لا تعرف لها مستقرا!.
وعاد هو يتأملّ بنتيه :

« فى رحاب الله أدعكم، إنه الأب الروحى.
سنفترق الآن، والله وحده يعلم متى نعود فنلتق ».
وبكت عيناه بدمع مرير كما لم يبك من قبل،
وفى مثل انتزاع الأظافر من اللحم كانت لحظة الوداع،
سِيدى وأتباعه سارعوا إلى امتطاء جيادهم،
وألقى السيد نظرة على أتباعه مستعرضاً، ثم استدار برأسه.
وفى حماسة حارة تكلم **مينايا ألبار هانييث** :
« سِيد، يامَن وُلِدَ من أم فى لحظة طيبة، لتكن قويًا،
نحن نفكر فى الطريق ولا نريد أن نحيد عنه،
وكل هذه الآلام ستنقلب سعادة وأفراحاً،
والله الذى وهبنا الروح سوف يشملنا بحمايته ».
نادوا الشماس **شانجه**، ومن جديد عادوا يوصونه مؤكدين، أن يُعنى بدونيا خمينا وطفلتيها اللائى عنده،
وكل السيدات اللاتى يقمن فى رفقتها،
وتأكد الشماس من أنه سيربح تعويضاً كبيراً.
وعندما اقترب دون شانجه بادره **ألبار هانييث** :
« شَماس ! . . . إذا رأيت خلقاً قادمين لينضموا إلينا،
يحملون سلاحهم ويتهيئون للمسير،
فقل لهم أن يقتفوا أثرنا ويغذوا السير،
إنهم يستطيعون أن يلحقوا بنا، فى القرى كنا أو فى الوهاد »
امتطوا صهوات الخيل، وأرسلوا أعنَّتها، وبدأوا يتحركون،
لأن الأجل المحدَّد للنفى قارب الانتهاء،

واستسلم سيدى للنوم فى قرية « إسبناث دِى كان ».
وفى تلك الليلة لحق به خلق كثير، توافدوا عليه من كل مكان!
وبكرة اليوم التالى، تابعوا الرحلة من جديد،
فى هذه اللحظة كان **القنبيطور** الوفى يخلِّف أرضه وراءه،
سلك طريقه على يسار مدينة سان استبيان دى غرماج الكبيرة،
ومن بعدها اجتاز القوبية حيث تنتهى قشتالة،
وكان عليه أن يمر بسفح كينيا،
ومن فوق قرية نيفاس دى بالوس عبر نهر دويره،
وعندما وصل مدينة فجير آثر سيدى أن يستريح.
وهناك أيضاً اجتمع حوله خلق كثير جاءوا من كل حدب وصوب.

١٩

آخر ليلة أمضاها السيد فى قشتالة - ملاك يواسى المنفى

وعندما أقبل المساء نام سيدى،
غمره نعاس حلو فاستغرق فى نوم لذيذ،
وجاءه فى نومه الملاك جبريل:
« ارحل ياسيد، أيها القنبيطور الطيب،
فلم يحدث أبداً أن رحل رجل له من الحظ مالك،
ومادمتَ على قيْد الحياة، فكل شىء سيمضى لك على مايرام »،
وعندما استيقظ السيد من نومه، وتذكر حلمه، صلَّب.

٢٠

السيد يعسكر على حدود قشتالة

صلّب على وجهه واستعاذ بالله،
وكان محمرًّ الوجه، طافح البِشْر، مما رأى فى منامه،
وفى الصباح التالى بدأوا يرحَلون،
كانوا يعرفون أنه اليوم الأخير من الأجل المضروب،
فاتجهوا نحو جبال مييدس، وفيها حطوا رحالهم يستريحون،
على يمين قلاع أتيينثا حيث يقيم المسلمون.

٢١

السيد يتثبت من عدد رجاله

اليوم لم يزل نهاراً، لما تغرب شمسه بعد،
فقام سيدى **القنبيطور** باستعراض قواته، وتبين عددهم،
ودون احتساب الرَجاَّلة، والشجعان الذين معه،
أحصى عددَهم فكانوا ثلاث مائة فارس، كلهم يحملون رايات

٢٢

السيد يدخل مملكة طليطلة الإسلامية وهى فى حماية الملك ألفونسو، وتدفع له الجزية

قدِّموا الشعيرَ للخيل مبكرين، ينصركم الخالق !،
مَن أراد أن يأكل فعل، ومن لم يرد فليسرع بالركوب.

سوف نعبر سلسلة الجبال وهى مرتفعة وعسيرة،
ومن ثَم نستطيع هذه الليلة أن نخلف أرض الملك **ألفونسو** وراءنا،
وبعد ذلك من يبحث عناً سريعا يجدنا.
ليلا عبروا سلسلة الجبال، ثم أشرق الفجر،
وتحت، عبر السفح، بدأوا جميعاً يسيرون.
ووسط غابة مخضرة وواسعة،
تهيَّأ سِيدى ليستريح؛ وبدأوا يوزعون الشعير،
وصارح **السِّيد** رجاله جميعا بأنه يوَد الرحيل ليلا،
فقبل تابعوه الطيبون راضين ومخلصين،
وكل ما يأمرهم به سيِّدهم جميعا يطيعونه،
وعندما انتشر الليل بدأوا يرحلون،
لأن سِيدى حريص على ألا يكتشفوه أو يحسّوا به»
وقد ساروا طوال الليل دون أن يتوقفوا لحظة،
فبلغوا موضعاً يقال له قسطلون دى هنارس،
وعنده تهيأ سِيدى والذين معه ليعدوا كمينا.

٢٣

خطة هجوم - قسطلون تسقط فى يد السيد فجأة - الإغارة على القلعة

أمضى سِيدى **القنبيطور** كل الليل فى الكمين،
عملا بنصائح **ألبار هانييث دى مينايا :**
«يا سِيد، يا من تمنطقت سيفك فى ساعة طيبة!،

ونحن نعدّ الكمين لقسطلون،
تبقى أنت مع مائة من رجال حملتك
وراء الجميع، مختفين تحرسون المؤخرة،
وتعطونى مائتين لكى أذهب بهم فى المقدِّمة،
ومعنا الله، وحظك، سنربح غنائم طائلة».
فرد **القنبيطور**: «صواب ما قلت يامينايا،
أنت، مع مائتين، تذهب للإغارة،
ويصحبك **ألبار ألبارث**، و **ألبارسالفادورث** فارس نبيل
ومعكم **جالين غرسية** النبّال الجرىء.
فرسان ممتازون أولئكم الذين رافقوا مينايا.
اهجموا فى جرأة ولا تتركوا وراءكم شيئا خائفين.
اذهبْ من ناحية «هيتا»، ومن تحت مارًّا بوادى الحجارة،
حتى تبلغ طليعةُ الحملة مدينةَ القلعة،
واحملوا معكم بعناية كل الغنائم،
ولا تتركوا وراءكم شيئا خائفين من المسلمين،
وأنا مع المائة فارس سأبقى هنا فى المؤخرة،
مدافعا فى قسطلون، لأنى أتوقع خديعة كبيرة،
وإذا تعرضت المقدمة لأى خطر،
أرسلْ إلى عاجلا فى المؤخرة،
والمساعدة التى سأقدمها لكم سوف تتحدث عنها كل إسبانيا».
نودى الذين عليهم أن يذهبوا للإغارة،
والذين سيبقون مع سِيدى فى المؤخرة.

وانهزم الفجر، وأقبل الصباح،
ثم أشرقت الشمس. يا إلهى.. كم هو رائع تفتح الحياة!
نهض الجميع فى قسطلون،
فتحوا الأبواب وأخذوا طريقهم إلى خارج المدينة،
لكى يباشروا أعمالهم، ويُعنوا بمزارعهم،
خرجوا جميعاً، وتركوا أبوابهم مفتوحة،
وقلة من الناس بقيتْ فى قسطلون،
أما الذين خرجوا فانتشروا فى كل جانب،
حيث ترك القنبيطور الكمين،
وأسرع، دون تأخير، إلى قسطلون ليحاصرها،
ويأسر كل المسلمين والمسلمات،
ويغنم القطعان التى ترعى حول المدينة،
فاقترب سيدى **دون لذريق** من أبوابها،
والذين كانوا حرّاساً عليها عندما رأوا تدفق الجنود،
امتلأوا رعبا وتركوا المدينة هاربين،
فاجتاز سيدى **رُوى دياث** أبوابها:
شاهراً سيفه، عاريا فى يده،
وقتل ممن أدركهم خمسة عشر مسلما،
وربح قسطلون، وما فيها من ذهب وفضة،
وجاء رجاله بالغنائم محملين،
فتركوها بين يدى سيدى، دون أن يهتموا بما تساويه.
بينما المائتان وثلاث ممن هم فى المقدمة،

يطوفون الأرض وينهبون كل ما عليها،
وحتى مدينة القلعة وصلت راية **مينايا**،
ومنها عادوا محملين بالغنائم،
عبروا « هنارس »، من فوقها، مارين بوادى الحجارة،
ومن هناك جاءوا بغنائم كثيرة لا تحصى،
قطعان عديدة من الغنم والبقر،
ومن الثياب الغالية، وثروات أخرى هائلة،
ويميناً حيث مرت راية **مينايا**،
لم يجرؤ مخلوق على أن يهاجمهم من الخلف،
ومع الغنائم التى جنوها عادت الحملة،
متوجهة إلى قطسلون حيث كان **القنبيطور**،
فترك **القنبيطور** الحصن محروساً فى أمان،
وخرج للقاء رجاله على رأس مؤخرته،
وبأذرع مفتوحة استقبل **مينايا** :
« وصلت ؟ . . يا **ألبارهانييث**، يا صاحب النبال الجريئة،
عندما أرسلتكم إلى المعركة وضعت فيكم كل أملى،
والآن ، فلنجمع معا كل الأرباح، وكل الغنائم، ما معكم وما معى،
وسوف أعطيك خمسها، إذا أردت **يا مينايا** ».

٧٤

مينايا لا يقبل أى نصيب من الغنائم ويدعو للسيد شاكراً علانية

« من قلبى أشكركم، أيها **القنبيطور** المعدود !

الخمس الذى أمرت بأن يدفع إلىّ،
يبق لكم لكى تدفع منه لألفونسو القشتالى ما تريد،
لن آخذ نصيبى، وها أنذا أرده لكم، وعندكم يبق،
عليه عاهدت الله، ذلك الذى فى الأعالى،
حتى أحقق رغائبى فوق جوادى الأصيل،
محاربا المسلمين فى الحقول،
مستخدما النبال، وشاهراً سيفى فى يدى،
وعلى كوعى يتدفق الدم حاراً وملتهبا،
أمام **رَوِى دياث** المقاتل المعدود،
إنى أرفض أن تدفع لى مالا لا أستحقه وما توقعته،
ومن الآن إذا غنمت أشياء غالية الثمن فسأبقى مع نصيبى.
أما غنائم اليوم، فهى بين أيديكم، كلها لكم».

٢٥

السيد يبيع خمسه للمسلمين - ولا يريد صراعا مع الملك ألفونسو

كل الغنائم كانت مكوّمة هناك.
وفكرّ **السِّيد**، من تمنطق سيفه فى ساعة طيبة:
إن الملك **ألفونسو** قد يجىء مع جيشه،
ليبحث عنه، وليهاجمه مع كل أتباعه.
فأمر السِّيد رجاله بتوزيع الغنائم كاملة بأسرع ما يستطيعون،
وخمسه من الغنائم كقائد يقيدونه فى سجل،
وأن يأخذ الفرسان سهمهم المقدّر، وما أكثره!

مئة مارك من الفضة لكل واحد،
وأن يأخذ الراجل نصف ما يأخذ الفارس، بلا نقص أو زيادة،
وبقى الخمس لسيدى كاملا،
لا يستطيع أن يبيعه، وليس هناك من يُهدى إليه،
ولا يَودّ أن تعود حملته بأسرى أو أسيرات.
فحادثَ أهل قسطلون، وأرسل يسأل فى هيتا ووادى الحجارة،
ومهما يكن السعر الذى يدفعونه فستكون أرباحهم عالية.
إذا رغبوا فى شراء خمسه، فكم يدفعون له ثمنا؟
دفع له المسلمون أكثر من ثلاثة آلاف مارك من الفضة،
فقبل سيدى ذلك العرض وسُرَّ به كثيراً،
وفى اليوم الثالث سلّموه المبلغ كاملا بلا نقصان.
حينئذ فكرّ سيدى وكل رجال حملته،
فى أن الحصن ضاق بهم فلم يعد يتسع لهم جميعا،
على أى حال لقد استولى عليه رغم أنهم قطعوا عنه الماء،
« والمسلمون فى سلام، فقد أمضوا معه الاتفاق،
والملك **ألفونسو** يمكن أن يجىء على رأس جيشه،
ولهذا أريد أن أغادر قسطلون، اسمعونى جميعاً، وأنت **يا مينايا!** ».

٢٦

السيد يتجه نحو أرض سرقسطة،
وهى فى حوزة ملك بلنسية المسلم

ما أقوله لكم لا تأخذوه أبدا مأخذا سيئا،

تعرفون أننا فى قسطلون لا نستطيع الإقامة،
لأن الملك **ألفونسو** قريب منا، ويبحث عنا،
كذلك لا أريد تدمير الحصن،
وسأطلق سراح المائة مسلم والمائة مسلمة الذين معنا،
حتى لا يتحدثوا عنى بسوء، رغم أننى استوليت على ثرواتهم،
وقد دفعت لكل واحد منكم نصيبه؛ ولم يتخلف أحد،
وغدا صباحا نفكر فى الرحيل؛
فمع ألفونسو، سيدى، لا أريد خصاما.
من الحصن الذى استولوا عليه رحلوا جميعا أغنياء،
وحياهم عند الرحيل المسلمون والمسلمات،
ومن فوق اتجهوا إلى هنارس، يغذون السير ما استطاعوا،
اجتازوا مدينة القرية عابرين، ومضوا بلا توقف،
وخلّفوا وراءهم كهوف أنكيتا،
ثم خاضوا المياه ودخلوا سهول تارانث،
وخلالها تقدمت القافلة ما استطاعت السير،
وألقى سِيدى رحاله بين أريثا وثِتِينا،
وانتزعوا غنائم وافرة من كل أرض عبروها،
ولم يدرك المسلمون مدى فداحة الجرأة التى تتحرك بينهم،
وفى اليوم التالى تحرك سِيدى دى بيبار،
فجاز الحامة وعبر هوث،
ومر بقرية بوبييركا مخلفا وراءه أتيكا؛
ثم استراح سِيدى على مشارف القُصير،

فوق تل مدوّر، قوى ومرتفع،
هناك يعسر أن يُحصر عنهم الماء،
فقريبا منهم يجرى نهر شَلون،
وسِيدى **دون لذريق** يأمل أن يستولى على القصير.

٢٧
السيد يعسكر على مشارف القصير

عَسْكر رجاله على التلِّ، وأخذوا يُعدُّون خيامهم،
بعض الخيام على سفح الجبل، وبعضها الآخر قريبا من الماء،
والقنبيطور الطيب، من تمنطق سيفه فى لحظة سعد،
حول الهضبة تارة، وإلى جانب النهر تارة أخرى،
يأمر رجاله جميعا أن يحفروا الخنادق،
وما من أحد يجرؤ على الهجوم، ليلا أو نهارا،
لأنهم يعرفون أن سيدى هناك مقيم.

٢٨
خوف المسلمين

عَبْر كلِّ الأرض انتشر الخبر:
إن **القنبيطور** سيدى قد عسكر هناك،
ترك المسيحيين وجاء ليعيش مع المسلمين،
وجيرانه لا يجرءون، خوفا منه، على العمل فى المزارع القريبة،
كان سيدى مبتهجا، وكذلك كل تابعيه،
لأن سكان حصن القُصير سيدفعون له الجزية عما قريب.

٢٩

القنبيطور يستولى على القصير خدعة

دفع سكان القصير لسيدى الجزية،
ومثلهم أهل مدينتى أتيكا وتيرير،
وعرف الذين فى قلعة أيوب أن ذلك مصيرهم،
لقد جاء سِيدى وألقى رحاله هنا منذ خمسة عشر أسبوعا، وعندما رأى **السِّيد**
أن القصير لن تستسلم،
ابتدع خدعة حربية جديدة ولم يتردد فى استخدامها :
ترك فى المعسكر خيمة واحدة قائمة وأمر فطُوِيت الخيامُ الأخرى،
واتجه هابطا نحو نهر شلون، ناشراً رايته،
ارْتَدَوا الدروع السابغة، والسيوف فى أغمادها،
وبهذه الخدعة الذكية سيجعلهم يقعون فى المصيدة،
وجاء أهل القصير وقد رأوهم يرحلون، يا إلهى... كم هم فرحون!.
« لقد نفد خبز سيدى وشعيره،
وبجهد استطاع أن يحمل خيامه، وبقيت له واحدة منصوبة،
لقد أسرع سيدى راحلا، كهارب من هزيمة،
فلنثب عليه الآن، ومع الهجوم سنربح غنائم وفيرة،
قبل أن يسبقنا إليها سكان تيرير من الخلف،
لأن هؤلاء إذا هزموه لن يعطونا من الغنائم نصيباً،
لقد واتت الفرصة لنسترد الجزية التى دفعناها له مضاعفة ».
خرج أهل القصير من الحصن، واندفعوا نحوه بأسرع ما يستطيعون،

وعندما تبينهم سيدى من بعيد تظاهر بالهرب،
واتجه هابطا يقود رفاقه نحو نهر شلون،
وقال أهل القصير: «سوف تفلت منّا الغنائم!.
فتقدم الرجال والصبيان مسرعين،

نهمين إلى الغنائم لا يفكرون فيما عداها،
تاركين أبوابهم مفتوحة لا يقوم على حراستها مخلوف،
تلفّت **القنبيطور** الطيب خلفه،
فرأى أن بينهم وبين الحصن مسافة شاسعة،
فأمر برفع الراية، ثم غمزوا جيادهم مسرعين:
«إليهم أيها الرجال.. اطعنوهم جميعاً، أطعنوهم بلا خوف
وبفضل الخالق ستكون الغنائم من نصيبنا».

وعادوا مسرعين فالتقوا بهم فى بطن الوادى،
ياإلهى، أيّة بهجة غامرة لفتهم ذلك الصباح!
سِيدى و ألبار هانييث كانا فى الطليعة،
على جوادين كريمين يدفعان بهما إلى حيث يريدان،
وسريعا حالوا بين المسلمين وبين الحصن، ثم دخلوه.
وأتباع سِيدى انقضّوا عليهم يهاجمونهم بلا رحمة،
فقتلوا فى قليل ثلاثِ مائة مسلم.

حينئذ خرج المختفون فى الخندق، وبأصوات عالية أخذوا يصيحون،
ثم تقدمّوا نحو الحصن وأحاطوا به مسرعين،
وعلى أبوابه، شاهرين السيوف، راحوا يتدافعون،

ولحق بهم رفاقهم عجلين فقد بلغوا النصر الذى يريدون،
وبهذه الخدعة استولى سِيدى على القُصَيْر.

٣٠

راية السيد تخفق فوق القصير

جاء **بدرو برمودث** حامل الراية يلوِّح بها فى يده،
وعلى قمة الحصن رفعها من أعلى مكان فيه.
وتكلم سِيدى **رُوى دياث،** من وُلِد فى ساعة طيبة :
« شكراً لَكَ ياإله السَّماء، ولكل القدّيسين،
لقد تحسنت إقامتنا، للخيل وللفرسان ».

٣١

رحمة السيد بالمسلمين

اَسمْعْنى يا **ألبار هانييث،** وكلَّ الرجال،
لقد ربحنا كثيرا باستيلائنا على هذا الحصن،
فالمسلمون يرقدون موتى، وأرى قليلين منهم على قيد الحياة !،
وليس بوسعنا أن نبيع الأسرى من المسلمين والمسلمات،
ولن نجنى من وراء قطع رءوسهم شيئاً،
إذن فليبقوا معنا داخل الحصن، وقد أصبحنا سادته،
نحن نقيم فى بيوتهم، وهم على خدمتنا يقومون.

٣٢

ملك بلنسية يحاول أن يسترد القصير فيرسل جيشا لمحاربة السيد

استولى سيدى على حصن القصير، ومع الغنائم التى ربحها بقى فيه،
وأرسل فى إحضار الخيمة التى تُركت منصوبة هناك.
لقد آلم انتصاره سكان أتيكا، ولم يكن أهل تيرير بأقل ألما،
وحزن أهل قلعة أيوب لا نتصار رجل بيبار،
فأرسلوا إلى ملك بلنسية يقولون :
« إن رجلا يُدعى **السِّيد رُوِى دياث دِى بيبار.**
اختلف مع الملك **ألفونسو** فأخرجه من أراضيه،
جاء فعسْكَرَ من القصير فى مكان جيّد التحصين،
ثم نصب كميناً لسكانه، فأخرجهم من ديارهم، وبعدها استولى على الحصن.
وبدون مساعدة منك سوف نفقد أتيكا وتيرير،
وقلعة أيوب ستلحق بهما، ولن تفلت من هذا المصير،
والحالة من سيئ إلى أسوأ على شاطئ نهر شلون،
والشيء نفسه حدث لشلوقة على الضفة الأخرى ».
ولم يكد الملك **تميم** يسمع ذلك حتى أحس بحزن عميق :
« أرى ثلاثة ملوك مسلمين حولى يقيمون،
اثنان منكم يذهبان إليهم الآن بلا تأخير،
فسوف يمدّونكم بثلاثة آلاف مسلم مسلحين، وللقتال مهيئين،
ومعهم حرَّاس الحدود سيهرعون لعونكم مع أول نداء،

خذوا **السِّيد** حيًّا، وأحضروه أمامى،
لقد دخل أرضى، وعليه أن يدفع الجزية لى».
ثلاثة آلاف مسلم تحركّوا فى شوق إلى الهجوم،
وعندما هبط عليهم الليل فى شيقورب حَطّوا الرحال نازلين،
وفى صبيحةِ اليوم التالى أغذّوا السير مسرعين،
حتى إذا لفهم الظلام نزلوا فى «ثيلا» مستريحين،
ثم طيَّروا الخبر لسكان الحدود،
فلم يتأخر أحد منهم، وأخذوا من كل حدب وصوب يتوافدون،
من ثيلا جاء الذين كان يُطلق عليهم أهل ثيلا القناةِ،
أجهدوا الخيل طوال اليوم، فلم يتوقفوا لحظة واحدة،
وعندما أدركهم الليل فى قلعة أيوب ألقوا عصا التَّسْيار مطمئنين.

٣٣

حارث وغالب يحاصران السِّيد فى القُصَيْر

نصبوا الخيام وعسكروا مطمئنين،
ثم توالت الإمدادات وتضخمت الجيوش،
وكل الطلائعِ التى بعث بها المسلمون،
مدجَّجة بالسلاح لا تكف عن الحركة ليلَ نهارْ،
كثيرون هؤلاء الحرّاس، وكانت المحلة ضخمة،
ولّما قطعوا الماء عن سيدى وأتباعه تعجَّل جيشه المعركة،
فصدَّهم عنها بجزم من وُلِدَ فى لحظة سعد،
وهكذا عانوا من الحصار على امتداد ثلاثة أسابيع.

٣٤

السِّيد يشاور رجاله - استعدادات سرِيّة - السِّيد يخرج إلى المعركة الفاصلة ضد حارث وغالب - بدرو برمودث يوجه الضربات الأولى

انتهت الأسابيع الثلاثة وفى مطلع الرابع،
دعا سِيدى رجاله مُشاوِراً، ليصل إلى اتفاق :
« لقد قطعوا عنا الماء وغداً ينفد منا الطعام،
وإذا أردنا الخروج ليلا فلن يتيحوا لنا الفرصة
إنهم أشداء أقوياء فلا قدرة لنا على نزالهم،
أشيروا علىّ أيها الرجال بما تفضلون أن تفعلوه ».
فتكلم **مينايا** أولا، رجل شديد الولاء :
« من قشتالة اللطيفة جئنا إلى هنا،
فإذا لم نكافح ضد المسلمين لم نكسب لقمة العيش،
ونحن ست مائة رجل وربما أزيد قليلا،
وباسم الخالق ليس أمامنا من طريق آخر،
غير بدء الهجوم عند انهزام الفجر ».
فردّ **القنبيطور** « لقد صادف حديثك هوى فى نفسى،
حديث شرفت به يا **مينايا**، وماتوقعت منك غيره،
إنى آمركم بإجلاء كل المسلمين والمسلمات،
حتى لا يعرف أحدٌ منهم ماذا نعد لهم فى السرّ من شباك ! ».
بينما انصرفت بقية الجيش، ليلا نهاراً، لإعداد السلاح،

وصباحاً، فى اليوم التالى، والشمس على وَشْك الشروق،
تسلّح سِيدى وكل الذين كانوا معه.
وتحدّث **القنبيطور** بما سأحكيه لكم :
« نخرج جميعاً، فلا يبق منّا أحد، لاأستثنى من ذلك مخلوقاً،
غير راجلْين فحسب يقومان على حراسة الباب،
فإذا لقينا مصرعنا فى ساحة الحرب فليدفنونا فى الحصن،
وإذا انتصرنا فى المعركة تضخمت ثرواتنا،
وأنت **يابدرو برمودث :** خذ رايتى،
لأنك تابع وفّى وستحافظ عليها بإخلاص،
ولكنكم لن تتقدموا معه حتى آمركم ».
فقبَّل **مينايا** يد **السِّيد**، وتسلّم الراية،
وفُتحتْ الأبواب فخرجوا جميعاً، دفعة واحدة،
حينئذ رأتهم عيون المسلمين فعادوا إلى محلتهم منبئين؛
يا لهم من مسرعين هؤلاء المسلمين وهم يمتشقون السلاح من جديد،
ثم ارتجتّ الأرض أمام ضجيج الطبول.
انظر إلى المسلمين يتسلّحون مسرعين، ويتجمعّون صفوفاً،
وفى مقدمتهم جميعاً تخفق رايتان رئيسيتان،
ورايات أخرى كثيرة مختلطة، من يستطيع أن يعدها ؟
إن جيوش المسلمين تتحرّك متقدّمة،
تريد أن تقضى على سِيدى وتابعيه :
- اثبتوا فى أماكنكم أيها الرجال،
حذار أن يفارق أحدكم الجميع حتى آمركم ».

ولكن **بدرو برمودث** لم يستطع صبرا،
رايته فى يده، بدأ يتقدم ملوِّحاً :
« ليحرسك الخالق، سِيدى **القنبيطور** الوفى،
سوف أثبِّت رايتنا عند أكثر جنود المسلمين عدداً،
والذين يجب عليهم أن يصمدوا دونها سترى كيف يفعلون ».
فصاح **القنبيطور :** « لا تفعله بحق الله ».
فردّ **بدرو برمودث :** « لم تعد هناك وسيلة أخرى ! ».
ثم همز جواده، وألق بنفسه بين أكبر الصفوف عدداً،
فتلقّاه المسلمون يريدون انتزاع الراية منه،
وصوبّوا إليه ضربات قاصمة، لكنهم لم يستطيعوا أن يغلبوه،
حينئذ صاح **السِّيد** فى رجاله : « اذهبوا إليه، ساعدوه بحق الله ! ».

٣٥

أتباع السيد يذهبون لمساعدة بدرو برمودث

رفعوا شعاراتهم أمام قلوبهم،
وجعلوا نبِالهم ملفوفة فى أعلامهم ».
وانحنوا بوجوههم على سروجهم،
يودون أن يلقوهم بقلوب مطمئنة،
وبصوت عال نادى من وُلِدَ فى ساعة طيبة :
« إليهم، أيها الفرسان، حُبّاً فى الخالق !
أنا رُوِى دِياث، السِّيد.. من بيبار... القنبيطور ».
فارتموْا كلهّم على الجماعة التى يقاتلها **بدرو برمودث،**

وكانوا ثلاث مائة نبّال، جميعاً مع راياتهم،
فقتل كل واحد مسلماً، كل واحد قتل واحداً فى هجمة واحدة.
وعندما عاودوا الهجوم مات آخرون كثيرون ».

٣٦

تدمير مزارع الأعداء

نِبال كثيرة وعديدة تعلو وتهبط،
وسهام كثيرة محطمة دون أقواسها،
وأعلام عديدة بيضاء احمرّ لونها من الدم،
وجياد كثيرة كريمة، دون فرسانها ولّتْ هاربة ».
المسلمون ينادون **محمداً**، والمسيحيون يدعون **القديس يعقوب**،
وفى الوادى، فى مكان ضيق، كانوا يرقدون،
ألف وثلاث مائة مسلم موتى!

٣٧

التنويه بالفرسان المسيحيين البارزين

ياله من مناضل عنيد فوق سرجه الذهبى،
سِيدى **رُوى دِياث**، المقاتل الشجاع،
وَمِينايا ألبار هانييث، وكان القائد فى ثُورِينا،
وأيضاً **مارتين أنتولينييث**، ذلك البُرغُشىّ الوفى،
ومُونيو جُوستيوث ربيب القنبيطور،
ومَرْتين مُونييث وكان القائد فى مُونتِ مايور،

ثم ألبْار ألبْارُوث، وألبار سلفا دُورِث.
ومعهم **جَالين غرسِية**، القادم من أرَجُون،
وفيلكس مُونيوث ابن أخ القنبيطور،
وكلّ الذين كانوا هناك، وَمَنْ تقدموا جميعاً،
لإنقاذ الراية، والسِّيد القنبيطور.

٣٨

مينايا فى خطر - السيد يُخرج حارثاً

صرّعوا حِصَانَ **مينايا ألبْار هانييث**،
فهرعت الجيوش المسيحية لمساعدته،
نفدت نباله فانتضى سيفه وأخذ يقاتل،
وراجلا يصارع، وجه إليهم ضربات قاصمة،
ورآه سِيدى **روى دِياث** القشتالى،
فاقترب من الوزير، وكان على جواد كريم،
وبضربة سيف قاصمة من يده اليمنى،
شقّه من وسطه، ورمى بنصفه أرضاً،
وأعطى فرسه **لمينايا ألبار هانييث :**
« **اركبه يا مِينايا**، فأنت ساعدى الأيمن،
وقدمت لى فى هذا اليوم عوناً كبيراً،
مازال المسلمون ثابتين، وفى ساحة المعركة يقاتلون،
وواجبنا أن نأتى عليهم جميعاً ».
امتطى مِينايا جواده، ثم شهر سيفه،

ورمى بنفسه وسط الجموع يقاتل بعنف،
ومن يلقه من الأعداء يصرعه فى ضربة واحدة،
وسِيدى، **روِى دياث**، من وُلِدَ فى ساعة طيبة،
اقترب من الملك **حارث**، ورماه بثلاث طعنات،
أخطأه فى اثنتين؛ وأصابته الثالثة فتدفق منه الدم غزيراً؛
ثم استرد عنان فرسه يريد ترْك المعركة.
وبهذه الضربة الحاسمة هزم الجيش.

٣٩

غالب جريح، والمسلمون مهزومون

وجّه **مَارتين أنتولينْييث** ضربة قاصمة إلى غالب،
فألق بزينة خوذته بعيداً؛
ثم شقها نصفين حتى بلغ اللحم،
وعرف أن **غالباً** لن يقاوم الضربة الأخرى،
وهكذا خسر الملكان **حارث وغالب** المعركة،
يا له من يوم رائع فى تاريخ المسيحية !،
لقد هرب المسلمون هنا وهناك،
ولم يتردّد أتباع سِيدى فى لحاقهم،
فلجأ الملك **حارث** إلى تِيرِير،
وحالوا دون **غالب** فلم يبلغها،
فاستطاع أن يذهب إلى قلعة أيوب،
فلاحقه **القنبيطور** من قريب،
وظل يلاحقه حتى بلغ أسوار المدينة.

٤٠

مينايا يرى دعاءه وقد تحقق - غنائم المعركة
السيد يهيئ هدية للملك

كان جواد **مينايا ألبْار هانْييث** مباركاً عليه،
فاستطاع أن يقتل من المسلمين أربعة وثلاثين،
سيفه القاطع أغرق ساعديه فى الدم،
ومن كوعه راح يقطر أحمر متوهجاً.
وقال **مينايا** : « الآن أخذت بحق،
ونستطيع أن نرسل إلى قشتالة هدايا غالية،
من التى غنمها سِيدى **رُوِى دِياث** مقاتلا فى المعركة،
كثيرون من المسلمين يرقدون موتى، وقليلون تركوهم أحياء،
والذين نَجَوْا وراءهَم منْ يلاحقهم،
ثم عَادَ أتباع مَنْ وُلِدَ فى ساعة طيبة،
وكان **القنبيطور** ممتطياً صهوة جواده الكريم،
وقد لفَّ رأسه بكوفية، يا إلهى.. كم هو وقور اللحية !
وتدلت الكوفية على كتفيه، بينما السيف فى يده،
ورأى أتباعه كيف يلتفون حوله :
« شكراً لله، ذلك الذى فى الأعالى،
دون قتلَى كثيرين منّا انتصرنا فى المعركة ».
وانصرف أتباع سِيدى إلى المعسكر ينهبون :
الرايات والسلاح، وأشياء أخرى كثيرة وغالية،

وكلّ ما توصلوا إليه مما يخص الموريسكيين[1]،
فكان من بينها مائة وعشرة من الخيل الجياد.
وعمّت بهجة غامرة بين هؤلاء المسيحيين،
عندما تبينوا أنهم لم يخسروا غير خمسة عشر قتيلا،
وغنموا من الذهب والفضة ما حاروا معه أين يحفظون
وأتخموا بالثروة جميعا، هؤلاء المسيحيون،
من تلك الغنائم الهائلة التى أصابوها،
وردوا المسلمين إلى حصنهم، وكانوا قد أخرجوهم منه.
وأمر سِيدى بأن يقدم لهم من الزاد شيئاً.
كانت بهجة سيدى وكل أتباعه غامرة.
فأمر بتوزيع الأموال والثروات التى غنموها،
وكان من بين ما وقع له فى خُمسه مائة حصان،
يا إلهى... كم كان كثيراً ما دفعه لكل واحد من تابعيه،
سواء أكان من الفرسان أو الراجلين!.
لقد عوضهم خيراً من وُلِدَ فى ساعة طيبة،
كل الذين جاءوا معه، وهم كثيرون قبضوا، وباتوا مبتهجين.
- «اسمع **يا مينايا**، أنت ساعدى الأيمن!»،
ومن هذه الثروات التى وهبنا الخالق،
وهى كثيرة، خذ بيدك منها ما تريد،

---

(١) كلمة Moriscos يقصد بها فى الوثائق الإسبانية أولئك المسلمون الذين تخلفوا فى الأندلس بعد سقوطها فى يد الكاثوليك، ثم أكرهوا على اعتناق الكاثوليكية. ويقصد بها هنا المسلمون، وقد آثرنا استخدام اللفظ الإسبانى دون معناه المقصود، لأن الملحمة، فيما أعرف، أقدم نص بين أيدينا يستخدمه مما يعين الدارسين على تأريخ الكلمة، وتتبع تطورها ومراحل استخدامها.

إنى أودّ أن أبعث بك إلى قشتالة رسولا،
لتقول لمنْ هناك إنّ النصر كان حليفنا،
وإلى الملك **ألفونسو** الذى نفانى،
تحمل له منى هدية... ثلاثين جواداً كريماً،
من غنائم هذه المعركة التى ربحناها،
كلها مسرجة وذات شكائم ممتازة،
ومع كل جواد سيف معلق فى سرجه».
فقال **مينايا ألبار هانييث**:
«ذلك شىء يسرّنى أن أفعله!».

٤١

السيد يوفى بنذره لكتدرائية برغش

ها بين يدْيك ذهب وفضة خالصان،
زِقٌّ مملوء حتى آخره لا ينقصه شىء،
وفى كنيسة مريم المقدسة فى برغش سوف أصلّى ألف قدّاس،
ومازاد يبقى لزوجى وبنتىّ،
اللائى أمضين الليل والنهار مصليات من أجلى،
ولئن عشت فسوف يصرن سيدات ثريات.

٤٢

مينايا يرحل إلى قشتالة

كان **مِينايا ألبار هانييث** بالغ السرور من سفارته،

والرجال الذاهبون معه اختيروا بعناية،
وهم الآن يقدمون الشعير للخيل، فقد دخل الليل،
واجتمع سيدى **رُوى دياث** مع أتباعه يتشاورون.

٤٣

الـوداع

«أذاهب أنت، يا **مينايا**، إلى قشتالة العظيمة ؟!
تستطيع مُحقاً أنْ تقول لأصدقائنا:
لقد ساعدنا الله وانتصرنا فى كفاحنا،
وعندما تعود قد تجدنا هنا،
فإذا افتقدتنا فالحق بنا حيث يقولون لك اتجهنا،
بالرماح وبالسيوف علينا أن نربح الحياة !،
وبدونهما، فى هذه الأرض المجدبة، لا يمكن أن نعيش،
كم أنا شديد الخوف !، ومن ثَمَّ علينا أن نسرع راحلين !».

٤٤

السيد يبيع القصر للمسلمين

وكما اتفقوا. فى الصباح المبكر رحل **مينايا**،
وبقى القنبيطور حيث هو كان، ومعه بقى الجيش.
والأرض التى حولهم، ومنها يعيشون، قاحلة وفقيرة،
وعلى سيدى يتجسس كل يوم
مسلمو الحدود، ومخلوقات أخرى غريبة،

لقد استرد الملك **حارث** عافيته، ومعه يستعد لخدعة ما
سكّان أتيكا، وأهل تيرير، وهما قريتان متجاورتان،
ومعهم قطّان قلعة أيوب، مدينة أكثر ثراء وبسطة.
وأعد السِّيد اتفاقا، وحرره فى رسالة :
إنى أبيع لكم القصير بثلاثة آلاف مارك من الفضة.

٤٥

يبيع القصير (إعادة)

سِيدى **رُوى دياث** باع القصير.
ما أكثر ما دفع حينئذ لتابعيه أنفسهم !،
الفرسان والرجالة، كلاهما فى الحقيقة، أصبحوا أثرياء،
لم يبق بينهم جميعاً فرد واحد مسكين،
« ومَن يخدم سيدا صالحا يعش أبداً سعيدا ».

٤٦

الرحيل عن القُصير - السيد يتفاءل بزجر الطير- السِّيد ينزل فى قرية بويو، فوق منت ريال.

عندما أراد سيدى أن يرحل عن الحصن،
أخذ المسلمون والمسلمات يشكون :
« أذاهب أنت، يا سيدى، إذن تذهب معك صلواتنا، تسبقك !
لقد كنت معنا كريما ونبيلا ونحن لك من الشاكرين ».
وعندما غادر القصير سِيدى، **ابن بيبار**،

أجهش المسلمون والمسلمات بكاء،
ورايته ترفرف فوق رأسه، ابتعد **القنبيطور** ذاهبا،
مرّ بأسفل نهر شلون، وتابع سيره دون أن يستريح،
وعندما عبر النهر اعترضته طيور كثيرة مبشِّرة،
وسرَّ سكان تيرير، وفى قلعة أيوب كانوا أكثر سعادة،
وتألم أهل القصير كثيراً، فقد كان السيد لهم وفيّاً.
همز سيدى جواده ومضى بلا توقف،
حتى وصل قرية بويو وهى فوق مدينة منت ريال،
كانت الهضبة مرتفعة، وذات مناظر خلابة،
وليس بوسع العدو أن يبلغها من أى جانب،
ثم فرض على أهل دروقة جزية كبيرة،
وأخضع سكان مولينا وكانوا على الجانب الآخر للنهر،
وجاء الدور على التيرويل، وكانت أبعد قليلا،
وأصبحت مدينة « سلفا القناة » فى قبضة يديه.

٤٧

مينايا فى حضرة الملك - الملك يعفو عن مينايا ولكنه يرفض العفو عن السيد

سيدى **رُوى دياث** المحفوظ برعاية الله !.
ألبار هانييث مينايا رحل إلى قشتالة،
وقدم إلى الملك ثلاثين حصانا من كرام الخيل،
وعندما رآها الملك سرَّ بها، وغمرته ابتسامة حلوة :
« من الذى أعطاك هذه، يا **مينايا**، يغفر الله لك !».

- « إنه سيدى **رُوى ديات،** من فى ساعة طيبة تمنطق سيفه،
ذلك الذى نفيتَه بخدعة ربح القصير،
وعلم ملك بلنسية بأمره، من رسالة سريعة جاءته،
فأمر بحصاره وأن يقطعوا عنه الماء.
فخرج سِيدى من الحصن وأخذ يناضل فى الميدان،
وانتصر على ملكين مسلمين فى هذه المعركة،
وربح سيدى حينئذ غنائم طائلة،
وإليك أيها الملك الشريف يرسل هذه الهدايا،
مقبِّلا قدميك، ويديك كليهما،
طالبا منك بحق الخالق أن تصنع فيه معروفا».
فرد الملك: «ذلك سابق لأوانه جدًّا،
المنفىّ فقد رضا الملك،
ولمَّا يمض على نَفْيه بَعْدُ غيرُ بضعة أسابيع،
ولكنى سأقَبل هذه الهدَايا التى انتزعها من المسلمين،
ولقد سرّنى أن يحقق السِّيد هذه الغنائم الكبيرة،
ولكن الآن، وقبل أىِّ شىء، عفوْتُ عنك أنتَ يا **مينايا،**
وستُرد لك ألقابك وضياعك كاملة بلا نقصان،
وتستطيع أن ترحل، وأن تعود، لأن عفوى أصبح نافذا،
ولكن لا أريد أن أقول لكم الآن شيئا عن **القنبيطور**».

٤٨

الملك يسمح للقشتالين بأن يذهبوا مع السيد

وفوق كل ما قلتُ، أودّ أن أضيف لكم شيئا يا **ألبار هانييث:**

«كل الذين يرغبون فى الذهاب، ومن كل مملكتى،
من الشجعان الطيبين، ليساعدوا **السِّيد**،
أذنتُ لهم، ولن تصادر لهذا السبب أراضيهم».
فقبّل **مِينايا ألبار هانييث** يد الملك:
«شاكر ومقدِّر أيها الملك، فأنت سَيّدى الشرعى!،
ذلك ما وافقتَ عليه الآن، وغدا توافق على المزيد،
وبفضل الله سنكون معك، إلى جانبك بكل عزيمتنا».
فردّ الملك: «لندع الحديث عن هذا يا **مينايا**،
امض عَبْر قشتالة بكل حرية، ولا تخش شيئا،
اذهب إلى سِيدى وانضم إليه، ولاتخش ضيقا ولا حرجا».

٤٩

غزوات السِّيد خلال إقامته فى بويو
مينايا مع مائة قشتالى ينضمون إلى السّيد

أريد أن أحدّثكم عمن تمنطق سيفه فى ساعة طيبة،
مَنْ وصل قرية بُويُو حيث عَسكْرَ مع رجاله،
وما عاش هنا فالمسلمون والمسيحيون
يطلقون عليها فى وثائقهم اسم بُويُو سِيدى،
ومقيما فيها واصل غزواته عبر أراض كثيرة،
كل وادى نهر مارتين دفع له الجزية،
وحتى سرقسطة وصلت أخباره المثيرة،
فلم تقع من المسلمين موقع الرضا، وبطولاته أحزنتهم،

وهناك أقام سِيدى خمسة عشر أسبوعا كاملة،
وعندما رأى **السِّيد** العاقل أن **مينايا** لمّا يعد،
انسحب ليلا مع كلّ رجاله،
ترك بُويُو، وطوى جميع خيامه،
وبدون توقُّف مضى دون **لذريق** إلى ما بعد مدينة تِيرويل،
ولم يُلقِ **رُوِى دِياث** رحاله مستريحا إلا فى غابات تيبار،
وكل الأراضى التى تحرّكوا فوقها أشاعوا فيها الخراب والدمار،
وسرقسطة نفسها أرغمها على أن تدفع له الجزية »

وخلال هذه الأعمال مرّت ثلاثة أسابيع أخرى،
وعند نهايتها قدم **مينايا** من قشتالة،
ومعه مائتان من الفرسان، جميعهم يتمنطقون سيوفهم،
ومن المحال إحصاء الذين رافقوه من المشاة،
وعندما رأى سيدى **مينايا** يقترب،
همز جواده، ولم يكد يلقاه حتى تعانقا،
قبّله فى الفم ومن عينيه،
وحكى له **مينايا** كل ما حُدِّث، دون أن يخفى عنه شيئا،
وابتسم **القنبيطور** مبتهجا :
« شكرا لله، ولأسمائه الحسنى،
مادام اعتمادى عليك، فسيكون التوفيق رائدى، يامينايا »!

٥٠

فرحة المنفيين عندما تلقوا أخبار قشتالة

يا إلهى. كم كانت غامرة فرحةُ الذين كانوا مع **السِّيد**،

عندما علموا أن **مينايا ألبار هانييث** قد قفل عائدا،
يحمل لهم جميعاً أخبار وتحيات إخوتهم وأقاربهم،
ورفيقاتهم أولئك اللائى خلّفوهن وراءهم.

٥١

بهجة السيد

يا إلهى... كم كان فَرحا صاحب اللحية الغزيرة!،
عندما عرف أن **ألبار هانييث** وَفَّى نذره بالألف صلاة،
وأنه يحمل له تحيات زوجه وابنتيه!،
يا إلهى... كم كان **السيد** سعيدا، وكم كانت غبطته غامرة:
- «يا **ألبار هانييث** مدَّ الله فى عمرك،
لأنت أعظم منا قدرا، وهكذا تُؤدى المهمات!».

٥٢

السِّيد يجتاح أراضى القنييش

ولم يتردد من وُلد فى لحظة سعيدة،
فى اختيار مائتى فارس اصطفاهم بنفسه،
وبهم قرر أن يغزو ليلا،
تاركا وراءه أراضى القنييش القاحلة،
وانتهب جيشه كل ما حولها،
وفى اليوم الثالث عاد إلى المكان الذى انطلق منه.

٥٣

حذر المسلمين

عَبْرَ كلِّ الأراضى طار الخبر، ومن ضيعة إلى أخرى،
فحزن كثيرا سكان وشقة ومنثون لهذه الهزيمة،
وعلى النقيض دفع أهالى سرقسطة الجزية غير ساخطين،
لأنهم لا يخشون ظلما من سِيدى، **روى دياث.**

٥٤

السيد يغادر بويو - ويجتاح أراضى فى حماية كونت برشلونة

وبكل الغنائم الهائلة التى حصَّلها عاد إلى معسكره،
وجميعا كانوا فرحين بما أصابوا من ثروات طائلة،
فشكروا السِّيد، ثم شكروا كثيرا **ألبار هانييث.**
ولم يستطع القائد المتزن أن يكتم ابتسامته :
« أيها الفرسان . . اسمعونى، يجب أن أقول لكم الحقيقة :
من لايغزو ويؤثر الإقامة الدائمة فى مكان واحد فلن يقبض راتبه،
عندما يشرق الفجر سوف نرحل من جديد،
هيَّا، اطووا الخيام، وتقدمَّوا، فقد أزفت ساعة الرحيل ».
وانطلق **السيد** حيث عسكر فى ميناء ألوقات،
ومن هناك غزا سِيدى وشقة ومنت ألبان،
فى غزوة كبيرة دامت عشرة أيام،
وعَبْرَ كل الجهات شاع الخبر متواليا،
إنْ منفِيَّ قشتالة يثير فى الآفاق الرعب والدمار.

٥٥

تهديدات كونت برشلونة

عَبْرَ كل الجهات سارع الخبر.
وأخيراً بلغ مسامع **كونت برشلونة.**
أن **رُوِى دياث** انتهب أرضه كلها[١]،
فكان وقعُ الخبر عليه سيئاً، وإحساسه بالإهانة عميقاً.

٥٦

السيد يحاول عبثا تهدئة الكونت

ركب الغرور الكونت فردّ مزهواً :
«لقد ألحق بى سيدى، **دياث دى بيبار** أضرارا بالغة،
ولم يكن سلوكه بأفضل حالا عندما كان فى بلاطى،
فبعد أن جرح حفيدى، تركه دون أن يُعنى به،
والآن يجتاح أرضاً فى حمايتى وتدفع لى الجزية،
أبداً ما تحديته ولا حجبت صداقى عنه،
أما وقد آذانى، فأنا له أهل وندّ».
كانت جيوشه قوية، وسريعاً تجمّعت،
وجاءته جموع كثيرة تنضم إليه، من مسلمين ومسيحيين،

(١) تاريخياً لم تكن الأرض لكونت برشلونة، وإنما كانت أرض الحاجب **المنذر** ملك لاردة، وكان فى تحالف مع الكونت، يدفع له الجزية، ويعيش فى حمايته، وهو ما ستشير إليـه الملحمـة صراحـة فى القصيدة التالية.

وجميعاً تحرّكوا للقاء سيدى؛ **ابن بيبار** المحمود.
وقطعوا فى مسيرتهم ليلتين وثلاثة أيام،
فأدركوا سِيدى قريباً من غابات تيبار،
جاءوا فى حشودهم الجامعة، وبأيديهم مجرّدة تصوروا أنهم يقبضون
على سِيدى دون **لذريق**، وكل ما جاء به من غنائم وفيرة،
وبينما كان **السيِّد** يهبط من الجبل، لينتشر عبْر الوادى،
جاءته رسالة تعلن : «لقد وصل الكونت دُون **رامون**».
وعندما عرف سِيدى خبرها أرسل من يقول له :
«قل للكونت **رامون** ألا يخشى من جانبى شيئاً،
لن أسطو على أملاكه أبداً، فليدعنى أمضى فى سلام».
ولكن **الكونت** ردّ عليه : «إنك لم تقل الحقيقة،
وستدفع الآن غالياً ثمن كل ما أسأتَ إلىّ فى البعيد والقريب،
وسيعرف المنقّ مع مَن.. عليه أن ينازِل!».
وعاد الرسول يحمل الجواب، يحث جواده ليصل بأسرع ما يستطيع،
وعرف لحظتها سيدى، **ابن بيبار**.
أنّ طريقه الوحيد أنْ يخوض مع الكونت معركة فاصلة.

٥٧

السيد يخطب جنوده

«أيها الفرسان، أنقذوا غنائمكم!،
البسوا الدروعَ وأشهروا السيوف،
لأن الكونت دون **رامون** يريدنا أن نلقاه فى معركة.

وبصحبته خلق كثير من المسلمين والمسيحيين،
ولن يدعنا فى سلام إلا إذا واجهناه بالقوّة،
وحتى إذا رحلنا فسوف يلحقون بنا، وإذا فلتكن المعركة هنا،
اهمزوا خيلكم، وهيئوا سلاحكم،
فهم قادمون أسفل الطريق، وقد ارتدوْا عُدَدَهم جميعاً،
ولكن.. سروجهم مهزوزة، وسياطهم واهية،
وسروجنا أثبت؛ ودروعنا سابغة،
وبمائة فارس منكم يجب أن أقهر تلك الجيوش،
وقبل أن يبلغوا الوادى أغرقوهم بفيض من السهام،
ولكل من يقتحم الصفوف منكم ثلاثة سروج خالية تنتظره.
وسيرى **رامون برنجير** مع مَن يخوض المعركة
اليوم؛ فى غابات تيبار؛ لكى يسلبه ما جنىِ من غنائم».

٥٨

السيد ينتصر فى المعركة - ويستولى على سيف الكونت البتار المسمى «كولادا»

استعدوّا جميعاً للمعركة عندما تحدّث سِيدى؛
شهروا سيوفهم وامتطوا صهوات جيادهم،
وفى أسفل الطريق رأوا قوّات الفرنجة قادمة[1]،
وأخيراً عندما مّست أقدامهم أوّل الوادى،

---

(١) الفرنجة Francos اسم كان يطلق على سكان قطلونية Catalonia، مقاطعة اسبانية فى الشمال الشرقى عاصمتها برشلونة، حتى القرن الثانى عشر فى المؤلفات الأندلسية، إسلامية أو مسيحية، وكان يطلق أصلا على سكان جنوب فرنسا، وأحياناً على أى أوربى.

أمَرَ سِيدى، منْ وُلد فى لحظة سعيدة، بالهجوم،
فأطاعه رجاله مبتهجين، وبعزائم قوية،
توالت سهامهم ونبالهم كليل تهاوى كواكبه،
فجرحوا بعض المسلمين، وهزموا الآخرين فولّوْا هاربين،
وانتصر **السِّيد**، وربح المعركة منْ وُلد فى ساعة طيبة،
وأسرَ الكونت **رامون**، وفى السجن ألقَى به،
وغنم سيفه البتّار «كولادا» وثمنه على ألف مارك يزيد.

٥٩

كونت برشلونة أسيرا يريد أن يتركوه يموت جوعا

وهكذا ربح **السِّيد** المعركة وشرّف لحيته،
ثم حمل كونت برشلونة إلى خيمته،
ونادى أتباعة المخلصين وأمرهم بحراسته،
وبعدها تركهم وخرج من الخيمة.
وأخذ أتباع سيدى يتوافدون قادمين من كل جانب،
واحمرَّ وجهه ابتهاجاً بما حملوا من غنائم وفيرة،
وأعدّوا لسيدى دون **لذريق** طعاماً شهياً.
ولكن الكونت **راموان** لم يُعر شيئاً من ذلك اهتماماً.
فأحضروا له الطعام، وتركوه أمامه،
فأعرض عن الأكل، ورفض أن يذوق شيئاً،
- «حرامٌ على إنْ أكلتُ لقمة، ولو دُفع لى كل ذهب إسبانيا،
قبل أن أطعمها أفضّل أن أخسر بدنى وروحى معاً،

شيء يدفعني إليه مجرّد التفكير في أنَّ أشباه الحفاة هؤلاء انتصروا عليّ!».

٦٠

السيد يعد الكونت بأن يطلق سراحه

وتحدث سيدى **رُوى دِياث**، فاسمعوا جيداً ما قال:
كلْ أيها الكوُنت من هذا الخبز، واشربْ من هذا النبيذ،
وإذا سمعتَ قولى رددْتُ لك حرّيتك،
وإذا رفضت بقيت فى الأسر مدى الحياة!.

٦١

إعراض الكونت

– «كلْ أنتَ يادون **لذريق**، واسترحْ إذا أردت،
لأنى أفضّل أن أموت جوعاً قبل أن آكل لقمة»
وجاء اليوم الثالث ومازال معرضاً عن الطعام؛
ورجال السيد يجمعون الغنائم؛ وبتوزيعها مشغولون؛
فلم يستطيعوا أن يقنعوه بأن يأكل ولو لقمة من رغيف.

٦٢

السيد يكرر وعوده للكونت ثم يطلق سراحه ويودعه

وقال **السيّد**: «كلْ، كُلْ طعامك. تناولْ شيئاً،
فإذا بقيت ممتنعاً فلن يتاح لك أبداً أن ترى وجوهاً مسيحية؛!
أما إذا أكلتَ استجابة لرغبتى،

فستصبح أنت، ياكونت برنجير، واثنان من فرسانك،
أحراراً، مطلق السراح، دون أى مقابل غير تناول الطعام».
وما إن سمع الكونت هذا الوعد حتى انتعش:
«إذا وفيتَ يا سيد بما وعدت به الآن،
فسأكون بك معجباً، ولك مقدرا، ما امتدَّت حياتى».
- إذًا كُلْ يا كونت، وإذا ما قاسمتنى العيش والملح
فسأطلق سراحك سعيداً، أنت واثنين من رجالك،
ولكن ما خسرتَ فى المعركة، وما ربحتهُ أنا فى الميدان،
لاأفكر أن أرد لك منه حتى مالا يساوى حبة خردل!،
لأن الرجال الذين معى، ويقاتلون إلى جانبى ،فى أشد الحاجة إليه،
ومما انتزعت منك، ومن آخرين، أدفع لهم رواتبهم،
وعلى هذا النحو تمضى حياتنا ما أراد الأب المقدس،
وما ارتضاها من غضِبَ عليه الملك ومن أرضه نفاه».
فابتهج الكونت وطلب ماء ليغسل يديه،
فكان له ما أراد فى الحال، وبسرعة جاءوه بالماء،
ومع الفارسين اللذين سيطلق السيد سراحهما
أكل الكونت بشهية طيبة يحسد عليها، ويا لها من شهيّة يا إلهى!،
وإلى جانبه جلس من وُلِدَ فى ساعة طيبة،
«كونت!... إذا لم تأكل جيداً، على النحو الذى يرضينى،
فستبق هنا، وتعيش معى ،ولن ننفصل أبداً».
فقال الكونت: «كما ترى، أنا آكل، آكل مسروراً وبإرادتى».
ومع فارسيْه أقبلوا على الطعام يزدردونه عجلين،

وسِرّ سيدى، وكان معهم يرقب ما يصنعون،
لأن الكونت دون **رامون** التهم الطبق نَهِما.
- « إذا وافقتم يا سيدى، يمكننا أن نذهب توًّا،
فمرهم يعطونا ثلاثة جياد وسنرحل فى الحال،
إننى منذ أصبحت كونت، لم آكل بشهية كما أكلتُ الآن،
ونكهة هذا الطعام لن تُمحى من ذاكرتى أبداً ».
فأمر لهم بثلاثة جياد، ممتازة التسريج والإعداد،
وبملابس صُنِعتْ من خير الجلود، وغطاء،
وعلى هذا النحو مضى الكونت دون **رامون** بين حارسيه،
وخارج خيمته، متحفزا ودّعهم القشتالى،
ها أنت ترحل يا كونت حراً[1]
وإنى لأشكر لكم ما خلّفتم لنا من ثروات وأموال،
وإذا تذكّرت يوما والتهبتَ حمية، وفكّرت فى الثأر،
وجئتَ تبحثُ عنى فأعلمنى قبلها،
فإمّا أخذتُ مما لكم أكثر مما أخذتُ؛ أو تحملون أنتم مما عندى شيئا.
- « من الثأر لا تخش شيئا، وابق هادئا ياسيدى،
وأعتقد أنكم غنمتم ما يعادل جزية عام كامل على الأقل،
أما الحديث عن المجئ هنا لمحاربتكم ثانية، فشىء لا أفكر فيه ! ».

---

(١) يستخدم الشاعر للتعبير عن هذا المعنى كلمة Franco وهى تعنى حراً، ويمكن أن تعنى قطلونيا على ما أشرنا، وكلا المعنيين يمكن أن يراد هنا.

٦٣

الكونت يرحل خائفا - ثروات المنفيين

امتطى الكونت صهوة جواده، وانطلق مسرعا،
ومن حين لآخر كان يدير رأسه، يلتفت وراءه خائفا،
كان الكونت يخشى أن يندم سيدى،
أمرٌ لا يقدم عليه البطل، ولو بكل ما فى الأرض من ثروات،
إنه لم ينكث أبدا فى عهد قطعه، أو كلمة وعدَ بها،
وعندما غاب الكونت عبر الطريق عاد إلى خيمته **ابن بيبار،**
فاجتمع برجال جيشه يتبادلون الحديث مبتهجين
من الغنائم الهائلة التى ربحوها فى الميدان،
وبها أصبحوا من الأغنياء الذين لا يستطيعون إحصاء ما يملكون من أموال !

النشيد الثانى

زواج بِنْتَىْ السِّيد

٦٤

السيد يهاجم أرض بلنسية

هنا تبدأ ملحمة سيدى **ابن بيبار**.
لقد سكن سِيدى ميناء ألوكات،
تاركا سرقسطة، مبتعدا عن أراضيها،
وخلّف وراءه وشقة، وبعيدا هناك منت ألبان،
ومتجها نحو البحرِ المالح بدأ الحرب،
وحيث تشرق الشمس سلك طريقه،
لقد استولى سيدى على الشارقة، وأوندة والمنارة،
ووقعت أرضى بوريانا فى قبضته، فى خاتمة المطاف.

٦٥

الاستيلاء على مربيطر

لقد ساعده الخالق. السَّيِّد الذى فى السماء،
وبعون كبير منه استولى على مربيطر،
ولحظ سِيدى أن عناية الله دائما ترعاه،
والذين فى مدينة بلنسية جميعا منه خائفون.

٦٦

مسلمو بلنسية يحاصرون السيد، والسيد يجتمع مع رجاله - ويلقى فيهم خطابا

لم ير سكان بلنسية فى اقترابه خيرا، وكانوا يخافونه كثيرا،
فعقدوا مجلسهم وقرَّ رأيهم على محاصرة السِّيد،
وتحت ظلمة الليل الحالكة تحركوا نحوه، فوصلوا مع إشراقة الصباح،
حاصروا مربيطر، وعلى مشارفها نصبوا خيامهم،
وعندما رآهم سِيدى، تعجب قائلا:
«شكراً لله الأب الروحى!
فى ديارهم سنبقى، وسنُلحق بهم ما استطعنا من أضرار،
لقد شربنا نبيذهم، وأكلنا ما قدموا لنا من طعام،
فإذا جاءوا لحصارنا، فبحقٍ ما يصنعون،
والمعركة وحدها يمكن أن تضع حدا لما بيننا من خصام،
فلنرسل بريدنا إلى من سيكونون عوننا لحظة اللقاء:
بعضهم إلى الشارقة، والآخرون يذهبون إلى ألوكات،
ثم يتابعون سيرهم إلى أوندة، ولا ينسون المنارة،
ومنها إلى بريانا، فإذا أعلموا أهلها إلينا يعودون،
حينئذ نبدأ المعركة الفاصلة مطمئنين،
إن ثقتى بالله كبيرة، وأنه سيكون معنا ويبارك لنا».
وما إن أشرق اليوم الثالث حتى التقوا جميعا،
ومَن وُلِدَ فى لحظةِ سعيدة تحدث إليهم:

« اسمعونى أيها الجنود، يحفظكم الله !
منذ أن ودَّعنا المسيحية الصافية،
ولم تكن تلك رغبتنا، وكنّا عليها مكرهين،
ولكن بفضل الله كان النصر حليفنا،
والآن فإن سكان بلنسية جاءوا لحصارنا،
فإذا رغبتم الإقامة فى الأرض التى نحن عليها،
كان علينا أن نعطيهم درسا بلا مثيل ! ».

٦٧

نهاية خطبة السيد

عندما ينصرم الليل ويزحف الفجر،
تكون الخيل معدة والسلاح جاهزاً،
وسوف نمضى لقتال تلك المحلة،
منفيّون نحن فى أرض بعيدة،
وهناك سنرى من الذى يستحق أن يقبض راتبه ».

٦٨

مينايا يقدم خطة المعركة- السيد ينتصر فى معركة أخرى فاصلة - ويستولى على الجبيلة

اسمعوا ما يقول **مينايا ألبار هانييث :**
« **قنبيطور !** ... نحن ننفذ ما تأمر به،
أعطنى مائة فارس فحسب، ولا أطلب منك مزيداً،

وأنت مع الآخرين عليك أن تسبقنا متقدماً،
هاجمهم بقسوة، دون خوف ولا رحمة،
وأنا، مع المائة فارس، أفاجئهم من جانب آخر،
أثق بالله، وسريعاً فإن ساحة المعركة ستكون لنا».
وأمّن **القنبيطور** على ما قال، وكان به سعيداً،
فى الصباح مبكرين جميعاً تكونون قد حملتم السلاح،
وكل واحد منهم يعرف بالدقة ما يجب عليه أن يقوم به،
ومع الفجر فإن سيدى سوف يتجه إلى المسلمين،
- «باسم الخالق، والحوارىّ شنت ياقب،
اهجموا عليهم أيها الفرسان، بإرادة صادقة وعزم مكين،
أنا، رُوى دياث سِيدى، ابن بيبار».
ورؤيت حبال خيام كثيرة تفرقع هنا وهناك،
تهاوت أعمدة الخيام وتطايرت الأوتاد،
ولكن المسلمين كثيرون، ويحاولون الثبات.
وأيضاً فإن **ألبار هانييث،** اقتحم المعركة من جانب آخر.
ولو أن الأمر أحزنهم، أقروا بالهزيمة،
وبسرعة الخيل أفلت من استطاع الفرار،
فلحقوا بهم، وعندما أدركوهم قتلوا ملكيْن مسلميْن،
وظلوا فى أثرهم حتى بلغوا أبواب بلنسية،
وكانت الغنائم التى حصل عليها سِيدى كبيرة،
سرقوا كل ما فى ساحة المعركة، وبعدها أخذوا يعودون،
فدخلوا مربيطر ومعهم كل ما حملوا من غنائم هائلة،

وعمّت المدينة فرحة غامرة،
ثم استولوا على الجبيلة وما حولها،
وعم الخوف بلنسية، وحار أهلها فيما يصنعون؛
وأخبار سِيدى رن صداها فى كل مكان.

٦٩

غارات السيد جنوب بلنسية

ومن جانب آخر فإن شهرته بلغت البحر.
وامتلأ السِّيد غبطة، وازداد جيشه فرحاً،
لأن الله ساعدهم فكان النصر حليفهم،
وأرسل فرسانه فى إغارات ليلية متوالية ، وليلا كانوا يخرجون،
فوصلوا قلييرة، ثم جازوها إلى شاطبة،
وتوغلوا هابطين، حتى بلغوا سكان دانية،
فدمروّا أراضى المسلمين كلها حتى البحر،
واستولوا على سلسلة جبال بنى كادىً، مداخلها ومخارجها.

٧٠

السِّيد فى جبل بنى كادى

عندما استولى السيد القنبيطور على جبل بنى كادىً،
تألم سكان شاطبة، وكان أسى أهل قلييرة بالغاً،
ولم تنس بلنسية شيئاً من أحزانها.

٧١

الاستيلاء على منطقة بلنسية كلها

وعاش فى أرض المسلمين، يغزو وينهب، هنا وهناك،
ينام النهار، ويمضى الليل سهران.
وليستولى على ذلك الوادى أنفق سيدى ثلاثة أعوام.

٧٢

السيد يحاصر بلنسية - وينادى بالحرب بين المسيحيين

بَقى سكان بلنسية مرعوبين،
لا يجرءون على الخروج، وليسوا راغبين فى النضال،
بينما **السيد** يدمر جنانهم، ويلحق بهم أفدح الأضرار،
وخلال هذه الأعوام حال بينهم وبين الحصول على أى طعام،
وضج سكان بلنسية شاكين، وحاروا ماذا يفعلون،
لم يعودوا يحصلون على الخبز، من أى مكان،
وذهل كل والد عن ولده، ولم يعد الأبناء يساعدون الآباء،
ولا الصديق صديقه. لم يعد أحد يعاون فى الضراء،
وصح سادة القوم فلم يعودوا يملكون رغيفاً من خبز،
وماتت الزوجات جوعاً، ومات الأبناء،
كانت آلامهم مجسمة؛ وعن التخلص منها عاجزون،
فأرسلوا إلى ملك مراكش يطلبون العون،
غير أنه كان مشغولا بحربه مع الموحدين فى جبال الأطلس،

فلم يقدم لهم النصح ولم يجىء ليكون لهم من المساعدين،
وعرف سيدى الخبر، ففاض قلبه سروراً،
وذات ليلة خرج من مربيطر سهران طائفاً.
فطلع عليه الفجر فى أرض مُونت ريال،
وأرسل من ينادى بانتصاراته فى نبّرة وأرجون،
وبعث إلى قشتالة برسالة :
« من يرد أن يتخلص من عمله، ويرد أن يصبح غنيا حقاً،
فليأت إلى سِيدى، بطل محارب راغب فى القتال ».
ولكى يُقدم بلنسية هدية إلى المسيحيين فقد ضرب عليها الحصار.

٧٣

تكرار النداء

من يُرد أن يأتى معى لحصار بلنسية،
وتعالوا جميعاً أحراراً بإرادتكم ودون إكراه من أى مخلوق،
فليعرف أننى سأبقى ثلاثة أيام قريباً من قناة ثيلا.

٧٤

الناس يتوافدون على المنادى - حصار بلنسية وسقوطها

ذلك ما قاله سيدى، **القنبيطور** المخلص،
ثم عاد إلى مدينة مربيطر، ومن قبل استولى عليها،
واعلم أن الرسل مضوا عبر كل الجهات ينادون بما قال **السيد**،
وانتشرت رائحة الغنائم فما تخلف أحد عن المجىء،

وآخرون جاءوا مدفوعين بعقيدتهم المسيحية الخالصة،
وطارت أخباره وشاعت فبلغت كل الأنحاء،
والقادمون لينضموا أكثر عدداً من الذاهبين،
وبدأت تتضخم ثروات سيدى، **ابن بيبار**،
وغمره الفرح عندما رأى كثيرين يتوافدون،
ولم يرد سِيدى دونْ **لذريق** أن يمضى فى صبره،
فتقدم نحو بلنسية مباشرة وانقض عليها،
وضرب سيدى حولها حصاراً دقيقاً صارماً لا يفلت منه إنسان،
لا أحد من سكانها يستطيع خروجاً أو الدخول،
وضرب لهم أجلا لعل أشقاءهم لمساعدتهم يقدمون،
ودام الحصار مستمراً تسعة أشهر بلا انقطاع،
وبمجىء العاشر أحنت المدينة رأسها مستسلمة،
يا للبهجة الغامرة تطوق سكان المكان،
عندما استولى سيدى على بلنسية ودخل المدينة ظافراً !
والذين كانوا بالأمس مشاة عادوا على صهوات الخيل يسرعون،
والذهب والفضة من الغنائم ، من يستطيع عدها ؟،
وكل الذين كانوا هناك من أتباع **السيِّد** أصبحوا أغنياء،
وكان الخمس لسيدى **دون لذريق** فأمر بأن يُعزل فى مكان،
فخصه من المال العين وحده ثلاثون ألفاً من الماركات،
وما أصاب من الغنائم الأخرى، من يستطيع إحصاءه ؟
وغمرت الفرحة سيدى، وكل أتباعه هناك،
عندما بدأت رايته خفاقة على القصر تداعب الهواء.

٧٥

ملك إشبيلية يرغب فى استرداد بلنسية

استراح سيدى، وركنت كل جيوشه إلى الهدوء،
ووصلت رسالة إلى ملك إشبيلية تنبئه :
« لقد استسلمت بلنسية، وليس هناك من ينقذها ».
فسار الملك نحوها على رأس جيش عدته ثلاثون ألفاً،
ودارت رحا المعركة وراء البستان،
فغلبهم سيدى، صاحب اللحية المرسلة، فولوا هاربين؛
فتبعهم مطارداً حتى مدينة شاطبة،
وعندما عبروا نهر شقر كانوا شملاً ممزقاً،
ضد التيّار سار المسلمون، ومسرعين راحوا يعبّون الماء،
وهرب ملك إشبيلية وفى بدنه ثلاثة جراح،
وعاد سيدى محمّلاً بغنائم أخرى،
وإذا كانت غنائم بلنسية كبيرة، عندما استولى على المدينة،
فقد كانت غنائمه فى هذه المعركة أكثر عدداً وأغلى ثمناً؛
وقبض جنود المعركة الأخيرة، كل واحد مائة مارك من الفضة،
فانظر إلى أى حد تزدهر أعمال الفارس الشجاع.

٧٦

السيِّد يرسل لحيته غزيرة وكثيفة - إثراء أتباع السيِّد

كانت الفرحة شائعة بين كل هؤلاء المسيحيين،

الذين كانوا مع سيدى **روى دياث**، مَن وُلد فى لحظة سعيدة،
ولقد نمت لحيته، واستطال شعرها،
لأن سيدى قال ذلك بفمه ولم ينسه :
«حبًّا فى الملك **ألفونسو** الذى نفانى فى هذه الأرض،
لن تمس لحيتى موسى، ولن أقص من رأسى شعرة،
وليتحدث عن ذلك من شاء، مسلمون ومسيحيون،
واستراح سيدى **دون لذريق، ابن بيبار،** فى مدينة بلنسية،
ومعه **مينايا ألبار هانييث،** ملازم له لا ينفصل عن جانبه،
لقد أثْروا كثيراً هؤلاء الذين أُخرجوا من قشتالة منفيين،
جميعاً، فى مدينة بلنسية، عوضهم خيراً **القنبيطور** المعدود،
ولحظ سيدى أن رجاله مع ما أصابوا من غنائم كبيرة،
يودون أن يعودوا إلى أراضيهم مسرورين،
وعملا بنصيحة **مينايا** أصدر السيد أوامره :
إذ كان بعض أتباعه، أولائكم الذين ربحوا معه كثيراً،
يذهبون الآن دون أن يودّعوه، ودون أن يقبّلوا يده[١]،
فسيلحق بهم أيّان ذهبوا ولن يستطيعوا إفلاتا،
وسوف ينزع منهم ما أقطعهم من أرض ، ويودعون الحياة مشنوقين،
وعندما اتخذ القرار بكل ما يتطلبه من حذر واعتناء،
اختلى **السيِّد** مع **مينايا البار هانييث** يتشاوران :
«إذا وافق رأيكم **مينايا**، أود أن أحصى

---

(١) التابع لا يمكن أن يتحلل من تبعيته، وأن يفارق مولاه قانونا، إلا إذا ودعه مستأذنا، وطلب أن يقبل يده.

الرجال الذين هنا، أتباعى، وغنموا معى شيئا،
نكتبهم جميعا فى صحيفة ويصبحون مُسجَّلين؛
حتى إذا اختبأ واحد، أو غاب فلم نعد نراه،
رد ما ربح معنا إلى هؤلاء الأتباع المخلصين،
الذين يسهرون خارج أسوار بلنسية وينهضون على حراسة المدينة»
فرد **مينايا :** «تفكير مصيب!».

٧٧

السيد يحصى رجاله - ويتهيأ لإرسال هدية جديدة إلى الملك

أمر **السيد** بأن يحضروا جميعا فى ساحة القصر،
فأحصاهم واحدا واحدا. وكلٌّ يُنادى باسمه عاليا،
فكان عدد أتباع سيدى، **ابن بيبار**، ثلاثة آلاف وستمائة من الرجال،
فسر من قلبه، وغمرته الابتسامة، وتحدث قائلا :
«شكرا لله **يا ميناَيا**، ولمريم الأم المقدسة!
فى قليل من الرجال خرجنا يوما من ديارنا فى قرية بيبار،
ونحن اليوم أغنياء كبار، وغدا نكون أكثر غنى،
إذا كان يسرك **يا ميناايا**، ولن يسبب لك ضيقا ما
أود أن أبعث بك إلى قشتالة رسولا حيث ضياعنا،
وإلى الملك **ألفونسو**، سيدى الشرعى،
فمن هذه الغنائم التى حزناها فى هذه الأرض،
أود أن أهديه مائة حصان، واخترتك لتحملها إليه،
وعنى قبِّل يده، ثم تقدم إليه برجاء حار،

أن يدع زوجى **دونيا خمينا** وبنتىّ، يأتين معك،
إذا فاض عفوه، وسمح لهن بأن يخرجن من هناك،
وسوف تذهب لهن وتبلغهن هذه الرسالة :
« يازوجة سيدى وبناته الأميرات،
لقد أمر **السيد** بأن تأتين معى فى رفقتى، محترمات مكرمات،
إلى أراض بعيدة، افتتحها وغدا سيدها » .
حينئذ قال **مينايا :** « مسرورا سأنفذ ما أمرت ».
وأثناء الحديث أعدت خطة الرحيل،
فأعطى سيدى **ألبار هانييث** مائة من خيرة الرجال،
يقومون على خدمته ويكونون له حراساً أقوياء عبر الطريق،
وأعطاه ألف مارك من الفضة، يقدمها لكنيسة سان بطرس،
على أن يعطى نصف المبلغ للشماس **دون شانْجهْ.**

٧٨

دون خرونيمو يصل إلى بلنسية

الهدايا والأخبار الجديدة أسعدت الجميع،
ومن الجانب الشرقى جاء رجل دين كبير،
المطران **دون خرونيمو** كما تدعوه الجماهير،
رجل أديب واسع الثقافة وذو عقل حصيف،
مطران شجاع قاتل أرضا وعلى جواد،
ولتأييد سيدى وعونه، يمضى عبر الأرض داعيا،
وأمنيته الكبرى أن يلتقى مع المسلمين مناضلا فى ساحة القتال،
فإذا أشفى غلّه طاعناً المسلمين بيديه،

فسيخفّف دموع المسيحيين على امتداد قرن من الزمان،
وعندما استمع إليه سيدى رد مبتهجا :
« اسمعنى **يا مينايا ألبار هانييث،** بحق ذلك الذى فى الأعالى،
- وعندما يساعدنا الله فنحن نعرف كيف نكون من الشاكرين -
لأقيمنَّ فى أرض بلنسية مطرانية، ولأعينن مطرانا،
وفى عزمى أن أقدم المنصب هدية لهذا المسيحى التقى
وأنت، عندما تصل قشتالة، قص عليهم ما تعرف من أخبارنا ».

٧٩

دون خرونيمو يعين مطرانا

وافق هوى فى نفس **ألبار هانييث** ما قال **دونْ لذريق،**
ومن ثم فقد تولى **دون خرونيمو** منصب المطران،
عُين مطرانا على بلنسية حيث يستطيع أن يصبح من كبار الأغنياء،
يا إلهى ! . . . كم كانت بهجة المسيحيين غامرة،
فقد أصبح لهم فى بلنسية سيِّد مطران،
سعيدا ودّعهم **مينايا** ومضى.

٨٠

مينايا يتجه إلى مدينة كاريون

خلّف وراءه أرض بلنسية هادئة تنام فى سلام،
اتجه إلى أرض قشتالة **مينايا ألبار هانييث،**
وسندع المحاطّ التى نزلها، لا أود أن أعدَّها لكم،

وسأل عن **ألفونسو:** أين يستطيع أن يلقاه،
فعرف أن الملك ذهب إلى مدينة «ساهاجون» من قريب،
فعادوا إلى «كاريون»: حيث يمكن أن يجدوه،
كان **مينايا ألبار هانييث** طوال الرحلة سعيدا،
لأنه يحمل إلى هناك كل جميل من الهدايا والهبات!.

٨١

مينايا يحيى الملك

كان الملك **ألفونسو** خارجاً من الكنيسة بعد أن حضر القِدّاس،
ولما رأى **مينايا ألبار هانييث** فى كل أبهته ناداه،
فاتجه إليه، وجثا أرضاً على ركبتيه، أمام كل الناس،
ثم ارتمى على قدمى الملك **ألفونسو** لهفان شديد الألم،
وهو يقبل يده، تحدث المحارب الريان.

٨٢

خطاب مينايا أمام الملك - غيرة غرسية أوردونييث - الملك يعفو عن أسرة السيد - أميرا كاريون يطمعان فى ثروات السيد

شكراً، سنيور **ألفونسو،** بحق الخالق!
يود سِيدى المناضل أنْ يقبل يديكم،
أن يقبل قدميكم واليدين، فأنت سيد صالح وأهل لذلك،
طالباً منكم أن تصنعوا فيه معروفاً وسيكافئكم الخالق عليه،
لقد أخرجته من أرضه، وحرمته من حبك،

ومع أنه فى أرض بعيدة، فإن أحواله يمكن أن تسوء،
لقد استولى على الشارقة، وعلى مدينة تحمل اسم أوندة،
وسقطت فى يده المنارة، ومربيطر وهى أفضل الجميع،
وافتتح قرية جبيلة، وتقدم بعدها إلى قسطلون،
واستولى على قرية بنى كادىّ قلعة قوية التحصين،
لقد أصبح سَيِّد بلنسية وكل ما حولها من القلاع والحصون،
وبنفسه أقام مطرانية وعين مطرانا، الطيبُ **القنبيطور**،
خاض خمسة معارك فاصلة، وكان من المنتصرين،
وربح غنائم طائلة، ساقها إليه الخالق المكين،
وها بين يديك الدليل على صدق كل ما أقول،
مائة جواد درير، قوية البناء والتكوين،
سروجها مهيأة، وشكائمها رائعة التذهيب،
أقبل يدكم راجيا أن تتقبلوها وأن تكونوا عنها راضين،
شاهد ولاء على تبعيته وأنكم سيده الراعى الأمين».
ورفع الملك يده اليمنى مصلِّباً:
- «هذه الغنائم الهائلة التى ربحها القنبيطور،
- مبارك القديس إيزادور! - ملأتْ قلبى غبطة،
هى وما حقق **السِّيد روى دياث** من انتصارات،
إنى قبلت هذه الجياد، وقد أرسلها إلىّ هدية».
ولكن ماسرْ الملك أحزن **غرسية أوردونييث**:
«يبدو كما لو لم يبق فى أرض المسلمين مخلوق على قيد الحياة،
هكذا يريد أن يصور لنا الأمر هذا **السيد القنبيطور**.
فقال الملك للكونت: «دع هذا النقاش،

فإن **السيد** على أى حال يخدمنى خيراً مما تفعل أنت».

حينئذ تحدث **ميناايا** فى لهجة رجل :

« إن **السيد** يطلب عفوكم ويرجوكم معروفا،

أن تأذنوا لزوجه، **دونيا خمينا،** وبنتيه الأميرتين،

يخرجن من الدير حيث أودعهن بنفسه،

كى يذهبن إلى بلنسية ليكن مع القنبيطور الصالح».

فأجاب الملك : « ذلك شىء يسرنى من القلب،

ولهن الأمن والرعاية، طوال الرحلة، داخل مملكتى،

أحميهن من كل شر، وأدفع عنهن كل أذى، وأصون عفافهن،

فإذا بلغن الحدود، وتجاوزن أرضى، فعليك أنت

تحميهن، ويكن فى رعايتك، أنت **والقنبيطور.**

اسمعونى جميعا : جيشى ورجال بلاطى،

لا أود أن يفقد **السيد القنبيطور** أى شىء،

وأنتم كل الجنود الذين يعترفون به سيداً عليهم،

سوف أردّ الساعة لكم كل ما صادرت من أموال وضياع،

تبق لكم ثرواتكم حتى وأنتم هناك مع سيدكم؛

وسأحميكم جميعاً من كل أذى ومن كل الأخطار،

أصنع ذلك معهم لكى يخدموا سيدهم بأفضل ما يستطيعون».

فقّبل **ميناايا ألبار هانييث** يد الملك،

وابتسم ألفونسو وتحدث فى طلاوة :

« أولئك الذين يودون أن يذهبوا ليخدموا **القنبيطور،**

أذنت لهم فليذهبوا إليه بفضل الله،

نربح بالعفو أكثر مما نصيب بالغضب».

حينئذ تدخل أميرا «كاريون» مناقشين :

«شاعت كثيرا أخبار سيدى **القنبيطور**،

فإذا تزوجنا من بنتيه ربحناهما معا، الأب والبنتين،

ولكن تنقصنا الجرأة للحديث عما نريد،

فسيدى من بيبار، ونحن كلانا كونت فى كاريون»،

لم يبوحا لأحد بهذا الحديث، وظلت الرغبة سرا مكتوما.

وودع **مينايا ألبار هانييث** الملك الصالح،

- «أذاهب أنت **يامينايا؟** أرحل فى رعاية الخالق،

وسيصحبك رسول من جانبى، فهو نافع فى مثل هذه الظروف،

وإذا صحبت السيدات فاخدمهن شريفا بكل ما تستطيع،

وحتى تبلغوا مدينة سالم فأنتم فى حمايتى مطمئنين،

وبعدها، سيكنَّ فى رعاية القنبيطور،

وودع مينايا الملك، وخرج من القصر.

٨٣

مينايا يذهب إلى كاردينيا ليرى دونيا خمينا - مزيداً من القشتاليين مستعدين للذهاب إلى بلنسية - مينايا فى برغش ويعد اليهوديين بأنه سيدفع لهما عوضاً طيبا مقابل دينهما عند السيد - مينايا يعود إلى كاردينيا ويرحل وفى صحبته خمينا - بدرو برمودث يرحل من بلنسية ليتلق دونيا خمينا - وفى مولينا ينضم إليه ابن غلبون - ويلتقيان مع مينايا فى مدينة سالم

أميرا كاريون انتهيا فى أمرهما إلى قرار،
وخرجا فى رفقة **مينايا ألبار هانييث :**
« يامن تعودت أن تصنع الجميل، أضف إلى صنيعك جميلا آخر،
انقل تحياتنا إلى سيدى **ابن بيبار،**
يستطيع أن يعتمد علينا، ونحن لعونه مستعدون،
فليتخذنا أصدقاء، ولن يخسر **السيد** بهذا شيئاً »،
فرد **مينايا :** « هذه مهمة لن تزعجنى أبداً ».
ثم عاد الأميران، ومضى **مينايا** فى طريقه،
اتجه إلى كنيسة سان بطرس حيث السيدات هناك،
وعندما رأينه قادماً كانت بهجتهن طافحة،
وما إن وصل مينايا إلى سان بطرس حتى ترجل واتجه إلى القِدّاس،
وعندما انتهت الصلاة خرج مع السيدات :
« خاضعاً، **دونيا خمينا،** أدعو الله أن يحفظكم من كل سوء،
وأن يُظل برعايته بنتيك الأميرتين.
سِيدى يرسل لكنّ بتحياته من هناك حيث يعيش،
تركته مكتمل العافية، ويملك من المال الشيء الكثير،
وبعفو من الملك، كلكنّ حرّات ومعى تستطعن الرحيل،
سوف أمضى بكن إلى بلنسية، فهى من أملاكنا الآن،
فإذا رآكن **السيِّد** طيبات صحيحات الأبدان،
فسوف تغمره السعادة، وأبداً لن تطوف بحياته الأحزان ».
فقالت **دونيا خمينا :** « فلتكن إرادة الله ! »،
فأحضر **مينايا ألبار هانييث** ثلاثة من الفرسان؛

يحملون رسالة عاجلة إلى سيدى، ونحو بلنسية تحركوا فى الحال :

« أبلغوا **القنبيطور**، حفظه الله من كل سوء،

أن الملك عفا عن زوجه وبنتيه فأصبحن مطلقات السراح،

وماسرنا عبر أراضيه فنحن فى حمايته،

وبعد خمسة عشر يوماً إذا أظلتنا رعاية الله،

فسنكون جميعاً إلى جواره، أنا وزوجه وبنتاه !

ومن كن يقمن على خدمتهن من سيدات ».

وانطلق الرسل إلى وجهتهم، يؤدون ما كلفوا به من واجبات،

وبقى **مينايا ألبار هانييث** فى سان بطرس ينتظر الجواب،

ورأى فرساناً من كل الجهات يتوافدون،

يريدون أن يذهبوا إلى بلنسية لينضموا إلى سيدى **ابن بيبار**،

ويرجون **ألبار هانييث** أن يتوسط لهم ليكونوا من تابعيه.

فرد عليهم **مينايا** : «سأفعل ذلك بكل ما أستطيع».

وبلغ عدد الراغبين فى الذهاب خمسة وستين،

ومائة آخرون جاءوا معه مرافقين،

فكانوا جميعاً للسيدات الذاهبات حراساً مخلصين.

وقدم **مينايا** إلى الشماس خمس مائة مارك كاملة،

أما الخمسمائة مارك الأخرى، فسوف أحكى لكم كيف أنفقها :

« أنفقها **مينايا** على **دونيا خمينا** وبنتيها،

وبقية السيدات اللائى معهن مرافقات.

فكر الطبيب **مينايا** أنهن يجب أن يبدأن الرحلة مهيآت،

فاشترى لهن فى برغش خير ما يوجد فيها من ثياب ومكملات،

وبغالا متخيَّرة وأفراسا فارهات،
ولما أصبح كل شيء بين يدى السيدات،
تهيأ الطيب **مينايا** لكى يبدأ الرحلة بلا إبطاء،
ولكن، وصل **راكيل وفيداس،** وعلى قدميه ارتميا،
- «**مينايا** . . .نرجوك معروفا، أيها الفارس الوفى!
لقد ضعنا مع **السِّيد،** إذا لم تقدم لنا عوناً،
من جانبنا نتنازل عن الأرباح، إذا رد لنا رأس المال».
فرد عليهم: «عن القضية أتحدث مع السيد إن شاء الله،
لأنكم عاونتموه، وسيعوضكم عما صنعتم فيه من جميل».
فقال **راكيل وفيداس:** «كانت إرادة الخالق!
وإلا تركنا برغش، وذهبنا نبحث عنه حيث نلقاه».
ذهب **مينايا ألبار هانييث** إلى كنيسة **سان بطرس،**
فاجتمع إليه خلق كثير، وجميعاً تهيأوا للمسير،
وتغشاه حزن عميق وهو يودع الشماس:
- «ليهبك الخالق نعمة السلام، **يا مينايا ألبار هانييث**»
نيابة عنى، قبِّل لى يدى **القنبيطور،** وقل له:
«أن يجعل الدير موضع رعايته فلا ينساه ما عاش،
وإذا ما بسط علينا حمايته وهو فى عنفوان السلطة والجاه،
رفع ذلك من قدر **السيد القنبيطور،** ماامتدت به الحياة»،
وما إن تودّعا حتى تحركت القافلة للمسير.
ومعهم، فى صحبتهم، رسول الملك المرافق،
وعبْر أراضى قشتالة قدّموا لهم الكثير من الطعام والزاد،

فقطعوا المسافة من سان بطرس إلى مدينة سالم فى خمسة أيام،
وهاهم فى المدينة، **وألبار هانييث**، وبصحبته السيدات،
والآن سوف أحدثكم عن حامل الرسالة من الفرسان،
عندما بلغت أخبارهم سِيدى **ابن بيبار**،
خفق قلبه فرحاً، وفاض غبطة وبشرا،
وبفمه تعبيراً عن البهجة تكلم **السِّيد :**
«مَن يرسل طيباً مِن نفس الشيء ينتظر الجواب،
أنت، **مونيو جوستيوث** أولا، **وبدرو برمودث** على مستواك،
ثم **مارتين أنتولينييث**، برغشىّ صيغ من وفاء،
والمطران **دون خرونيمو**، رجل دين فريد المثال،
اذهبوا مع مائة فارس مسلحين فقد تضطركم الحال للنضال،
وسيكون طريقكم عبْر شنتمرية الشرق بدءاً،
وبعدها تلقون مدينة مولينا فاجتازوها آمنين،
لأن حاكمها **ابن غلبون** رجل صديق، ومحب للسلام،
وسيخصص لرفقتكم خلال أراضيه مائة فارس آخرين،
وإلى مدينة سالم غذوا السير ما استطعتم،
فهناك زوجى، وبنتاى، و **مينايا ألبار هانييث**،
وكما قالوا لى، ستجدونهم فى انتظاركم آملين،
فإذا وصلتم فاصحبوهنّ إلى هنا بكل ما يستأهلن من تشريف وتعظيم،
وسأبقى أنا فى بلنسية، وامتلاكها كلفنى الكثير،
والتخلى عنها الآن ضرب من الجنون المرير،
سأقيم هنا فى بلنسية، وقد أصبحت ملكى، مجدى الثمين».

ومأأن انتهى من كلامه حتى تهيأوا للرحيل.
واصلوا السير، دون راحة، ما استطاعوا،
مروا بشنتمرية الشرق، وبعدها توقفوا فى «فرونشالس».
وفى اليوم التالى بلغوا «مولينا» حيث ألقوا عصا التسيار،
وعندما عرف **ابن غلبون** المسلم أنهم على وشك الوصول،
خرج للقائهم بكل حفاوة وترحاب:
«أنتم أتباع صديق الحميم والشرعى،
ألا فاعلموا أن وجودكم لا يضايقنى، على العكس يجلب لى السرور».
فرد **مونيو جوستيوث**، حالا دون انتظار:
«سيدى يحييكم، ويطلب منكم أن تساعدوه،
بمائة فارس يود أن توفروهم فى الحال،
زوجه وبنتاه فى مدينة سالم منتظرات،
ويود أن تذهب إليهن وتأتى بهن،
ثم ترسل بهن إلى بلنسية محروسات».
فردّ **ابن غلبون**: «سأنفذ ما تريدون».
وفى تلك الليلة زودهم بقدر هائل من الزاد والطعام،
وفى صباح اليوم التالى تهيأت القافلة للمسير،
وإذا كانوا قد طلبوا منه مائة فارس فقد رافقهم فى مائتين،
فعبروا جبالا عالية، صعبة المسالك والمنحدر،
حتى انتهوا إلى وادى «ماتا دى ترانث»،
دون أن يمسهم عبر الطريق طائف من خوف،
فلما بلغوا سهول «أربو خويلو» تهيأوا للنزول،

وفى مدينة سالم كانوا لكل طارىء مستعدين،
وقد ارتعب **ألبار هانييث** عندما رأى الجنود المسلحين،
وأرسل اثنين من فرسانه ليعودا له بحقيقة الحال،
ولم تبطىء بهم العودة، وإنما فرحين قفلوا راجعين،
وقد بقى واحد مع القادمين، وعاد الثانى إلى **ألبار هانييث** :
- « إنها قوات **القنبيطور**، عنا جاءوا يبحثون،
هناك، كما ترى، **بدرو برمودث** على رأس الراكبين،
وأيضا **مونيو جوستيوث**، أحد الأصدقاء المخلصين،
و **مارتين أنتولينييث** فارس برغشى،
والمطران **دون خرونيمو** رجل الدين الوفى،
ثم القائد **ابن غلبون** على رأس جيشه القوى،
جاء تكريما لسيدى، ومبالغة منه فى التشريف والتعظيم،
يتحركون جميعاً وحدة متكاتفة، وقريبا يصلون.
حينئذ قال **مينايا** : « إلى صهوات الخيل أيها الفرسان،
علينا أن نخرج للقائهم مسرعين بلا تأخير »،
وتقدم فى مائة فارس عليهم جميعا مظاهر الثراء،
على صهوات خيل مطهمة ، مغطاة بالخز والديباج،
سوالف فى مقدمها، ترن أجراسها، ويتدلى منها الشعار،
فى أيديهم السهام، وفوق رءوسهم تخفق الرايات،
أراد **ألبار هانييث** أن يشعر الآخرين كم هو قوى،
وكيف خرج من قشتالة مع هؤلاء السيدات،
الذين فى المقدمة كانت مهمتهم أن يكتشفوا الطريق،

وما لبثوا أن امتشقوا سيوفهم وبها راحوا يلعبون،
وفى بهجة غامرة مروا قريبا من نهر شلون،
وجاء الآخرون فمرّوا أمام ميناايا إظهارا للولاء،
ووصل ابن **غلبون** ونظر إليه متأملا،
وامتلأ فمه بابتسامة عريضة، ثم مد يده مسلما،
وقبّله فى كتفه جريا على الشائع المألوف من العادات :
« يوم سعيد، لأنى رأيتك فيه.. **ميناايا ألبار هانييث،**
وأتيت معك بهؤلاء السيدات، وبهن ازددت شرفاً،
فهن : زوجة السيد المحارب وبنتاه الشرعيتان،
جميعاً لكم احترامنا، هذا قدر **السيد** وحظه،
حتى ولو كنا لانحبه، فنحن عن إلحاق الضرر به عاجزون،
وهو معنا، يشاركنا قدرنا، فى الحرب أو السلام،
وغبيّ من لا يعتقد أن ذلك هو الحق، وما سواه هباء ».

٨٤

المسافرون يستريحون فى مدينة سالم - ثم يرحلون منها إلى « مولينا » - ويقتربون من بلنسية

وضحك **ألبار هانييث ميناايا** من أعماق قلبه :
يا ابن غلبون، إنك لصديقه فى السراء والضراء،
وإذا أراد الله ووصلتُ إلى **السيد**، ورأيته ثانية بنفسى،
فكل ما صنعتَه من أجله لن يضيع هباء،
أما الآن، فهيا نسترح ، فقد أعد لنا الرفاق العشاء ».

فرد **ابن غلبون** : « شكرا على ما وعدتم،

وقبل أن تمر ثلاثة أيام سأرده لكم مضاعفا ».

ثم دخلوا مدينة سالم، فانتهت المسئولية إلى **مينايا**،

كانوا جميعاً شاكرين ما قدم لهم من خدمات ورعاية،

ثم أمر رسولَ الملك المرافق لهم أن يعود من حيث جاء،

وأحس سِيدى بارتفاع قدره وهو مقيم فى بلنسية،

أدرك ذلك مما حمل أتباعه من مدينة سالم من زاد وطعام،

فمينايا لم ينفق شيئاً، وكل ما احتاجوا إليه تكفَّل به الملك،

وانصرم الليل، وجاء وراءه الفجر متعقباً،

سمعوا القدّاس أولا وبعده امتطوا صهوات الخيل مسرعين،

ودّعوا مدينة سالم، ثم اجتازوا نهر شلون،

واتجهوا نحو « أربوخويلو » وصعودا مضوا إليها جاهدين،

ثم طووا وادى ترانت فى زمن يسير،

حتى وصلوا مدينة مولينا حيث يحكم **ابن غلبون**،

والمطران **دون خرونيمو** مسيحى صالح ذو صفحة بيضاء،

ليل نهار يقوم على رعاية السيدات،

وعلى يمينه فارس شجاع دائما يحمل السلاح،

ومعه، فى رفقته، **مينايا ألبار هانييث**،

سريعا دخلوا مدينة « مولينا » وفيها نزلوا قصراً فخماً رائع التأثيث

وقام **ابن غلبون** المسلم على قراهم فهيأ لهم ما يريدون،

يطلبون كل ما أحبوا فيأتيهم بلا تقصير ودون تأخير،

وزاد فأهداهم حدوات جديدة لخيولهم.

يا إلهى !.. كم بالغ فى تشريف **مينايا** والسيدات،
فرافقهم بنفسه حتى مدينة بلنسية، ليكون من القائمين على راحتهم،
وودعهم الحاكم المسلم ورفض فى إصرار أن يقبل شيئاً،
جاءوا تلفهم البهجة، وتسبقهم الذكريات السعيدة،
وصلوا قريبا من بلنسية، على بعد ثلاثة أميال معدودة،
وإلى سيدى، من تمنطق سيفه فى ساعة طيبة،
بعثوا إليه رسولهم فى داخل بلنسية.

٨٥

السيد يرسل رجاله للقاء القادمين

كان سيدى يتوهج بشرا، أكثر من أى يوم مضى،
لأن أحب الأشياء إلى قلبه، أصبح أقربها إليه،
فأرسل مائتى فارس خرجوا مسرعين،
لاستقبال **مينايا**، والسيدات الموقرات.
وبقى هو فى بلنسية حارساً ومراقبا.

٨٦

دون خرونيمو يسبقهم إلى بلنسية ليعد خطة الاحتفالات - -السيد يخرج للقائه - ثم يدخلان المدينة معا

كل هؤلاء الفرسان استقبلوا **مينايا**،
والسيدات، والبنتين، وكل الذين لهم مرافقين،
وأمر سيدى القائمين على شئون بيته،

أن يقوموا على حراسة القصر والقلاع الأخرى العالية،
إلى جانب كل الأبواب، ومخارج المدينة ومداخلها،
وأن يهيّأوا له الفرس ببييكا وغنمها من قريب،
من ملك إشبيلية، وقد انتصر عليه فى معركة فاصلة،
ولمّا يجربه سيدى بعد، من تمنطق سيفه فى لحظة سعيدة،
أهو عصىّ الشكيمة أم ذعِن القياد،.
وعلى أبواب بلنسية، مطمئنا كامل الأمان،
أخذ أمام زوجه وبنتيه يلعب بالسلاح،
وفى احتفال مهيب، استقبلت المدينة السيدات،
وكان المطران **دون خرونيمو** يتقدم الجميع
مترجلا عن حصانه متجها إلى مذبح الكنيسة،
حيث يوجد أُولئكم الذين أعدهم يوما على مهل من رجال الدين.
فارتدوا عباءاتهم، وحملوا صلبانهم، وكانت من الفضة،
ثم خرجوا لاستقبال السيدات و **مينايا**،
وحينئذ سارع من وُلِدَ فى لحظة طيبة،
فارتدى عباءة حريرية سابغة بدت لحيته معها أكثر وضوحا،
وأخرجوا له فرسه ببييكا، مسرجا، كامل التسريج،
فامتطاه **السيد**، حاملا سلاحه من أقواس وسهام،
وباسم فرسه ببييكا تحرّك،
وقام بعرض ألوان من الفروسية معجزة،
حتى إذا انتهى ترك الحاضرين فى دهشة غارقين،
ومن ذلك اليوم فإن « ببييكا » نال شهرة واسعة فى كل إسبانيا،.

وعندما انتهى من عرضه ترجل سِيدى،
ثم اقترب من زوجه، ومن بنتيه، وهما عنده أثيرتان،
وما إن رأته **دونيا خمينا** حتى ارتمت على قدميه:
«شكرا **يا قنبيطور،** يا من تمنطقت سيفك فى لحظة سعيدة،
لقد حررتنى من أشياء كثيرة، سيئة ومخجلة،
هاأنذا بين يديك سِيدى، أنا وبنتاك المحبوبتان،
بفضل الله وفى رعايتك سينشآن، صحيحتين مهذبتين»،
واحتضن **السيد** زوجه ثم بنتيه،
ومن السرور الغامر، والبهجة الطافحة، بكت عيناه،
وجنوده يتأملونه وهم جميعا مثله فرحون،
بعضهم يتبارون بالسلاح وآخرون يدربون على تحطيم القلاع،
اسمع ما قال من تمنطق سيفه فى لحظة سعيدة:
«أنت، يا **دونيا خمينا،** زوجى العزيزة الشريفة،
ويابنتىّ المحبوبتين، أنتن ملء القلب والروح،
ادخلن معى بلنسية، حيث بيتنا هناك».
فقبّلت الأم والبنتان يد **السيد،**
وفى حفل باذخ وتشريف كبير، دخل الثلاثة بلنسية.

٨٧

السيدات يتأملن بلنسية من شرفات القصر

اتجه سيدى مع السيدات الثلاث إلى القصر،
وهناك صعد بهن إلى أعلى مكان فيه،

حيث تستطيع العيون أن تسرح عبر كل الجهات،
يتأملن بلنسية ، وما عليه المدينة من امتداد،
فإذا اتجهن إلى جانب آخر فالبحر هناك،
ونظرن إلى البساتين، كبيرة وجميلة ومخضرة،
وكل ما فيها ممتع يشيع السرور والبهجة،
ثم رفعن أيديهن إلى السماء، واتجهن إلى الله شاكرات،
وقد منحهن هذه الثروات، وكل ما عنده من طيبات،
وسيدى ورفاقه فى قمة الصفاء والبهجة،
لقد انهزم الشتاء، وشهر مارس على الأبواب،
والآن أود أن أقول لكم شيئا عما يجرى هناك وراء البحار،
عن الملك **يوسف بن تاشفين**، وهو فى مراكش مقيم.

٨٨

ملك مراكش يجىء ليحاصر بلنسية

غضب ملك مراكش من سيدى **دون لذريق**:
«لقد زج بنفسه فى أراضىَّ،
ولايريد أن يقر بفضل لأحد غير المسيح».
وأمر ملك مراكش هذا بحشد الجيوش؛
واجتمع له من رجاله خمسون ألفا مسلحين،
اتجهو إلى البحر واحتشدوا فى السفائن متأهبين،
قاصدين بلنسية بحثا عن سيدى **دون لذريق**،
وأدركت السفن الشاطئ، فهبطوا البر واثبين.

٨٩

اتجهوا إلى بلنسية، وكان **السِّيد** قد استولى عليها من قريب،
نصبوا خيامهمَ، وعسكروا، جندا من روح القتال مجردين،
أنباء وصولهم بلغت سِيدى حالا بلا إبطاء ودون تأخير.

٩٠

فرحة السيد عندما رأى جيوش ملك مراكش - خوف خمينا

« شكرا لله، الأب الروحى!
كل ماأملك من خير هو الآن بين ناظرىّ،
بجهد وتعب ربحت بلنسية، وهى الآن ملكى، بين يدىَّ،
لن أبرحها إلا جثة هامدة، ميتًا فقد الحياة،
بقى أن أشكر الله، ومريم المقدسة
على أن زوجى وبنتىّ، معى هنا إلى جوارى،
لقد جاء الحظ يبحث عنى من بعيد، من وراء البحار،
علىَّ أن أحمل سلاحى دوما، دون تفريط أو إهمال،
وسترى زوجى وِبنْتاى كيف تكون الحرب، كيف يكون النضال،
ويعرفن كيف نعيش فى هذه الأراضى البعيدة، ونحمى الديار،
ويتأملن بأنفسهن كيف نشق من أجل لقمة العيش، وكيف ننتزع الحياة ».
فأمر زوجه وبنتيه بأن يصعدن إلى القصر، إلى أعلى مكان فيه،
وفى نظرة واحدة رأين كل الخيام،
- « ياسِيد، ما الذى أرى هناك، يحفظك الله ».

- « يازوجتى الشريفة، لا تدعى الألم يسحقك،
ما هنالك ثروات رائعة وكثيرة تنتظرنا،
لقد وصلتِ من قريب، ويريدون أن يهدوك شيئا عظيما،
لكى تزوجى بنتيك هنا أحضروا لك ما به تجهزِّين العرسان ».
- « شكرا لك سيدى، وشكراً للأب الروحى »،
- « يازوجى، ابْقَ فى القلعة لا تفارقى الحصن،
لا تجزعى، عندما تريننى أناضل فى ساحة القتال،
فبفضل الله، وأمه مريم المقدسة،
سيمتلىء القلب شجاعة، لأنكن أمامى ترقبْننى،
وبعون الله، المعركة لنا، والنصر حليفنا ».

٩١

السيد يقوى من عزائم زوجه وبنتيه - المسلمون يهجمون على ضواحى بلنسية

نُصبت الخيام، وتسربت أشعة الفجر،
وضجّت الطبول، ضجت بقرع صاخب مرتفع،
وابتهج سيدى قائلا : « ياله من يوم عظيم ! »،
وارتعبت زوجه وأوشك قلبها أن يقفز من بين الضلوع،
والسيدات وابنتاه، تغشاهن خوف مريع،
فمنذ ولدن لم يسمعن قرعا كقرع اليوم يخرق الآذان،
وطالت لحية **السِّيد**، الطيب **القنبيطور** :
« لا تدعن الخوف يبلغ منكن فاليوم لنا على أى حال،

قبل خمسة عشر يوما، إذا شاء الخالق القدير،
سننتصر فى المعركة وبين أيدينا ستكون تلك الطبول،
لَكُنّ سأحضرها، لترَيْن بأنفسكن كيف تكون،
ثم نقدمها للمطران **خرونيمو** هدية من المقاتلين،
ليعلقها فى كنيسة القديسة مريم، أم الخالق»،
نذر أخذه على عاتقه **السيد القنبيطور،**
سُرّت السيدات، وبدأ الخوف ينقشع عنهن،
وتحرك مسلمو مراكش فى عزيمة صادقة،
فاجتاحوا ما حول بلنسية من حدائق غير خائفين.

٩٢

هجوم مباغت للمسيحيين

لقد رآهم الرقيب، وبدأت تدق الأجراس،
فأخذت عدتها جيوش **روى دياث،**
وفى حميّة صادقة تسلحوا، ثم اتجهوا إلى خارج المدينة،
وعندما التقوا مع المسلمين انقضوا عليهم بسهولة،
طردوهم عن الحدائق، ومزقوا صفوفهم،
وما إن غربت الشمس حتى قتلوا خمس مئة كاملين.

٩٣

خطة المعركة

استمروا يلاحقونهم حتى الخيام،

لقد حققوا بغيتهم كاملة وبدءوا يعودون،
لكنهم خلّفوا وراءهم **ألبار سلفادورث** أسيراً هناك،
وعاد مع **السيد**، الذين أكلوا عيشه وشاركوه الطعام،
لقد رأى كل شيء بعينه، لكنهم أخذوا يقصون له ما كان،
وكان سِيدى مبتهجا، فرحا بما يصنعون :
« اسمعونى أيها الفرسان، على هذا النحو لا يمكن أن تسير الأمور،
لقد كان يوما رائعا، وغدا سيكون أفضل منه،
غدا، قريبا من مطلع الشمس، عليكم جميعا أن تحملوا السلاح،
ثم يمنحكم البركة **دون خرونيمو** المطران،
ويصلِّى بكم القدّاس، وبعدها تسرعون بالركوب،
نسرع إليهم، ونهاجمهم، فمن المحال أن يبقى الحال على هذا المنوال،
باسم الخالق، وحواريّه شنت ياقب،
من الخير أن ننتصر عليهم، قبل أن يأتوا فينتزعوا منا لقمة العيش »
حينئذ أجابوا جميعاً : « سنفعله راغبين عازمين ».
وردّ **مينايا**، إذ لم يستطع على الحديث صبرا :
« أما وأن هذه رغبتك، فلتأمرنى بشىء،
أعطنى مائة فارس ومعهم سترى كيف يكون القتال،
فإذا هاجمتَ فى الوسط، فسأهاجم أنا من الخلف،
فى جانب، أو فى جانبين، وسوف يساعدنا الله ».
فردّ عليه السِّيد : « اعتمد على عزيمتى القوية ».

٩٤

السيد يتنازل للمطران عن الضربة الأولى

النهار يسلك طريقه خارجا، والليل يتأهب للدخول.
وبينما الجنود المسيحيون يأخذون أهبتهم،
فى الساعة الثالثة ليلا، قريبا من الفجر،
بدأ المطران **دون خرونيمو** يرتل القدّاس،
وهم يستمعون إليه ثم منحهم بركاته :
« مَن يمت منكم مقاتلا وجها لوجه،
أغفرْ له ذنوبه، وتسكن روحه مستقرة فى جوار الله،
وأنت يا **سِيد، دون لذريق**، يا من فى ساعة طيبة تمنطقت سيفك !
سوف أرتل لك القدّاس فى نفس هذا الصباح،
وأطلب منك فضلا، وأنا واثق أنك ستعطينى إياه،
أن تكون الطعنات الأولى من سيفى، وبيدى أوجهها ».
فقال القنبيطور : « لك ما طلبت ! ».

٩٥

المسيحيون يخرجون إلى المعركة - هزيمة يوسف - غنائم لا تحصى - السيد يحيى زوجه وبنتيه - دوطة للسيدات اللائى مع خمينا - توزيع الغنائم

خرجوا جميعاً مسلحين من تحت أبراج كوارتو،
سيدى وتابعوه أحسنوا تنظيم أنفسهم،

بعضهم بقى على الأبواب مدجج السلاح،
وفى وثبة واحدة قفز سيدى على فرسه ببييكا،
جيد التسريج، مزينا بالعقود والأجراس،
ثم رفعوا رايتهم وخرجوا مخلفين بلنسية وراءهم،
فى رفقة سيدى بلغوا أربعة آلاف غير ثلاثين،
ليهاجموا شجعاناً خمسين ألفاً من الأعداء مقاتلين،
بينما **مينايا، وألبار ألبارث،** اقتحموا المعركة من الجانب الآخر،
ورجوا الله حينئذ أن يكون النصر حليفهم،
وقد حارب سِيدى بالسهام فلما نفدت ضارب بالسيف.
فقتل مسلمين كثيرين لم يحصهم أحد،
وعلى امتداد ساعده جرى الدم ساخناً، وعند الكوع أخذ يتساقط،
وطعن الملك **يوسف بن تاشفين** ثلاث طعنات،
لكن الملك المسلم همز جواده وأسرع تاركاً ساحة القتال،
فالتجأ إلى مدينة قليرة، فى قلعة بها ترف القصور،
فطارده سيدى **ابن بيبار،** حتى بلغ هناك،
ومعه، فى رفقته، جمع من رجاله المخلصين،
ثم قفل راجعاً من ولد فى ساعة طيبة،
طافح البشر بما حاز من غنائم وثروات،
وعرف قيمة ما يساوى فرسه كله من الرأس حتى الذيل!
وكل هذه الغنائم الهائلة أصبحت الآن بين يديه،
ومن بين الخمسين ألف مسلم الذين خاضوا المعركة،
لم يستطع أن يفلت هارباً غير مائة وأربعة رجال،

ثم أقبل جنود سيدى يسرقون ما فى ساحة القتال،
ومن الذهب والفضة فحسب أصابوا ثلاثة آلاف مارك،
أما الغنائم من الأشياء الأخرى، فإحصاؤها كان من العسير،
كان سيدى فرحاً، وشاركه فرحته كل تابعيه،
كان الله معهم، وبفضله انتصروا فى لحظة اللقاء،
وعندما رأى السيِّد أن الهزيمة حاقت بملك مراكش،
ترك هناك **ألبار هانييث** يحصى ما ربحوا من غنائم،
وقفل راجعاً إلى بلنسية على رأس مائة فارس،
منحِّياً الكوفية عن وجهه، نازعاً الخوذة عن رأسه؛
ممتطياً صهوة فرسه ببييكا، شاهراً سيفه فى يده،
فأسرعت السيدات للقائه، وكن واقفات فى انتظاره،
وأمامهن توقف سيدى، دون أن يرسل لفرسه العنان:
« أمامكن أنتن، أستشعر التواضع، ثروة هائلة ما غنمناه،
وما عشتنّ فى بلنسية سيكون النصر حليفى فى الميدان،
هذه إرادة الله، ومعه كل القديسين،
ما إن وطئتنّ أرض بلنسية، حتى ساق إلينا ما ترين من أموال،
انظرن، سيفى يقطر دماً، وحصانى يتصبب عرقاً،
وبمثل هذا ننتصر على المسلمين فى ساحة القتال،
اتجهن إلى الخالق داعيات كى يمد فى حياتى ويهبنى المزيد من الأعوام،
سوف أدفع بكن إلى المجد، ولتقبيل أيديكن سيأتى رعايا كثيرون »،
ذلك ما قال سيدى، ثم ترجل عن حصانه.
وعندما رأينه ترجل عن جواده، واستوى واقفاً على قدميه،

السيدات، وبنتاه، وزوجه، سيدة من الفضليات،
جميعاً جثون أمام **القنبيطور** خاشعات:
«نحن شاكرات لأفضالك، مدّ الله فى حياتك سنوات وسنوات».
وحوله محيطات به، دخلن القصر مهللات،
وعلى الأرائك الغالية معه استوين جالسات مستريحات.
- «يا زوجتى، **دونيا خمينا** ألم تدْعي لى به؟
وهؤلاء السيدات اللاتى جئن معك، وعرفن كيف يقمن على خدمتك،
أود أن أزوجهن بالممتازين من توابعى،
وكل واحدة منهن سأعطيها مائتى مارك كاملة،
ولكى يعرفوا فى قشتالة، على مَن كن يسهرن خادمات،
قضية بناتك سندرسها على مهل فى أناة»،
ونهضن جميعاً واقفات، وقبّلن يده راضيات،
وشاعت الفرحة كبيرة وشاملة بين ما فى القصر من أبهاء وقاعات،
على حين ظلّ **مينايا ألبار هانييث**، بعيداً فى ساحة القتال،
مع عدد من رفاقه، يحصون الغنائم ويسجلون،
ما بين خيام وسلاح وملابس غالية،
أشياء كثيرة ربحوها تتجاوز ما يحتاجون،
وفضلا عن ذلك أود أن أحكى لكم عن أغرب ما ربحوه:
«أعداد هائلة من الخيل كانوا عن حصرها عاجزين،
لأنها مرسلة تجرى، وليس هناك من يأخذ بزمامها،
والمسلمون فى تلك الأرض غنموا شيئاً،
ورغم كل هذا فإن **القنبيطور** المعدود،

كان نصيبه من خيرة ما أصابوا ألف جواد،
وعندما رأى سِيدى أن حظه من الغنائم كان هائلا،
أدرك متأكداً أن بقية أتباعه بما قبضوه راضون،
ما أكثر الخيام المزينة التى ربحوها ومعها العمدان، رائعة الصنع،
ربحها سيدى، ومعه كل تابعيه،
وكانت خيمة ملك مراكش أروع الخيام صنعة،
والأعمدة التى تنهض عليها مُحلاّة بالذهب،
فأمر سيدى **القنبيطور** المعدود :
بأن تترك منصوبة، وألا يمسها مسيحى،
« خيمة كهذه جاءتنا من مراكش البعيدة،
أريد أن أرسلها إلى الملك **ألفونسو** القشتالى،
فيصدق ما بلغه من أخبار بأن سِيدى غنم شيئاً ».
ثم دخلوا مدينة بلنسية حاملين كل هذه الغنائم.
والمطران **دون خرونيمو**، رجل دينٍ ومقاتل شجاع،
وظامئ إلى الدماء، كان يقاتل فى المعركة بكلتا يديه،
ولكثرة ما قتل، ضاع من ذاكرته عدد من صرع من المسلمين،
وبالمثل كان نصيبه من الغنائم وفيراً غير محدود،
لأن سِيدى **دون لذريق**، من ولد فى لحظة سعد،
أعطاه فوق نصيبه عشر ما خصَّه من الغنائم كقائد.

٩٦

فرحة المسيحيين - السيد يرسل هدايا جديدة إلى الملك

فى بلنسية، كل المسيحيين أصبحوا فرحين.

٩٧

مينايا يحمل الهدية إلى قشتالة

لقد خرجوا من بلنسية، وتهيأوا للرحيل،
كانوا يحملون غنائم هائلة، عليهم أن يحرسوها يقظين،
واصلوا السير ليل نهار، دون أن يتوقفوا مستريحين،
عبروا سلسلة الجبال، وأراضى أخرى تفصلهم عن قشتالة،
فلما وصلوا بدأوا يسألون : عن الملك **دون ألفونسو.**

٩٨

مينايا يصل إلى بلد الوليد

عبروا سلاسل الجبال، والوهاد والمياه،
ثم وصلوا إلى بلد الوليد، حيث الملك هناك،
فأرسلوا له من قبلهم **برمودث** و **مينايا،**
لكى يأمر باستقبال الوافدين،
يحملون له هدايا سيِّد بلنسية.

٩٩

الملك يخرج لاستقبال أتباع السيد - غيرة غرسية أوردونييث

كان الملك فرحاً كما لم يُر يوماً،
فأمر فرسانه بأن يمتطوا صهوات خيلهم بأسرع ما يستطيعون،
وعلى رأس جنده سار الملك واسع الخطو،
ليستقبل رسل من وُلد فى ساعة طيبة،

وأميرا «كاريون» كانا للعلم أيضاً فى المقدمة،

ثم الكونت **غرسية** خصم السيد اللدود،

وما سرّ بعضهم أثار حسرة فى نفوس الآخرين،

وعلى مرأى البصر كان رجال من وُلد فى ساعة طيبة،

وبدوا كما لو كانوا محلة، وليسوا مجرد رجال مُرسلين،

وما إن رآهم الملك **ألفونسو** حتى صلّب مرات،

وفى نفس اللحظة تقدم **مينايا** و **بدرو برمودث**،

ترجّلا عن فرسيهما، واستويا على الأرض واقفين،

كلاهما ركع أمام الملك **ألفونسو** تشريفا،

قبّلا الأرض بين يديه أولا، وأتبعاها فقبلا منه القدمين،

– «شكراً، ياملك **ألفونسو**، لأنت ملك شريف،

من أجل سِيدى **القنبيطور**، نحن هنا جميعاً نقبل اليدين،

إليكم يتوجه منادياً سَيّدى، فتقبلوه واحداً من رعاياكم،

السيد يقد[illegible] كثيراً ما أضفيتم عليه من تشريف،

من أيام [illegible] [illegible] الملك، انتصر فى معركة،

على [illegible] مراكش وباسم **يوسف** جميعاً نناديه،

ومز[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] المعركة، وتبلغ عدته خمسين ألفاً،

الغنا[illegible] [illegible] [illegible] بلغت حداً فاق ما نريد،

وأصبح كل اساعك المخلصين أغنياء،

وأرسل لكم مائتى فرس، ومعها يقبل منكم اليدين».

فقال الملك دون **ألفونسو**: «سوف أتقبلها ممنوناً،

وأشكر سيدى على ما أرسل لى من هدايا،

وسيأتى اليوم الذى يتلقى فيه مكافأتى ».
شكروه كثيراً على ردّه، ثم قبلوا يديه،
تألّم الكونت **دون غرسية** وفاض غضباً،
ومع عشرة من أقربائه انتحوا جانبا يتهامسون :
« أدهشنى أن يدرك **السيد** هذا الشرف العالى،
وهو بما حاز من تشريف وتقدير أصبح ندًّا لنا،
يقهر الملوك بلا جهد فى ساحة المعركة،
ويستولى على كل خيولهم كما لو كانوا جثثاً من الموتى،
وأعماله هذه ضدنا، تقلل من قدرنا ».

١٠٠

الملك يظهر حسن نيته نحو السيد

وتحدث الملك دون ألفونسو فاسمعوا ما قال :
« شكراً للخالق، وللسنيور القديس سان إسيدور،
على المائتى جواد التى أهدانيها السيد،
وفى قادم الأيام يستطيع أن يقدم لمملكتى المزيد من الخدمات،
لك أنت، يا **منيايا ألبار هانييث، ولبدرو برمودث،** وقد جئتم إلى هنا،
آمر بأن تقدم لكم كسوة من غالى الثياب،
وبوسعكم أن تأخذوا كل ما تحتاجون من سلاح،
وهكذا فى مظهر فخم يمكنكم أن تلقوا سيدى **رُوى دياث،**
وتنازلت لكم من الخيل عن ثلاثة، فخذوها من هنا،
لدىّ إحساس داخلى، وفى أعماق صوت يصيح :
« كل هذه الأحداث سوف تنتهى إلى غاية سعيدة ».

١٠١

أميرا كاريون يفكران فى الزواج من بنتى السيد

قبّلوا جميعاً يديه ثم دخلوا يستريحون،
وأمر الملك بأن يقدم لهم من زاد وطعام وقِرى ما يحتاجون.
عن أميرى «كاريون» أود أن أحكى لكم شيئاً،
ثرثرتهما معروفة، ووحدهما بعيدا بدآ يعلِّقان،
«أخبار السيد وبطولاته كل يوم فى ازدياد،
فلنطلب منه يدىْ بنتيه زوجتين لنا،
زواج نزداد به شرفا، ويعلى من قدرنا مع الأيام».
ثم ذهبا معا إلى الملك **ألفونسو** يفصحان له عما يريدان.

١٠٢

الأميران يجعلان الملك هو الذى يتولى الزواج - الملك يطلب مقابلة السيد - مينايا يعود إلى بلنسية ويخبر السيد بكل شىء - السيد يحدد مكان اللقاء

نطلب منك معروفا، كملك لنا وسيِّد،
أن تأذن لنا، وتخلصنا النصح فيما نحن عازمان،
فتطلب لنا زوجتين: بنتى **القنبيطور**،
نريد أن نبنى بهما لنجمع شرفنا إلى شرفهما.
وفكرّ الملك طويلا، مع نفسه تملَّى أكثر من ساعة:
«لقد نفيتُ الطيب **القنبيطور** من أرضى،

أسأتُ إليه فردّ الإساءة ولاءً،
ولا أدرى إذا كان مثل هذا الطلب يرضيه،
ولكن إذا رغبتما حقا فى الزواج تحدثنا عنه مع **السيِّد**».
أرسل الملك فى طلب **مينايا ألبار هانييث و بدرو برمودث**،
أراد دون **ألفونسو** أن يتحدث إلى الاثنين،
وعندما وصلا صحبهما إلى إحدى القاعات :
- «اسمعنى يا **مينايا ألبار هانييث**، وأنت يا **بدرو برمودث** أيضا
لقد خدمنى مخلصا سيِدى **روى دياث القنبيطور**،
إنه أهل للتقدير، وقد عفوت عنه،
فليأت ليرانى إذا كان راغبا فى اللقاء،
ثمة حدث جديد فى البلاط أود أن أعلم به سيِدكم.
دييجو وفرناندو أميرا كاريون،
يرغبان فى الزواج من بنتى السيِّد،
كونا رسولَىّ الحكيمين، وجاء الدور لأتوجه إليكم بالرجاء،
أبلغا رسالتى شخصيًّا إلى **الطيب القنبيطور**،
إذا كان يشرفه، أو مع الأيام يزداد به شرفا :
أن يصبح صهرا لأميرى كاريون».
فتحدث **مينايا**، بينما صمت **بدرو برمودث** يتابع الحديث.
«سوف نرجوه فيما به تتحدثون،
وبعدها يفعل **السيد** ما يوافق هواه»،
- «وأيضا قل لروى دياث من وُلد فى ساعة طيبة،
إننى مستعد للقائه فى المكان الذى يريد،

وحيث يختار نرفع الأعلام ونخطط الحدود،
من جانبي يسعدني أن أمد يد العون للسيد».
ثم ودعا الملك، ومع الرسالة قفلا عائدين،
مسرعين إلى بلنسية، رفقة رجالهم وكل التابعين،
وعندما عرف الخبر **الطيب القنبيطور**،
هيا فرسه وسريعا خرج للقائهم،
تملأ الابتسامة وجهه، ومحتضنا حيًّا الجميع،
«وصلت **يامينايا**؟. وأنت أيضا يا **بدرو برمودث**؟،
في أرض قليلة يوجد رجال في قامة هذين الفارسين.
كيف كانت تحية **ألفونسو**، سيِّدي، وأيّ الأخبار تحملان،
هل خلَّفتماه سعيدا، وكيف كان وقع هداياي».
فرد **مينايا**: «نعم، كان سعيد القلب والروح،
سُرَّ بما تلقى، ومعنا ردّ لكم المعروف».
فقال سيدي: «شكراً للخالق»،
ثم أنهيا التحية، وبعدها جاء دور الكلام
عما يحملان من رجاء **ألفونسو** ملك ليون،
ورغبته في أن يزوّج بنتي السيد من أميري «كاريون»،
سيكون عملا طيبا، وبه يزداد مع الأيام تشريفا،
وله يقدمان المشورة خالصة، نابعة من القلب والروح،
وبعد أن استمع لذلك سيدي **القنبيطور الطيب**،
فكرّ طويلا، وعلى مهل راح يتأمل الأمر:
«شكرا للمسيح سيدي،

نفونى من أرضى، وانتزعوا منى كل مجد،
بالجهد الكبير حصّلت ما معى اليوم،
شكرا لله، لأن الملك رد إلىّ رضاه،
وطلب يدىْ بنتىّ زوجتين لأميرى كاريون،
قولا لى يا **مينايا ألبار هانييث**، وأنت يا **بدرو برمودث**
عن هذا الزواج، ما رأيكما، أنتما الاثنان ؟».
- «ما تراه أنت ويسعدك، نراه نحن ونوافق عليه».
فرد السيِّد : «أميرا كاريون نبيلان، ولدا من أصل نبيل
زهوّان بنفسيهما، وفى حاشية الملك معدودان،
ولكنى لخطة الزواج هذه غير مطمئن،
وقد نصح به الملك، فقوله واجب التنفيذ عند الخلاف،
فى السرّ ندرس الأمر ونقلّب الرأى،
وندعو إله السماء أن يوفقنا إلى ما هو حق وخير.
وفضلا عن ذلك فإن دون **ألفونسو** يقول لكم :
«إنه ليلقاك يذهب إلى أى مكان تختار،
يريد أن يراكم ليمنحكم عفوه، ويضفى عليكم جميله،
وتستطيعون أن تتبادلوا معه القول لتنتهوا فى القضية إلى رأى».
حينئذ رد **السيد** : «ذلك شىء يسعدنى من القلب !».
«مكان اللقاء عليكما أنتما أن تختاراه»،
فقال **مينايا** : «أنتم سيد العارفين،
- «لايدهشن أحد إذا أمر الملك **ألفونسو**
أنه ليلقانى سوف يذهب حيث أختار أنا،

فأنا أحتفظ له بولاء عظيم كَسيّد وملك،
أما وأن هذه إرادته، فلتكن إرادتى أيضا،
على ضفاف تاجو، فهو نهر كبير،
هناك سنلتقى فى الموعد الذى يحدّده سَيّدى».
سريعا كُتبت الرسائل، وفى الحال وقعَها،
ومع فارسين أمر أن ترسل على الفور،
مايريده الملك سوف يحققه **القنبيطور**.

١٠٣

الملك يحدد موعد اللقاء، ويتهيأ مع رجاله للذهاب

وصلت الرسائل وأبلغت إلى الملك المبجلّ،
وهو يقرؤها خفق قلبه سعادة :
« تحياتى إلى سيدى من تمنطق سيفه فى لحظة طيبة،
سيكون اللقاء خلال ثلاثة أسابيع،
إذا امتدت بى الحياة سترونني هناك بلا تأخير».
سريعا، على صهوات الخيل، عاد الرسل لرؤية **السيِّد**.
كلا الجانبين أخذ عدته لهذا اللقاء،
من رأى عبر قشتالة بغلة جميلة تحث السير،
وحصانا ملكيا بالغ الجمال يسرع مزهوًّا،
وخيولاً رائعة المظهر، وفرسانا ممتازين،
رايات كثيرة تخفق عالياً على ساريات عالية،
يتوسطها شعار بالذهب والفضة أُحسن تزيينه،

أغطية كثيرة، وملابس من جلود، وعباءات من صنع **الإسكندرية**،
وأمر الملك بإرسال أغذية وفيرة،
إلى ضفاف تاجو حيث تجرى استعدادات اللقاء،
أكثر الملك حاشيته وأحسن اختيارها،
وأميرا «كاريون» يلفهما البشر يمشيان،
هنا جاءا ليقبضا، وهناك يدفعان،
ثروات طائلة عندهما، وبالزواج سينمو ما يمتلكان،
وسيكون لهما من الذهب والفضة كل ما يبغيان، .
بدأ الملك دون **ألفونسو** الرحلة،
ومعه الكونتات، وكبار الأغنياء؛ وكثير من الجنود،
وصحب أميرا «كاريون» معهما حاشية عديدة،
وذهب مع الملك كثير من أهل ليون، ومن جند غاليسية،
ودون أن نحسب معهم، وليكن فى علمكم، الجيوش القشتالية،
على الخيل، والأزّمة مرسلة، حَثّوا السيّر إلى مكان اللقاء.

١٠٤

السيد ورجاله يتهيأون للذهاب إلى اللقاء - الرحيل من بلنسية - الملك والسيد يتقابلان على ضفة نهر تاجو - الملك يعفو عن السيد علانية - وليمة كبرى، الملك يطلب يدى بنتى السيد للأميرين - انتهاء اللقاء - هدايا السيد للمدعوين - الملك يقدم الأميرين للسيد

سيدى القنبيطور فى بلنسية،

من زمن وهو يعد نفسه للقاء المنتظر،

بغال فارهة للحمل، وخيل أصيلة للركوب مُعدة ومهيأة،

وأسلحة ممتازة، وأفراس دريرة،

وعباءات فاخرة، وأغطية وثيرة، وملابس من جلود،

والشبان والرجال فى ملابس زاهية الألوان،

وكان هناك **مينايا ألبار هانييث، وبدرو برمودث،**

ومارتين مونيوث، وكان حاكما على «مُنْت مايور»،

ثم **مارتين أنتولينييث،** ذلك البرغشى المخلص،

والمطران **دون خرونيمو** كبير رجال الدين،

وجاء **ألبار ألباروث** فى رفقة **ألبار سلفادورث،**

ومونيو جوستيوث، الفارس الوفى،

وجاليندو غرسية، وكان قادماً من أرجون،

كل هؤلاء كانوا يستعدون ليرافقوا **السيِّد القنبيطور،**

وآخرون كثيرون من الأتباع الأوفياء،

ألبار سلفادورث، و جاليندو الأرجونى،

هما الاثنان كلاهما، تلقيا أمراً من القنبيطور:

أن يقوما على حراسة بلنسية بالقلب والروح،

ويشترك فى حمايتها معهما كل من فيها مِن سكان،

وأمر سِيدى بأن تغلق أبواب القصر،

وألّا تفتح ليلا أو نهاراً، أو تحت أى سبب،

وداخله توجد زوجه وبنتاه الاثنتان،

ومعهما ترك **السيد** روحه وقلبه،

ومعهن سيدات أخريات يقمن على خدمتهن،
وأمر بشدة كفارس عاقل
ألاّ يسمح لأية واحدة بالخروج من القصر
حتى يعود من اللقاء، من وُلد فى لحظة سعد.
خرجوا من بلنسية، وهزوا مهامزهم،
كلها خيل حرب، دريرة فى الجرى، قويةُ البدن،
غنمها سِيدى فى الحرب، ولم تأته هدية من أحد،
إنه ذاهب للقاء الملك، طبقاً لما اتفقا عليه،
وقبله بيوم وصل إلى المكان الملك دون **ألفونسو**،
وعندما رأوا **القنبيطور** الطيِّب يقترب من بعيد،
تقدموا للقائه مع الكثير من مظاهر التشريف،
وعندما رأى ما يحدث، مَن وُلِد فى ساعة طيبة،
أمر الجميع بأن يتوقفوا هادئين،
ماعدا الفرسان الذين يحبونه من القلب لأنهم مخلصون،
فقد ترجل مع خمسة عشر منهم، وعلى الأرض انتصبوا واقفين،
وعلى النحو التالى تحرّك من فى لحظة سعيدة جاء إلى الحياة :
جثا على ركبتيه، وبالأرض التصقت يداه،
وقضم بأسنانه حشائش الأرض وما عليها من نبات،
وفاضت عيناه دمعاً، فقد كانت فرحته غامرة،
عرف كيف يعبّر عن خضوعه لألفونسو سيِّده،
وبنفس المشاعر تهاوى **السيد** على قدمى الملك،
وفى تأثر بالغ تحدث الملك دون **الفونسو**،

« انهض، قف، أيها **السيد القنبيطور،**
قبِّل يدىّ فحسب، وأعفيك من تقبيل القدمين،
وإذا لم تفعل ما آمرك، فلن يكون لك من حبى نصيب ».
وتابع **القنبيطور** زحفه جاثياً على ركبتيه :
« منكم أطلب معروفاً، سيّدى الشرعى،
كما أنا، جاثياً على ركبتى، هبنى عفوك،
علانية، كى يسمعه الذين حولى أجمعون ».
فقال الملك : « لك ما طلبت من أعماق القلب والروح،
الآن حالا، عفوت عنكم، ولكم رددت رضاى،
وعَبْر كل مملكتى تستطيع أن تتجول منذ اليوم ».
وتكلّم سِيدى، عارضاً رأيه :
« قبلتُ عفوكم، دون **ألفونسو** سَيِّدى،
شاكراً عليه إله السماء، وأنتم،
وأيضاً هؤلاء الفرسان الذين معى من حولى ».
بقى **السيد** جاثياً، ثم قبّل يدى الملك،
ونهض واقفاً، وفى الفم قبّله،
وعمّت الفرحة كل الذين جاءوا معه مرافقين،
وأحزنت اثنين فحسب هما : **ألبار دياث، وغرسية أوردونييث،**
وتحدّث سِيدى فشرح وجهة نظره،
أنا شاكر للأب الخالق،
لأنه يسَّر لى عفو سِيدى **ألفونسو،**
علىّ أن أتوجه بالشكر لله ليل نهار،

يجب أن تكون ضيفى إذا كان هذا يسرك، يا سَيِّدى
فرد الملك : «ليس هذا هو العدل،
أنتَ وصلتَ اليوم فحسب، وقبلك أمس وصلتُ أنا،
وإذن تكون أنت ضيفى، أيها **السِّيد القنبيطور**،
وغداً يكون ما تريد أنت وندخل على قلبك السرور».
فقبّل **السِّيد** يد الملك، وأطاع ما قال،
والآن توجه إليه بالتحية أميرا كاريون :
«تحياتنا لك يا سِيد، يا مَن جئت إلى الحياة فى لحظة سعد،
نودّ مساعدتك، ونحن معك فى كل ما تريد».
فأجابهما **السيد** : «تلك إرادة الخالق».
سيدى روى دياث، مَن وُلد فى ساعة طيبة،
كان ضيفاً على الملك طوال يومه،
لم يستطع الملك أن يفارقه، كان يحبه مِن القلب،
وأخذ يتأمل لحيته مندهشا وقد استطالت سريعا.
والذين مع الملك جميعاً أظهروا إعجابهم بالسيد،
ومرّ النهار، وأقبل الليل الليل زاحفاً على مهل.
وفى اليوم التالى، أشرقت الشمس كاملة الوضوح،
فأصدر **القنبيطور** أوامره إلى تابعيه،
أن يعدوا وليمة ضخمة تكفى الذين هناك جميعاً،
كان يسر سيدى **القنبيطور** أن يبدو على هذا النحو كريماً،
شاعت البهجة بين الحاضرين، واتفقت كلمتهم على أنهم
خلال ثلاث سنوات مضت لم يأكلوا أفضل مما أكلوا اليوم،

وفى صباح اليوم التالى، ما كادت تشرق الشمس،
حتى أخذ المطران **دون خرونيمو** يرتّل قدّاس الصباح،
وهم خارجون من القدّاس التقوا جميعاً،
وبلا تأخير أخذ الملك يشرح وجهة نظره.
« اسمعونى : الجيش، والكونتات، والأمراء،
أود أن أتوجه برجاء إلى سيدى **القنبطور**،
تلك إرادة المسيح، ولتكن فى صالحه.
أطلب يدى بنتيكم، **دونيا ألبيرا ودونيا سول**
لتكونا زوجتين لأميرى كاريون،
وفيما أرى : زواج مشرِّف، ولفائدة الطرفين،
الأميران يطلبانهما منكم وأنا آمركم به،
والحاضرون هنا من كلا الجانبين،
من اتباعكم وأتباعى، هم الراجون الخاطبون.
فاقبل تزويجهن يا سيد، وفى حراسة الخالق تكون ».
فردّ **القنبيطور** : « ليس عندى بنات للزواج،
إنهما طفلتان لم تكبرا بعد ، وعلى الزواج مازالتا صغيرتين،
أميرا كاريون قوم مشهورون، وصيتهم طبّق الآفاق،
صالحان للزواج من بنتىّ، ولغيرهما أكثر صلاحاً،
هن بنتاى من صلبى، أما الذى رباهن فأنت،
ياأنا وبنتاى تحت أمركم، طوع ما تريد،
هاهما، خذهما بيدك، **دونيا ألبيرا** و **دونيا سول**،
وزوّجهن بمن تريد، فسأبقى سعيداً ».

فردّ الملك : « شكراً لك ولكل الحاضرين ».
وتقدم أميرا كاريون، فقبلا يدى من وُلد فى ساعة طيبة.
وتبادلا السيوف مع **القنبيطور** فى حضرة الملك دون **ألفونسو**،
وتحدث الملك كَسيّد صالح :
« شكراً ياسيد، فأنت طيب، ومختار من الخالق.
زوّج بنتيك من أميرا كاريون،
سآخذ الاثنتين بيدى، **دونيا ألبيرا** و **دونيا سول**،
لتصبحا زوجتين لأميرى « كاريون »،
سأزوج بنتيك بإذن منك وبرضاك،
تلك إرادة الخالق، وفيها كل الخير،
وهاهما الآن بين أيديكم . . ياأميرى كاريون،
هما تذهبان معكم، ترافقانكم، لأنى من هنا سأعود،
لهما منى، كمساعدة، ثلاث مائة مارك من الفضة كاملة،
ينفقانها فى زواجهما، أوحيث تأمرون،
عندما يصبحان معكم، إلى جواركم فى بلنسية الكبيرة،
فالأصهار والبنات، كلهم أولادكم،
اصنعْ بهم ما يحلو لك، أيها **القنبيطور** ».
واستقبلهما **السيد** وبعدها قبّل يدى الملك قائلاً :
« شكرى لكم لا يحصى، ملكا وسيّدا،
أنت الذى اخترت وزوجت بنتىّ ولست أنا ».
تبودلت الكلمات، وتمت الخطوبة.
وفى اليوم التالى عندما أشرقت الشمس،

كل واحد عاد إلى المكان الذى جاء منه،
حينئذ قام سيدى **القنبيطور** بعمل عظيم،
خيول ملكية، إلى جانبها بغال فارهة،
وملابس أنيقة، غالية الثمن نادرة،
بدأ سيدى يوزعها على كل من قبل هداياه ورغب فيها،
أعطى كل فرد ما طلب، أبداً لم يكن الجواب : لا،
قريباً من ستين جوادا قدّمها سيدى هدايا.
وكل الذين حضروا اللقاء عادوا يحملون شيئاً »،
وبدأوا يتعجلون الرحيل قبل أن يدخل الليل،
وأخذ الملك الأميرين من يديهما،
ثم وضعهما بين يدى سيدى **القنبيطور** :
- « ولداك الاثنان، وفى نفس الوقت هما صهراك،
ومنذ اليوم فصاعدا، أنت تعرف ماذا تصنع معهما يا **قنبيطور**،
يخدمانك كأب، وتحميهما كَسيِّد ».
« أشكركم عليه أيها الملك، ومغتبطاً أقبل هديتك،
والله الذى فى السماء سوف يكافئكم عليه ».

١٠٥

السيد لا يريد أن يقدم بنتيه بنفسه - مينايا سيكون ممثلا للملك

« إنى أطلب منكم معروفاً، منكم أنتم، ملكى الشرعى،
لقد زوّجت بنتىّ، تحقيقاً لرغبتك،
فتخيَّر ممثلا لك، يتلقاهن ويصحبهن باسمك،

لن أكون أنا الذى أقدمهن بيدىّ، هكذا لا يملؤهن الزهو».
حينئذ ردَّ الملك : «**ألبار هانييث** هنا موجود،
خذهن بيديك، وقدمهن إلى أميرى كاريون،
كما أفعل أنا الآن، كما لو كنا هناك فى بلنسية،
ستكون أنت الوكيل عنهن، فى كل حفلات القران والزفاف،
وإذا عدنا للقاء عليك أن تقص لى كل ما حدث،
فردَّ **ألبار هانييث :** «سيّدى، سأعمل كل ما يجعلكم مسرورين».

١٠٦

السيد يودع الملك - هدايا

اعلمْ أنّ كل شىء تمّ على نحو ما فكروا فيه،
- «أيها الملك دون **ألفونسو**، لأنت سيد شريف،
كتذكار لهذا اللقاء الذى تم بيننا تقبَّل منى شيئاً،
سوف أقدم لكم ثلاثين جواداً أصيلة، كلها رائعة الإعداد،
وثلاثين أخرى للسبق جيدة التسريج،
تقبل منى هذه الهدية، ومعها أقبل يديكم».
فرد الملك دون **ألفونسو** :«لقد حمّلتنى كثيراً،
إنى لأتقبل هدايا كم التى أمرتم بدفعها إلىّ،
داعياً الخالق، ومعه كل القديسين،
أن يكافئك على ما أهديتنى وقدمت إلىَّ،
سِيدى ، **روى دياث**، لقد بالغت فى تشريفى،
خدمتنى بإخلاص، وبقى أن أردّ لك الجميل،

لئن امتدت بى الحياة، فسوف تتلق منى الكثير،
فى رعاية الله أدعكم، وأرحل منهياً هذا اللقاء،
إله السماء يتولى ما اتفقنا عليه، ويبلغ به غايته».

١٠٧

كثيرون من أتباع الملك يذهبون مع السيد إلى بلنسية
الأميران يذهبان فى صحبة بدرو برمودث

امتطى **السيد** صهوة فرسه ببيكا،
- «هنا أقول، أمام سيدى الملك **ألفونسو**،
الذين يودون أن يحضروا حفلات الزواج ويتلقوا هداياى،
فليتبعونى الآن، ذلك شىء فى فائدتهم ولصالحهم».
وودَّع **السيِّدُ** الملكَ **ألفونسو** سَيِّده،
لم يرد أن يخرج معه فى رفقته مودّعاً، ومن هناك افترقا.
اسمعوا أيها الفرسان: الراغبون فى المجئ معنا
عليهم أن يذهبوا فيقبلوا يدى الملك **ألفونسو** مودعين،
- «اصنع فينا معروفاً، وامنحنا رضاك،
فنحن ذاهبون إلى بلنسية، مدينة كبيرة فى يد السّيد،
لنحضر حفل زواج أميرى كاريون
من بنتى سيدى: **دونيا ألبيرا** و **دونيا سول**».
فسرّ الملك مما قالوا وتركهم جميعاً أحراراً يذهبون،
وازداد رفاق سيدى عدداً، وتناقص أتباع الملك،
كثيرون من الفرسان آثروا أن يذهبوا برفقة **القنبيطور**،

توجهوا إلى مدينة بلنسية، وقد ربحها السيد فى لحظة حاسمة،
وقد أمر **دون دييجو ودون فرناندو**، أن يكون فى حاشيته،
وأن يكون معهم **بدرو برمودث**، ورابعهم **مونيو جوستيوث**،
فليس بين حاشيته أفضل من هؤلاء الفرسان معرفة
بما عليه أميرا كاريون من تقاليد وعادات.
هناك.. ذاهباً **أسور جنثالث**، عربيد وثرثار،
طويل اللسان، وفيما عدا ذلك يمكن الاعتماد عليه قليلا،
حظى أميرا كاريون بترحاب كبير، ولقيا تشريفاً عظيما،
هما الآن أمام بلنسية، المدينة العظيمة التى يحبها سيدى القنبيطور،
وما إن اقتربا حتى فاض بهما البشر من كل جانب،
قال سيدى لدون **بدرو**، و **مونيو جوستيوث**:
«لينزلا داراً فخمة تليق بمقامهما، أميرا كاريون،
كن معهما، فى صحبتهما، بهذا أمرتك أنا،
وغدا، مع شعاع الصبح، والشمس على وشك الشروق،
يذهبان ليريا زوجتيهما **دونيا ألبيرا** و **دونيا سول**.

١٠٨

السيد ينبئ خمينا بالزواج

مع الليل الزاحف اتجه كل واحد إلى سكنه،
ودخل سِيدى **القنبيطور** القصر،
وهناك كانت **دونيا خمينا** مع بنتيها فى انتظاره:
- «وصلت؟ **قنبيطور**، ياصاحب السيف البتار»

أسعد الله عيوننا برؤيتك لأعوام طويلة ».

- « شكراً للخالق، وقد يسّر لك المجىء إلى هنا يا زوجتى الشريفة،

جئت لك بصهرين، لبنتيك، من أصحاب الشرف العالى،

اشكرننى عليه، يا ابنتىّ !، فسيكون زواجاً موفقا ».

١٠٩

دونيا خمينا وبنتاها يظهرن سرورهن

دونيا خمينا وبنتاها قبّلن يد سيدى شاكرات،

ونفس الشىء صنع مَن يقمن على خدمتها مِن سيدات،

- « شكراً للخالق، ولك ياسيد، يا صاحب اللحية الغزيرة،

كل ما تفعله صحيح محكم التنفيذ،

ما امتدت بك الحياة سوف تعيش بنتاى سعيدتين لاينقصهما شىء »

- « عندما تُزوجَنا، سنكون نحن الاثنتين من كبريات الغنيات ».

١١٠

السيد يشك فى الزواج

« زوجتى، **يادونيا خمينا**، فلنتوجه بالشكر للخالق،

الحق أقول لكما يا بنتىّ **دونيا ألبيرا** و **ودونيا سول**

بهذا الزواج سوف نزداد شرفا ونعلو مقاما،

ولكن اعلمنَ قبل أى شىء أنه لم يكن من إعدادى،

فقد طلبكما وألح فى الرجاء سيّدى **ألفونسو**،

رجانى بإصرار، وراغباً فيه من أعماق القلب،

واعترف لكُنّ فى شجاعة بأننى لم أستطع أن أقول له : لا،
وهكذا أضعكن فى يديه، بنتىّ... أنتما الاثنتان،
وصدِّقننى أن الذى زوّجكما هو الملك ولست أنا».

١١١

الاستعداد للزواج - هدايا الأميرين - مينايا يقدم الزوجتين للأميرين - تبريك وقدّاس - مهرجانات على امتداد خمسة عشر يوما - انتهاء الزواج - هدايا للمدعوين - الشاعر الجوّال يودع سامعيه

بدأوا فى الحال بتزيين القصر ورفع الرايات،
غُطيت الأرض وكل الجدر بفاخر السجاد،
أحمر اللون، وبالأقمشة الحريرية، وأخرى كثيرة مشابهة،
كم هو رائع أن تجلس فى قصر وأن تأكل فى خوان.
كل فرسان القنبيطور دخلوا مجتمعين،
وفى الحال أرسلوا فى طلب أميرى كاريون،
وصل كلاهما، كل واحد على ظهر جواده، ووقفا أمام القصر،
يلمعان فى ملابس زاهية، زُيّنت بكل غال ثمين،
ثم ترجّلا، ودخلا القصر، يا إلهى... عليهما وقار الخاشعين!
فتلقاهما سيدى، ومن معه من رجاله الأوفياء المخلصين،
وأمامه، وأمام زوجه، حيّوهما فى تواضع أمين.
ثم تقدما فجلسا على مقعد فخيم.
كل أتباع سيدى، فى حذر وفطنة كبيرة
ركزوا أبصارهم فيه، على من فى لحظة طيبة دق بابَ الحياة،

وعلى قدميه هبّ السيد واقفا :

- « علينا أن نفعله الآن، لِمَ كل هذا التأخير؟

تعال هنا يا **ألبار هانييث**، يا من أحبٌّ كثيراً، وله آمَنُ،

هاهما بنتاى، أودعهما أمانة بين يديك.

وأنت تعرف أن الملك أمر به، وبه وعدت،

ولا أودّ أن أتراجع فى شىء اتفقت عليه مع الملك.

قدمهما بيديك إلى أميرى كاريون،

ثم يتلقون البركة، ومعها ينتهى الحفل ».

حينئذ قال **مينايا** : « سأنفذ ما تريد مسرورا »،

ووقفت البنتان، وأخذهما السّيد من يديهما،

وهما أمامه، بين يديه، تحدث إلى أميرى كاريون :

- « تعالوا أمام مينايا أيها الأميران الشقيقان :

بيد الملك ألفونسو والذى أنابنى عنه،

أقدم لكم هاتين الآنستين، كلاهما من ظهر فارس وُلدت،

خذاهما زوجتين، فهو شرف لكما، وفى فائدة الجميع ».

تلقاهما الأميران بحب وفى بهجة،

ثم تقدموا فقّبلوا يدى السيد ودونيا خمينا؛

وعندما انتهى الحفل وإجراءات الزواج غادروا القصر،

واتجهوا مباشرة مسرعين إلى كنيسة مريم المقدسة،

وارتدى المطران **دون خرونيمو** ملابسه الدينية مسرعا،

وجلس على باب الكنيسه ينتظر قدوم العرسان،

وعندما وصلوا منحهم بركاته، وأقام معهم القداس،

وبعدها غادروا الكنيسة، وامتطوا جيادهم مسرعين،
وعلى رمال بلنسية الواسعة خلّفوا خطاهم،
يا إلهى... كم كان رائعاً سِيدى وهو يلعب مع تابعيه السلاح!
استبدل خلاله ثلاثة أفراس، من فى لحظة سعيدة جاء إلى الحياة،
وسعيدا بما رأى، غمرت البهجة سِيدى كثيرا،
ثم وثب أميرا كاريون على جواديهما،
وعادا إلى بلنسية مع زوجتيهما، ودخلوها فرحين،
كان زواجا باذخا ذلك الذى شهده القصر المجيد،
وفى اليوم التالى أمر سيدى بأن تنصب سبعة أهداف،
وقبل أن يدخل للأكل حطم الجميع،
واستمرت حفلات الزواج خمسة عشر يوماً كاملة،
وسيدى، **دون لذريق**، منَ فى لحظة سعيدة جاء إلى الحياة،
اختار من بين البغال والخيل الأصيلة الدريرة،
وحيوانات أخرى كثيرة، مئات قدمها لهما هدايا،
وملابس غالية، من الحرير والجلود، وأغطية فاخرة،
دون أن يدخل فى عداد ذلك ما قدم لهم من أموال،
وأتباع سيدى تجمعوا واتفقوا فيما بينهم،
على أن يقدم كل واحد منهم للأزواج هدية نادرة،
وكثرت الهدايا، وكل من رغب فى شىء وجده بين يديه،
والذين حضروا الزواج من قشتالة عادوا إليها أغنياء،
وبدأ المدعوون يعودون إلى ديارهم غانمين،
ودّعوا **روى دياث**، من فى لحظة طيبة طرق باب الحياة،

ثم انثنوا فودّعوا السيدات وكل النبلاء،
رحلوا مسرورين شاكرين للسِّيد، ولكل تابعيه،
تحدثوا عنهم مادحين، ومن العدل أن يكونوا هم من الشاكرين،
كانت فرحة **دون دييجو و دون فرناندو** غامرة،
أميرا كاريون، وابنا الكونت دون **جنثالبو.**
المدعوّون إلى الحفل عادوا إلى قشتالة،
وظلّ السِّيدُ وصهراه مقيمين فى بلنسية،
وعاش فيها الأميران قريباً من عامين،
وما حظيا به من تكريم يعلو عن العدّ والإحصاء،
وكان **السّيد** أيضاً غامر البشر، وكذلك كل تابعيه،
شكرا لمريم المقدسة، وشكرا للأب المقدس،
أن تُسعد بهذا الزواج سيدى، وكل مَن ساعد عليه،
وبهذه الدعوات فإن أبيات النشيد تأتى إلى نهايتها،
رعاكم الله، وكان كل قدّيسيه فى حمايتكم.

النشيد الثالث

فضيحة كوربس

١١٢

انطلاق أسد السيد - خوف أميرى كاريون
السيد يسوس الأسد - خجل الأميرين

كان سِيدى **السيد القنبيطور** فى بلنسية مع كل رجاله،
ومعهم كلا صهريه : أميرا كاريون،
وقد استلقى القنبيطور على أريكة نائماً،
حين وقعت مفاجأة سيئة، اسمعوا... سوف أحكيها لكم :
انطلق أسد من مربضه حيث كان محبوساً،
فانتشر رعب عظيم عمَّ كل من فى القصر،
وفى الحال شد أتباع القنبيطور دروعهم،
وأحاطوا بالأريكة يحمون سيدهم،
ولكن **فرناندو جنثالث** أمير كاريون،
حار أين يختفى، فليس ثمة غرف مفتوحة ولا أبراج،
فارتمى تحت الأريكة يكاد يموت رعباً،
أما **دييجو جنثالث،** فدلف هارباً من الباب،
وهو يصيح بصوت مرتفع : «يا لمدينتى كاريون، لن أراها ثانية ! ».
ثم اختفى وراء معصرة للنبيذ مرتعد الفرائص،

فاتسخت عباءته وصدّاره، وما يرتدى تحتهما من ملابس،
حينئذ استيقظ من فى لحظة سعد جاء إلى الحياة،
وكل رجاله الطيبين أحاطوا بأريكته حيث ينام،
ماذا حدث يارجالى، ملتفون حولى، ماذا تريدون ؟
أيها السيد لقد أرعبنا الأسد كثيراً،
واعتمد سِيدى على كوعه، وهب واقفاً،
ثم ارتدى صدّاره واتجه نحو الأسد،
فما إن رآه الأسد قادماً حتى تملكه الحياء والخجل،
وأمام سيدى طأطأ رأسه، وأرخى مخلبه،
وسِيدى، **دون لذريق**، أمسك به من رقبته،
ثم ساقه مطيعاً، ورده إلى القفص من جديد،
وكل الذين معه رأوه، ولم يخفوا دهشتهم معجبين،
ثم عادوا إلى القصر، إلى القاعة الكبرى غير خائفين،
وبحث سيدى عن صهريه، فافتقدهم بين الحاضرين،
فنادوا بهم فى كل جانب، فما سمعوا لهم صوتاً،
ثم وجدوهم أخيراً، شاحبى الوجوه، زاغت منهم العيون،
آه لو رأيت مَن فى القاعة، كيف انفجروا جميعاً ضاحكين،
لكن سِيدى **القنبيطور** ردهم إلى الهيبة والاحترام،
وأحس أميرا كاريون بالخجل الشديد،
وأصبح كابوساً يزعجهم ما حدث هناك،

١١٣

أبو بكر ملك مراكش يهاجم بلنسية

وهما على هذه الحال غارقيْن فى الألم العميق،
جاءت جيوش مراكش تريد أن تضرب الحصار على بلنسية،
وهناك فى وادى «كوارتو» نزلوا معسكرين،
نصبوا خمسين ألف خيمة، وربما تجاوزت الحساب،
وعلى رأسهم الملك **أبو بكر**، ولعلكم سمعتم عنه شيئاً.

١١٤

الأميران يخافان من المعركة - السيد يؤنبهما

كان السيد مبتهجاً وكل رجاله،
ولأن غنائمهم زادت، فهم يتوجهون بشكرهم للخالق،
بينما، ليكن فى علمكم، ازداد أميرا كاريون حزناً،
وقد داخلهم الرعب، وهم يرون خيام الجيش الإسلامى يخطئها الحصر،
وابتعد الأخَوان، وفيما بينهما بدآ يتهامسان :
عندما قررنا الزواج من بنتيه أحصينا الأرباح، ولم نفكر فى الخسائر،
لم يبق أمامنا الآن غير أن نخوض المعركة نحن الاثنان،
وبعدها لن نعود لنرى «كاريون» من جديد،
ولن يمضى زمن طويل حتى يصبحن أرملتين بنتى السيد،
وسمع همسهما **مونيو جوستيوث** الطيب،
وبهذه الأخبار الجديدة جاء إلى سيدى **القنبيطور** :

« هناك، صهراك كلاهما، يا لهما من شجاعيْن!
قبل أن يخوضا المعركة بدأ يحنان إلى كاريون،
فاذهب إليهما تواسيهما، وتثبت قلبيهما بحق الخالق،
وأن يبقيا فى سلام، دون أن يشاركا فى المعركة بنصيب،
معك وحدك سننتصر، وسوف يساعدنا الله ».
ذهب إليهم سِيدى **دون لذريق**، ومعهم تحدَّث مبتسما:
« يا صهريَّ، الله يحميكما، يا أميرى كاريون،
بين يديكما بنتاى، بيضاوان كالشمس،
إنى أفكر فى معارك جديدة، وأنتما تحنان إلى كاريون،
ابقوا إذن فى بلنسية، واستمتعا بما تحبان،
أما المسلمون الذين هناك فأنا أعرف بهم،
وعاقد العزم على انتزاع النصر منهم بعون الله ».

١١٥

رسالة أبى بكر - هجوم الفرسان المسيحيين - جبن الأمير فرناندو - سخاء بدرو برمودث[1]

وبينما كانا يتحدثان فى هذا، أرسل الملك **أبو بكر** إلى **السيد** يطلب منه أن يترك بلنسية ويرحل فى سلام، وإذا لم يفعل فإن عليه أن يتحمل تبعات ما يفعل، فردَّ السيد على الرسول: « اذهب، وقل لأبى بكر، ابن أعدائنا، قبل ثلاثة أيام سوف أعطيه ما يأمرنى به ».

(١) فى المخطوطة خرم، ضاعت معه خمسون بيتاً من الملحمة، فاستعيض عنها، بما يقابلها فى النص النثرى للمدونة، الواردة فى «مدونة العشرين ملكاً».

فى اليوم التالى أمر **السيد** جميع رجاله بأن يحملوا السلاح، ثم خرج للقاء المسلمين، حينئذ طلب منه أميرا كاريون أن يكونا فى المقدمة، وعندما رتبَّ السيد جيشه صفوفاً، فإن **دون فرناندو،** أحد الأميرين، تقدم لمنازلة مسلم يدعى Aladraf ، وتقدم المسلم بدوره، فم يكد الأمير يراه حتى امتلأ رعبا منه، فتراجع مذعوراً، ثم ولَّى هارباً، لم يجرؤ على الانتظار حتى يراه.

وعندما رأى ذلك **بدرو برمودث،** وكان إلى جانبه، تقدم لمنازلة المسلم، وناضل ضده حتى صرعه، ثم التقط جواده وأسرع يقتفى أثر الأمير الهارب، وقال له : « **دون فرناندو،** خذ هذا الجواد، وقل لكل العالم أنك قتلت المسلم الذى كان يملكه، وأنا أشهد لك بذلك ».

ورد عليه الأمير : « **دون بدرو برمودث:** أشكر لك كثيراً ما صنعت من أجلى[١].

علىَّ يوماً أستطيع أن أرد لك ما صنعت معى مضاعفاً،
وبعدها عادا معاً رفيقين،
وأمَّن **دون بدرو** على زهو **فرناندو،**
وابتهج سيدى، وغمرت الفرحة كل أتباعه.
- « إذا أراد الله، والأب الذى فى الأعالى،
فإن صهرىّ سيكونان ممتازين فى ساحة القتال ! ».
وبينما هم يتحادثون بدأ الناس يتوافدون،
وفى جيش المسلمين بدأ يرتفع قرع الطبول،
ومع ضجيجها المتوالى عمت الدهشة كثيرين من أولئكم المسيحيين،

(١) هنا ينتهى الخرم، وتبدأ الملحمة الشعرية.

لم يسمعوا قرع طبول من قبل، فمن قريب جاءوا قادمين،
وكان أكثرهم دهشة **دييجو** و **فرناندو**،
ولو تُرِكَ الأمر لإرادتهما ما جاءا هذا المكان.
وسمع ما تحدّثوا به مَن فى ساعة طيبة جاء إلى الحياة:
- «إنّ **بدرو برمودث**؛ يا ابن أخى العزيز!،
أوصيك جيداً بدون **دييجو** وبأخيه **دون فرناندو**،
هما صهراى، ومن القلب أحبّهما، أحبّ الاثنين،
وبعون الله لن نُهزم مع المسلمين فى ساحة القتال».

١١٦

بدرو برمودث يعتزل الأميرين - مينايا ودون خرونيمو يطلبان المكان الأول فى المعركة

إنى أطلب منك يا سيد، رحمة بى وشفقة،
ألّا أصبح رائداً لأميرى كاريون أبداً،
فَلْيُعن بهما مَن يريد، وأمرهما لم يعد يهمنى على أى حال،
أنا ورجالى فى الطليعة نهاجم العدو،
وأنت مع رجالك تبقى ثابتاً فى المؤخرة،
فإذا تعرّضتُ لخطر عظيم، أمكنك أن تأتى لنجدتنا».
وهنا وصل **مينايا ألبار هانييث**:
- «اسمع يا سيد، أيها القنبيطور المخلص،
المعركة التى نخوضها هى معركة الخالق،
وأنت أهل لكى يكون الله إلى جوارك،

ومن الجانب الذى تراه مُرْنا نبدأ الهجوم،
وكل واحد منا سينهض بواجبه كاملا،
وبعون الله وحظك، سترى ما يكون».
وقال **السيد القنبيطور**: «لنكن هادئين، اصبروا»،
ها هو المطران **دون خرونيمو** قادم فى كامل العدة والسلاح،
ثم توقف أمام القنبيطور، كعادته طافح السعادة،
- «سأقيم القداس اليوم فى كنيسة الأقانيم الثلاثة،
من أجل هذا تركت أرضى وجئت باحثاً عنك،
يملأ علىّ فكرى أننى ربما أستطيع أن أقتل بعض المسلمين،
إنى لشديد الرغبة فى أن أشرّف سلاحى، وأمجّد مهنتى،
أود أن أكون أول مبارز إذا بدأ القتال،
هذه رايتى، عليها زرافات مرسومة، وأسلحتى تحمل شارتى،
وإذا أراد الله فسوف أجرّبها،
وما يحدثنى به قلبى أنفّذه فى الحال،
وأنت، سيدى، سيكون تقديرك لى كبيراً،
فإذا لم تصنع فى هذا الجميل فارقتك الآن.
وقال سيدى: «لا شيء يسعدنى مثل أن أحقق لك ما تريد،
هناك المسلمون على مرمى عينك، فاذهب وجرّبْ معهم سلاحك،
ونحن من هنا، سنرى كيف يقاتل الشمّاس».

١١٧

المطران يبدأ المعركة - السيد يهاجم ويقتحم معسكر المسلمين

بدأ المطران **دون خرونيمو** الهجوم،

ووصل فى تقدمه إلى حيث يعسكرون،
ولأنه سعيد الحظ، ولأن الله يحبه،
فى أول ضربة له قتل اثنين من المسلمين،
فلما نفدت سهامه انتضى سيفه ومضى يقاتل؛
واستبسل المطران مهاجماً، يا إلهى... كم هو رائع فى النضال!
قتل اثنين بسهم، وخمسة آخرون صرعهم بالسيف،
وتجمع حوله مسلمون كثيرون، وأوشكوا أن يحكموا حوله الحصار،
ثم انهالوا عليه طعنا، ولكنه لم يخسر سلاحه،
ومَن جاء إلى الحياة فى لحظة سعيدة ركز عينيه فيما يرى،
احتضن شعاره سريعا، وشدّ قوسه عجلا،
وهمز « ببييكا » جواده الأصيل الدرير،
ومضى يقاتلهم فى الحال بقلبه وروحه،
اقتحم **القنبيطور** الصفوف الأولى وجال بينها،
هزم سبعة من المسلمين، وقتل أربعة آخرين،
وشكر الله على هذا النصر المبين،
ثم اندفع سِيدى ورجاله يلاحقونهم دون هوادة،
خيام كثيرة تقطعّت حبالها، واقتُلعت قوائمها،
انهارت الأعمدة، ومعها تحطمت الخيام،
واستطاع أتباع السيد أن يدفعوا جيش **أبى بكر** عن الميدان.

١١٨

المسيحيون يلاحقون العدو - السيد يدرك أبا بكر ويقتله، ويغنم سيفه تيثون

أخرجوهم من خيامهم، ولاحقوهم دون إمهال،
أذرع كثيرة مبتورة وهاوية، ولّما نزل قابضة على دروعها،
ورءوس كثيرة فى خوذاتها تتساقط على الأرض،
وخيل بلا فرسان لا تعرف لها طريقا تنطلق فيه،
وأدرك سِيدى الملكَ **أبا بكر**:
أبابكر تَعالَ هنا، يا من جئت من وراء البحر،
انظر إلىّ، أنا **السيد**، صاحب اللحية الطويلة، وجها لوجه:
نتبادل التحية، ونتعاهد على الإخاء».
فردّ **أبو بكر** على **السيد**: «إن الله لا يثق فى هذا الإخاء،
سيفك فى يدك، ومسرعا تهمز جوادك،
وأراك معى تريد أن تجرّب الطعان،
وإذا لم يعثر جوادى، أو يطرحنى أرضا،
فلن تلتقِ معى إلاّ فى أعماق البحر أو على سطح الماء».
وردّ سيدى: «ذلك ليس بصحيح».
كان جواد أبى بكر أصيلا، فمضى ينهب الأرض مسرعا،
ولكن ببييكا، فرس السيد، توشك أن تلمسه من قريب،
وأدراك **السيدُ** أبا بكر على بعدِ ثلاثة أذرع من البحر،
وشهر سيفه «كولادا» عاليا، وبضربة عنيفة هوى عليه،

فأطار من خوذته غطاءها،
وفى ضربة أخرى اخترق الخوذة، وشق رأسه نصفين،
ومضى السيف فى جسمه حتى بلغ منه النصف،
لقد صرع **أبا بكر،** الملك القادم من وراء البحر،
وغنم سيفه «تيثون» ويساوى ألف مارك من الذهب النضار،
وهكذا انتصر فى معركة رائعة وفاصلة،
شرف بها السيد، وقاسمه الشرفَ كلٌّ تابعيه.

١١٩

رجال السيد يعودون من الملاحقة - السيد سعيد بصهريه، وهما خجلان - غنائم المعركة

عادوا جميعاً من المعركة، يحملون ما أصابوا من غنائم،
واعلم أنهم جميعاً، وبعزم ، سرقوا كل ما فى ساحة القتال،
بدأوا يصلون إلى الخيام مع مَن فى لحظة سعيدة جاء إلى الحياة،
جاء سيدى **روى دياث القنبيطور** المعدود،
حاملا فى يديه السيفيْن وكان اعتزازه بهما كبيراً،
وعبْر الجثث مضى مسرعاً يحث الخطو،
كشف وجهه، وأرسل غطاء رأسه إلى الوراء
بينما الكوفية فوق شعر رأسه نصف مستقرة،
حوله، ومن كل الجهات، بدأ أتباعه يتقاطرون،
شىء فوجىء به سيدى، فأدخل على نفسه السرور،
ورفع بصره، ثم ركز نظره على مكان معلوم،

فرأى الأميرين، **دييجو** و **فرناندو،** قادمين،
إنهما ابنا ذلك الكونت المسمى **دون جنثالبو،**
وسُرَّ سِيدى، وابتسم فى حلاوة :
« جئتما يا صهرى؟ ابناى أنتما كلاكما!
فيما يتصل بالقتال أعلمُ أنكما عائدان مسرورين،
وأخبار طيبة عن نضالكما سوف ترسل إلى كاريون،
وكيف انتصرتما على الملك أبى بكر فى ساحة القتال،
إنى أثق فى الله وفى كل القديسين،
لأننا بهذا النصر العظيم عدنا غانمين ».
حينئذ وصل **مينايا ألبار هانييث،**
وقد تدلى شعاره من رقبته، على مكان بارز فى صدره،
ولم يكن يهمه كثيراً أمر السهام تتساقط عليه،
لكن مرسليها لم يحققوا من أغراضهم شيئاً،
وجرى الدم على ساعده، وعند كوعه أخذ يتقاطر،
كان قد قتل عشرين مسلماً على الأقل :
- « شكراً لله، وللأب الذى فى الأعالى،
لك يا سيد، يا من وُلدت فى ساعة طيبة،
لقد قتلت أبا بكر وانتزعت النصر فى المعركة،
كل هذه الثروات التى تراها لك ولتابعيك،
وتميَّز صهراك الأميران مناضلين فى ساحة القتال،
وهما منهمكان الآن فى قتال المسلمين »
وقال سِيدى : « بهذا النصر عُوِّضت عن أتعابى،

وإذا كان الأميران رائعين، فهما فى المستقبل أكبر تقديراً».

كان **السيد** يتحدث بنية خالصة، ولكنهما رأيا فيما يقول سخرية قاتلة.

ووصلت كل الغنائم إلى بلنسية،

كان سيدى طافح البهجة، وكذلك كل تابعيه،

وقُسِّمت الغنائم إلى أسهم، فبلغ الواحد ست مائة مارك فضية،

وعندما تسلم صهرا السيد نصيبهما،

اعتقدا أنهما لن يعرفا الفقر أبدا فى قابل الأيام.

وبدأ سكان بلنسية يرتدون فاخر الثياب،

ويقيمون حفلات كبيرة، يزهون فيها بملابس جلدية، وصدارات جميلة.

كانوا جميعاً فى بهجة غامرة، سِيدى وكل تابعيه.

١٢٠

السيد فرح بانتصاره بصهريه (إعادة)

كان يوما عظيما بين حاشية القنبيطور،

بعد أن انتصروا فى المعركة، وقُتِل الملك **أبو بكر**،

ورفع **السيد** يده، وأخذ لحيته :

- «شكراً للمسيح، سيد العالم،

لقد رأيت ذلك الذى أمَّلت طويلا،

أن يكون صهراى إلى جانبى فى المعركة، هما الاثنان،

وأن تشيع أخبارهما حتى تبلغ كاريون،

أنهما فارسان شريفان، وسوف نشرف نحن بهما كثيراً.

١٢١

توزيع الغنائم

هائلة تلك الغنائم التى اشتركوا جميعاً فى الاستيلاء عليها،
ربحوا كثيرا من قبل، وما غنموه الآن سيقومون عليه حافظين،
وأمر سِيدى، من وُلد فى لحظة سعد،
بأن تقسم غنائم المعركة الفاصلة التى انتصر فيها،
فيأخذ كل فرد نصيبه المقدَّر له،
وألا ينسوا الخمس المقرر لسيدى عند التقسيم،
وهكذا صنعوا، وعند التوزيع كانوا جميعا عاقلين،
وبلغ خمس سِيدى ست مائة حصان،
وعددا من البغال، وأعدادا هائلة من الجمال،
أعدادا هائلة لا يمكن أن تقع تحت حصر.

١٢٢

السيد فى قمة مجده يفكر فى احتلال المغرب
الأميران غنيان وموضع التكريم بين حاشية السيد

غنم القنبيطور كل هذه الثروات الهائلة.
- «شكرا لله سَيد هذا العالم!
بالأمس كنت فقيراً وأنا اليوم من كبار الأغنياء،
أملك أرضا، وذهبا، وشرفا لا ينال»[١]

(١) وردت كلمة شرف Onor فى لغة الملحمة، honor فى الإسبانية الحديثة، ولكن مننديث بيدال يعلق عليها فيقول: قد يكون المراد بها إقطاعيات.

وأخيرا أصبح صهراى أميرى كاريون،
وأنتصر فى المعارك، كيف ما شاءت إرادة الخالق،
المسلمون والمسيحيون يرتعدون جميعاً خوفا منى،
هناك فى داخل مراكش أرض المساجد اليوم،
يخافون أن أفجأهم بالهجوم ذات ليلة،
هم يخافونه وأنا لا أفكر فيه،
لن أذهب إليهم باحثا عنهم، وسأبقى فى بلنسية،
فيها يأتون إلىّ، يحملون لى الجزية، بمساعدة الخالق،
يقدمونها لى أو لمن أختاره على هواى».
مباهج ضخمة تعم بلنسية العظيمة،
يشارك فيها كل رفاق سيدى القنبيطور،
أولئكم الذين انتزعوا النصر وقاتلوا مخلصين،
وغمر السرور فيّاضاً صهرى السيد،
فقد جاء نصيبهما من الغنائم معاً خمسة آلاف مارك،
أصبح أميرا كاريون من كبار الأغنياء،
ثم جاء إلى البلاط مع بقية الفرسان،
كان سِيدى هناك ، وإلى جواره المطران **دون خرونيمو،**
وألبار هانييث الطيب، الفارس الشجاع،
وآخرون كثيرون ربّاهم السيِّد،
وعندما قدم أميرا كاريون،
تلقّاهم **مينايا** نائبا عن سِيدى **القنبيطور**،
- «تعاليا هنا، صهرىّ، فذلك مما يزيدنا شرفاً».

وما إن رآهم **القنبيطور** حتى تهلل بشراً :

- « أقدّم لكما يا صهرىّ **خمينا** زوجى الوفية،

وأيضاً بنتىّ **دونيا إلبيرا و دونيا سول،**

يريدان عناقكما، وسيخدمانكما من القلب،

شكراً لمريم المقدسة، أمّ سيّدنا الله

وبزاوجهما منكما سوف يزدادان قدرا،

وسريعا تصل أخبارنا الجديدة إلى كاريون ».

١٢٣

تفاهة الأميرين - الأميران يصبحان موضع السخرية

وعلى هذه الكلمات ردّ الأمير **فرناندو،**

« شكراً للخالق، ولك أيها السيد الشريف،

لقد أصبحت ثروتنا عظيمة لا يحصيها عدّ،

بك شرفنا ومن أجلك كان قتالنا،

انتصرنا على المسلمين، وفى ساحة المعركة قتلنا

الملك المسمى **أبا بكر،** خائن بالتجربة،

فكّر إذن فى شىء آخر، أما نحن ففى أمان ».

وتهامس أتباع سِيدى، خفيفاً يضحكون :

لقد قاتلوا فى شجاعة، وهم يلاحقون أو يهاجمون،

فلم يروا فى أى جانب **دييجو** أو **فرناندو،**

ومع السخرية والضحكات تنهال عليهما من كل جانب

عاشا تجربة مريرة متواصلة، ليل نهار بلا انقطاع،

وتوصل الأميران فيما بينهما إلى اتفاق شرير،

اعتزلا الناس، وفيما بينهما كانا أخوين مخلصين،

وما تحدثنا به سرًّا أمر لايهمنا نحن :

- « فلنرحل إلى كاريون، سريعاً دون تأخير،

وما غنمنا من أموال وثروات كثير، وفوق ما نتصور،

ولسنا بقادرين على إنفاقه ما امتدت بنا الحياة ! »

١٢٤

الأميران يقرران إهانة بنتى السِّيد - ويطلبان من السيد زوجتيهما لكى يذهبا إلى كاريون - السيد يوافق ويقوم بتجهيز بنتيه - الأميران يتهيآن للرحيل - البنتان تودعان أباهما

نطلب زوجتينا من **السِّيد القنبيطور**،

نقول له : إننا سنأخذهما معنا إلى أرض كاريون،

لكى نرى ضياعنا، والتى هى ضياعهن اليوم،

فنبعدهما عن بلنسية، حيث سلطان القنبيطور قوى،

وعبر الطريق نصنع بهما ما نريد،

قبل أن يسخرا منا بحادث الأسد الفريد،

فنحن نبلاء، وفى عروقنا يجرى دم أمراء كاريون،

الغنائم التى نحملها كثيرة، وذات قيمة كبيرة،

حانت الفرصة لكى نسخر من بنتى القنبيطور،

ومانحمله من ثروات يجعلنا أغنياء نحن الاثنين،

ونستطيع أن نتزوج من بنتى أى ملك أو إمبراطور،

ولأمر ما نحن ننتمى إلى أسرة أمراء كاريون،

علينا أن نسخر من بنتى السيد القنبيطور،

قبل أن تذكراننا بحادث الأسد الجسور.
وبعد الحوار والاتفاق ذهب كلاهما إلى البلاط،
تحدّث **فرنان جونثالث،** فأسكت الجميع :
« ليحفظكم الله أيها **السيِّد القنبيطور،**
وأسبغ نعمه على **دونيا خمينا،** وقبلها أنت،
وعلى **مينايا ألبار هانييث،** وكل الذين هنا معك،
أعطنا زوجتينا، وقد تزوجناهما زواجا شرعيا،
نريد أن نأخذهما معنا إلى أراضى كاريون،
نودّ أن نقطعهما أرضا، مزارع مما نملك زيادة فى التشريف،
وترى بنتاك ما نملَك من ضِياعٍ،
مزارع واسعة، نورثها مَن نرزق مِن أبناء.
لم يتردد إزاء الطلب سِيدى القنبيطور :
« أقدم لكما بنتىّ، ومعهما هدية بعض مالدىّ،
أنتما تقطعانهما أرضا هناك فى كاريون،
وأنا أودّ هنا أن أجهزهما بثلاثة آلاف مارك،
وأقدّم لكما الخيل والبغال، خذا من خيرها ما تشاءان،
وأفراساً أخرى، تكون مدرّبة وسريعة الجرى،
وملابس كثيرة من حرير، وعباءات قشيبة مذهبة،
ثم أعطيكما سيفىّ « كولادا » و « تيثون »،
وأنتما تعرفان جيداً أننى غنمتهما رجلا،
لقد اعتبرتكما ابنىّ عندما زوجتكما بنتىّ،
وبذهابهما معكما، فإنكما تنتزعان منى مهجة القلب،

فليعرفوا فى جليقية وفى قشتالة وفى ليون،
أىّ ثروات ضخمة ودّعت بها صهرىّ،
اخدما بنتىّ بعناية، فهما زوجاكما فى النهاية،
وإذا عُنيتما بهما، فسوف أعوضكما بالطيب من الهدايا»
بهذا وعده أميرا كاريون،
حينئذ استقبلا بنتى القنبيطور،
ثم بدآ يأخذان ما وعدهما به السِّيد،
حتى إذا تخيّرا من الهدايا ما يحبان،
أمر أميرا كاريون بإعدادها للرحيل،
وذاعت الأخبار، وتغشى بلنسية العظيمة نشاط كبير،
حمل الجميع أسلحتهم، وامتطوا الخيل أقوياء مسرعين،
لتوديعُ بنتىّ السِّيد الذاهبتين إلى أراضى كاريون،
تهيأوا للرحلة، وجاء الجميع يقولون لهم : وداعاً...
حينئذ تقدمت الأختان : **دونيا إلبيرا ودونيا سول،**
وجثتا على ركبتيهما أمام **السِّيد القنبيطور :**
«نطلب رضاك يا أبانا، يحفظك الخالق،
لأننا جئنا من صلبك وأمّنا ولدتنا،
أنتما أمامنا.. سَيِّدتنا، وسَيِّدُنا،
الآن؛ وأنتما ترسلان بنا إلى أراضى كاريون،
لكما علينا الوفاء بكل ما تأمران،
ومن ثَم نطلب منكما معروفا، نطلبه نحن الاثنتان،
أن ترسلا معنا رسولا من قبلكما حتى أراضى كاريون.

واحتضنهما سِيدى، وفى الفم قبّل بنتيه.

١٢٥

خمينا تودع بنتيها - السيد يتهيأ ليودع المسافرين - تشاؤم.

هذا ما صنع **السِّيد**، وصنعته الأم مضاعفا،
- «اذهبا بنتىّ !... فى حراسة الخالق،
ومعكما رضا أبيكما ،ورضائى :
ارحلا إلى كاريون حيث توجد ضياعكما،
إنى أحسّ فى أعماقى بأنكما سعيدتين فى زواجكما».
وقبّلتا يد أبيهما، ويد أمهما من بعد،
فباركهما **السِّيد** و **دونيا خمينا**، ومنحاهما الرضا،
وامتطى سِيدى والآخرون خيولهم، وتهيأوا للمسير،
على جياد أصيلة، فى ملابس زاهية، شاهرى السلاح،
يغمر البشر سيدى، ويشاركه البهجة كل تابعيه،
وقالت الطير لمن تمنطق سيفه فى لحظة سعيدة :
إن زواج بنتيه لن يمضى صافياً بلا مكدّرات،
وماذا يجدى، لقد تزوجتا فعلا، ووقت الندم فات

١٢٦

السيد يرسل مع بنتيه فيلث مونيوث - الوداع الأخير - السيد يعود إلى بلنسية - القافلة تصل إلى مولينا، وابن غلبون يصحبهم حتى مدينة سالم - الأميران يفكران فى قتل ابن غلبون.

-«أين أنت يا ابن أخى، أين **فيلث مونيوث**،
ابن عم بنتىّ، وتحبهما من القلب والروح،
أريدك أن تذهب معهما حتى نفس كاريون،
لترى مزارع بنتىّ وما يملكان من ضيَاع،
ثم تجىء من هناك بأخبار جديدة إلى **القنبيطور**».
وقال **فيلث مونيوث**: «ذلك شىء يسرنى من القلب».
وأمام **السيِّد** توقف **مينايا ألبار هانييث**:
«سنعود سريعاً إلى بلنسية العظيمة يا سيد،
وإذا أراد الله والأب الخالق،
فسوف نذهب يوماً لرؤيتهن فى أراضى كاريون».
- «فى رعاية الله أودعكما: **دونيا إلبيرا** و **دونيا سول**،
لتكن أعمالكما دائما مبعث شرف لنا وفخار».
فردّ صهراه: «تلك هى إرادة الله!».
كانت المشاعر عميقة حين دنت ساعة الرحيل،
بكى الأب، وبكت البنتان، بكوا جميعاً من أعماق القلب،
وبكى معهم كل فرسان القنبيطور.
- «أصغ إلىّ ابن أخى، أنت **فيلث مونيوث**،
اذهبوا إلى مولينا وبيتوا ليلتكم هناك،
سلِّم لى على صديق المسلم **ابن غلبون**، وأبلغه
أن يحسن استقبال صهرىّ، وألاّ يدع شيئاً من جهده،
وقل له: إننى مرسل بنتىّ إلى أراضى كاريون،
وما يحتاجان إليه، يقدمه لهما كأفضل ما يستطيع،

وأن يصحبها من هناك إلى مدينة سالم، حبّاً فى،
وله عوض كل ما يصنع هدية طيبة منى ».
كخلع الأظافر من اللحم كان فراقهما،
وعاد إلى بلنسية، مَن فى لحظة سعيدة طرق باب الحيَاة،
وتابع أميرا كاريون رحلتهما،
وما إن بلغوا شنتمرية بنى رزين حتى نزلوها مستريحين،
ثم عاودوا السير من جديد، وهمزوا خيولهم مسرعين،
وهاهم الآن فى مولينا مع المسلم ابن غلبون،
وعندما سمع المسلم بقدومهم فاض قلبه سرورا،
وخرج للقائهم فى بهجة غامرة،
يا إلهى... ياله من وفىٍّ يسهر على راحتهم بكل ما يستطيع!
وفى صبح اليوم التالى رافقهم مودّعاً،
وإلى جانبه مائتا فارس من خيرة تابعيه،
عبروا الجبال التى يسمونها جبال لوثون،
ثم مروا بمدينة « أربخويلو » ووصلوا نهر شلون،
وفى المكان الذى يقال له أنسريرا أخلدوا إلى الراحة جميعاً،
وقدمّ المسلم **ابن غلبون** هداياه إلى بنتىّ السِّيد،
ولكل واحد من أميرى كاريون جوادا،
صنع المسلم كل ذلك حبّاً فى السيد القنبيطور،
وما إن رأى الأميران الثروة الهائلة التى عليها **ابن غلبون**،
حتى فكرّا فى الخيانة، ولتنفيذها بدآ يعدان:
– « إننا سوف نترك زوجتينا بنتى السِّيد،

فإذا استطعنا أيضاً أن نقتل المسلم **ابن غلبون،**
أصبحت الثروات الهائلة التى يمتلكها لنا معاً،
وسنحافظ عليها إلى جانب ما نملك فى كاريون،
ولن يستطيع أبداً أن يثأر منا **السيِّد القنبيطور».**
وبينما أميرا كاريون يتحدثان بهذه السخافات،
مسلم من أتباع **ابن غلبون،** لاتينىّ اللغة، فهم ما يقولان[1]،
فلم يُبق على السرّ وأفضى به إلى **ابن غلبون،**
أيها القائد، خذ حذرك من هؤلاء، فأنت سيّدى.

١٢٧

ابن غلبون يودع الأميرين مهدداً

كان المسلم **ابن غلبون** شاباً قوياً وشجاعاً،
فامتطى جواده، فى رفقة مائتين من الفرسان،
وبدأ يلعب السلاح مع رجاله، ثم توقف أمام الأميرين،
وسمع الأميران من المسلم كلاماً ما يحبان أن يسمعاه :
- «لولا أنى أدعكما احتراماً لسيدى **ابن بيبار،**
لكان لى معكما شأن عبر العالم يذهب صداه،
فأردّ بنتى السيِّد الوفى،
وأنتما لا تدخلان «كاريون» إلى الأبد».

---

(١) لاتينى اللغة، أى كان يتحدث الرومانثية، وهى عامية مسيحيى الأندلس، ومشتقة من اللاتينية، وليست اللاتينية نفسها، لأن هذه كانت قد انحسرت عن ألسن الناس فى هذا العصر، ولم تعد أداة الحديث.

١٢٨

ابن غلبون المسلم يعود إلى مولينا متألما لتعاسة بنتى السيد - القافلة تدخل مملكة قشتالة - وينام أفرادها فى غابات كوربس - فى الصباح يبق الأميران وحدهما مع زوجتيهما، ويستعدان لقتلهما - تضرعات ضائعة من دونياسول - وحشية الأميرين

- قولا لى، يا أميرى كاريون، أى شر لقيتما منى؟
استضفتكما مخلصاً، وأنتما تتآمران على قتلى،
هنا أدعكم، تاركا لكم، ملعونة خيانتكم،
سأعود الآن، يكفينى رضاكما، **يادونيا إلبيرا ويادونيا سول،**
لا تهمنى كثيرا الشهرة التى عليها أميرا كاريون،
قضاء الله وإراده، سيّد العالم كله،
أن يرضى بهذا الزواج السيِّد القنبيطور!».
وما إن أكمل المسلم حديثه حتى قفل راجعاً،
وتابع مبارزته بالسلاح وهو يعبر نهر شلون
وكرجل عاقل آثر أن يعود إلى مولينا حيث يقيم،
وبعده رحل أميرا كاريون عن أنسريرا،
يغذّون السَّير طول النهار وعلى امتداد الليل،
تركوا أتيينثا على يسارهم، صخرة شديدة الصلابة،
وخلفوا وراءهم بعيداً سلسلة جبال مييدس،
وعبْر جبال مُونتِس كلاروس همزوا خيلهم،
وعلى الشمال منهم كانت مدينة جريثا، وعمرها بنو علم قديماً،

والكهوف التى سُجنتْ فيها « إلفا » من قبل،
تجاوزا سان استيبان على يمينهم وتوقفوا جميعاً يتأملون،
ثم دخل الأميران غابات كوربس،
الجبال شاهقة، والأشجار مرتفعة، تعترض أغصانها سير السحاب،
والحيوانات المفترسة طليقة تغدو وتجىء،
ووجدوا بستانا يتوسطه نبع صافى الماء،
فأمر أميرا كاريون بالنزول ونصب الخيام،
وأخلدوا مع رفقتهم إلى الراحة، فأمضوا الليل هاجعين،
وكل أمير احتوى زوجه بين ذراعيه، يبادلها الحب والغرام.

ولكن ما أسوأ ما أقدما عليه حين تصرّم الليل وأشرقت الشمس!
أمرا بوضع الكثير مما يحملان على ظهور البغال،
وبطىّ الخيام التى اتخذوها سكنا سحابة الليل،
وأمرا الحاشية كلها بأن تمضى، وتخلّفا عن المسير،
ذلك ما أمر به أميرا كاريون،
لم يتخلف معهما أحد من النساء أو الرجال،
غير زوجتيهما فحسب، **دونيا إلبيرا و دونيا سول،**
لأنهما يريدان أن يبقيا معهما وحيدين،
أخيراً رحلوا كلهم، وتخلف الأربعة وراء الجميع،
وفكرّ أميرا كاريون فى شرور كثيرة:
« أصغيا جيداً يا زوجتينا، **دونيا إلبيرا ودونيا سول:**
أنتما هنا، فى هذه الجبال الموحشة المسبعة، على موعد مع العذاب،
سنرحل اليوم ونترككما وحيدتين،

ولن يكون لكما أبدا نصيب فى أرض كاريون،
وأخبار كما هذه سوف تبلغ **السيِّد القنبيطور،**
وبهذا نثأر منه، ننتقم لقصة الأسد الجسور».
هناك نزعا عنهما العباءات والملابس،
وتركاهما عاريتين إلّا من قميص وإزار،
وحمل الخائنان، وقد اسود ضميرهما، الكلاليب،
يحملان فى أيديهما أحزمة قوية وخشنة،
وعندما رأت السّيدتان هذا تحدثت **دونيا سول:**
«بحق الله نرجوكما، **دون دييجو، ودون فرناندو،**
معكما سيفان قويان، وحدّهما بتار،
أحدهما يسمى «كولادا» والآخر يطلقون عليه «تيثون»،
فاقطعا رأسينا، نموت شهيدتين نحن الاثنتين،
وتصبح قصتكما حديث المسلمين والمسحيين، حكاية الناس أجمعين،
وما ستفعلان بنا لا نستحقه نحن، لا.
وارحمانا مما تبيتان من نوايا سيئة، لا تكونا قاسيْين،
وإذا جلدتمانا لطخ العار شرفكما إلى الأبد،
وستدفعان الثمن مواجهة قضائية، أو فى مجلس البلاط».
وذهبت تضرعات السيدتيْن عبثا، لم تُجدهما شيئا.
بدأ الأميران يجلدان زوجتيهما
قيداهما بالأحزمة دون شفقة أو رحمة،
وثبتوا الكلاليب الحادة منها، فى الموضع الأكثر إيلاما،
ومزّقا من السيِّدتين كلتيهما قميصيهما واللحم،

فتفجر دمهما صافيا، وروّى كل الإزار،
وأحستْ السيّدتان بغصة الألم فى أعماق القلب.
يا له من حظ عظيم لو أراد الخالق،
أن يطلّ فجاءة **السيد القنبيطور!.**
جلداهما طويلا، ثم تركاهما فاقدتى الشعور،
وكل ملابسهما، الأُزر والقمصان، غارقة فى الدماء،
وأحس أميرا كاريون بالتعب من مواصلة الجلد،
وكان بينهما سباق شديد : مَن يجلد أفضل من الآخر،
ولم تستطع **دونيا إلبيرا** ولا **دونيا سولا** أن تنطقا بكلمة واحدة،
وأخيراً تركهما أميرا كاريون فى الغابة لتموتا وحيدتين.

١٢٩

الأميران يتركان زوجتيهما

جرّداهما من ملابسهما، وانتزعا كل ما يحملان من فراء،
وتركاهما بين الحياة والموت فى قميص وإزار،
طعاماً لطيور الجبل، ولما فى الغابة من الحيوان،
تركاهما تموتان، تذكّر، لا لكى تنعما بالحياة،
ياله من حظ، لو أطل فى هذه الساعة **السيد روى ديات!**

١٣٠

تركهما أميرا كاريون لتموتا،
ومامن واحدة فيهما تستطيع الكلام،

ورحل الأميران، عبر الجبال، يتبادلان الزهور والابتسام.
«لقد ثأرنا الآن لزواجنا،
لم تعُودا تصلحان لنا، كلا... ولا حتى عشيقات راجيات،
لاتصلحان زوجتين لنا، ليستا من بنات العائلات،
وبما فعلنا نكون قد انتقمنا لما فى قصة الأسد من سخريات!

١٣١

فيلث مونيوث يشك فى الأميرين - ويقفل راجعا ليبحث عن بنتى السيد - فيلث ينعشهما ويحملهما على جواده إلى سان استيبان دى غرماج - السيد يعلم بما تعرض له من إهانة - ميناايا يرحل إلى سان استيبان ليعود بالسيدتين - لقاء ميناايا مع ابنتى عمه

تابع أميرا كاريون رحلتهما مزهوين،
ولكنى الآن أريد أن أحدثكم عن ذلكم **فيلث مونيوث،**
وكان ابن أخ السيد القنبيطور،
لقد أمراه بأن يتقدم، أمر لم يحظ منه بالرضا أو القبول،

وعبْر الطريق حيث يمضى خفق قلبه بهاجس غريب،
فانتحى جانباً، ممتطياً صهوة جواده، مبتعداً عن الآخرين،
واختفى **فيلث مونيوث** فى جبل معشوشب،
ليرى ماذا يحدث لبنتى عمه،
ويعرف ماذا يصنع بهما أميرا كاريون،
وفجأة رآهما قادمين، وسمع ما يدور بينهما من حديث،
غير أنهما لم يرياه ولا شكاً أنه يختفى هناك،

واعلم جيداً ،أنهما لو عرفاه لما استطاع أن يفلت من الموت،
همز الأميران جواديهما وانطلقا فى طريقهما،
ومتعقباً آثارهما إلى الوراء مضى **فيلث مونيوث،**
فوجد بنتى عمه كلتيهما، بين الحياة والموت،
وصاح بهما : «ابنتى عمى، ابنتى عمى!»، ثم ترجّل،
ربط فرسه من شكيمته فى شجرة، ونحوهما تقدم مسرعاً،
«يا ابنتى عمى، يا ابنتى عمى، **دونيا إلبيرا ودونيا سول،**
يا لقبح ما صنع أميرا كاريون!
لن يفلتا من العقاب جزاء ما ارتكبا بإذن الله».
ثم عاونهما على أن تستردا وعيهما،
كانتا فاقدتى الشعور تماما، لا تنطقان ولا بكلمة،
فراح يناديهما وقلبه ممزق،
ويصيح بهما : «ابنتى عمى، دونيا إلبيرا ودونيا سول..
استيقظا ابنتى عمى، انهضا بحق الخالق،
هيّا بنا، والدنيا نهار، قبل أن يظلم الليل،
حتى لانصبح طعاماً لما فى الجبل من حيوان مفترس،
وشيئاً فشيأ استردتا وعيهما، **دونيا إلبيرا و ودنيا سول،**
فتحنا عيونهما ورأتا **فيلث مونيوث.**
- «تماسكا ابنتى عمى، حُباً فى الله !
إذا لم يجدانى أميرا كاريون فى القافلة،
سريعاً ومتحمسين، سوف يبحثان عنى فى كل مكان،
وإذا لم ينقذنا الله فسوف نموت هنا جميعاً».

وفى ألم مرير تكلمت **دونيا سول :**

« سوف يكافئك، يا ابن عمى، عليه أبونا **القنبيطور،**

حبّا فى الخالق أعطنى قليلا من الماء ».

وبقبّعة كان يحملها **فيلث مونيوث،**

جديدة ولامعة، جاء بها من بلنسية،

اغترف من الماء ما استطاع، وقدّمه لبنتى عمه

كانتا منهكتين، تحاملتا كثيراً، لتشربا من الماء،

ترجاّهما الجلوس طويلا، فاستجابا له بعد جهد،

وأخذ يشجعهما قليلا قليلا، ويرفع من روحهما،

حتى إذا تحسنتا، أخذهما كلتيهما

بين ذراعيه، وسريعاً وضعهما فوق فرسه،

وغطّاهما بعباءته هما الاثنتين،

ثم أخذ فرسه من شكيمته ومضى بهما،

وعبْر غابات كوربس كانوا ثلاثتهم فحسب،

وبين الليل والنهار تركوا الجبال، وخلّفوها وراءهم،

وأخيراً بلغوا فى طريقهم نهر دويره،

وهناك تركهما فى قلعة **دونيا أراكا،**

وذهب فيلث مونيوث إلى سان استبان دى غرماج،

فالتق فيها مع **دييجو تييث،** واحد من أتباع **ألبار هانييث،**

وعندما سمع القصة حزن لها من القلب،

ثم أعد ركائب وملابس ذات قيمة ومناسبة،

وذهب ليصحب **دونيا إليبرا** و**دونيا سول.**

وجاء بهما إلى سان استيبان، وفيها نزلا،
وقام على خدمتهما بما استطاع، لم يترك من جهده شيئاً،
إنّ سكان سان استبان دائماً أناس شرفاء،
ما إنْ عرفوا ما حدث حتى أسفوا له من القلب.
وأسرعوا يقدمون لبنتى السِّيد كل ما يستطيعون،
وظلتا فى المدينة إلى أصبحتا سليمتين،
بينما أميرا كاريون يمضيان فى رحلتهما مزهوّين،
وعبر تلك الأراضى شاعت القصة وعرف الناس الخبر،
وأحسَّ الملك الطيِّب دون **ألفونسو** بالحرج عميقاً ومحزناً.
وذهب الرسل إلى بلنسية المدينة العظيمة،
وعندما أُخبر سِيدى **القَنبيطور** بما حدث،
تأمل الأمر طويلا وفكرّ؛
ثم رفع يده، وأمسك بلحيته :
-« شكراً للمسيح، سَيِّد العالم،
أما وقد ارتكب هذا الجرم أميرا كاريون،
فبحق هذه اللحية التى لم يستطع مخلوق أبداً أن يمسها،
لن يحقق أميرا كاريون ما نوياه من إهانتى،
وسأزوج بنتى بمن هما أفضل منهما ».
غمر سيدى وكل بلاطه ألم عميق،
وحزن **ألبار هانييث** من أعماق القلب والروح،
ورحل **مينايا ألبار هانييث**، ومعه **بير برمودث**،
ورافقهما **مرْتين أنتولينييث**، البرغشى الوفى،

ومائتا فارس أمر السيِّد أن يكونوا معهم،
وأمرهم أن يواصلوا السير ليل نهار، وشدّد عليهم فى الأمر،
لكى يحضروا بنتيه إلى بلنسية العظيمة،
ودون تأخير، وضعوا ما أراد سَيّدهم موضع التنفيذ،
ساروا مسرعين طوال الليل حتى الفجر،
وصلوا غرماج، قلعة قوية متينة البنيان.
وللحق استراحوا فيها ليلة واحدة،
وحتى سان استبان وصلت الأخبار،
بأن **مينايا** وصل ليأخذ بنتى عمه معه،
وأهل سان استبان، وهم رجال أوفياء،
استقبلوا **مينايا**، وكل الفرسان الذين رافقوه،
وفى هذه الليلة قدموا **لمينايا** خير ما عندهم من هدايا،
فلم يقبل منها شيئاً، ولكن شكرهم عليها كثيراً:
«شكراً، يا رجال سان استبان، أيها العاقلون،
على ما قدمتم لنا من مساعدة ساعة المحنة،
يشكركم عليه كثيراً، من يقيم هناك، سِيدى القنبيطور،
وأمامكم، هنا بينكم، أود أنا أيضاً أن أشكركم عليه،
وأرجو إله السماء أن يعوضكم خيراً منه».
أحس الجميع بسرور بالغ لما وجدوا من شكر وعرفان،
وعندما انتشر الليل آوى كل واحد إلى مضجعه،
وذهب مينايا إلى حيث يرى بنتى عمه،
فيه ركزتا أبصارهما، **دونيا إلبيرا** و **دونيا سول**:

- « نشكرك كثيَراً عليه، كما نشكر الخالق نفسه،
واشكرْه أنت أيضاً، لأننا مازلنا على قيد الحياة ».
- « خلال أيام الراحة وستمضيانها فى بلنسية العظيمة،
ستكون الفرصة مواتية لتحكيا لنا قصة هذه المأساة ».

١٣٢

ميناي مع بنتى عمه يرحل من سان استبان - السيد يخرج للقائهم

بكوا من عيونهم، السيدتان و **ألبار هانييث**،
حينئذ بدأ **بير برمودث** يحدثهما على هذا النحو:
« يا **دونيا إلبيرا**، ويا **دونيا سول**، لا تنشغلا كثيراً،
لقد عدتما صحيحتين وسالمتين دون أى أذى،
فقدتما زواجاً طيباً، زواج أفضل منه فى الطريق،
وستريان اليوم الذى نثأر لكما فيه! ».
قضوا الليل هناك، وكانوا جميعاً فرحين،
وفى صبح اليوم التالى عاودوا السير من جديد،
وأهل سان استبان حولهم يهرولون مودعين،
رافقوهم حتى نهر « أمور »، وكانوا برفقتهم مسرورين،
هناك ودعوهم، ثم قفلوا إلى بيوتهم عائدين،
ومضى **مينايا** مع السيدتين مسرعاً ينهب الطريق،
عبروا القصيبة، وعلى اليمين تركوا غرماج،
واتجهوا نحوَ « بادوا دى رِىْ »، وبعدها واصلوا المسير،
وفى قرية « بِرلانجا » قضوا الليل هاجعين،

فى صبح اليوم التالى بدأوا الرحلة مبكرين،
ثم أمضوا الليل فيما يدعى مدينة سالم مستريحين،
حتى إذا طلع الفجر قطعوا المسافة بينها وبين مولينا فى نهار،
وفيها المسلم **ابن غلبون** سوف يفرح بهم من القلب،
خرج للقائهم راغباً، ومعه جمع من تابعيه،
وحُباً فى سِيدى أولم لهم عشاء فاخراً،
تحركوا يقصدون بلنسية، يذهبون إليها مباشرة،
وبلغت الرسالة مَن فى لحظة سعيدة جاء إلى الحياة.
فامتطى صهوة جواده وخرج للقائهم،
فياض البشر خرج إليهم وهو يلعب بالسلاح،
سارع سيدى إلى احتضان بنتيه،
قبَّلهما كلتيهما، وملأت البسمة شفتيه:
« وصلتما، بنتىّ؟ حفظكما الله من كل سوء!
أنا قبلتُ تزويجكما بنتىّ، ما عرفتْ كيف أقول: لا.
والآن أدعو الخالق، ذلك الذى فى السماء،
أن يوفقكما إلى الزوج الصالح، عندما تعودان إلى الزواج،
فيما يتصل بصهرىّ أميرى كاريون، يا إلهى، مكنِّى من الانتقام! ».
قبلت البنتان يد أبيهما،
وهم يلعبون بالسلاح، عادوا إلى المدينة مبتهجين،
وأمهما، **دونيا خمينا**، تطل الفرحة من عينيها، رأتهما قادمتين.
لم يرد أن يتأخر أكثر، مَن فى لحظة طيبة جاء إلى الحياة،
يريد أن يبعث برسالة إلى **ألفونسو** ملك قشتالة.

١٣٣

السيد يرسل مونيو جوستيوث يطلب من الملك القصاص - مونيو يجد الملك فى سهاجون ويعرض عليه الرسالة - الملك يعد بالقصاص

- «أين أنت، **مونيو جوستيوث**، يا تابعى الوفى؟
فى لحظة طيبة ربيتك فى حاشيتى أيها الطيب جوستيوث!
احمل رسالتى هذه إلى **ألفونسو** ملك قشتالة،
راجياً منه أن تقبل لى يده، من القلب والروح،
- «أنا كتابع له، وهو سيدى -.
الإساءة التى ألحقها بى أميرا كاريون،
سوف تُحزن من الملك القلب والروح،
هو من زوج بنتىّ، فما شئتُ اعتراضاً.
والآن وقد تركاهما مهانتين بلا شرف،
فإن الإهانة التى ارتكباها، إذا كانت تمسنا شيئاً،
فكلها، صغيرة أو كبيرة، موجهة إلى سيدى.
حملا ثرواتى، ثروات هائلة ونادرة،
شىء، إلى جانب ما أشرت من إهانة، عمّق آلامى.
أطالبكم بدعوتهما إلى مواجهتى فى جمع تصائى، أو أمام مجلس البلاط،
لآخذ منهما بحق، أميرى كاريون،
لأن الحقد فى أعماق قلبى كبير».
رحل **مونيو جوستيوث** على ظهر جواده مسرعاً،

ومعه فارسان، يقومان على خدمته كما يريد،
وعدد من تابعيه رباهم يقومون على خدمة الخيل،
تركوا بلنسية وأغذوا السير ما واتاهم الجهد،
واصلوا الرحلة ليل نهار دون راحة،
فوجدوا الملك دون **ألفونسو** فى مدينة سهاجون،
إنه ملك قشتالة، وأيضاً ملك ليون،
وملك أشتويارش، وعاصمتها سان سلفادور،
وحتى فى شنت ياقب نفسها، كلهم يعترفون به سَيّدا،
وحتى كونتات جليقية، يدخلون فى زمرته ومن تابعيه،
وما إنْ ترجل ذلك المدعو **مونيو جوستيوث،**
حتى دعا القديسين خاشعاً، وتضرع إلى الخالق،
ثم توجه إلى القصر حيث مجلس البلاط،
مضى إليه، وفى رفقته الفارسان، رجلان من خيرة تابعيه.
مرَّ بين رجال الحاشية، وانتهى حيث المجلس،
فما إن رآهم الملك، حتى ثبت بصره فى **مونيو جوستيوث،**
ونهض واقفاً، يود استقبالهم محتفياً،
فى حين أن **مونيو** ورفاقه جثوا أمام الملك **ألفونسو،**
قبل قدميه **مونيو جوستيوث،** ثم نهض واقفاً :
- «الإجلال لمن ممالك كثيرة بايعته سيداً !
السيد القنبيطور يقبل يديكم والقدمين،
إنه تابعكم، ويعترف بكم سيداً عليه،
لقد زوجتم بنتيه من أميرى كاريون،

كان زواجاً مشرفاً، فهكذا أردتموه،
وأنتم أعلم بالشرف الذى حزناه من هذا الزواج،
وكيف أهاننا أمراء كاريون،
أساءا بشدة إلى بنتى السيد القنبيطور،
جلداهما بخزى، وتركاهما دون شرف عاريتين،
تخليا عنهما فى غابات كوريس، مغشيًّا عليهما بين الحياة والموت،
تحت رحمة طيور الجبل الجارحة، وحيواناته المفترسة،
ولكنهما الآن سليمتين فى بلنسية العظيمة،
ولهذا يقبل يديكم، تقبيل التابع للسيِّد،
ويطلب منكم دعوة أميرى كاريون إلى مواجهة قضائية أو فى البلاط،
لقد أُهنَّا فى شرفنا، وإهانتكم بعد أشد،
ويرجوكم أيها الملك أن تشاركوه آلامه، وأنتم تعرفون كل شىء،
وأنْ تمكنوا سِيدى من أميرى كاريون، يأخذ بحقه منهما»،
وصمت الملك طويلا، وفكر عميقاً،
«أقول لك الحق، إن الأمر أحزننى من القلب،
وفيما تقول كل الحق أيضاً، **مونيو جوستيوث،**
أنا زوَّجتُ بنتيه من أميرى كاريون،
قمت به لصالحهما، مفكراً فى مستقبلهما، متمنياً لهما الخير،
لكم تمنيت اليوم أن هذا الزواج لم يحدث أبداً،
إنى أقاسم السيد آلامه، ومن القلب،
وسأعاونه أن يأخذ بحقه وليساعدنى الخالق،
ما أبعد ما حدث عن الخيال والتفكير!

سوف يمضى رسلى عبْر كل مملكتى،
ينادون باجتماع مجلس البلاط فى طليطلة،
وسيدعى إليه كل الكونتات والأمراء،
وأصدرت أمرى بأن يحضره أميرا كاريون،
لكى يردا قانوناً على مطالب السيد القنبيطور.
قل له ألّا يأسى كثيراً، لأنى سأرقب الأمر مهتماً »،

١٣٤

الملك يدعو مجلس البلاط فى طليطلة

قل للقنبيطور، مَن فى لحظة سعد جاء إلى الحياة،
من الآن، وحتى سبعة أسابيع، أن يستعد مع تابعيه،
ليأت إلى طليطلة داخل الأجل المحدد،
لقد دعوت مجلس البلاط إلى الاجتماع حبّاً فى السيد،
سلِّم عليهم جميعاً، وألا يشغلهم من الأمر شاغل،
فمن كل ما حدث سيخرجون شرفاء منتصرين ».
ودّعهم مونيو جوستيوث، وبدأ رحلته عائد إلى السيد،
فالملك، كما قال، سوف يتولى متابعة الأمر بنفسه،
لا شىء يقف دون **ألفونسو** القشتالى وما يريد،
بعث برسائل إلى ليون وشانت ياقب،
وإلى البرتغاليين، وأخرى كثيرة إلى جليقية،
وإلى نبلاء كاريون، وإلى الفرسان القشتاليين،
يخبرون الجميع بأن مجلس البلاط سينعقد فى طليطلة،

بعد ستة أسابيع، تلتقون هناك مجتمعين،
ومن لا يذهب إلى الاجتماع، لن يُعد مَن رعايا الملك المخلصين،
وهكذا عبْر كل أراضيه، جميعاً أخذوا يتدبرون الأمر مفكرين،
مقررين أن يطيعوا الملك، وألا يعصوا له أمراً.

١٣٥

أميرا كاريون يرجوان الملك عبثا أن يعدل عن دعوة مجلس البلاط - اجتماع المجلس - السيِّد آخر من وصل - الملك يخرج للقائه

أحس بالهلع أميرا كاريون، وشعرا بالذل،
من مجلس البلاط الذى دعا الملك إلى عقده فى طليطلة،
وامتلآ خوفاً من أن يحضره سيدى القنبيطور،
فتشاورا مع أسرتهما عن هذه القضية الخطيرة،
ورجوَا الملك أن يقبل عذرهما عن حضور الاجتماع،
فقال الملك: «لن أقبله، ذلك شيء لم يأمرنى به الله!
ويجب أن يحضر اجتماع البلاط سيدى القنبيطور،
وأن يطالب بحقه، فقد أهنتماه أنتما الاثنان،
ومن لا يقبل هذا، أو يتخلف عن الاجتماع،
فليخرج من مملكتى، وسأنزع عنه أفضالى ورضاى».
عرف أميرا كاريون أنه لا مناص من تنفيذ أمر الملك،
فاجتمعا إلى أقاربهم الكثيرين يتدارسون الأمر،
حضر الكونت **دون غرسية**، وشارك باهتمام فيا دار من نقاش،
كان عدو السيد اللدود، ويفضل دائماً إهانته وأذاه،

سمع الأميران نصائحه، ووعيا ما قيل فى الاجتماع.
انتهى الأجل، وحان الاجتماع، فذهبا إلى البلاط،
وكان من أوائل الحاضرين الطيب الملك دون **ألفونسو،**
ثم الكونت **دون إنريك** والكونت **دون رامون،**
- وهذا الأخير أبو الإمبراطور الطيب -
ووصل الكونت **دون فرويلا،** وبعده الكونت دون **بربون.**
وجاء خبراء القانون من كل أنحاء المملكة،
ومِن قشتالة جاء خير مَن فيها:
الكونت **دون غرسية،** ويدعى «الكريسبو دى جْرَينون»
وألبار دياث حاكم مدينة «أوكا»
وأنسور جنثاليث، و **جنثالبو أنسورث،**
وبدرو أنسوريث، إذا كنت تعلم، هنَاك يقترب من الاجتماع،
وأخيراً جاء **دون دييجو** و **دون فرناندو،** حضرا معاً،
فى جمهرة كبيرة من أتباعهما، وفى جانب جلسوا متوثبين،
وقد بيتوا النية على إهانة سِيدى القنبيطور.
فرسانٌ كثيرون جاءوا من كل حدب وصوب.
وحتى اللحظة لم يصل بعد، مَن فى لحظة سعيدة جاء إلى الحياة،
انزعج الملك من التأخير، وكان ضائقاً به،
ولكن أخيراً، فى اليوم الخامس، وصل سِيدى **القنبيطور،**
فأرسل **ألبار هانييث** يتقدمه،
لكى يقبل يَدَىْ الملك سَيده
ويعلمه، بأنه فى هذه الليلة سيراه،

فما إن عرف الملك حتى سُر من القلب،
وفى الحال امتطى صهوة فرسه، وخرج مع الحاشية
لكى يلقى مرحبًا مَن فى لحظة سعيدة جاء إلى الحياة.
جاء **السيد** ورجاله، فى خير ما عندهم من خيل وثياب وسلاح،
والجيش الذى يصحبه جدير به كقائد،
وما أن وقع عليه نظر الملك دون **ألفونسو،**
حتى ترجل **السيد القنبيطور** عن جواده، فى الحال،
ثم تقدم خاضعاً، أراد أن يقدم لسيده المزيد من التشريف،
وما إن رآه الملك حتى تحدث إليه فى الحال :
« بحق القديس إسيدورو دع هذا لا تفعله،
اركب جوادك يا سيد، وإلا سببتَ لىِ الكثير من الضيق،
يَكفى سلاماً أن نتبادل القبل، من القلب والروح.
ما آلمكَ أنتَ، أحسستُ أنا بجرحه فى أعماق القلب،
لعل الله ينتقم اليوم لشرفك، فتأخذ بحقك ، فى مجلس البلاط،
ورد سِيدى، القنبيطور الطيب، هامساً : آمين !
ثم قبل الملكَ فى يده أولا، وفى فمه من بعد.
– « حمداً لله، على أنى استطعت أن أراكم سَيِّدى،
خاضعاً أمامكم، فى حضرتكم، وأمام الكونت **رامون،**
وأمام الكونت **دون إنريك،** وكل الذين هنا،
فليحفظ الله أصدقاءنا، وأنت قبل الجميع أيها الملك؛
زوجى، **دونيا خمينا،** سَيدة وفية،
تقبل يديكم، هى وبنتاى الاثنتان،

جميعاً نرجوكم سَيدى أن تحسوا ما لحقنا من إهانة وعار،
فرد الملك : « ذلك ما أفعل، يعلم الله ».

١٣٦

السيد لا يدخل طليطلة - ويمضى الليل متعبداً فى سان سرباندو

عاد الملك إلى مدينة طليطلة،
ولم يرد السِّيد أن يعبر نهر تاجو فى هذه الليلة :
-« أطلب منكم أيها الملك فضلا، حفظكم الله !
أسرعْ سَيدى، مع حاشيتك، وعُدْ إلى المدينة،
وأنا مع رجالى، سنقضى الليل فى سان سرباندو.
بقية رفاقى سيصلون الليلة.
ومعهم سنبقى فى هذا المكان المقدس متعبدين،
وغداً صباحاً سوف أنتقل إلى المدينة؛
سأذهب إلى البلاط، وأكون فيه قبل الغداء ».
فقال الملك : « ذلك شيء يسعدنى حقا »
عاد الملك دون **ألفونسو** إلى طليطلة.
وأقام سيدى **روى دياث** فى سان سرباندو.
أمر بإضاءة المذبح وإشعال القناديل،
أراد أن يمضى الليل ساهراً يتعبَّد فى هذا المكان المقدّس،
يرجو الخالق ويناجيه سراً فى صفاء،
وما إن جاء الصباح حتى تهيأ الجميع للمسير.

١٣٧

استعداد السيد فى سان سرياندو لكى يذهب إلى البلاط - السيد يذهب إلى طليطلة ويدخل البلاط، الملك يقدم له مقعداً على منصته إلى جواره. السيد يعتذر - الملك يفتتح الجلسة - ويعلن السلام بين المتخاصمين - السيد يعرض حقه، ويطالب بالسيفين «كولادا» و «تيثون» - أميرا كاريون يردان السيفين - السيد يعطيها لبدرو برمودث ومرتين أنتولينييث - طلب آخر للسيد: ما دفعه من أموال لتجهيز بنتيه - الأميزان يواجهان صعوبة فى دفعها

مع الفجر سمعوا القداس وأنشدوا تراتيل الصباح،
وأنهوا صلواتهم قبل أن تطلع الشمس،
ثم قدموا عطاياهم، هدايا كلها من الغالى الثمين.
- «**ميانايا ألبار هانييث!**... أنت ساعدى القوى،
أنت والمطران **دون خرونيمو**: تكونان معى فى صحبتى؛
وأيضاً **بدرو برمودث**، ومثله **مونيو جوستيوث**،
ومرْتين أنتولينييث، ذلك البرغشى ذو الوفاء،
وألبار ألباروث، ثم **ألبار سلفادورث**،
ومرتين مونيوث، مَن فى لحظة سعد جاء إلى الحياة،
ويأتى معى **مال أندا**، رجل عالم فى القانون،
ثم **جليندو غرسية**، الطبيب القادم من أرجون،
ونكمل العدد مائة، من خيرة أتباعى الأوفياء،

تحت الدروع ارتدوا ملابس مريحة، كى لا تحسوا وطأة الحديد »
وعليها صدار أبيض، ساطع مثل ضوء الشمس،
وفوق الصدار الفراء الفاخر، والعباءات الزاهية،
وَلْتخْفوا أسلحتكم.. شدُّوا أحزمتكم جيداً،
ثم خبئوا السيوف تحت العباءات، مصقولة وبتَّارة،
وعندما يتم كل شىء على هذا النحو أقتحم مجلس البلاط،
لكى أطالبه بحقى، وأبسط أمام الجميع وجهة نظرى،
فإذا أحب أميرا كاريون النزال،
فمع هؤلاء المائة من فرسانى، سوف ألقاهما دون أدنى خوف ».
وفى صوت واحد ردّوا جميعاً : « ونحن ياسيد ننتظر ذلك اليوم ».
ثم أسرعوا إلى سلاحهم يستعدون على نحو ما أمرهم به.
ودون أن يتوقف، مَن فى لحظة سعيدة طرق باب الحياة،
لبس جواربه، وُنسجت من خيوط رقيقة،
وانتعل حذاءه، وصناعته جميلة ومتينة ودقيقة،
وارتدى قميصا أبيض ناصعا فى مثل ضوء الشمس،
أزراره بعضها من الذهب، والبعض الآخر من الفضة.
وأكمامه تمسك بالمعصم مضبوطة، استجابة لما أمر به،
والصدار الذى ارتداه فوقه من حرير نادر الصنع،
وماحُلِّىَ به من ذهب يلمع بريقه عبر كل الجهات.
وعليه جلد قرمزى، حُلاَه صيغت من ذهب،
على نحو ما يلبس دائما سِيدى القنبيطور.
ثم غطىّ رأسه بكوفية، ذات نسج رقيق :

حُلِّيت أطارفها بالذهب، فى زخارف رُسمت بفن،
لكى تحمى رأس الطيب السيد القنبيطور،
أما لحيته وقد استطالت كثيرا فقد أحكم سترها،
كذلك ارتدى ملابسه، ليكون مهيأ لكل أمر،
وفوق الجميع عباءة فضفاضة غالية الثمن،
فى هيئته هذه حاز إعجاب كل منْ رأوه،
ومع المائة فارس الذين صحبوه تهيأ للمسير،
امتطوا الخيل وخرجوا من سان سرباندو مسرعين،
نحو مجلس البلاط كانت وجهة السِّيد،
وأمام الباب الخارجى ترجل ماهراً وقوياً،
ودخل سِيدى مع كل رجاله، وقورا وجادا،
هو فى الوسط، وحوله الفرسان المائة،
وعندما رأوه داخلا، مَن فى لحظة سعد طرق باب الحياة،
نهض واقفا الملك الطيب دون **ألفونسو،**
ومثله صنع الكونت **دون إنريك** والكونت **دون رامون،**
وهكذا، ليكن فى علمك، كل مَن فى المجلس تابعوا سيدهم
وفى إجلال بالغ، استقبلوا مَن وُلد فى ساعة طيبة.
لم يرد أن ينهض **غرسية أوردونييث،** المدعو «كريسبو دى جرانيون»،
ولا الذين جاءوا عصبة فى حاشية أميرى كاريون.
وأخذ الملكُ سِيدى بكلتا يديه:
«تعالَ هنا، اجلس إلى جانبى، أيها القنبيطور،
على هذه الأريكة، بعض ما أرسلت لى من هدايا،

إذا كان وجودك قد آلم البعض فأنت أرفع منا قدرا ».
وألقى فاتح بلنسية كلمات يشكر بها الذين شرّفوه :
« ابق مكانك، لا تتحرك فى أريكتك، فأنت ملك وسيد،
هنا سأجلس أنا، مع رجالى هؤلاء »،
ما قاله السيِّد، أبهج ومسّ منه شغاف القلب.
ثم جلس السيِّد على أريكة مستديرة،
وحوله المائة فارس أحاطوا به يحرسونه.
وجميع الذين حضروا مجلس البلاط ركزوا أبصارهم فى القنبيطور،
يتأملون لحيته الغزيرة، وقد استطالتْ فغطاها حفاظا عليها،
وكل تصرفاته ومواقفه توحى بأنه رجل فيما يفعل أويقول،
ولم يستطع أميرا كاريون أن ينظرا إليه خجلا.
حينئذ نهض واقفا الملك دون **ألفونسو :**
« اسمعونى أيها الفرسان، حفظكم الخالق !
دعوت مجلس البلاط مرتين منذ أن توليت الملك،
الأولى كانت فى مدينة برغش، والثانية فى كاريون،
أما الثالثة، فنعقدها الآن فى طليطلة، وأنتم شهودها،
حُبًا فى سيدى، مَن فى لحظة سعد طرق باب الحياة،
لكى يأخذ بحقه من أميرى كاريون.
لقد ألحقا به أذى كبيرا، وأهانا شرفه كما تعلمون،
وسيكون القاضيان : الكونت **دون إنريك** والكونت **دون رامون،**
وعدد آخر من الكونتات، ليسوا من عصبة أميرى كاريون،
أصغوا إلىّ كلّكم جيدا، فأنتم رجال فاهمون،

نريد أن نحكم بالقانون، لا أودّ أن يلحق الظلمُ أيَّ مخلوق،
وسنلزم الجانبين بالسلام منذ اليوم،
وأقسم لكم بسان إسيدورو أن من يشهر السلاح فى بلاطى
سوف أنفيه من مملكتى، وأحرمه من أفضالى.
إن سِيدى القنبيطور سيتقدم يطلب حقه،
وكما نعرف يجب أن يرد عليه أميرا كاريون ».
قبّل سيدى يد الملك، ثم نهض واقفا :
« أشكركم كثيرا، كسَيد وملك،
لأنكم دعوتم مجلس البلاط هذا حُبًّا فىّ،
إليكم حقوقى التى أطالب بها أميرى كاريون :
أن يتركا بنتى أمرٌ لا يمس شرفى،
لأنك أيها الملك مَن زوّجهما؛ وتعرف ما يجب أن تقوم به،
ولكن عندما تركا بلنسية العظيمة، ومعهما بنتاى،
وكنت أحب صهرىّ من الروح والقلب،
أعطيتهما سيفىّ النادرين، « كولادا » و « تيثون »،
- وقد غنمتهما فى معاركى فارسا ورجلا -
ليزدادا بهما شرفا، يضعانهما فى خدمتكم.
وعندما تركا فى غابة كوربس بنتىّ **إلبيرا وسول**،
قطعا أواصر مابيننا من ود، وفقدا فى قلبى كل حب،
فليردا إلىّ إذن سيفىّ، فلم يعودا صهرىّ بعد ».
حينئذ رد القضاة : « معك الحق فى كل ماقلت ».
فرد الكونت **دون غرسية :** « سنعطى رأينا فيما قال ».

فى هذه اللحظة خرج أميرا كاريون، وانتحيا جانبا،
ومعهما كل أقربائهما، والعصبة التى جاءت معهما،
فى عجلة حاولوا أن يركزوا وجهة نظرهم :
« بالرغم من الجمائل الكبيرة التى خصنا بها **السِّيد القنبيطور،**
إذا لم يطالبنا اليوم بما لحق بنتيه من إهانة،
فإن دون **ألفونسو** يمكن أن يكون خير وسيط،
نعطيه سيفيه، ولم يطلب أكثر منهما شيئا،
فإذا أصبحا معه بين يديه، رحل وقال لمجلس البلاط : وداعا !
لم يعد له أى حق آخر يطالبنا به هذا السِّيد القنبيطور،
وعندما انتهيا إلى هذا الرأى عادوا للاجتماع :
« رضاك أيها الملك دون ألفونسو، فأنت سيدنا !
لا نستطيع أن ننكر عليه ما قال، وسنعطيه سيفيه،
لأنه طلبهما ملحاً، شديد الرغبة فى استرجاعهما،
سنقدمهما له سريعاً، وفى مجلسكم أمام ناظريك ».
أخرج الأميران السيفين، « كولادا » و « تيثون »،
ووضعاهما بين يدى الملك سيدهما،
وعندما نُزع السيفان من غمديهما توهج البلاط بريقا،
فقد كان مقبضاهما وقائماهما من الذهب الخالص،
وغمرت موجة من الإعجاب كل الفرسان الذين فى مجلس البلاط.
نادى الملكُ سِيدى، وأعطاه السيفين،
فتسلمهما، وقبل يدى الملك،
ثم عاد إلى أريكته، تلك التى فارقها من قبل.

أمسك بهما بين يديه، وراح يتأملهما صامتاً،
لا يستطيعان تبديلهما، فهو يذكر جيداً ما كانا عليه،
غزت كلَّ جسمه بهجةٌ غامرة، وراح يضحك من القلب،
ثم رفع يده ،وأمسك بلحيته :
« بحق هذه اللحية، ولم يستطع أن يمسك بها مخلوق،
إننى سوف أنتقم لكما، **دونيا إلبيرا**، و**دونيا سول** ».
ونادى بابن أخيه دون **بدرو**، باسمه ناداه،
ومادًّا ذراعه أعطاه السيف « تيثون » :
« خذه ياابن أخى ،معك سيكون فى يد خير سَيِّد »،
وبعده نادى **مرْتين أنتولينييث**، ذلكَ البرغشى الوفى،
ومرة أخرى مادا ذراعه أعطاه السيف الثانى « كولادا » :
« خذه **مَرْتين أنتولينييث**، ياتابعى المخلص.
خذ « كولادا »، لقد ربحته أنا من فارس نبيل،
من **رامون بِرنجير** حاكم برشلونة الكبير،
ولهذا أعطيه لك، لتعنى به، وتحافظ عليه أنت،
أعلم أنه إذا حدث شىء، أو جاءت المناسبة،
فستعرف كيف تنتصر به شريفاً وشجاعاً ».
فقبّل **مِرْتين** يدَ السيد، وتلقى منه السيف،
ثم نهض واقفاً **سيدى القنبيطور** :
« شكراً للخالق، ولكم سَيِّدى وملكى !
لقد ردّا إلَىَّ سيفىّ « كولادا » و « تيثون »،
ولكن هناك شكوى أخرى ضد أميرى كاريون :

عندما تركا بلنسية مودّعين مع بنتى الحبيبتين،
أعطيتهما ثلاثة آلاف مارك، من الذهب والفضة خالصين،
هذه العطايا من جانبى، قابلاها بالنقيض،
فليرداً إلى أموالى، فلم يعودا صهرى بعد».
آهِ لو رأيت تشكىٍّ، وسمعت تعلّلات، أميرى كاريون!
وقال الكونت **دون رامون:** «رُدّا: نعم أولا».
حينئذ ردّ أميرا كاريون:
لقد قدمنا السيفين إلى السيد القنيطور،
حتى لا يطلب منا مزيداً، بهما انتهت مطالبه عندنا».
فى الحال ردّ الكونت الطيب **دون رامون:**
«إذا أذن الملك، فردُّنا على الادعاء:
نحن لا نعارض فيما يطالب به السيد القنبيطور».
فرد الملك الطيب: «وأنا أوافق على ماتقول».
هبّ السيد القنبيطور واقفاً:
«قل: هل سترد لى الاموال التى أعطيتها لهما،
أو كل ما هنالك، أنك تعطينى الحق فيها».
انتحى أميرا كاريون، وأنصارهما جانباً،
لم يتفقا على كلمة، كان المال المطلوب منهما باهظاً،
وأنفقاه كله، لم يُبق منه على شيء أميرا كاريون،
ثم عادا إلى المجلس يبسطان وجهة نظرهما:
«لقد سخا علينا فى الإهداء، مَن ربح بلنسية،
لأنه كان يشتعل نهماً إلى ثرواتنا، وينظر إليها فى غيرة،

ولإرواء نهمه، سوف نقطعه جزءاً من أرضينا فى كاريون».
بعد هذا التصريح تدخّل القضاة :
«إذا أرضى ذلك السيد فلن نعارضه نحن،
لكن نحن الذين نصدر الحكم، فتلك مهمتنا،
أن تعطوه هنا، فى مجلس البلاط، الأموال التى أعطاها لكم»
وبعد هذه الكلمات تحدث الملك دون **ألفونسو :**
«نحن نعرف جيداً كل ما يتصل بهذه القضية،
وحقٌ ما يطالب به السيد القنبيطور،
من الثلاثة آلاف التى يطالب بها، مائتا مارك عندى أنا،
قدّمها لى أميرا كاريون كلاهما،
وأودّ أن أردّهما لهما اليوم، فما يملكان قليل،
لكى يردّاها إلى السيد، مَن فى لحظة سعد جاء إلى الحياة،
مادام عليهما أن يدفعا ما أخذا، أنا لا أريد هذه الأموال».
اسمعوا ما تحدّث به الكونت **فرنان جنثالث :**
«ما نملكه نحن الاثنان من عملة جيدة قليل».
فرد عليه الكونت دون **رامون :**
«لأنكما أنفقتما ما أخذتما منه، ذهبا أو فضة،
لحضرة الملك نتقدم بطلب جديد :
أن تدفعا له أشياء تساوى ما أخذتما، ويقبلها القنبيطور».
وجد أميرا كاريون أنه لا مفرّ من تنفيذ ما حكم به عليهما.
وشهد الناس خيلا كثيرة دريرة تجىء،
وبغالا فارهة وأفراساً حساناً،

وسيوفاً نادرة مصقولة، أحكم القيْن صنعها،
تذهب أمام مجلس البلاط ويتسلمها السيد،
إلى جانب المائتى مارك، وقدّمها الملك **ألفونسو**،
دفعها كلها أميرا كاريون إلى من وِلد فى لحظة سعيدة،
لم يكفهما ما يملكان فاقترضا من البعيد،
وخرجا من المجلس، ليكن فى علمكم، مهزومين محتقرين.

١٣٨

السيد، بعد مطالبته بالحق المدنى، يستعد للتحدّى

تسلّم **السيد** ما دفع له منِ منقول مقابل أمواله،
أخذ رجاله كل شيء، وأصبح تحت حراستهم الآن،
انتهى من هذه القضية، وبقى شيء واحد يفكرّ فيه :
– «رضاك، ملكى وسيّدى، وحبًّا فى الخالق،
كبرى إهانتهما لا أستطيع أن أنساها،
فليسمعنى كل مجلس البلاط، ويشاركنى آلامى،
لقد أهان أميرا كاريون شرفى بقوة،
فلا أقلّ من أن تتاح لى الفرصة، كى أتحدّاهما.

١٣٩

قولا لى : أى أذى ألحقته بكما يا أميرى كاريون ؟
حقيقة، أو ضاحكا، أو فى أى صورة كان ؟
هنا، أمام مجلس البلاط، أطالبكما بالتعويض،

لأى سبب مزّقتما شغاف قلبى ؟
عندما خرجتما من بلنسية، سلمّتكما بنتىّ بيدى،
معهما أعطيتكما أموالا طائلة، وأجريت لكما كل مراسم التشريف،
إذا لم تحبّانهما، أيها الكلبان الخائنان،
لماذا رحلتما بهما من بلنسية، ومعهما الشرف والمال ؟
لماذا أوثقتماهما بالكلاليب، وجلدتماهما بالسياط ؟
فى غابات كوربس تركتما بنتىّ وحيدتين،
تحت رحمة الطيور الجارحة، والحيوانات المفترسة،
العار الذى ارتكبتماه هناك، ذهب بكل ما لكما من قيمة،
فليحكم مجلس البلاط فى القضية، إذا لم يردّا لى اعتبارى ».

١٤٠

جدل بين غرسية أرودونييث والسيد

نهض الكونت **غرسية أرودونييث** واقفاً :
« رضاك، يا سيدى، ملكنا، وأفضل كل من فى إسبانيا !
تعوّد سِيدى على مجالس البلاط الحاشدة،
وترك لحيته تغزر وتطول،
وإذ كان بعض الناس يخافون، والآخرون يشعرون إزاءه بالرعب،
فأميرا كاريون ينتميان إلى أعلى طبقة،
وهاتان البنتان لا تصلحان لهما، حتى ولا مجرد عشيقتين،
فمن يستطيع إذن أن يقدّمهما للأميرين زوجتين شرعيتين ؟
لقد استخدما حقهما عندما تركاهما،

وكل ما يقوله السيد، لا يساوى فى الحقيقة شيئاً ».

فرد **القنبيطور**، وهو يداعب لحيته :

« شكراً لله خالق الأرض والسماء !

طالت لحيتى لأنها نمت بالهدايا،

ليس هناك ابن امرأة استطاع أن يمسها،

كان أبوه مسلما ، أو كان ابن مسيحى،

على نحو ما عبثتُ بلحيتك، وانتزعت شعيرات منها، فى حصن قبرة،

فى اليوم الذى استوليت فيه على قبرة، أخذتك من لحيتك،

حتى أحقر لص عبث بلحيتك الطويلة،

والجانب الذى اقتلعت شعيراته، مازال واضحاً، لم يَنْم كالبقية بعد،

أما الشعيرات نفسها، فمازلت أحفظها، جئت بها فى حقيبتى هذه ».

١٤١

فرناندو يرفض التهمة

فى الحال وقف الأمير **دون فرناندو**،

فاسمع ما تحدث به صارخا، فى صوت مرتفع :

« دعنا من هذا يا سيد، وقل لنا غير هذا الكلام،

لقد دفعنا لك ما طلبتَ من أموال كاملا غير منقوص،

لا توسِّع شقة الخلاف بيننا وبينكم،

فنحن تجرى فى عروقنا دماء أمراء كاريون،

نستطيع أن نتزوج من بنت أيِّ ملك أو إمبراطور،

وليس من بنات وُلدن فى بيت أمير ناشىء صغير،

لقد تركنا بنتيك عدلا، وفى ظل القانون،
ونحن الآن أرفع قدرا، يجب أن تعرفه، ولن ننقص شيئا ».

١٤٢

السيد يدفع بدرو برمودث إلى التحدى

وقع نظر سِيدى **رُوى دياث** على **بدرو برمودث** :
« **بيرمودو،** ألَا تتكلم، هلى أنت الفارس الذى يصمت دائما ؟
إنهما بالنسبة لى بنتاى، بالنسية لك ابنتا عمك، أختاك،
إذا قيل هذا الكلام لى فبه يشدونك من أذنيك،
إذا رددتُ أنا أوّلا، فلن تكون معنا فى مواجهة السلاح.

١٤٣

بدرو برمودث يتحدى فرناندو

حينئذ حاول **بدرو برمودث** أن يتحدث،
فخانه لسانه، وضاعت على شفتيه الكلمات،
لكنه عندما بدأ، ليكن معلوما، اندفع بلا توقف :
« سيد ! . . . أعترف بأن لك عادة فريدة
فى مجالس البلاط، كم من مرة دعوتنى **بير مودو !**
وأنت تعرف جيدا أننى فى مثل هذا الحالات لا أستطيع شيئاً،
وإذا كان لابد أن أصنع شيئا، فلن أخيّب لكم رجاء،
فيما قال الأمير **فرناندو** قليل من الكذب،
فأنت فى نظر القنبيطور تساوى أكثر مما تعتقد،

أذكر شيئاً من حبائلك، وسأحكيها لك،
هل تذكر عندما كنا نقاتل قريبا من بلنسية العظيمة،
وطلبتَ من القنبيطور الوفى أن تكون أول من يقاتل،
فلما رأيت مسلماً، تهيأت لمهاجمته،
ولكنك مسرعا آثرت الفرار، قبل أن تقع عليك عيناه،
ولو لم ألحق بك معينا، لسخر منك المسلم على نحو لاتحمد عقباه،
ثم تركتك خلفى، ولا حقت المسلم عجلا، كان علىّ أن ألقاه،
بعد ضربات قليلة، سقط قتيلا، فارق الحياة،
أعطيتك فرسه، وأصبح ملكك واتفقنا على الكتمان،
وحتى هذه اللحظة ما عرف الخبر أحد، لم يكتشفه إنسان،
وجرؤت على أن تزهو أمام سِيدى والآخرين؛
بأنك قتلت ذلك المسلم، فى مغامرة ليس لها مثيل،
صدّقوا كلماتك كلها، لم يفكر أحد أبداً أن الحقيقة غير ما تقول،
لا أنكر أنك جميل؛ ولكنك أكثر من ذلك عربيد جبان،
لسان طويل بلا سواعد، كيف إذن تجرؤ على الكلام؟

١٤٤

بدرو برمودث يواصل تحديه

قل لى **فرناندو**، اعترف بما سأحكيه:
ألا تذكر ما حدث لك فى بلنسية مع ذاك الأسد،
عندما كان سِيدى نائماً وانطلق الأسد من مربضه،
وأنت، **فرناندو**، ماذا صنعت بجبنك الذى لا يقهر؟

اختبأت تحت أريكة سيدى القنبيطور!
استلقيت هناك فرناندو، وذلك ما ذهب باحترامك،
أحطنا جميعاً بالأريكة لحماية سيّدنا،
حتى استيقظ سِيدى فاتح بلنسية،
فنهض من أريكته، وتقدم نحو الأسد،
فطأطأ الأسد رأسه، وبقى سِيدى منتظراً
ثم قاده من رقبته، وردّه إلى قفصه من جديد،
وتطلعَّ حوله، فإذا أتباعه محيطون به،
وعندما سأل عن صهريه لم يقف لهما على أثر،
أنت شخصياً، أتحداك، لأنك خائن وشرير،
أتحداك هنا، أمام الملك دون **ألفونسو**،
فى سبيل بنتى السيد، **دونيا إلبيرا** و **دونيا سول**،
إنكما بالتخلى عنهما فقدتما ما كان لكما من احترام قبل،
وعندما يبدأ التحدىِّ، إذا أراد الخالق،
فسيكون عليك، أنت نفسك، أن تعترف بأنك تصرّفت كخائن،
ما قلته هو الحقيقة، وواجبى أن أكون مع ما هو حق».
وعند هذا القدر توقفت الخصومة بينهما.

١٤٥

دييجو يرفض اتهامه بالجبن

أصغوا جيدا إلى ما قاله الكونت **دييجو جنثالث**:
«فى عروقنا يجرى دم نبيل، ونحن من أصفى الأسر نسبا،

لكم تمنيت أن هذا الزواج لم يتحقق أبداً،
حتى لا يلتحم نسبنا مع سِيدى **دون لذريق** بأية حال،
تركنا بنتيه، ولسنا على ذلك من النادمين،
وتستطيعان أن ترسلا زفراتهما حارة ما امتدت بهما الحياة،
وما وجهناه لهما من إهانة سنلقاهما به على الدوام،
وأقول متحديا أكثر الناس شجاعة،
بعد أن تخلينا عنهما ازددنا شرفا عما كنّا عليه.

١٤٦

مرتين أنتولينييث يتحدى دييجو جنثالث

هبَّ **مرتين أنتولينييث** واقفا :
« اسكت أيها الخائن، لسان لم يتعود أن يقول الحقيقة،
حادث الأسد ذاك يجب ألا تنساه،
هربت من الباب، واختبأت فى حظيرة الثيران،
وبعدها لجأت إلى أسوار معصرة النبيذ،
من يومها لم تستطع أن ترتدى صدارا ولا عباءة،
ذلك ما أتحداك به، ولا أتجاوزه إلى ما عداه،
لقد أردتما أن تفارقا بنتى السيد،
على أى حال، هما به أكثر شرفا؛ وهو ما يجب أن تعرفاه.
فى مجال التحدِّى، عندما تحين ساعته، ستقوله عن نفسك بلسانك :
كنتُ خائناً، وكذّابا فى كل ما قلتُ ».

١٤٧

أسور جنثالث يدخل مجلس البلاط

انتهى الخصام بين الاثنين على هذا النحو.
حينئذ وصل **أسور جنثالث** ودخل القصر،
يرتدى عباءة من فراء، ويجر رداء من حرير،
متورِّد الوجه، فقد أنهى غذاءه من قليل،
فيما يتحدث، قليل الاهتمام بما يقول :

١٤٨

أسور يشتم السيد

« أيها الفرسان، متى رأيتم شيئاً حدث على نحو ما يجرى الآن ؟
مَن يقل إن جانب النبل فينا يعود إلى سِيدى، **ابن بيبار**،
فليذهب إلى نهر « أوبييرنا » يعمل فى طواحينه،
وليقبض ثمن عرقه حفنات من دقيق، وهو ما يدفعونه عادة هناك !
مَن ذلك الذى يجرؤ على أن يخلط بدمه دماء أمراء كاريون ؟ .

١٤٩

مونيو جوستيوث يتحدى أسور جنثالث - رسل من نبرة وأرجون يطلبون يدى بنتى السيد لابنى ملكيها - دون ألفونسو يبارك الزواج الجديد - مينايا يتحدى أمراء كاريون - غومث بلاث يقبل التحدى، ولكن الملك لا يحدد موعداً إلا لأولئكم الذين رغبوا

فيه من قبل - الملك يحمى تحديات السيد الثلاثة - السيد يقدم الهدايا للجميع مودعا - الملك يخرج من طليطلة مع السيد، ويأمره أن يسابقه بجواده

حينئذ هب **مونيو جوستيوث** واقفاً :
« اسكت أيها الغدّار، فأنت شرير وخائن،
أنت تتغدى أولا، ثم تذهب بعد ذلك للصلاة،
والذين تبادلهم قبلة السلام فى الكنيسة سوف تزعجهم رائحتك الكريهة،
أبدا لم تقل الحقيقة فى حياتك ، لا للسيد ولا للصديق،
وأنت خدّاع للجميع، ومع الخالق أكثر خداعاً،
لا أريد صداقتك، ولا علاقة من أىّ لون،
وسأرغمك على أن تعترف أنك كما قلتُ ».
وقال الملك **ألفونسو** : « اسكت، دع النقاش.
الذين ألفوا التحدى وقبلوه يتبارزون، فليساعدنا الله ! ».
وما أن انتهوا من الحديث، وقد عرض كلٌّ وجهة نظره،
حتى اقتحم فارسان مجلس البلاط فى نفس اللحظة :
أولهما يسمى **أوخرّا**، والآخر يُدعى **إنييجو خمينيث**.
أحدهما رسول أمير نبرة،
والثانى بعث به أمير أرجون،
قبلا يدى الملك دون **ألفونسو**،
وطلبا بنتَىْ سِيدى **القنبيطور**،
لتصبحان ملكتين فى نبّرة وأرجون،
كزوجين شرعيتين، بشرف وعقد،

صمت الجميع، وسمع ما يطلبان كل مجلس البلاط.
نهض واقفا سِيدى القنبيطور :
« رضاك أيها الملك ألفونسو، فأنت سيّدى !
ذلك ما أشكر الخالق عليه،
أن يطلب بنتيّ ملكا نبرّة وأرجون.
من قبل أنت الذى زوجتَ بنتيّ، ولست أنا،
لقد وضعتهما فى حمايتك، بين يديك،
ودون أمر منك لا أقدم على عمل شيء ».
صمت المجلس عندما انتصب الملك واقفا :
« أرجوكم يا سِيد، أيها القنبيطور الشجاع.
اقبل هذا الطلب، وسأعطيكم موافقتى الآن،
ذلك الزواج أوافق عليه، وأنا هنا فى مجلس البلاط،
وستربح من ورائه أرضاً وشرفاً ونبلا ».
فوقف **السيد**، ثم تقدم نحو الملك، وقبل يديه :
« كل ما يرضيكم سيِّدى، يسعدنى أنا وأوافق عليه ».
وأضاف الملك : « لقد عوضك الله خيرا كثيراً،
وأنتما **أوخرا** و**إنييجو خمينيث** أقول لكما :
إننى وافقت على الزواج الآن، وسأكون أنا،
مَن يقدم يدى بنتى السيد. **دونيا إلبيرا** و **دونيا سول**،
زوجتين للطيبين أميرى نبرّة وأرجون :
زوجتين شرعيتين، بشرف وعقد ».
نهض واقفاً **أوخرا**، ونهض معه **إنييجو خمينيث**،

تقدما نحو الملك دون **ألفونسو**، وقبلا منه اليدين،
ثم صنعا نفس الشيء مع سِيدى **القنبيطور**،
تمت الخطوبة، وأقسم الجميعُ اليمين،
أن يتّم كل شيء على ما اتفقا عليه، أو أفضل،
وسرَّ ما حدث كلٌّ من فى مجلس البلاط،
غير اثنين لم يسرهما الأمر، وهما أميرا كاريون،
ثم وقف **مينايا ألبار هانييث** :
« أود أن أطلب موافقتكم سيدى وملكى،
وألّا يؤلم ما أقول السيد القنبيطور،
كثيرون استطاعوا فى هذا المجلس أن يتحدثوا كما يحبون،
وأودّ أن أكون مثلهم، عارضا وجهة نظرى ».
فرد الملك : « ذلك شيء يسعدنى من القلب،
قل إذن يا **مينايا** كل ما تريد، على نحو ما تحب ».
« إنى أرجوكم، وأرجو كل مجلس البلاط أن يسمعنى.
فلدىّ شكوى أليمة من أميرى كاريون،
باسم الملك **ألفونسو**، قدمتُ لهما بنتىّ عمى،
فتلقياهما زوجتين شرعيتين وشريفتين،
وأهداهما سِيدى القنبيطور أموالا هائلة،
وما لبثا أن تركا زوجتيهما، عابثين بشرفنا،
إنى لأتحدّى الأميرين، شرّيرين وخائنين،
جرى فى عروقكما دماء أسرة **بنى غومث**،
منها انحدرتما، أميرين محترمين وشجاعين.

ولكنكما تعرفان اليوم، ما تصنعان من أحابيل،
إنى أتوجه إلى الخالق بشكرى العظيم،
لقد طلب يدّ بنتى عمى، **دونيا إلبيرا** و **دونيا سول**،
زوجتين شريفتين، أميرا نبّرة وأرجون،
كانتا بالأمس زوجتيكما الشرعيتين على مستواكما،
والآن عليكما أن تنادياهما : سَيّدتى، وأن تقبّلا منهما اليدين،
وكل واحد منكما يصبح لهما خادما، مهما ساءه أو كان من الغاضبين،
منكرا لإله السماء، وللملك دون **ألفونسو**،
لقد ازداد سيدى القنبيطور شرفا وقدرا.
ومهما يكن، فأنتما هكذا، وعلى نحو ما أقول،
ومن يجرؤ على أن يناقش، أو يقول لا،
فليعلم أننى **ألبار هانييث**، خير الرجال، وأشجع الفرسان.
حينئذ نهض **غومث بلايث** واقفا :
« ما قيمة ما قلت يا **مينايا** من حديث طويل ؟
كثيرون هنا، فى هذا المجلس، يستطيعون أن يطاولوك،
ومن يقل شيئاً آخر، فإنما يحفر قبره بيديه،
وإذا أراد الله، فسوف نخرج من هنا سالمين،
ويبقى عليك أن ترد فيما بعد على ما قلت وبه تفوهت ».
فتدخل الملك : « لقد انتهت المناقشة،
ولن يسمح لأى طرف بأن يعود فيتحدث فيه،
ولتكن المبارزة غداً عندما تشرق الشمس،
ثلاثة ضد ثلاثة، وهم الذين تحدّوا فى مجلس البلاط ».

أراد أميرا كاريون الكلام،
« اضرب لنا موعداً آخر أيها الملك، فغدا من المستحيل،
سلاحنا، وخيلنا، أعطيناها كلها للسيد القنبيطور،
قبله علينا أن نذهب إلى أراضى كاريون ».
فالتفت الملك إلى القنبيطور :
« ستكون المبارزة على نحو ما تريد أنت ».
حينئذ ردّ سيدى : « لن يكون ذلك سَيدى،
أفضل أن أذهب إلى بلنسية، على أن أذهب إلى كاريون ».
فرد الملك : « ليكن ذلك يا قنبيطور،
أعطنى فرسانك مع كل أسلحتهم،
يذهبون معى، فى رفقتى، وسيكونون فى حمايتى،
أفعل ذلك، مع تابع طيب، ذلك واجب السيّد،
لن يتعرضوا لأى أذى، من كونت أو أمير،
وسأقترح أنا الموعد فى مجلس البلاط.
فى نهاية الأسبوع الثالث، يكون لقاؤنا فى سهول كاريون،
وستتم المبارزة بإشرافى، فى محضرى،
ومَن لا يفى بالموعد يخسر كل حق،
يُمكن اعتباره مهزوماً، وينسحب كخائن ».
وقد علم بهذا الأجل أميرا كاريون،
قبّل السيد يدى الملك :
« بين يديكم أترك فرسانى الثلاثة فى أمان،
وبهم أوصيكم، كملك لى وسَيد،

كلهم مستعدون ليؤدوا واجبهم بشرف،
أبعث بهم إلى بلنسية شرفاء بحق الخالق ! ».
فرد عليه الملك : « إن شاء الله ».
هناك نزع كوفيته السيد القنبيطور،
كوفية من نسيج رقيق، بيضاء فى لون الشمس،
وأظهر لحيته، نزع عنها ما كان يسترها من غطاء،
لم يتعب واحد فى المجلس من النظر إليه وتأمّله،
ثم تقدم إلى الكونت **دون إنريك**، والكونت **دون ريمون**،
عانقهما بحرارة، وطلب إليهما من القلب،
أن يأخذا من ثرواته وأملاكه كل ما يحبان.
ثم توجه إلى حاشيتهم، فرسانهم والذين حولهم من الاتباع،
يرجوهم أن يتخيروا من أمواله كل ما يحلو لهم،
قبل الهدية بعضهم، وشكره عليها آخرون،
وأبرأ ذمة الملك من المائتى مارك التى عنده،
وعرض عليه أن يتخير مما لديه ما يقع من ذوقه موقع الرضا والقبول :
« أطلب عفوكم، ياملكى، بحق الخالق !
لقد حللْت كل المشاكل، ووصلت بكل أمر إلى غايته.
أقبل يديكم؛ وأطمع فى رضاكم يا سيّدى؛
لأنى أود العودة إلى بلنسية؛ ولربحها بذلتُ الغالى من التضحيات ».

حينئذ أمر السيد بإعطاء رسل أميرىْ نبرّة وأرجون ما اختاروا من الحيوانات؛ وكل ما يحتاجون إليه، ثم ودّعهم.

وامتطى الملك دون **ألفونسو** جواده؛ ومعه كبار فرسان بلاطه لتوديع

السيد الذى سيغادر المدينة، وعندما وصلوا إلى ميدان « السوق المدور »، كان السيد ممتطياً صهوة فرسه، وينادونه « ببييكا »، فقال له الملك : « دون **لذريق**، لكم أحببت لو رأيتك تطلق العنان لفرسك هذا منطلقاً، فكثيراً ما حدثونى عنه ». فابتسم السيد قائلا : « سَيّدى، هنا فى بلاطك كثيرون من **الرجال المشهورين، والقادرين على هذا، مُرهم إذن أن يحاولوا هذا بخيلهم»** فردّ عليه الملك : ياسِيد، حقًّا ما تقول، ولكنى، مع ذلك، أود أن أرضى حاجة فى نفسى، من أجلى، هيّا انطلق به ».

١٥٠

الملك يعجب « ببييكا »، ولكنه لا يقبله هدية - وصايا السيد الأخيرة إلى المبارزين الثلاثة من فرسانه. عودة السيد إلى بلنسية - الملك فى كاريون. حلول موعد المبارزة، أميرا كاريون يحاولان استبعاد السيفين « كولادا » و « تيثون » من المبارزة - فرسان السيد يطلبون الحماية من الملك ويخرجون إلى ساحة المبارزة - الملك يعين حكام الحلقة ويؤنب أميرى كاريون - الحكام ينظمون المبارزة - اللقاء الأول - بدرو برمودث يهزم فرناندو.

أطلق **السيد** العنان لفرسه، فاندفع كالريح، وكان فى سرعته موضع اعجاب الجميع،

فرفع الملك يده، وصلبَّ على وجهه :

« أحلف بالقديس إسيدورو، الموقر فى ليون،

أنه لا يوجد فى كل أراضينا، فارس أعظم منه ».

عاد **السيد**، وحينئذ تقدّم بفرسه،

وذهب ليقبل يد سيده دون **ألفونسو**،

«لقد أمرتنى أن أنطلق ببييكا، الفرس الدرير،

لا يوجد له شبيه فى السرعة، لا عند المسلمين ولا المسيحيين،

إنه هدية منى، وأرجوك أن تتقبلها سيِّدى».

حينئذ قال الملك: «ذلك فضل أعفنى منه.

إذا تركت لى الفرس، فلن أجد له السيِّد الفارس،

فرس عظيم كهذا جدير بك أنت،

لكى تنتصر على المسلمين فى المعركة، وتمضى فى لحاقهم،

وإذا انتزعه منك أحد، فلن يرضى الخالق عنه،

نحن بك وبفرسك، نزداد مع الأيام شرفا».

ثم توادعا، وانتهى اجتماع مجلس البلاط.

زود القنبيطور الذاهبين إلى المنازلة بنصائحه:

«يا **مرتَين أنتولينييث**، وأنت يا **بدرو برمودث**،

ومعكما **مونيو جوستيوث**، تابعى الوقى،

اثبتوا ساعة اللقاء، وبارزوا كرجال،

سأبق فى بلنسية متلهفاً لأخباركم الطيبة.

قال **مَرتين أنتولينييث**: «لِمَ تقول هذا سيّدى،

لقد عرفنا مهمتنا، وعلى استعداد لنؤدى واجبنا، كأفضل ما يكون،

ربما يقال لك إننا قُتلنا، أما هُزمنا فلا..».

سُرَّ مما سمع، مَن فى لحظة سعد طرق باب الحياة،

ودع الجميع، وكلهم له أصدقاء،

سلك السيد طريقه نحو بلنسية، واتجه إلى كاريون،

انتهت الأسابيع الثلاثة. وحلَّ موعد الأجل،
حافظَ عليه فرسان السيد القنبيطور،
أرادوا أن يوفوا بما عاهدوا عليه سيدهم،
كانوا فى حماية دون **ألفونسو** ملك ليون،
ومر يومان قبل أن يجئ أميرا كاريون،
وصلا؛ كلٌ على فرس رائع التسريج، ومعهما سلاح جديد،
تحدَّثا برهة مع أقاربهما، وتلقيًا منهم النصح،
بأن يبتعدا ما استطاعا عن فرسان القنبيطور،
وأن يقتلوهم فى الساحة مهدرين شرف سيّدهم،
كان الهدف شريراً، ولكن أحدا منهم لم يحققه أبدا،
فكلهم يرتعبون خوفا من **ألفونسو** ملك ليون،
امتشق فرسان السيد أسلحتهم، وصلوًا للخالق.
تصرم الليل، وانشقت السماء عن فجر جديد،
توافد على الساحة عظماء الرجال، والأغنياء، وكبار الفرسان،
أن تجرى مبارزة بهذا المستوى، حدث فذ وجذّاب،
وتميز بين الجميع الملك دون **ألفونسو**،
لكى يقيم القانون، ويحول دون المظالم،
لبس فرسان القنبيطور الطيب عدة الحرب،
تعاون ثلاثتهم بإخلاص، فقد كانوا يخدمون سيِّدا واحدا
وفى جانب آخر، أخذ أميرا كاريون أسلحتهما،
ومعهما الكونت **غرسية أوردونييث** يواليهما النصح،
وفجأة أثارا مشكلة، وتقدما بشأنها إلى الملك **ألفونسو**،

أن يستثنى من السلاح فى المبارزة السيفان «كولادا» و«تيثون»،
فلا يقاتل بهما فرسان **السيد القنبيطور**،
ولكنهما عادا مما يطلبان غاضبين،
فقد استمع الملك لقولهما، ولكنه لم يوافقهما عليه:
«إن قرار مجلس البلاط لم يستثن من السلاح أىَ سيف،
تستطيعان أن تستخدما سيفيكما، إذا كان رائعين،
ولهم الحق أن يستخدموا سيفى القنبيطور،
اخرجا إلى الساحة، تقدما.. هيا أميرى كاريون!
لقد قبلتما النزال كما يخطط له فارس رجل،
افعلا كما يصنع الآخرون، فرسان السيِّد،
إذا انتصرتما فى ساحة المبارزة، حزتما الشرف عاليا،
وإذا خرجتما مهزومين، فليست هذه خطيئتنا،
فالكل يعرف أنكما كنتما عنها باحثين!».
بدا الحزن واضحا على وجه أميرىْ كاريون،
أحسًا بالذعر، وهما يفكران فيما هما عليه قادمان،
وإذا أحجما عنه يصبحان حديث كل من فى كاريون،
أتباع السيد القنبيطور بكل عدتهم، فى كامل سلاحهم،
تقدم منهم الملك دون **ألفونسو** لكى يراهم،
فى صوت واحد قال له الثلاثة:
«إننا نقبل يديك، كملك لنا وسيد،
ونطلب منك أن تكون حكما فى مبارزة اليوم،
يهمنا أن يعلو القانون، وألا يكون هناك ظلم،

هنا جاء مع أميرى كاريون من عصبتهم خلق كثير،
لا نعرف ما الذى يمكن أن يقدما عليه وما الذى يعفان عنه،
بين يديكم، تحت حمايتكم، ألق بنا سيدنا،
فارفع راية العدل بحق الخالق».
أحضروا لهم الخيل، قوية وسريعة،
وبعد أن صلّبوا علوها فى وثبة واحدة،
من رقابهم تتدلّى شعاراتهم، مذهبة ذات بريق،
فى أيديهم الحراب قاطعة، صنعت من حديد متين.
وكل واحد من الحراب الثلاثة تخفق أعلاه راية،
حول الساحة تجمعّ فرسان كثيرون مشهورون،
خرجوا إليها وقد أحاطت بها الرايات من كل جانب.
فرسان القنبيطور الثلاثة اتفقوا فيما بينهم،
اختار كل واحد منهم العدو الذى يواجهه،
وفى الجانب الآخر كان أميرا كاريون :
مع رفقة طيبة وقفوا، أقاربهما كثيرون،
فاختار الملك قضاة يحكمون : أهو من حقهم أم لا . . .
لتجنب الخلاف حول ما يحدث هناك.
وعندما نزل المتبارزون الساحة، تكلم الملك دون **ألفونسو :**
« اسمعا ما أقول لكما أميرىْ كاريون،
لقد رفضتما أن تجرى المبارزة بشرف فى طليطلة،
هؤلاء الفرسان الثلاثة أتباع سيدى القنبيطور،
جئت بهم تحت حمايتى إلى أراضى كاريون،

حقكما لا معارض له، أما الخيانة فلا...

وإذا حاول أحدكما خداعاً، فسأقف ضده، أنفذ فيه القانون،

في أرض مملكتى لن يصيبه غير الامتهان والتحقير».

يا له من كابوس ثقيل ذلك الذى أحس به أميرا كاريون!

الملك ألفونسو والقضاة خططا على الأرض كل الحدود،

ثم تركوا الساحة، وأخذوا أمكنتهم على جانب،

وأعلم الستة المبارزين بما يجب عليهم أن يتبعوه،

يُعتبر مهزوماً من يتجاوز الحد المقرر له،

كل الناس تركوا ساحة المبارزة، ووقفوا حولها،

بعيداً من الحدود بما يساوى مسافة ستة رماح،

فى الحلقة واجهوا حظوظهم، يتقاسمون الشمس،

واحتل القضاة مكاناً وسطاً، فى مواجهة المتبارزين،

من هنا جاء أتباع السِّيد، ويمموا شطر أمراء كاريون،

هكذا واجه أمراء كاريون فرسان القنبيطور،

كل واحد يرقب خصمه يقظا فى حذر،

بينما شعاره بيده فوق قلبه،

أنزلوا رماحهم، وبقيت راياتهم تخفق فى الهواء،

واتكأ كل مقاتل على حافة سرجه،

وهمز كل واحد جواده فاندفع واثبا،

وحيثما تحركوا فإن الأرض تضطرب من تحتهم،

ونظر كل إلى خصمه على النحو الذى يَوافق هواه،

تجمّع أتباع السِّيد الثلاثة، وهكذا فعل أمراء كاريون،

والنظّارة حولهم، فى كل لحظة، يتوقعون سقوطهم قتلى.
كان **بدرو برمودث** أول من برز وتحدى
فرنان جنثالث، وجها لوجه التقى معه،
تبادلا الطعن بشعاريهما، دون أدنى خوف،
فرنان جنثالث رمى **بدرو** بشعاره،
لكن الضربة ضاعت فى الهواء، فلم تبلغ منه اللحم،
وبها تحطم رمحه، وانكسر نصفين،
بقى **بدرو برمودث** صلبا، لم يكن فى حاجة بعد إلى حراك،
إذا تلقى طعنة رد عليها باثنتين،
حطم له قاعدة شعاره، فتناثرت على الأرض،
ظل ينقله من جانب إلى جانب، دون أن يمنعه سبب،
ثم ثبت رمحه فى صدره، قريبا من القلب،
كان درع **فرناندو** مثلثا، وهذا ما أنقذه،
مزقت الطعنة اثنين منهما، وقاوم الثالث،
غير أن العباءة والقميص، وما تحتهما من ملابس،
من شدة الطعنة غاصت كلها فى اللحم،
ومن ثمه تدفق الدم حارّاً غزيراً،
وتمزقت أحزمة فرسه، لم يبق منها واحد سليما،
ثم تهاوى الفرس، فوقع على ذيله، واستقر فى الأرض،
وظن كلّ الناس أن طعنة الموت أصابت الكونت،
ترك الرمح معلقا فيه، ثم انقض عليه بالسيف،
فلم يكد **فرنان جنثالث** يرى «تيثون» حتى تعرّف عليه،

ودون انتظار لطعنة منه صاح عاليا : « أنا مهزوم ».
فأمضى القضاة ما قال، وتخلى **بير برمودث** عنه.

١٥١

مرتين أنتولينيث يهزم دييجو

دون **مرتين** و **دييجو جنثالث** تواجها بالرماح،
كانت طعناتها قوية، حتى تكسرت النصال على النصال،
فاستلّ **مرتين أنتولينيث** سيفه،
فغطى بريقه كل الحلقة، كان صافيا نظيفا ساطعا،
وفى هجمة واحدة طعن أمير كاريون طعنة نافذة،
فأطاح بخوذته من فوق رأسه فى قوة،
قطع رباطها فى ضربة واحدة،
فكشف غطاء الرأس، وبلغ حتى الكوفية،
وألقى بهما كليهما أرضا، الكوفية والغطاء،
جزّ شعر رأسه، وبلغ منه عمق اللحم،
أشياء كثيرة تناثرت فى الحلقة، وبقى له بعضها،
عندما طعنه بحد « كولادا » البتار،
أحس الكونت **دييجو جنثالث** أنه لن ينجو بحياته !
فشد شكيمة الفرس ليعود من أمام،
شاهرا سيفه فى يده، ولكنه لم يجرؤ على الطعان،
فتلقاه **مرتين أنتولينيث** بسيفه،
ثم أطبق عليه بطعنة جاءت عالية فلم يبلغه،

حينئذ صاح الكونت **دييجو** عاليا، بصوت مرتفع :
« أنقذنى ياإلهى المجيد، ياسيِّدى.. احمنى من هذا السيف ! »
أطلق العنان لفرسه، ناجيا بنفسه من « كولادا »،
تجاوز الخط المحدد له، وبقى **مرتين** وحده فى الحلبة،
فناداه الملك : « تعال عندى، إلَىَّ بلا تأخير،
نضالك فى الحلبة، يجعل منك المنتصر الوحيد ».
ووافق القضاة على أن الملك قال الحقيقة.

١٥٢

مونيو جستيوث يهزم أسور جنثالث - والد الأميرين يعلن انتهاء النزال - أتباع السيد يعودون حذرين إلى بلنسية - فرحة السيد - الزواج الثانى لبنتى السيد - الشاعر يختم ملحمته

انتصر الاثنان، والآن أحدثكم عن **مونيو جستيوث**،
كيف واجه **أسور جنثالث** فى هذا اللقاء،
ضربات قوية تتساقط على شعاريهما،
أسور جنثالث رجل قوى وشجاع،
وجّه طعنته إلى الشعار الذى يحتضنه دون **مونيو جوستيوث**،
صده الدرع الذى يرتديه وراء الشعار،
فراح يطعن برمحه فى الهواء، دون أن يبلغ من جسمه شيئاً،
وجاء الدور على **مونيو جوستيوث** ليوجه طعنته.
اختار لها الوسط مكانا، فتمزق معها الشعار،
لم يستطع **أسور** أن يتجنبها وقد تراجع الدرع أمامها،

أصابه فى اللحم الحى، ولكن بعيداً عن القلب،
ووالى طعنه بالرمح وبرأس رايته،
وأنفذ فيه رمحا، جرحه من الجانب الآخر،
ثم وجه إليه طعنه قاصمة، هزّته فوق سرجه،
وعندما حاول أن ينتزع منه الرمح كان مستلقيا على الأرض،
وأصبح الرمح، والسيف، والراية، حمراء تسبح فى الدم.
واعتقد الناس جميعاً أنها طعنة الموت،
ثبّت **مونيو** رمحه، واتجه إليه جثة على الأرض،
فصاح **جنثالو أنسورث**: «لاتمسّه بحق الله!
إنه مهزوم فى الحلبة، لقد انتهى كل شىء!».
فردّ القضاة: «لقد سمعنا جميعا ماتقول».
أمر الملك **ألفونسو** بإخلاء الحلبة،
أخذ لنفسه الأسلحة التى تُركت عليها،
رحل اتباع القنبيطور وهم فى ذروة الشرف،
لقد انتصروا فى المبارزة، شكرا للخالق!
وعم الحزن والأسى كل أراضى كاريون،
وأمر الملك بأن يرحل اتباع السِّيد ليلا،
حماية لهم من الأنتقام، وزيادة فى الأمن،
كانوا عقلاء، فواصلوا السير نهارا بليل،
وهاهم أخيرا فى بلنسية مع **السِّيد القنبيطور**،
لقد خلفوا وراءهم أمراء كاريون يتجرعون كأس الذل،
أدوا الواجب الذى كلفهم به سَيدهم،

يالفرحة السيِّد القنبيطور بهم!
بينما أصبح أمراء كاريون محط الاحتقار الشديد.
مَن يهن زوجه، ثم يتخلى عنها،
ينته به الأمر إلى الإهانة أو ماهو شر منها،
ولكن، فلندع حكايات أميرىْ كاريون،
وقد أصبحا موضع المثل فيما نالا من عقاب،
من الخير أن نتحدث الآن عمن وُلد فى لحظة سعيدة،
عمت المهرجانات الكبيرة كل بلنسية العظيمة،
فقد عاد أتباع سِيدى منتصرين وبشرف،
وداعب **رُوى دياث** لحيته وهو سيدها:
«شكراً لملك السماء. لقد ثأرتُ لشرف ابنتىّ.
لم تعد مصدر همّ لنا أراضى كاريون
ومهما يكن من شىء، أستطيع أن أزوجهن الآن دون خجل،
أدى مهمتهم رسل أميرىْ نبرة وأرجون،
ثم اجتمعوا مع دون **ألفونسو** ملك ليون،
وأقيمت احتفالات عظيمة لزواج دونيا إلبيرا ودنيا سول،
وإذا كان الزواج الأول عظيماً فالثانى أعظم منه،
وشرفت به الأسرة أكثر مما شرفت بسابقه،
انظر، كيف يزداد مع الأيام شرفاً مَن ولد فى لحظة سعيدة:
أصبحت بنتاه سيدتى نبّرة وأرجون،
ومن نسلهما ينحدر ملوك اسبانيا اليوم،
وكلهم ازدادوا شرفاً بمن فى لحظة سعيدة جاء إلى الحياة،

لقد ترك سِيدى، سيّد بلنسية، هذا العالم،
أيام عيد الفصح، غفر له المسيح !
وغفر لنا جميعاً مخطئين وصالحين،
تلك هى قصة سيدى القنبيطور،
وعند هذا الحد، نكون قد أتينا عليها، بلغنا نهايتها.

● ● ●

لقد انتهت القصيدة،
فهبونى شيئاً من النبيذ،
فإذا لم يكن عندكم فبعض الدنانير،
أو شيئاً من الملابس تتركونه هناك،
وما أجمل أن تعطونى الملابس مع المال والنبيذ.

المعجم الجغرافى

حاولنا فى السطور القليلة الآتية أن نعطى تحديداً موجزاً لبعض الأسماء الجغرافية التى مرّت عبر الملحمة، وجلّها أسماء لقرى صغيرة، بعضها تلاشى فلم يعد له وجود، وبقى البعض الآخر، بينما ازدهر القليل منها وأصبح مدناً كبيرة، ولقد عرّفنا بما يجهله القارئ العربى، دون أن نعرض للمدن الأندلسية ذات الشهرة المستفيضة، مثل طليطلة وقرطبة وغرناطة وبلنسية وإشبيلية، وغيرها، ويعرفها كل من له إلمام ولو قليلا بالتاريخ، وجرينا فى ترتيبها على النحو الأبجدى تسهيلا للإفادة منها :

- أتيكا Ateca ، قرية على نهر شلون، على بعد ١١ كيلو متراً من الحامة.
- أربو خويلو Arbujuelo ، واد على نهر شلون.
- أريثا Ariza ، قرية على نهر شلون فى مقاطعة سرقسطة.
- اسبيناث دى كان Espinaz de Can ، مكان مجهول اليوم، ويظن أنه كان يقع فى مقاطعة برغش، جنوب مدينة سيلوس Silos .
- أنكيتا Anquita، هى اليوم مدينة Anguita ، وتقع على نهر تاخونيا، شرق سيجوينثا.
- **ألوقات Alucat ، هى اليوم أُلكاوت دل رى Olocaut del Rey ، وعندها تنتهى الحدود الغربية، لمقاطعة قسطليون. وتقع على بعد ٥٠ ك.م من مدينة منت ريال.**

● أونده Onda ، قرية جنوب قسطليون مجاورة لمقاطعة بلنسية.

● بريانا Burriana ، قرية جنوب قسطليون، مجاورة لمقاطعة بلنسية،

● بنى كادىّ Benicadell ، وتكتب أحياناً Pena Cadiel أو Pennacatel ، وتقع على الحدود التى تفصل بين مقاطعتى بلنسية وألقنت.

● بويو El Poyo، قرية تقع على الضفة اليسرى لنهر شيلوكا Jiloca فى الطريق إلى قلعة أيوب، ويحكمها جبل مرتفع، وتبعد ١٠ ك.م من قرية منت ريال، وتقع فى مقاطعة سرقسطة، وكان يطلق عليها قديماً بويو سيدى، نسبة إلى السيد.

● بوبيركا Bubierca قرية على نهر شلون، على بعد خمسة كيلو مترات من الحامة.

● تارانث Taranz ، هو السهل الذى يفرق بين نهرى تاخونيا وشلون، فى الحدود بين مقاطعتى وادى الحجارة وسورية.

● تيرير Terer قرية على نهر شلون، على بعد ٧ كيلومترات من أتيكا.

● تبير Tever ، واد بين نهرى مونروى وتستبينا، فى الحدود الفاصلة بين مقاطعتى طركونة وقسطليون.

● التيرويل Teruel : إحدى مدن إسبانيا الحديثة الكبيرة، فى الجانب الشرقى منها.

● ثتينا Cetina ، قرية على نهر شلون فى مقاطعة سرقسطة.

● ثيلا Cella ، قديماً Celha أو Celfa ، قرية على بعد ثلاثة أميال من التيرويل، وتضم عددا من بقايا الآثار الرومانية.

● جبالة Gebolla ، وتسمى اليوم بـويج Puig وهـى على ١٨ ك.م شمـالى بلنسية.

● الجبيلة Alcobiela ، وفى الإسبانية الحديثة Alcubilla ، مدينة تقـع شرق مدينة سان استبان دى غرماج، وكانت تنتهى عندها حدود مملكة قشتالة خـلال أيام السيد.

● الحامة Alhama ، قرية على نهر شلون على بعـد ٦ كيلـو مـترات مـن ثتينا.

● دروقة Daroca ، قرية فى مقاطعة سرقسطة.

● ساهاجون Sahagon ، فى الوثائق القديمة San Fagunt ، تقـع على بعـد ٣٥ ك. م غربى كاريون وأشهر معالمها دير كان قائما أيام السيد، ومـازال حـتى اليوم.

● سيرا دى ميدس Sierra de Miedes ، سلسلة من الجبـال تفصـل نهـر تاجو عن نهر دويره.

● الشارقة Jerica ، قرية جنوب قسطليون، مجاورة لمقاطعة بلنسية.

● شقورب Segoreb ، مدينة فى مقاطعة قسطليون.

● شنتمرية Santa Maria ، تسمى اليوم الـبراثين، تحـوير إسـبانى لـلاسم العربى بنى رزين، وهى فى مقاطعة التيرويل، ويسميها المؤرخون العرب شنتمرية الشرق، تمييزاً لها عن مدن أخرى تحمل هذا الاسم؛ أو مضافة إلى بـنى رزيـن أنفسنهم، وحكموا فيها زمناً طويلا.

● فرونشالس Fronchales ، قرية فى مقاطعة تيرويل وتقع على بعد ٢٥ ك.م من شنتمرية الشرق.

● فيجرويلا Figueruela مكان مجهول.

● قسطلون Castejon ، وتسمى اليوم قسطلون دى هنارس، وتقع على بعد ٤٠ ك.م من سلسلة جبال مييدس، على الضفة اليسرى لنهر هنارس.

● القصير Alcocer ، مكان مجهول اليوم، ويجب أن يكون موقعه على نهر شلون. بين أتيكا وقلعة أيوب.

● القلعة Alcala ، قرية صغيرة على نهر هنارس.

● قلعة أيوب Calatauth ، فى الإسبانية الحديثة Caltayud ، مدينة قائمة حتى اليوم، على بعد ستة كيلو مترات من ترتر.

● قليرة Cullera عند مصب نهر شُكَر، يحيط بها البحر، على بعد ٣٠ ك.م من شاطبة، و٥٥ ك. من دانية.

● كوارتو El Cuarto ، مكان على الطريق الذى يربط بلنسية بقشتالة.

● لوثون Loozn ، قرية فى مقاطعة وادى الحجارة، بين مدينة سالم ومولينا.

● مربيطر Murviedro ، مدينة على بعد ٢٩ ك.م شمالى بلنسية، فى الطريق إلى قسطليون، واشتهرت فى القديم بمسرحها الرومانى، ومايزال باقياً، وهى من مراكز صناعة الحديد فى إسبانيا اليوم.

● المنارة Almanara ، قرية جنوب قسطليون مجاورة لمقاطعةبلنسية.

● منت ريال Monreal أو Monnt Real ، قرية على نهر شيلوكا.

● مولينا Molina ، قرية فى مقاطعة سرقسطة.

● نافاس دى بالوس Neves de palos ، فى الإسبانية الحديثة Navapalos ، قرية تقع على بعد ثمانية كيلومترات من الجبيلة، على الضفة الأخرى من نهر دويره.

● هوث Foz ، أو Hoz ربما كانت أرضاً عند منحنى شلون، وهى الآن مكان مهجور

● هيتا Hita قرية تقع على نهر هنارس.

● وادى الحجارة Guadaljara ، قرية تقع على نهر هنارس، وهى الآن مدينة كبيرة تقع قريباً من مدريد العاصمة.

المصادر والمراجع

١ - فى اللغة العربية

ابن الأبار : الحلة السيراء، القاهرة ١٩٦٣.

ابن أبى ذرع : الأنيس المطرب، أبسالة ١٨٤٣

ابن بسام : الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة، طبعة إحسان عباس.

ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس، مدريد ١٩٢٦.

ابن عبد ربه : العقد الفريد، القاهرة، طبعة سعيد العريان.

ابن عذارى : البيان المغرب فى أخبار المغرب، طبعة ليدن.

ابن الكردبوس : تاريخ الأندلس، فقرة منه، نشرها المعهد المصرى فى مدريد، ١٩٧١.

المراكشى : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان، القاهرة.

المقرى : نفح الطيب، طبعة إحسان عباس.

بروفنسال : الإسلام فى المغرب والأندلس، ترجمة الدكتور السيد عبد العزيز.

محمد عبد الله عنان : دولة الإسلام فى الأندلس، من الفتح إلى نهاية مملكة غرناطة.

٢ - فى اللغات الأجنبية

● فى اللغة الإسبانية :

Amador de los Rios, J.:
Historia critica de la Literatura espanola.

Americo castro:
Hacia Cervantes.
De la edad conflictiva.
La Realided historica de Espana.

Asin palacios, M.:
La escatologia musulmana en la Divina Comedia

Gonzalez Palencia, A.,:
Historia de Ia Espana musulmana.
Literatura Arabigo – Espanola.

Maranon, G.:
Tiempo viejo y tiempo nuevo.
Vida e historia.
Raiz y dccoro de Espana.

Menéndiz y Pelayo, M.:
Origenes de la Novela.
Heterodoxos espanoles,

Menéndez Pidal, Ramon:
Estudios Literarios
Poesia arabe y Poesia europea.
Idea Imperial de Carlos V.
El idioms espanol en sus primero tiempos.
Poesia Juglaresca y Juglares.
El Cid Campeader.

Millas y Vallicrosa:
Influencia da la poesia popular hispano – musulmana en la peesia italiana.

Prieto y Vives, A.:
Los Reyes de Taifas.

Ribera y Tarrago, J.:
Disertaciones y opusculos.

Schack, A. F.:
Poesia y arte de los arabes en Espana y Sicilia.

● فى اللغة الفرنسية :

Dozy, R.:
Histoir des Musulmans d. Espgne.
Rechercehes sur l´histeire et la littérature de l´Espagne pendant le Moyen Age.

Huart, C.:
Litérature arabe.

Levi – Provencal. E.:
L'Espagne musulmane au Xe siécle. Institutions et vie Soeiale.
La Civilisation arabe en Espagno.

Pérés. H.:
La poésie andalouse en arabe classique au XIe siécle.

● فى اللغة البرتغالية :

Duarte Nunes de Leao:
Origem da lingua portuguesa.

Eidelino de Figueiredo:
Historia da litteratura portugueza.

المشروع القومى للترجمة

المشـروع القومـى للترجمـة مشـروع تنميـة ثقافيـة بالدرجـة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التى حققتها مشروعات الترجمة التى سبقته فى مصر والعالم العربى ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .

٢- التوازن بين المعارف الإنسانية فى المجالات العلمية والفنية والفكرية والإبداعية .

٣- الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .

٤- ترجمة الأصول المعرفية التى أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعى فى الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنبًا إلى جنب المنجزات الجديدة التى تضع القارئ فى القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين .

٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .

٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

المشروع القومى للترجمة

١- اللغة العليا	جون كوين	أحمد درويش
٢- الوثنية والإسلام (ط١)	ك. مادهو بانيكار	أحمد فؤاد بلبع
٣- التراث المسروق	چورج چيمس	شوقى جلال
٤- كيف تتم كتابة السيناريو	إنجا كاريتنيكوڤا	أحمد الحضرى
٥- ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	محمد علاء الدين منصور
٦- اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إڤيتش	سعد مصلوح ووفاء كامل فايد
٧- العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	يوسف الأنطكى
٨- مشعلو الحرائق	ماكس فريش	مصطفى ماهر
٩- التغيرات البيئية	أندرو. س. جودى	محمود محمد عاشور
١٠- خطاب الحكاية	چيرار چينيت	محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
١١- مختارات شعرية	ڤيسواڤا شيمبوريسكا	هناء عبد الفتاح
١٢- طريق الحرير	ديڤيد براونيستون وأيرين فرانك	أحمد محمود
١٣- ديانة الساميين	روبرتسن سميث	عبد الوهاب علوب
١٤- التحليل النفسى للأدب	چان بيلمان نويل	حسن المودن
١٥- الحركات الفنية منذ ١٩٤٥	إدوارد لوسى سميث	أشرف رفيق عفيفى
١٦- أثينة السوداء (جـ١)	مارتن برنال	بإشراف: أحمد عتمان
١٧- مختارات شعرية	فيليب لاركين	محمد مصطفى بدوى
١٨- الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	طلعت شاهين
١٩- الأعمال الشعرية الكاملة	چورچ سفيريس	نعيم عطية
٢٠- قصة العلم	ج. ج. كراوثر	يمنى طريف الخولى و بدوى عبد الفتاح
٢١- خوخة وألف خوخة وقصص أخرى	صمد بهرنجى	ماجدة العنانى
٢٢- مذكرات رحالة عن المصريين	چون أنتيس	سيد أحمد على الناصرى
٢٣- تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	سعيد توفيق
٢٤- ظلال المستقبل	باتريك بارندر	بكر عباس
٢٥- مثنوى (٦ أجزاء)	مولانا جلال الدين الرومى	إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦- دين مصر العام	محمد حسين هيكل	أحمد محمد حسين هيكل
٢٧- التنوع البشرى الخلاق	مجموعة من المؤلفين	بإشراف: جابر عصفور
٢٨- رسالة فى التسامح	چون لوك	منى أبو سنة
٢٩- الموت والوجود	چيمس ب. كارس	بدر الديب
٣٠- الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	أحمد فؤاد بلبع
٣١- مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	چان سوفاجيه - كلود كاين	عبد الستار الحلوجى وعبد الوهاب علوب
٣٢- الانقراض	ديڤيد روب	مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣- التاريخ الاقتصادى لأفريقيا الغربية	أ. ج. هوپكنز	أحمد فؤاد بلبع
٣٤- الرواية العربية	روچر آلن	حصة إبراهيم المنيف
٣٥- الأسطورة والحداثة	پول ب. ديكسون	خليل كلفت
٣٦- نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	حياة جاسم محمد

٣٧-	واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	جمال عبد الرحيم
٣٨-	نقد الحداثة	آلن تورين	أنور مغيث
٣٩-	الحسد والإغريق	بيتر والكوت	منيرة كروان
٤٠-	قصائد حب	أن سكستون	محمد عيد إبراهيم
٤١-	ما بعد المركزية الأوروبية	بيتر جران	عاطف أحمد وإبراهيم فتحى ومحمود ماجد
٤٢-	عالم ماك	بنچامين باربر	أحمد محمود
٤٣-	اللهب المزدوج	أوكتافيو پاث	المهدى أخريف
٤٤-	بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلى	مارلين تادرس
٤٥-	التراث المغدور	روبرت دينا وچون فاين	أحمد محمود
٤٦-	عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	محمود السيد على
٤٧-	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ١)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨-	حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ماهر جويجاتى
٤٩-	الإسلام فى البلقان	هـ . ت . نوريس	عبد الوهاب علوب
٥٠-	ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	محمد برادة وعثمانى الميلود ويوسف الأنطكى
٥١-	مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانويبا وخ. م. بينياليستى	محمد أبو العطا
٥٢-	العلاج النفسى التدعيمى	ب. نوڤاليس وس . روچسيفيتز وروجر بيل	لطفى فطيم وعادل دمرداش
٥٣-	الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	مرسى سعد الدين
٥٤-	المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	محسن مصيلحى
٥٥-	ما وراء العلم	چون بولكنجهوم	على يوسف على
٥٦-	الأعمال الشعرية الكاملة (جـ١)	فديريكو غرسية لوركا	محمود على مكى
٥٧-	الأعمال الشعرية الكاملة (جـ٢)	فديريكو غرسية لوركا	محمود السيد و ماهر البطوطى
٥٨-	مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	محمد أبو العطا
٥٩-	المحبرة (مسرحية)	كارلوس مونييث	السيد السيد سهيم
٦٠-	التصميم والشكل	چوهانز إيتين	صبرى محمد عبد الغنى
٦١-	موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور - سميث	بإشراف : محمد الجوهرى
٦٢-	لذّة النّص	رولان بارت	محمد خير البقاعى
٦٣-	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٢)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤-	برتراند راسل (سيرة حياة)	ألان وود	رمسيس عوض
٦٥-	فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	رمسيس عوض
٦٦-	خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧-	مختارات شعرية	فرناندو بيسوا	المهدى أخريف
٦٨-	نتاشا العجوز وقصص أخرى	ڤالنتين راسبوتين	أشرف الصباغ
٦٩-	العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
٧٠-	ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١-	السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	حسين محمود
٧٢-	السياسى العجوز	ت . س . إليوت	فؤاد مجلى
٧٣-	نقد استجابة القارئ	چين ب . تومبكنز	حسن ناظم وعلى حاكم
٧٤-	صلاح الدين والمماليك فى مصر	ل . ا . سيمينوڤا	حسن بيومى

٧٥-	فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	أحمد درويش
٧٦-	چاك لاكان وإغواء التحليل النفسى	مجموعة من المؤلفين	عبد المقصود عبد الكريم
٧٧-	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٣)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨-	العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	أحمد محمود ونورا أمين
٧٩-	شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكى	سعيد الغانمى وناصر حلاوى
٨٠-	بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	مكارم الغمرى
٨١-	الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	محمد طارق الشرقاوى
٨٢-	مسرح ميجيل	ميجيل دى أونامونو	محمود السيد على
٨٣-	مختارات شعرية	غوتفريد بن	خالد المعالى
٨٤-	موسوعة الأدب والنقد (جـ١)	مجموعة من المؤلفين	عبد الحميد شيحة
٨٥-	منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكى أقطاى	عبد الرازق بركات
٨٦-	طول الليل (رواية)	جمال مير صادقى	أحمد فتحى يوسف شتا
٨٧-	نون والقلم (رواية)	جلال آل أحمد	ماجدة العنانى
٨٨-	الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	إبراهيم الدسوقى شتا
٨٩-	الطريق الثالث	أنتونى جيدنز	أحمد زايد ومحمد محيى الدين
٩٠-	وسم السيف وقصص أخرى	بورخيس وآخرون	محمد إبراهيم مبروك
٩١-	المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربرا لاسوتسكا - بشونباك	محمد هناء عبد الفتاح
٩٢-	أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكى المعاصر	كارلوس ميجيل	نادية جمال الدين
٩٣-	محدثات العولمة	مايك فيذرستون وسكوت لاش	عبد الوهاب علوب
٩٤-	مسرحيتا الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	فوزية العشماوى
٩٥-	مختارات من المسرح الإسبانى	أنطونيو بويرو باييخو	سرى محمد عبد اللطيف
٩٦-	ثلاث زنبقات ووردة وقصص أخرى	نخبة	إدوار الخراط
٩٧-	هوية فرنسا (مج١)	فرنان برودل	بشير السباعى
٩٨-	الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٩٩-	تاريخ السينما العالمية (١٨٩٥-١٩٨٠)	ديفيد روبنسون	إبراهيم قنديل
١٠٠-	مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	إبراهيم فتحى
١٠١-	النص الروائى: تقنيات ومناهج	بيرنار فاليط	رشيد بنحدو
١٠٢-	السياسة والتسامح	عبد الكبير الخطيبى	عز الدين الكتانى الإدريسى
١٠٣-	قبر ابن عربى يليه آياء (شعر)	عبد الوهاب المؤدب	محمد بنيس
١٠٤-	أوبرا ماهوجنى (مسرحية)	برتولت بريشت	عبد الغفار مكاوى
١٠٥-	مدخل إلى النص الجامع	چيرارچينيت	عبد العزيز شبيل
١٠٦-	الأدب الأندلسى	ماريا خيسوس روبييرامتى	أشرف على دعدور
١٠٧-	صورة الفدائى فى الشعر الأمريكى اللاتينى المعاصر	نخبة من الشعراء	محمد عبد الله الجعيدى
١٠٨-	ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسى	مجموعة من المؤلفين	محمود على مكى
١٠٩-	حروب المياه	چون بولوك وعادل درويش	هاشم أحمد محمد
١١٠-	النساء فى العالم النامى	حسنة بيجوم	منى قطان
١١١-	المرأة والجريمة	فرانسس هيدسون	ريهام حسين إبراهيم
١١٢-	الاحتجاج الهادئ	أرلين علوى ماكليود	إكرام يوسف

١١٣-	راية التمرد	سادى پلانت	أحمد حسان
١١٤-	مسرحيتا حصاد كونجى وسكان المستنقع	وول شوينكا	نسيم مجلى
١١٥-	غرفة تخص المرء وحده	فرچينيا وولف	سمية رمضان
١١٦-	امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	نهاد أحمد سالم
١١٧-	المرأة والجنوسة فى الإسلام	ليلى أحمد	منى إبراهيم وهالة كمال
١١٨-	النهضة النسائية فى مصر	بث بارون	لميس النقاش
١١٩-	النساء والأسرة وقوانين الطلاق فى التاريخ الإسلامى	أميرة الأزهرى سنبل	بإشراف: رءوف عباس
١٢٠-	الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	مجموعة من المترجمين
١٢١-	الدليل الصغير فى كتابة المرأة العربية	فاطمة موسى	محمد الجندى وإيزابيل كمال
١٢٢-	نظام العبودية القديم والنموذج المثالى للإنسان	چوزيف فوجت	منيرة كروان
١٢٣-	الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	أنيئل ألكسندرو فنادولينا	أنور محمد إبراهيم
١٢٤-	الفجر الكاذب: أوهام الرأسمالية العالمية	چون جراى	أحمد فؤاد بلبع
١٢٥-	التحليل الموسيقى	سيدرك ثورپ ديڤى	سمحة الخولى
١٢٦-	فعل القراءة	ڤولڤانج إيسر	عبد الوهاب علوب
١٢٧-	إرهاب (مسرحية)	صفاء فتحى	بشير السباعى
١٢٨-	الأدب المقارن	سوزان باسنيت	أميرة حسن نويرة
١٢٩-	الرواية الإسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروته	محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠-	الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندر فرانك	شوقى جلال
١٣١-	مصر القديمة: التاريخ الاجتماعى	مجموعة من المؤلفين	لويس بقطر
١٣٢-	ثقافة العولمة	مايك فيذرستون	عبد الوهاب علوب
١٣٣-	الخوف من المرايا (رواية)	طارق على	طلعت الشايب
١٣٤-	تشريح حضارة	بارى ج. كيمب	أحمد محمود
١٣٥-	المختار من نقد ت. س. إليوت	ت. س. إليوت	ماهر شفيق فريد
١٣٦-	فلاحو الباشا	كينيث كونو	سحر توفيق
١٣٧-	مذكرات ضابط فى الحملة الفرنسية على مصر	چوزيف مارى مواريه	كاميليا صبحى
١٣٨-	عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	أندريه جلوكسمان	وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩-	پارسيڤال (مسرحية)	ريتشارد فاچنر	مصطفى ماهر
١٤٠-	حيث تلتقى الأنهار	هربرت ميسن	أمل الجبورى
١٤١-	اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	نعيم عطية
١٤٢-	الإسكندرية : تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	حسن بيومى
١٤٣-	قضايا التنظير فى البحث الاجتماعى	ديرك لايدر	عدلى السمرى
١٤٤-	صاحبة اللوكاندة (مسرحية)	كارلو جولدونى	سلامة محمد سليمان
١٤٥-	موت أرتيميو كروث (رواية)	كارلوس فوينتس	أحمد حسان
١٤٦-	الورقة الحمراء (رواية)	ميجيل دى ليبس	على عبدالرءوف البمبى
١٤٧-	مسرحيتان	تانكريد دورست	عبدالغفار مكاوى
١٤٨-	القصة القصيرة: النظرية والتقنية	إنريكى أندرسون إمبرت	على إبراهيم منوفى
١٤٩-	النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	أسامة إسبر
١٥٠-	التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليتمان	منيرة كروان

١٥١- هوية فرنسا (مج ٢ ، جـ١)	فرنان برودل	بشير السباعى
١٥٢- عدالة الهنود وقصص أخرى	مجموعة من المؤلفين	محمد محمد الخطابى
١٥٣- غرام الفراعنة	فيولين فانويك	فاطمة عبدالله محمود
١٥٤- مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	خليل كلفت
١٥٥- الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة من الشعراء	أحمد مرسى
١٥٦- المدارس الجمالية الكبرى	جى أنبال وآلان وأوديت ڤيرمو	مى التلمسانى
١٥٧- خسرو وشيرين	النظامى الكنجوى	عبدالعزيز بقوش
١٥٨- هوية فرنسا (مج ٢ ، جـ٢)	فرنان برودل	بشير السباعى
١٥٩- الأيديولوچية	ديڤيد هوكس	إبراهيم فتحى
١٦٠- آلة الطبيعة	پول إيرليش	حسين بيومى
١٦١- مسرحيتان من المسرح الإسبانى	أليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	زيدان عبدالحليم زيدان
١٦٢- تاريخ الكنيسة	يوحنا الآسيوى	صلاح عبدالعزيز محجوب
١٦٣- موسوعة علم الاجتماع (جـ ١)	جوردون مارشال	بإشراف: محمد الجوهرى
١٦٤- شامبوليون (حياة من نور)	چان لاكوتير	نبيل سعد
١٦٥- حكايات الثعلب (قصص أطفال)	أ. ن. أفاناسيفا	سهير المصادفة
١٦٦- العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل	يشعياهو ليڤمان	محمد محمود أبوغدير
١٦٧- فى عالم طاغور	رابندرنات طاغور	شكرى محمد عياد
١٦٨- دراسات فى الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	شكرى محمد عياد
١٦٩- إبداعات أدبية	مجموعة من المؤلفين	شكرى محمد عياد
١٧٠- الطريق (رواية)	ميجيل دليبيس	بسام ياسين رشيد
١٧١- وضع حد (رواية)	فرانك بيجو	هدى حسين
١٧٢- حجر الشمس (شعر)	نخبة	محمد محمد الخطابى
١٧٣- معنى الجمال	ولتر ت. ستيس	إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤- صناعة الثقافة السوداء	إيليس كاشمور	أحمد محمود
١٧٥- التليفزيون فى الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦- نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	جلال البنا
١٧٧- أنطون تشيخوف	هنرى ترويا	حصة إبراهيم المنيف
١٧٨- مختارات من الشعر اليونانى الحديث	نخبة من الشعراء	محمد حمدى إبراهيم
١٧٩- حكايات أيسوب (قصص أطفال)	أيسوب	إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠- قصة جاويد (رواية)	إسماعيل فصيح	سليم عبد الأمير حمدان
١٨١- النقد الأدبى الأمريكى من الثلاثينيات إلى الثمانينيات	فنسنت ب. ليتش	محمد يحيى
١٨٢- العنف والنبوءة (شعر)	و.ب. ييتس	ياسين طه حافظ
١٨٣- چان كوكتو على شاشة السينما	رينيه جيلسون	فتحى العشرى
١٨٤- القاهرة: حالمة لا تنام	هانز إيندورفر	دسوقى سعيد
١٨٥- أسفار العهد القديم فى التاريخ	توماس تومسن	عبد الوهاب علوب
١٨٦- معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل إنوود	إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧- الأرضة (رواية)	بُزرج علوى	محمد علاء الدين منصور
١٨٨- موت الأدب	ألڤين كرنان	بدر الديب

١٨٩-	العمى والبصيرة: مقالات فى بلاغة النقد المعاصر	پول دى مان	سعيد الغانمى
١٩٠-	محاورات كونفوشيوس	كونفوشيوس	محسن سيد فرجانى
١٩١-	الكلام رأسمال وقصص أخرى	الحاج أبو بكر إمام وآخرون	مصطفى حجازى السيد
١٩٢-	سياحت نامه إبراهيم بك (جـ١)	زين العابدين المراغى	محمود علاوى
١٩٣-	عامل المنجم (رواية)	پيتر أبراهامز	محمد عبد الواحد محمد
١٩٤-	مختارات من النقد الأنجلو-أمريكى الحديث	مجموعة من النقاد	ماهر شفيق فريد
١٩٥-	شتاء ٨٤ (رواية)	إسماعيل فصيح	محمد علاء الدين منصور
١٩٦-	المهلة الأخيرة (رواية)	ڤالنتين راسپوتين	أشرف الصباغ
١٩٧-	سيرة الفاروق	شمس العلماء شبلى النعمانى	جلال السعيد الحفناوى
١٩٨-	الاتصال الجماهيرى	إدوين إمرى وآخرون	إبراهيم سلامة إبراهيم
١٩٩-	تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية	يعقوب لانداو	جمال أحمد الرفاعى وأحمد عبد اللطيف حماد
٢٠٠-	ضحايا التنمية: المقاومة والبدائل	چيرمى سيبروك	فخرى لبيب
٢٠١-	الجانب الدينى للفلسفة	جوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٢٠٢-	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٤)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٠٣-	الشعر والشاعرية	ألطاف حسين حالى	جلال السعيد الحفناوى
٢٠٤-	تاريخ نقد العهد القديم	زالمان شازار	أحمد هويدى
٢٠٥-	الجينات والشعوب واللغات	لويجى لوقا كافاللى- سفورزا	أحمد مستجير
٢٠٦-	الهيولية تصنع علماً جديداً	چيمس جلايك	على يوسف على
٢٠٧-	ليل أفريقى (رواية)	رامون خوتاسندير	محمد أبو العطا
٢٠٨-	شخصية العربى فى المسرح الإسرائيلى	دان أوريان	محمد أحمد صالح
٢٠٩-	السرد والمسرح	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٢١٠-	مثنويات حكيم سنائى (شعر)	سنائى الغزنوى	يوسف عبد الفتاح فرج
٢١١-	فردينان دوسوسير	جوناثان كلر	محمود حمدى عبد الغنى
٢١٢-	قصص الأمير مرزبان على لسان الحيوان	مرزبان بن رستم بن شروين	يوسف عبدالفتاح فرج
٢١٣-	مصر منذ قدوم نابليون حتى رحيل عبدالناصر	ريمون فلاور	سيد أحمد على الناصرى
٢١٤-	قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع	أنتونى جيدنز	محمد محيى الدين
٢١٥-	سياحت نامه إبراهيم بك (جـ٢)	زين العابدين المراغى	محمود علاوى
٢١٦-	جوانب أخرى من حياتهم	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٢١٧-	مسرحيتان طليعيتان	صمويل بيكيت وهارولد بينتر	نادية البنهاوى
٢١٨-	لعبة الحجلة (رواية)	خوليو كورتاثار	على إبراهيم منوفى
٢١٩-	بقايا اليوم (رواية)	كازو إيشجورو	طلعت الشايب
٢٢٠-	الهيولية فى الكون	بارى پاركر	على يوسف على
٢٢١-	شعرية كفافى	جريجورى جوزدانيس	رفعت سلام
٢٢٢-	فرانز كافكا	رونالد جراى	نسيم مجلى
٢٢٣-	العلم فى مجتمع حر	پاول فيرابند	السيد محمد نفادى
٢٢٤-	دمار يوغسلافيا	برانكا ماجاس	منى عبدالظاهر إبراهيم
٢٢٥-	حكاية غريق (رواية)	جابرييل جارثيا ماركيث	السيد عبدالظاهر السيد
٢٢٦-	أرض المساء وقصائد أخرى	ديڤيد هربت لورانس	طاهر محمد على البربرى

٢٢٧- المسرح الإسبانى فى القرن السابع عشر	خوسيه ماريا ديث بوركى	السيد عبدالظاهر عبدالله
٢٢٨- علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	جانيت وولف	مارى تيريز عبدالمسيح وخالد حسن
٢٢٩- مأزق البطل الوحيد	نورمان كيجان	أمير إبراهيم العمرى
٢٣٠- عن الذباب والفئران والبشر	فرانسواز جاكوب	مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣١- الدرافيل أو الجيل الجديد (مسرحية)	خايمي سالوم بيدال	جمال عبدالرحمن
٢٣٢- ما بعد المعلومات	توم ستونير	مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣٣- فكرة الاضمحلال فى التاريخ الغربى	آرثر هيرمان	طلعت الشايب
٢٣٤- الإسلام فى السودان	ج. سبنسر تريمنجهام	فؤاد محمد عكود
٢٣٥- ديوان شمس تبريزى (جـ١)	مولانا جلال الدين الرومى	إبراهيم الدسوقى شتا
٢٣٦- الولاية	ميتشيل شودكيفيتش	أحمد الطيب
٢٣٧- مصر أرض الوادى	روبين فيدين	عنايات حسين طلعت
٢٣٨- العولمة والتحرير	تقرير لمنظمة الأنكتاد	ياسر محمد جادالله وعربى مدبولى أحمد
٢٣٩- العربى فى الأدب الإسرائيلى	جيلا رامراز - رايوخ	نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق
٢٤٠- الإسلام والغرب وإمكانية الحوار	كاى حافظ	صلاح محجوب إدريس
٢٤١- فى انتظار البرابرة (رواية)	ج . م. كوتزى	ابتسام عبدالله
٢٤٢- سبعة أنماط من الغموض	وليام إمبسون	صبرى محمد حسن
٢٤٣- تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج١)	ليفى بروفنسال	بإشراف: صلاح فضل
٢٤٤- الغليان (رواية)	لاورا إسكيبيل	نادية جمال الدين محمد
٢٤٥- نساء مقاتلات	إليزابيتا أديس وآخرون	توفيق على منصور
٢٤٦- مختارات قصصية	جابرييل جارثيا ماركيث	على إبراهيم منوفى
٢٤٧- الثقافة الجماهيرية والحداثة فى مصر	والتر أرمبرست	محمد طارق الشرقاوى
٢٤٨- حقول عدن الخضراء (مسرحية)	أنطونيو جالا	عبداللطيف عبدالحليم
٢٤٩- لغة التمزق (شعر)	دراجو شتامبوك	رفعت سلام
٢٥٠- علم اجتماع العلوم	دومنيك فينك	ماجدة محسن أباظة
٢٥١- موسوعة علم الاجتماع (جـ٢)	جوردون مارشال	بإشراف: محمد الجوهرى
٢٥٢- رائدات الحركة النسوية المصرية	مارجو بدران	على بدران
٢٥٣- تاريخ مصر الفاطمية	ل. أ. سيمينوڤا	حسن بيومى
٢٥٤- أقدم لك: الفلسفة	ديڤ روبنسون وجودى جروفز	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٥- أقدم لك: أفلاطون	ديف روبنسون وجودى جروفز	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٦- أقدم لك: ديكارت	ديف روبنسون وكريس جارات	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٧- تاريخ الفلسفة الحديثة	وليم كلى رايت	محمود سيد أحمد
٢٥٨- الغجر	سير أنجوس فريزر	عُبادة كُحيلة
٢٥٩- مختارات من الشعر الأرمنى عبر العصور	نخبة	فاروجان كازانجيان
٢٦٠- موسوعة علم الاجتماع (جـ٣)	جوردون مارشال	بإشراف: محمد الجوهرى
٢٦١- رحلة فى فكر زكى نجيب محمود	زكى نجيب محمود	إمام عبد الفتاح إمام
٢٦٢- مدينة المعجزات (رواية)	إدواردو مندوثا	محمد أبو العطا
٢٦٣- الكشف عن حافة الزمن	جون جريين	على يوسف على
٢٦٤- إبداعات شعرية مترجمة	هوراس وشلى	لويس عوض

٢٦٥- روايات مترجمة	أوسكار وايلد وصمويل جونسون	لويس عوض
٢٦٦- مدير المدرسة (رواية)	جلال آل أحمد	عادل عبدالمنعم على
٢٦٧- فن الرواية	ميلان كونديرا	بدر الدين عرودكى
٢٦٨- ديوان شمس تبريزى (جـ٢)	مولانا جلال الدين الرومى	إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦٩- وسط الجزيرة العربية وشرقها (جـ١)	وليم چيفور بالجريف	صبرى محمد حسن
٢٧٠- وسط الجزير العربية وشرقها (جـ٢)	وليم چيفور بالجريف	صبرى محمد حسن
٢٧١- الحضارة الغربية: الفكرة والتاريخ	توماس سى. باترسون	شوقى جلال
٢٧٢- الأديرة الأثرية فى مصر	سى. سى. والترز	إبراهيم سلامة إبراهيم
٢٧٣- الأصول الاجتماعية والثقافية لحركة عرابى فى مصر	چوان كول	عنان الشهاوى
٢٧٤- السيدة باربارا (رواية)	رومولو جاييجوس	محمود على مكى
٢٧٥- ت. س. إليوت شاعراً وناقداً وكاتباً مسرحياً	مجموعة من النقاد	ماهر شفيق فريد
٢٧٦- فنون السينما	مجموعة من المؤلفين	عبدالقادر التلمسانى
٢٧٧- الچينات والصراع من أجل الحياة	براين فورد	أحمد فوزى
٢٧٨- البدايات	إسحاق عظيموف	ظريف عبدالله
٢٧٩- الحرب الباردة الثقافية	ف.س. سوندرز	طلعت الشايب
٢٨٠- الأم والنصيب وقصص أخرى	بريم شند وآخرون	سمير عبدالحميد إبراهيم
٢٨١- الفردوس الأعلى (رواية)	عبد الحليم شرر	جلال الحفناوى
٢٨٢- طبيعة العلم غير الطبيعية	لويس وولبرت	سمير حنا صادق
٢٨٣- السهل يحترق وقصص أخرى	خوان رولفو	على عبد الرءوف البمبى
٢٨٤- هرقل مجنوناً (مسرحية)	يوريبيديس	أحمد عتمان
٢٨٥- رحلة خواجة حسن نظامى الدهلوى	حسن نظامى الدهلوى	سمير عبد الحميد إبراهيم
٢٨٦- سياحت نامه إبراهيم بك (جـ٣)	زين العابدين المراغى	محمود علاوى
٢٨٧- الثقافة والعولمة والنظام العالمى	أنتونى كنج	محمد يحيى وآخرون
٢٨٨- الفن الروائى	ديڤيد لودج	ماهر البطوطى
٢٨٩- ديوان منوچهرى الدامغانى	أبو نجم أحمد بن قوص	محمد نور الدين عبدالمنعم
٢٩٠- علم اللغة والترجمة	چورچ مونان	أحمد زكريا إبراهيم
٢٩١- تاريخ المسرح الإسبانى فى القرن العشرين (جـ١)	فرانشسكو رويس رامون	السيد عبد الظاهر
٢٩٢- تاريخ المسرح الإسبانى فى القرن العشرين (جـ٢)	فرانشسكو رويس رامون	السيد عبد الظاهر
٢٩٣- مقدمة للأدب العربى	روچر آلن	مجدى توفيق وآخرون
٢٩٤- فن الشعر	بوالو	رجاء ياقوت
٢٩٥- سلطان الأسطورة	چوزيف كامبل وبيل موريز	بدر الديب
٢٩٦- مكبث (مسرحية)	وليم شكسبير	محمد مصطفى بدوى
٢٩٧- فن النحو بين اليونانية والسريانية	ديونيسيوس ثراكس ويوسف الأهوازى	ماجدة محمد أنور
٢٩٨- مأساة العبيد وقصص أخرى	نخبة	مصطفى حجازى السيد
٢٩٩- ثورة فى التكنولوجيا الحيوية	چين ماركس	هاشم أحمد محمد
٣٠٠- أسطورة بروميثيوس فى الأدبين الإنجليزى والفرنسى (مج١)	لويس عوض	جمال الجزيرى وبهاء چاهين وإيزابيل كمال
٣٠١- أسطورة بروميثيوس فى الأدبين الإنجليزى والفرنسى (مج٢)	لويس عوض	جمال الجزيرى و محمد الجندى
٣٠٢- أقدم لك: فنجنشتين	چون هيتون وجودى جروڤز	إمام عبد الفتاح إمام

العنوان	المؤلف	المترجم
٣٠٣- أقدم لك: بوذا	چين هوب وبورن فان لون	إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٤- أقدم لك: ماركس	ريوس	إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٥- الجلد (رواية)	كروزيو مالابارته	صلاح عبد الصبور
٣٠٦- الحماسة: النقد الكانطي للتاريخ	چان فرانسوا ليوتار	نبيل سعد
٣٠٧- أقدم لك: الشعور	ديڤيد بابينو وهوارد سلينا	محمود مكى
٣٠٨- أقدم لك: علم الوراثة	ستيف چونز وبورين فان لو	ممدوح عبد المنعم
٣٠٩- أقدم لك: الذهن والمخ	أنجوس جيلاتى وأوسكار زاريت	جمال الجزيرى
٣١٠- أقدم لك: يونج	ماجى هايد ومايكل ماكجنس	محيى الدين مزيد
٣١١- مقال فى المنهج الفلسفى	ر.ج كولنجوود	فاطمة إسماعيل
٣١٢- روح الشعب الأسود	وليم ديبويس	أسعد حليم
٣١٣- أمثال فلسطينية (شعر)	خايير بيان	محمد عبدالله الجعيدى
٣١٤- مارسيل دوشامب: الفن كعدم	چانيس مينيك	هويدا السباعى
٣١٥- جرامشى فى العالم العربى	ميشيل بروندينو والطاهر لبيب	كاميليا صبحى
٣١٦- محاكمة سقراط	أى. ف. ستون	نسيم مجلى
٣١٧- بلا غد	س. شير لايموڤا- س. زنيكين	أشرف الصباغ
٣١٨- الأدب الروسى فى السنوات العشر الأخيرة	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٣١٩- صور دريدا	جايترى سبيڤاك وكرستوفر نوريس	حسام نايل
٣٢٠- لمعة السراج لحضرة التاج	مؤلف مجهول	محمد علاء الدين منصور
٣٢١- تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج٢، جـ١)	ليڤى برو ڤنسال	بإشراف: صلاح فضل
٣٢٢- وجهات نظر حديثة فى تاريخ الفن الغربى	دبليو بوچين كلينباور	خالد مفلح حمزة
٣٢٣- فن الساتورا	تراث يونانى قديم	هانم محمد فوزى
٣٢٤- اللعب بالنار (رواية)	أشرف أسدى	محمود علاوى
٣٢٥- عالم الآثار (رواية)	فيليب بوسان	كرستين يوسف
٣٢٦- المعرفة والمصلحة	يورجين هابرماس	حسن صقر
٣٢٧- مختارات شعرية مترجمة (جـ١)	نخبة	توفيق على منصور
٣٢٨- يوسف وزليخا (شعر)	نور الدين عبد الرحمن الجامى	عبد العزيز بقوش
٣٢٩- رسائل عيد الميلاد (شعر)	تد هيوز	محمد عيد إبراهيم
٣٣٠- كل شىء عن التمثيل الصامت	مارڤن شبرد	سامى صلاح
٣٣١- عندما جاء السردين وقصص أخرى	ستيفن جراى	سامية دياب
٣٣٢- شهر العسل وقصص أخرى	نخبة	على إبراهيم منوفى
٣٣٣- الإسلام فى بريطانيا من ١٥٥٨-١٦٨٥	نبيل مطر	بكر عباس
٣٣٤- لقطات من المستقبل	آرثر كلارك	مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣٥- عصر الشك: دراسات عن الرواية	ناتالى ساروت	فتحى العشرى
٣٣٦- متون الأهرام	نصوص مصرية قديمة	حسن صابر
٣٣٧- فلسفة الولاء	چوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٣٣٨- نظرات حائرة وقصص أخرى	نخبة	جلال الحفناوى
٣٣٩- تاريخ الأدب فى إيران (جـ٣)	إدوارد براون	محمد علاء الدين منصور
٣٤٠- اضطراب فى الشرق الأوسط	بيرش بيربروجلو	فخرى لبيب

٣٤١- قصائد من رلكه (شعر) راينر ماريا ريلكه حسن حلمى
٣٤٢- سلامان وأبسال (شعر) نور الدين عبدالرحمن الجامى عبد العزيز بقوش
٣٤٣- العالم البرجوازى الزائل (رواية) نادين جورديمر سمير عبد ربه
٣٤٤- الموت فى الشمس (رواية) بيتر بالانجيو سمير عبد ربه
٣٤٥- الركض خلف الزمان (شعر) يونه ندائى يوسف عبد الفتاح فرج
٣٤٦- سحر مصر رشاد رشدى جمال الجزيرى
٣٤٧- الصبية الطائشون (رواية) چان كوكتو بكر الحلو
٣٤٨- المتصوفة الأولون فى الأدب التركى (جـ١) محمد فؤاد كوبريلى عبدالله أحمد إبراهيم
٣٤٩- دليل القارئ إلى الثقافة الجادة أرثر والدهورن وآخرون أحمد عمر شاهين
٣٥٠- بانوراما الحياة السياحية مجموعة من المؤلفين عطية شحاتة
٣٥١- مبادئ المنطق چوزايا رويس أحمد الانصارى
٣٥٢- قصائد من كفافيس قسطنطين كفافيس نعيم عطية
٣٥٣- الفن الإسلامى فى الأندلس: الزخرفة الهندسية باسيليو بابون مالدونادو على إبراهيم منوفى
٣٥٤- الفن الإسلامى فى الأندلس: الزخرفة النباتية باسيليو بابون مالدونادو على إبراهيم منوفى
٣٥٥- التيارات السياسية فى إيران المعاصرة حچت مرتجى محمود علاوى
٣٥٦- الميراث المر بول سالم بدر الرفاعى
٣٥٧- متون هرمس تيموثى فريك وبيتر غاندى عمر الفاروق عمر
٣٥٨- أمثال الهوسا العامية نخبة مصطفى حجازى السيد
٣٥٩- محاورة بارمنيدس أفلاطون حبيب الشارونى
٣٦٠- أنثروبولوچيا اللغة أندريه چاكوب ونويلا باركان ليلى الشربينى
٣٦١- التصحر: التهديد والمجابهة آلان جرينجر عاطف معتمد وآمال شاور
٣٦٢- تلميذ بابنبرج (رواية) هاينرش شبورل سيد أحمد فتح الله
٣٦٣- حركات التحرير الأفريقية ريتشارد چيبسون صبرى محمد حسن
٣٦٤- حداثة شكسبير إسماعيل سراج الدين نجلاء أبو عجاج
٣٦٥- سأم باريس (شعر) شارل بودلير محمد أحمد حمد
٣٦٦- نساء يركضن مع الذئاب كلاريسا بنكولا مصطفى محمود محمد
٣٦٧- القلم الجرىء مجموعة من المؤلفين البرّاق عبدالهادى رضا
٣٦٨- المصطلح السردى: معجم مصطلحات چيرالد برنس عابد خزندار
٣٦٩- المرأة فى أدب نجيب محفوظ فوزية العشماوى فوزية العشماوى
٣٧٠- الفن والحياة فى مصر الفرعونية كليرلا لويت فاطمة عبدالله محمود
٣٧١- المتصوفة الأولون فى الأدب التركى (جـ٢) محمد فؤاد كوبريلى عبدالله أحمد إبراهيم
٣٧٢- عاش الشباب (رواية) وانغ مينغ وحيد السعيد عبدالحميد
٣٧٣- كيف تعد رسالة دكتوراه أومبرتو إيكو على إبراهيم منوفى
٣٧٤- اليوم السادس (رواية) أندريه شديد حمادة إبراهيم
٣٧٥- الخلود (رواية) ميلان كونديرا خالد أبو اليزيد
٣٧٦- الغضب وأحلام السنين (مسرحيات) چان أنوى وآخرون إدوار الخراط
٣٧٧- تاريخ الأدب فى إيران (جـ٤) إدوارد براون محمد علاء الدين منصور
٣٧٨- المسافر (شعر) محمد إقبال يوسف عبدالفتاح فرج

٣٧٩- ملك فى الحديقة (رواية)	سنيل باث	جمال عبدالرحمن
٣٨٠- حديث عن الخسارة	جونتر جراس	شيرين عبدالسلام
٣٨١- أساسيات اللغة	ر. ل. تراسك	رانيا إبراهيم يوسف
٣٨٢- تاريخ طبرستان	بهاء الدين محمد اسفنديار	أحمد محمد نادى
٣٨٣- هدية الحجاز (شعر)	محمد إقبال	سمير عبدالحميد إبراهيم
٣٨٤- القصص التى يحكيها الأطفال	سوزان إنجيل	إيزابيل كمال
٣٨٥- مشترى العشق (رواية)	محمد على بهزادراد	يوسف عبدالفتاح فرج
٣٨٦- دفاعًا عن التاريخ الأدبى النسوى	جانيت تود	ريهام حسين إبراهيم
٣٨٧- أغنيات وسوناتات (شعر)	چون دن	بهاء چاهين
٣٨٨- مواعظ سعدى الشيرازى (شعر)	سعدى الشيرازى	محمد علاء الدين منصور
٣٨٩- تفاهم وقصص أخرى	نخبة	سمير عبدالحميد إبراهيم
٣٩٠- الأرشيفات والمدن الكبرى	إم. فى. روبرتس	عثمان مصطفى عثمان
٣٩١- الحافلة الليلكية (رواية)	مايف بينشى	منى الدروبى
٣٩٢- مقامات ورسائل أندلسية	فرناندو دى لاجرانجا	عبداللطيف عبدالحليم
٣٩٣- فى قلب الشرق	ندوة لويس ماسينيون	زينب محمود الخضيرى
٣٩٤- القوى الأربع الأساسية فى الكون	پول ديڤيز	هاشم أحمد محمد
٣٩٥- آلام سياوش (رواية)	إسماعيل فصيح	سليم عبد الأمير حمدان
٣٩٦- السافاك	تقى نجارى راد	محمود علاوى
٣٩٧- أقدم لك: نيتشه	لورانس جين وكيتى شين	إمام عبدالفتاح إمام
٣٩٨- أقدم لك: سارتر	فيليپ تودى وهوارد ريد	إمام عبدالفتاح إمام
٣٩٩- أقدم لك: كامى	ديڤيد ميروفتش وآلن كوركس	إمام عبدالفتاح إمام
٤٠٠- مومو (رواية)	ميشائيل إنده	باهر الجوهرى
٤٠١- أقدم لك: علم الرياضيات	زياودن ساردر وآخرون	ممدوح عبد المنعم
٤٠٢- أقدم لك: ستيفن هوكنج	ج. ب. ماك إيفوى وأوسكار زاريت	ممدوح عبدالمنعم
٤٠٣- ربة المطر والملابس تصنع الناس (روايتان)	تودور شتورم وجوتفرد كولر	عماد حسن بكر
٤٠٤- تعويذة الحسى	ديڤيد إبرام	ظبية خميس
٤٠٥- إيزابيل (رواية)	أندريه جيد	حمادة إبراهيم
٤٠٦- المستعربون الإسبان فى القرن ١٩	مانويلا مانتاناريس	جمال عبد الرحمن
٤٠٧- الأدب الإسبانى المعاصر بأقلام كتابه	مجموعة من المؤلفين	طلعت شاهين
٤٠٨- معجم تاريخ مصر	چوان فوتشركنج	عنان الشهاوى
٤٠٩- انتصار السعادة	برتراند راسل	إلهامى عمارة
٤١٠- خلاصة القرن	كارل بوبر	الزواوى بغورة
٤١١- همس من الماضى	چينيفر أكرمان	أحمد مستجير
٤١٢- تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج٢، جـ٢)	ليڤى بروڤنسال	بإشراف: صلاح فضل
٤١٣- أغنيات المنفى (شعر)	ناظم حكمت	محمد البخارى
٤١٤- الجمهورية العالمية للآداب	باسكال كازانوڤا	أمل الصبان
٤١٥- صورة كوكب (مسرحية)	فريدريش دورينمات	أحمد كامل عبدالرحيم
٤١٦- مبادئ النقد الأدبى والعلم والشعر	أ. أ. رتشاردز	محمد مصطفى بدوى

٤١٧- تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٥)	رينيه ويليك	مجاهد عبدالمنعم مجاهد
٤١٨- سياسات الزمر الحاكمة فى مصر العثمانية	چين هاثواى	عبد الرحمن الشيخ
٤١٩- العصر الذهبى للإسكندرية	چون مارلو	نسيم مجلى
٤٢٠- مكرو ميجاس (قصة فلسفية)	ڤولتير	الطيب بن رجب
٤٢١- الولاء والقيادة فى المجتمع الإسلامى الأول	روى متحدة	أشرف كيلانى
٤٢٢- رحلة لاستكشاف أفريقيا (جـ١)	ثلاثة من الرحالة	عبدالله عبدالرازق إبراهيم
٤٢٣- إسراءات الرجل الطيف	نخبة	وحيد النقاش
٤٢٤- لوائح الحق ولوامع العشق (شعر)	نور الدين عبدالرحمن الجامى	محمد علاء الدين منصور
٤٢٥- من طاووس إلى فرح	محمود طلوعى	محمود علاوى
٤٢٦- الخفافيش وقصص أخرى	نخبة	محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٢٧- بانديراس الطاغية (رواية)	باى إنكلان	ثريا شلبى
٤٢٨- الخزانة الخفية	محمد هوتك بن داود خان	محمد أمان صافى
٤٢٩- أقدم لك: هيجل	ليود سبنسر وأندزجى كروز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٠- أقدم لك: كانط	كرستوفر وانت وأندزجى كليموفسكى	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣١- أقدم لك: فوكو	كريس هوروكس وزوران جفتيك	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٢- أقدم لك: ماكياڤللى	پاتريك كيرى وأوسكار زاريت	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٣- أقدم لك: جويس	ديڤيد نوريس وكارل فلنت	حمدى الجابرى
٤٣٤- أقدم لك: الرومانسية	دونكان هيث وچودى بورهام	عصام حجازى
٤٣٥- توجهات ما بعد الحداثة	نيكولاس زربرج	ناجى رشوان
٤٣٦- تاريخ الفلسفة (مج١)	فردريك كوبلستون	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٧- رحالة هندى فى بلاد الشرق العربى	شبلى النعمانى	جلال الحفناوى
٤٣٨- بطلات وضحايا	إيمان ضياء الدين بيبرس	عايدة سيف الدولة
٤٣٩- موت المرابى (رواية)	صدر الدين عينى	محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٤٠- قواعد اللهجات العربية الحديثة	كرستن بروستاد	محمد طارق الشرقاوى
٤٤١- رب الأشياء الصغيرة (رواية)	أرونداتى روى	فخرى لبيب
٤٤٢- حتشبسوت: المرأة الفرعونية	فوزية أسعد	ماهر جويجاتى
٤٤٣- اللغة العربية: تاريخها ومستوياتها وتأثيرها	كيس فرستيغ	محمد طارق الشرقاوى
٤٤٤- أمريكا اللاتينية: الثقافات القديمة	لاوريت سيجورنه	صالح علمانى
٤٤٥- حول وزن الشعر	پرويز ناتل خانلرى	محمد محمد يونس
٤٤٦- التحالف الأسود	ألكسندر كوكبرن وجيفرى سانت كلير	أحمد محمود
٤٤٧- ملحمة السيِّد	تراث شعبى إسبانى	الطاهر أحمد مكى

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٢١٢٧١ / ٢٠٠٥

«تم تصوير وطبع هذا الكتاب من نسخة مطبوعة»